

سلسلة :

مواقف عربية خالدة

(3)

قصص وحكايات

إعداد

دكتور . رجب محمود إبراهيم بخيت

المقدمة :

الحمد لله القديم بلا غاية والباقي بلا نهاية الذي علا في دنوه ودنا في علوه فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ولا يؤوده حفظ ما خلق ولم يخلقه على مثال سبق بل أنشأه ابتداءً وعدله اصطناعاً فأحسن كل شيء خلقه وتمم مشيئته وأوضح حكمته فدل على ألوهيته فسبحانه لا معقب لحكمه ولا دافع لقضائه تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لسلطانه ووسع كل شيء فضله لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلهها تقدست أسماؤه وعظمت آلاؤه وعلا عن صفات كل مخلوق وتنزه عن شبيهه كل مصنوع فلا تبلغه الأوهام ولا تحيط به العقول ولا الأفهام يعصى فيحلم ويدعى فيسمع ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون وأشهد شهادة حق وقول صدق بإخلاص نية وصحة طويلة أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه وخالسته وصفيه ابتعثه إلى خلقه بالبينّة والهدى ودين الحق فبلغ مآلكته ونصح لأمته وجاهد في سبيل الله لا تأخذه في الحق لومة لائم ولا يصدده عنه زعم زاعم ماضياً على سنته موفياً على قصده حتى أتاه اليقين فصلّى الله على محمد وعلى آل محمد .

أما بعد

فللخير في الأمة الإسلامية باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فمهما ضعفت الأمة، ومهما تأخرت عن مكانها اللائق بها باعتبارها خير أمة أخرجت للناس، ومهما عظمت المؤامرة عليها وتنوعت أدواتها، إلا أنها تبقى أمة خصبة، تنبت الأعلام العظماء، يكونون فيها كالمصابيح في الدجى، وتظل مواقف مواقف عزة وفخر لهم وللأمة الإسلامية كلها.

ونحن المسلمون إذا تصفحنا مواقف تاريخنا المديد نجد أعلاماً للأمة في كل العلوم والآداب في الذود عن الحق والوقوف في وجه الباطل وفي اللغة والفقه والحديث و..... وكلها آيات رائعة يفوح منها الشذى العاطر، وتؤكد بقاء هؤلاء الأعلام بيننا بعلمهم وعملهم وذكرهم العطرة ، فقد وعت ذاكرة التاريخ أمثلة رائعة من مواقف مشوقة لأعلام الأمة.

إن هذه الأمة أمة عظيمة، أمة كريمة مجيدة، ما شهد التاريخ مثلها، وما عرف المخاض مولوداً أكرم على الله منها، أمة تغفو ولكنها لا تنام، قد تمرض ولكنها لا تموت، أمة أنجبت للعالم أعلاماً في كل فن من الفنون وكل أنواع من أنواع المعارف الإنسانية وأخرجت للكون أبطالاً شرفاء، ولنا اليوم وقفة مع أشهر المواقف في حياة الأمة لنقلب الصفحات ولنلمس العبر والعظات.

اقرأوا التاريخ إذ فيه العبر... ضل قوم ليس يدرون الخبر

و هؤلاء الأعلام بعلمهم وعملهم أحياء وإن وسدوا في قبورهم، وإن واراهاهم التراب، وإن فقدت شخوصهم، إلا أنهم أحياء بعلمهم وبتراثهم، ومواقفهم، بجهودهم، وبآرائهم، وباجتهاداتهم، وبأعمالهم التي كلما ذكرت ذكروا، فأثنى الناس عليهم خيراً، وترحموا عليهم، بل وكرهوا البقاء بعدهم.
عفاءً على أرض تقيم بغيرها فليس بها للصالحين معرج
لمن تستجد الأرض بعدك زينة فتصبح في أثوابها تتبهرج
وليس البكا أن تسفح العين إنما أحر البكائين البكاء المولج

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: القلوب أوعية فخيرها أوعاها للعلم، احفظ ما أقول لك: الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجا، وهمج رعاع، أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال.... مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة... أولئك هم الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً، بهم يحفظ الله الحجة حتى يؤدونها إلى نظرائهم، ويزرعونها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فاستلنوا ما استوعر المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة في المحل الأعلى، آه.. آه.. شوقاً إلى رؤيتهم، وأستغفر الله لي ولك).

وهذه صفحات من حياة الأمة أودعتها مواقفاً من حياة الأعلام في مختلف المجالات، ونتفأ مواقف أعلام الفقه والحديث والقضاء والأدب واللغة،

ونادراً من ثبات أكثر أهل الملة، ونبذاً من نصح الأمة لدينها، وشذراً من زهد
العلية الأجلّة، وطيفاً من قوة البرهان والحجة مع السير على المحجة.
وهي باقة من مكارم الآباء تهدي إلى الأبناء، وطاقت علمية نادرة،
وعبقریات فذة مدهشة، هي لأهل العلم تذكرة، وللعمامة والخاصة تبصرة،
نرجو أن ينعش بها العليل، ويشحذ بها الكلّيل، ويُبعث الوسنان، ويُوَقَّظ
الهاجع، ويُنشر المطوي، ويُفتح المغلق، وينهض المقعد، ويمشي الكسيح.

أضعها بين أيديكم كالمائدة تختلف عليها أصناف الأطعمة لاختلاف شهوات
الآكلين، وأنا لا أدعي -معاذ الله- أني أتيت فيها بجديد، ولكني -بفضل الله
وحده - جمعتها من بطون الكتب لتكون بين أيديكم لعل الله عز وجل أن ينفع
بها .
وأسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا العمل وأن يتقبله مني ويثيبني عليه .

رب تقبل عملي ولا تخيب أمني
أصلح أموري كلها قبل حلول الأجل
سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.
وصلّى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه
رجب محمود إبراهيم بخيت

فأين المهرب

ركب النعمان بن أمري القيس بن عمرو الأكبر حتى أشرف على الخورنق وهو الذي بناه فلما نظر إلى ما حوله وكان في فصل الربيع وقد أخذت الأرض زينتها فرح طرفه مليا فيما حوله وكان معجبا بالشقائق التي يقال لها شقائق النعمان ومن أجل إعجابه بها وتتبعه لها في الرياض نسبت إليه قال وكان هناك روضة شقائق فلما تأملها ورأى حسن تنضد الشقيق في منابته وقنوق حمرة وخضرة سوقه وميسه وهبوب النسيم عليه وتناثر القطر في أرجائه ارتاح قلبه إليه فأمر أن يبسط له بازاء تلك الروضة بساط وشى من الحرير المخمل فكان البساط كأنه روضة مختلفة بأصناف النوار وضربت عليه قبة من الديباج الأحمر منضدة من الحشايا بما يضاهيها ويجانسها في لونها ولبس من ثياب الحرير افضل ما عنده ثم جلس في تلك القبة مواجه لتلك الروضة وعنده أكابر قواده وخواص مملكته ووجوه رعيته وفيهم عدي بن زيد قال فأعجب الملك بما هو فيه فقال لجلسائه هل رأيتم مثل ما أنا فيه أو علمتم أن أحدا أوتي مثل ما أوتيت قالوا لا أيها الملك ما رأينا مثلك وعدي بن زيد ساكت لا يتكلم فنظر إليه الملك مستدعيا لكلامه فقال عدي أيها الملك إن أذنت لي تكلمت فقال تكلم قال رأيتم ما جمعت أشيء هو لك لم يزل أم شيء كان لمن كان قبلك زال عنه وصار إليك قال بلى كان لمن كان قبلي ثم صار إلي قال أفيزول عنك إلي غيرك أم يبقى إليك قال بلى يزول عني ويصير إلي غيري قال فأراك أيها الملك سررت بشيء تذهب عنك لذته ويبقى عليك تبعته تكون فيه قليلا وترتهن فيه طويلا قال فبكى النعمان وقال له يا عدي فأين المهرب قال أحد أمرين الأول أن تقيم في ملكك وتعمل بطاعة ربك على ما سررك وساءك والثاني أن تضع تاجك وتخلع أطمارك وتلبس أمساحك ثم تلحق ببعض الجبال وحدك تعبد ربك حتى يأتيك أجلك قال إذا فعلت ذلك فمالي عنده قال حياة لاتموت وشباب لا يهرم وصحة لاتسقم وملك جديد لا يبلى قال وكل ما أرى إلى فناء وزوال قال نعم قال فأني خير فيما يفنى ويزول ثم إنه ركب من موضعه وسار طالبا قصره وإلى جانبه عدي بن زيد فأتوا على مقبرة فقال عدي أتدري ما تقول هذه المقبرة أيها الملك قال لا قال إنها تقول

أيها الركب المحثون ** على الأرض المجدون

كما أنتم كذا كنا ** كما نحن تصيرون

قال ثم ساروا فمروا بشجرات متناوحات عند عين جارية فقال عدي أيها الملك أتدري ما تقول هذه الشرجات قال لا قال إنها تقول :

(من رآنا فليحدث نفسه ** أنه موف على قرن زوال)

(وصروف الدهر لايبقى لها ** ولما تأتي به صم الجبال)

(رب ركب قد أناخوا حولنا ** يشربون الخمر بالماء الزلال)

(عمروا دهرا بعيش حسن ** أفن ربي دهرهم غير عجال)

(ثم أضخوا عصف الدهر بهم ** وكذاك الدهر حالا بعد حال)

فلما انتهى الملك إلى قصره التفت إلى عدي وقال قد علمت أن المقبرة والشجرات لا يتكلمن وإنما قصدت بذلك عظتي وقد حصلت الموعدة فإذا كان السحر أحضر عندي فإن عندي خيرا حتى أطلعك عليه فلما كان وقت السحر حضر عنده عدي فوجده قد لبس مسوح الشعر وأخذ أهبة السياحة فودع عديا ثم ارتقى إلى جبل فلم يزل هناك يعبد ربه حتى لحق به رحمه الله تعالى⁽¹⁾

دارا تخرب وصاحبها يموت

روى نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم قال كان فيمن سلف ملك دان له الناس فلما أعجب بملكه قال لوزرائه وقهارمته ابنوا لي دارا لا يكون فيها عيب ففعلوا ذلك قال اتخذوا لي فيها طعاما لا يكون فيه عيب ففعلوا ذلك وأمر أن يدعى الناس إلى طعامه في تلك الدار ثم أقعد بالباب رجلين وأمرهما أن يسألا كل من خرج من الدار هل رأى فيها عيبا أو في الطعام قال فمر بهما رجلان عليهما ثياب الشعر فسألاهما فقالا نعم رأينا في الدار عيبين قبيحين قال وما هما قالا رأينا دارا تخرب وصاحبها يموت فمضيا وأخبر الملك بما قالا فأحضرهما وسألهما فذكرا له ذلك فأطرق الملك ساعة ثم قال لهما فهل تعرفان دارا لا تخرب ولا يموت صاحبها قال نعم قال وأين هي فقالا هي دار الله تعالى ربنا وربك وهي الجنة التي يدوم نعيمها ولا يزول ملكها قال فصفها لي فوصفاها له قال وبأي شيء تنال هذه الدار فقالا بعبادة الله تعالى والانقطاع

¹ (عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر بن عبد الرحمن الشيزري ، المنهج المسلوك في سياسة الملوك ، ص 697- 703

إليه قال وكيف تكون العبادة فشرحا له الدين فوقع في قلبه أنه الحق فقال لهما أقيما عندي هذه الليلة حتى أنظر فيما ذكرتماه لي فإن أقمت في ملكي جعلتكما وزيرين لا أعصيكما وإن خرجت منه تبعتكما على أمركما ثم قام فدخل على ابنه له وكانت عاقلة فهمة فقص ما ذكراه له وأخبرهما أنه تارك لملكه وخارج معهما فقالت يا أبتى تنجي نفسك وتتركني أهلك قال يا بنية أنت عورة فكيف أصنع بك فقالت إني أكف شخصي فلا يعلم أحد أذكر أنا أم أنتى قال فاخلعي ثيابك واحترمي ففعلت ذلك وخرجت مع أبيها إلى الرجلين فقال لهما سيروا بنا ما دام علينا ظلام الليل وهذا ولدي معي فساروا حتى قطعوا المدينة وخرجوا منها ثم ساروا حتى جاوزوا مملكة ذلك الملك ثم ساروا حتى بلغوا إلى دير فقالا له هذا موضعنا الذي نعبد ربنا فيه فدخلوا إليه جميعا فأقام عندهما مدة طويلة يتعلم منهما الدين وأحكام الشريعة ثم تجهز للخروج عنهما فقالا له ما شأنك هل آذاك أحد منا قال لا ولكني أراكما تكرمانني لما كنت فيه من الملك فأريد أن آتي موضعا لا أعرف فيه فأكون في غمار الناس فتركاه ومضى حتى أتى ديرا كبيرا كثير الأهل فيه مساكن كثيرة فقال هل من منزل فقيل له ادخل فدخل واختار مسكنا فكان هو وابنته يعبدان الله تعالى فيه وكان لأهل ذلك الدير مزرعة وعلى كل رجل من سكان الدير حراستها سنة كاملة فبلغت النوبة إلى الشيخ وكان مريضا فقيل له في ذلك فقال إن عذري واضح فقالت له ابنته يا ابت انا أخرج عنك فخرجت إلى المزرعة وهي مستترة فما كان يراها الناس إلا قائمة تصلي أو في أمر هي به مغتبطة قال وكان بقربهم دير صغير ينسب إلى رجل بعينه وكانت له ابنة جميلة فجاءت تلك الابنة فاتصلت بها وهي تظن أنها غلام فجعلت تعرض عليها نفسها وجعلت تلك تعتصم بها من شرها فلما رأت الجارية أنها لا تفعل قالت والله لا هلكنك ولا هلكن أباك ثم أنها ذهبت إلى راعي فأمكنن نفسها منه فحملت فلما عظم بطنها قال لها أبوها ما هذا قالت إني كنت عند ولد الشيخ مطمئنة إليه لما رأيت من كثرة عبادته واجتهاده وكان هذا منه فجاء أبوها وأهل ديره فأخبروا أهل ذلك الدير الكبير بذلك وقالوا لا ينبغي أن يكون هذا الشيخ وولده عندكم وهموا بإخراجه إلا أنه لشدة مرضه لم يقدرُوا على ذلك ثم توفي الشيخ مكانه فلم يأخذوا في جهازه فقال علماءهم إنه لا ذنب له فاغسلوه وكفنوه وادفنوه واطردوا ابنه فلا يدخل ديركم ففعلوا ذلك فقال دعوني ابني لي بيتا في الصحراء أحرس نفسي فيه من السباع فبنت لها بيتا فكانت فيه تعبد الله تعالى وتزور قبر أبيها حتى كانت ليلة من الليالي مر بها رجل من أهل الدير فإذا باب بيتها مفتوح فناداه يا فتى فأجابته بصوت ضعيف

فقال أحسبك مريضا قال نعم قال فهل لك حاجة قال نعم إذا انا مت فلا تكشفوني ولا تنزعوني أثوابي واغسلوني فيها وادفوني إلى قبر أبي فقد حفرت إلى جانبه قبرا ثم أصبحوا فإذا قائل يقول مات الفتى ولد الشيخ فقال علماؤهم لا نغير سنتنا أبعثوا إليه من يغسله مجردا من ثيابه ثم كفنوه وادفنوه إلى جانب قبر أبيه كما أوصى قال فلما جاء الرجال فكشفوا عنها ليغسلوها فوجدوها امرأة فغطوها وتنادوا في الدير إن الذي طردتموه إنما هو امرأة فابعثوا إليها النساء فغسلوها فلما جهزوها حشدوا إلى الصلاة عليها جميع من في تلك الأرض ثم دفنوها إلى جانب قبر أبيها قال عبد الله بن عمر فلقد كان أهل تلك الناحية إذا قحطوا جاؤوا إلى قبريهما فاستقوا الله تعالى فيسقون والله سبحانه وتعالى أعلم⁽²⁾

استمع ما تقول هذه الشعرة

حكي أن ملكا من اليونان قام من منامه في بعض الغدوات فأتته القيمة على ملابسه بثيابه فلبسها ثم ناولته المرأة فنظر فيها وجهه فرأى في لحيته شعرة بيضاء فقال لها هات المقرض فأتته به فقصها فتناولتها الجارية وكانت حكيمة لببية عاقلة فوضعتها في كفها وأصغت إليها بأذنها والملك ينظر إليها فقال ما هذا الذي تصنعين قالت استمع ما تقول هذه الشعرة التي عظم مصابها بمفارقة الكرامة لما سخطها الملك فأقصاها فقال الملك وما الذي سمعت من قولها فقالت زعم قلبي أنه سمعها تقول كلاما لا يجترىء عليه لساني خوفا من سطوة الملك فقال لها الملك قل لي ما شئت آمنة إن لزمتم قانون الحكمة فقالت إنها تقول أيها المسلط إلى أمد قصير إني كنت قد علمت منك البطش بي والاعتداء علي إذا ظهرت على ظاهر بشرتك فلم أظهر في وقتي هذا حتى عهدت إلى أخواتي من بعدي في الأخذ بثأري منك أما باستيصالك وأما بتنقيص لذتك وتنقيص قوتك حتى تعد الموت راحة لك قال فقال لها الملك اكتبي كلامك فكتبته له في لوح فجعل يتدبره ساعة ثم نهض مبادرا فأتى هيكلهم فنزع عنه تاجه وثياب الملوك وتزيا بزي النساءك وبلغ ذلك أهل مملكته فبادروا إليه وطالبوه بأن يعود إلى ملكه وتدبيره فامتنع عليهم وسألهم إقالاته وتمليك غيره فامتنعوا عليه وهموا بأخذه قهرا فاصطلح أهل الهيكل معهم على أن يتركوه في الهيكل يعبد ربه ويستنيب غيره فيما يستتاب في مثله من الأمور

⁽²⁾ عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر بن عبد الرحمن الشيزري ، المنهج المسلوك في سياسة الملوك ، ص 703- 706

ويلي هو غير ذلك من الأمور العظام بنفسه مع إقامته في الهيكل فلبث على هذا الأمر حتى قبضه الله تعالى إليه⁽³⁾

الآن علمت أن للملك والمملوك ربا لا يزول

يحكي أن ملكا من الملوك كان كافرا عاتيا متكبرا حديث السن مستحكم الغرة وكان إذا ركب لم يرفع أحد صوته إلا بالثناء عليه وكان له وزير مؤمن بالله تعالى قد أدرك بعض حوارى المسيح وهو يكتُم إيمانه ويتحين وقتا يمكن فيه دعوة الملك إلى الله تعالى فركب الملك يوما فسمع شيخا رافعا صوته لبعض شأنه فقال لبعض الأعوان خذوه فلما أخذوا ذلك الشيخ قال إن ربي الله فقال الوزير خلوا عنه فخلى عنه الأعوان فاشتد غضب الملك على الوزير ولم يمكنه الإنكار عليه في ذلك المقام فسكت ليوهم الناس أن الوزير فعل ذلك بأمره فلما عاد الملك إلى قصره أحضر الوزير وقال له ما دعاك إلى مناقضة أمري بمشهد من عبيدي فقال له الوزير إن لم يعجل الملك علي أريته وجه نصحي له وشفقتي عليه فيما أتيتك فقال الملك أرني ذلك فإني لا أعجل عليك فقال الوزير أسأل الملك أن يختبئ في مجلسه هذا خلف حجاب ويكون بحيث يرى ويسمع ما يكون مني فقعد الملك لذلك ثم إن الوزير أحضر قوسا جيدة صنعها للملك بعض خدمه وكتب الصانع اسمه عليها فأعطى القوس غلاما له وقال له إني سأحضر صانع هذه القوس فإذا حضر وحادثته فاقرا أنت اسم صاحبها جهلا حتى تعلم أنه قد سمعك ثم أكسرها وهو ينظر إليك فحضر القواس وفعل الغلام ما أمره به الوزير فلما كسر القوس لم يتمالك صانعها أن ضرب الغلام فشجه فقال الوزير أتضرب غلامي بحضرتي قال نعم لأنه كسر القوس التي هي صنعتي وعملي وهي في نهاية الجودة والحسن فلاي شيء كسرها وهو يعلم أنها صنعتي قال الوزير فلعله ما علم أنها صنعتك قال بلى إن القوس قد أخبرته أنها صنعتي قال الوزير أرأيت قوسا تخبر قال نعم إن اسمي كان مكتوبا عليها وقد قرأه وأنا أسمع ثم إن الوزير صرف الصانع والغلام ثم قال للملك قد أوضحت لك نصحي وإشفاقي عليك وذلك أنك لما أردت البطش بالشيخ أخبرك أن الله ربه فخفت عليك من ربه أن يغضب له كما غضب هذا القواس لقوسه فقال له الملك وهل للشيخ رب غيري قال الوزير ألم يره الملك شيخا والملك شاب فهل كان قبل أن يولد الملك لا رب له فقال الملك إن أبي كان ربه قال

⁽³⁾ عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر بن عبد الرحمن الشيزري ، المنهج المسلوك في سياسة

الوزير فما بال الرب هلك والمربوب بقي فسكت الملك ساعة ثم قال الآن علمت أن للملك والمملوك ربا لا يزول فهل تعرفه قال الوزير نعم أعرفه قال صفه لي ودلني عليه فشرع الوزير يشرح له صفات الخالق وأوضح له الدلالة على ذلك فانتشر صدر الملك للإيمان فأمن بالله تعالى فلما رسخ في قلبه التوحيد قال له أما لربنا خدمة نتقرب إليه بها قال إنه غني عن كل شئ قال فما أمرنا بشيء إذا فعلنا حظينا عنده قال بلى إن له وظائف أمرنا بها ورضي لنا فعلها ووعدنا عليها رضوانه والقرب منه فسأله عنها فذكر له الصلاة والصيام وغيرهما من شرائع المسيح عليه السلام فعرفها الملك وراض نفسه بها حتى صارت له طبعاً ثم قال يوماً للوزير مالك لا تدعو الناس إلى الله تعالى كما دعوتني فقال لأن الأمة ذات قلوب قسية وفهوم قسوية ونفوس عسوية ولست آمنهم على نفسي فقال الملك أنا أفعله إن لم تفعله أنت فقال الوزير ليعلم الملك أنهم إن لم تردهم هيبتة عني لم تردهم عنه وسأقيه بنفسه آيساً من النجاة فليحذرهم الملك على نفسه إن اجتروا بالقتل ثم إن الوزير أحضر وجوه أهل تلك المملكة وولاة أحكام رعاياه وأفاضلها فلما اجتمعوا في منزله قام فيهم خطيباً ثم بالدعوة إلى التوحيد فتواثبوا عليه فقتلوه ثم أتوا إلى الملك فأخبروه بما كان من وزيره فأظهره لهم الرضى بقتله فانقلبوا عنه راضين ثم إن الملك ضاق صدره على وزيره فلما كان الليل لبس مسح الشعر والتحق بالرهبان ونبذ ما كان فيه من الملك ولم يزل يعبد الله حتى قضى نحبه⁽⁴⁾

الحسين الخليع والجارية العاشقة

قال السجستاني: أرق الرشيد ليلة، فوجه إلى الأصمعي وإلى حسين الخليع فأحضرهما وقال: عللاني وابدأ أنت يا حسين.

فقال حسين: نعم يا أمير المؤمنين؟ خرجت في بعض السنين منحدرًا إلى البصرة ممتدحاً محمد بن سليمان الزينبي بقصيدتي، فقبلها وأمرني بالمقام، فخرجت ذات يوم إلى المبرد وجعلت المهالبة طريقي فأصابني حر شديد فدنوت من باب دار كبيرة لأستسقي، فإذا أنا بجارية كأنها قضيب ينثني، واسعة العينين، زجاء الحاجبين، مفتوحة الجبين، عليها قميص جلناري ورداء عدني قد غلب شدة بياض بدنهما على حمرة قميصها، تتلألأ من تحت القميص بثديين كرمانتين وبطن كطي القباطي، وعكن كالقراطيس،

⁴ (عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر بن عبد الرحمن الشيزري ، المنهج المملوك في سياسة الملوك ، ص 709-711

لها جمة جعدة بالمسك محشوة، وهي يا أمير المؤمنين متقلدة خرزاً من الذهب والجوهر، يزهو بين نهديها وعلى صحن جنبها طرة كالسبح وحاجبان مقرونان وعينان نجلوان وخدان أسيلان وأنف أقتى تحته ثغر كاللؤلؤ، وأسنان كالدر، وقد غلب عليها الطيب، وهي والهة حيرى ذاهبة في الدهليز ورائحة تخطر على أكباد محييها في مشيتها، وقد خالط أصوات نعلها خلاخلها، فهي كما قال الشاعر فيها:

كل جزء منم محاسنه ... كائن من حسنهما مثلاً

فهبتها يا أمير المؤمنين، ثم دنوت منها لأسلم عليها، فإذا الدهليز والدار والشارع قد عبق بالمسك، فسلمت عليها فردت بلسان منكسر وقلب حزين حريق مسعر. فقلت لها: يا سيدتي، إني شيخ غريب أصابني عطش، أفتأمرين بشربة من ماء تؤجرين عليها؟ قالت: إليك عني يا شيخ، فإني مشغولة عن الماء وادخار الزاد.

قلت: لأي علة يا سيدتي؟ قالت: لأنني عاشقة لمن لا ينصفني، وأريد من لا يريدني، ومع ذلك فإني ممتحنة برقباء فوق رقباء.

قلت: وهل يا سيدتي على بسطة الأرض من تريدينه ولا يريذك؟ قالت: نعم، وذلك لفضل ما ركب فيه من الجمال والكمال والدلال.

قلت: وما وقوفك في هذا الدهليز؟ قالت: ههنا طريقه وهذا أوان اجتياز.

فقلت لها: يا سيدتي، فهل اجتمعتما في وقت من الأوقات ووجد حديث في هذا القرب؟ فتنفست الصعداء وأرخت دموعها على خدها كطل سقط على ورد، ثم أنشدت تقول:

وكنا كغصني بانة فوق روضة ... نشم جني اللذات في عيشة رغد

فأفرد هذا الغصن من ذاك قطع ... فيا من رأى فرداً يحن إلى فرد

قلت: يا هذه، فما بلغ من عشقك لهذا الفتى؟ قالت: أرى الشمس على حائطهم أحسب أنها هو، وربما أراه بغتة فأبهت ويهرب الدم والروح من جسدي وأبقى الأسبوع والأسبوعين بغير عقل.

فقلت لها: فاعذريني، فأنت على ما بك من الصبا وشغل البال بالهوى ونحول الجسم وضعف القوى أرى بك من اللون ورقة البشرة فكيف لو لم يمسك الهوى لكنت مفتنة في أرض بصرة.

قالت: والله قبل محبتي هذا الغلام كنت تحفة الدلال والجمال والكمال، ولقد فتننت جميع ملوك البصرة حتى فتنني هذا الغلام.

قلت: يا هذه، فما الذي فرق بينكما؟ قالت: نوابب الدهر ولحديثي وحديثه شأن من الشؤون، وذلك أني كنت قعدت في ويم نيروز، ودعوت عدة من مستظرفات البصرة من النساء الجميلات وكانت فيهن الحوراء جارية شيرا، وكان شراؤها عليه من عمان بثمانية آلاف درهم، وكانت بي والعة، فلما دخلت رمت بنفسها علي تقطعني قرصاً وعضاً، ثم خلونا نتمرن القهوة إلى أن يدرك طعامنا ويجتمع من دعونا وكانت تلاعبني وألاعبها، فتارة أنا فوقها، وتارة هي فوقي، فحملها السكر إلى أن ضربت يدها إلى تكتي فحلتها من غير زينة كانت بيننا، وأنزلت سراويل ملاعبة، فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا حبيبي فرأى ذلك فاشمأز لذلك وصدف عني صدوف المهرة العربية إذا سمعت صلاصل لجامها، فولى خارجاً، فأنا يا شيخ منذ ثلاث سنين أسأل الاجتماع به فلا ينظر إلي بطرف ولا يكتب لي بحرف ولا يكلم لي رسولاً ولا يسمع مني شيئاً.

فقلت لها: يا هذه، من العرب هو أم من العجم؟ فقالت: ويحك هو من جملة ملوك البصرة.

فقلت لها: شيخ هو أم شاب؟ فنظرت إلي شزراً وقالت: إنك أحقق، هو مثل القمر ليلة البدر، أجرد أمرد له طرة كحلك الغراب لا يعيبه شيء غير انحرافه عني.

قلت لها: ما اسمه؟ قالت: ماذا تصنع به؟ أجتهد في لقائه فأتعرف الفضل بينكما.

قالت: على شرط أن تحمل إليه رقعة.

قلت: لا أكره ذلك.

فقالت: اسمه ضمرة بن المغيرة ويكنى بأبي السخاء، وقصره بالمربد. ثم صاحت في الدار: يا جوارى، الدواة والقرطاس، وشمريت عن ساعدين كأنهما طوقان من فضة، وكتبت بعد البسملة: سدي ترك الدعاء في صدر رقعتي ينبئ عن تقصيري، ودعائي، إن دعوته، هجنة ورعونة، ولولا أن بلوغ المجهود يخرج من حد التقصير لكان لما تكلفته خادمتك من كتابة هذه الرقعة معنى مع يأسها منك لعلمها تركك الجواب.

سيدي، جد بنظرة وقت اجتيازك في الشارع إلى الدهليز تحيي بها نفساً ميتة، واخطط بخط يدك، بسطها الله بكل فضيلة، رقعة واجعلها عوضاً عن تلك الخلوات التي كانت بيننا في الليالي الخاليات التي أنت ذاكر لها.

سيدي، ألسنت لك محبة مدنفة؟ فإن رجعت إلى الآيسة كنت لك شاكراً وبعد خادمة. والسلام.

فتناولت الكتاب وخرجت فأصبحت غدوة إلى باب محمد بن سليمان فوجدت مجلساً محتفلاً بالملوك ورأيت غلاماً زان المجلس وفاق على من فيه جمالاً وبهجة، قد رفعه الأمير فوقه، فسألت عنه فإذا هو ضمرة بن المغيرة، فقلت في نفسي: يا لحقيقة حل بالمسكينة ما حل بها. ثم قمت وقصدت المربد ووقفت على باب داره، فإذا هو قد ورد في موكب فوثبت الهي وبالغت في الدعاء له وناولته الرقعة، فلما قرأها وفهم معناها قال لي: يا شيخ! قد استبدلنا بها، فهل لك أن تنظر إلى البديل؟ قلت: نعم.

فصاح في الدار أخرجوا الربداء، فإذا أنا بجارية خابوطية الكمين، ناهدة الثديين تمشي مشية مستوحل من غير وحل، فناولها الرقعة، وقال: أجيبني عنها، فلما قرأتها اصفرت وعرفت وقالت: يا شيخ أستغفر الله مما جئت به. فخرجت يا أمير المؤمنين وأنا أجر رجلي حتى أتيتها واستأذنت عليها فقالت: ما وراءك؟ فقلت: البؤس واليأس.

فقالت: ما عليك منه، فأين الله والقدر؟ ثم أمرت لي بخمسمائة دينار ثم جرت بعد أيام ببابها فوجدت غلماناً وفرساناً فدخلت فإذا أصحاب ضمرة يسألونها الرجوع إليه؟ فقالت: لا والله لا نظرت له وجهاً، فسجدت لله يا أمير المؤمنين، شماتة بضمرة ونفرته من الجارية، فأوردت علي منه رقعة فإذا فيها، بعد التسمية، سيدتي، لولا إبقائي عليك، أدام الله حياتك، لوصفت شطراً من غدرك شطر غبني عليك، وسلكت ظلامتي فيك، إذ كنت الجانية، على نفسك ونفسي والمظهرة لسوء العهد وقلة الوفاء والمؤثرة علينا غيرنا، فخالفت هواي، والله المستعان، على ما كان من سوء اختيارك والسلام. وأوقفتني على ما حمله إليها من الهدايا والتحف العظيمة فإذا هو بمقدار ثلاثين ألف دينار ثم رأيتها بعد ذلك، وقد تزوج بها ضمرة (5).

جميل والفتى العذري وحبيبته

وحكى مسرور الخادم قال: أرق الرشيد أرقاً شديداً ليلة من الليالي، فقال: يا مسرور من على الباب من الشعراء؟ فخرجت إلى الدهليز فوجدت جميل بن معمر العذري فقلت: أجب أمير المؤمنين فقال: سمعاً وطاعة. فدخلت ودخل معي إلى أن صار بين يدي هارون الرشيد فسلم بسلام الخلافة، فرد عليه وأمره بالجلوس، فقال له الرشيد: يا جميل، أعذك شيء من الأحاديث

العجيبة؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أيما أحب إليك، ما عاينته ورأيتَه أو ما سمعته ووعيته؟ فقال: بل حدثني عما عاينته ورأيتَه.

فقال: نعم يا أمير المؤمنين، أقبل علي بكلك واصغ إلي بأذنك قال: فقعد الرشيد إلى مخدة من الديباج الأحمر المزركش بالذهب، محشوة بريش النعام، فجعلها تحت فخذَه ثم مكن منها مرفقيه، وقال: هلم بحديثك. فقال: اعلم يا أمير المؤمنين، أني كنت مفتوناً بفتاة محباً لها، وكنت آلفها إذ هي سؤلي وبغيتي من الدنيا، وإن أهلها رحلوا بها لقلة المرعى، فأقمت مدة لا أراها، ثم إن الشوق أقلقني وجذبني إليها، فراودتني نفسي بالمسير إليها فلما كانت ذات ليلة من الليالي، هزني الوجد إليها، فقامت وشدت رحلي على ناقتي واعتمدت بعمتي ولبست أطماري وتقلدت بسيفي وتنكبت حجفتي، وركبت ناقتي وخرجت طالباً لها، وكنت أجد في السير، فسرت وكانت ليلة مظلمة مدلهمة، وأنا مع ذلك أكابد هبوط الأودية وصعود لجبال، أسمع زئير الأسد وعواء الذئاب، وأصوات الوحوش من كل جانب، وقد ذهل عقلي وطاش لبي، ولساني لا يفتر عن ذكر الله تعالى.

فبينما أنا أسير كذلك إذ غلبني النوم فأخذت بي الناقة على غير الطريق التي كنت فيها، وزاد علي النوم، وإذا أنا بشيء لطمني في رأسي فانتبهت فزعاً مرعوباً، وإذا بأشجار وأنهار وماء وأطيار على تلك الأغصان تترنم بلغاتها وألحانها، وشجار ذاك المرج مشتبكة بعضها ببعض، فنزلت عن ناقتي وأخذت زمامها بيدي، ولم أزل أتلطف بها إلى أن خرجت بها من تلك الأشجار إلى أرض فلاة، فأصلحت كورها، واستويت راكباً على ظهرها، ولا أدري إلى أين أذهب ولا إلى ما تسوقني الأقدار؟ فمددت نظري في تلك البرية، فلاح لي نار في صدرها فوكزت ناقتي وسرت طالباً إلى أن وصلت إلى تلك النار، فقربت نفسي منها وتأملت وإذا بخباء مضروب ورمح مركوز، وراية قائمة وخيل واقفة، وإبل سائمة، فقلت في نفسي: يوشك أن يكون لهذا الخباء شأن عظيم، فإني لا أرى في هذه البرية سواه، ثم تقدمت خلف الخباء وقلت: السلام عليكم يا أهل الخباء ورحمة الله وبركاته.

فخرج إلي من الخباء غلام من أبناء تسعة عشر، كأنه البدر إذا أشرق، والشجاعة لائحة بين عينيه، فقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا أبا العرب، إني أظنك ضالاً عن الطريق؟ فقلت: الأمر كذلك، أرشدني يرحمك الله تعالى.

فقال: يا أخا العرب إن أرضنا هذه مسبعة، وهذه الليلة مظلمة وحشة شديدة الظلمة والبرد ولا آمن عليك من الوحش أن يفترسك، فأنزل عندي على الرحب والسعة، فإذا كان الغد أرشدتك إلى الطريق.

قال: فنزلت عن ناقتي وعقلتها بفاضل زمامها ونزعت ما كان علي من أطمار، وجلست ساعة، وإذا بالشاب قد عمد إلى شاة فذبحها وإلى نار فأضرمها وأججها ثم دخل الخباء وأخرج أزاراً ناعمة ولحماً مطيباً وأقبل يقطع من اللحم ويشوي على النار ويطعمني ويتهد تارة، ويبكي تارة أخرى، ثم شهق شهقة عظيمة وبكى بكاء شديداً وأنشد يقول:

لم يبق إلا نفس خافت ... ومقلة إنسانها باهت
لم يبق في أعضائه مفصل ... إلا وفيه سقم ثابت
فدمعه جار وأحشاؤه ... توقد، إلا أنه ساكت
تبكي له أعداؤه رحمة ... يا ويح من يرثي له الشامت

قال جميل: فعند ذلك يا أمير المؤمنين علمت أن الغلام عاشق ولهان، ولا يعرف الهوى إلا من ذاق طعم الهوى، فقلت في نفسي: أنا في منزل الرجل وأتهدم عليه في السؤال؟ فردعت نفسي وأكلت من ذلك اللحم بحسب الكفاية، فلما فرغت من الأكل قام الشاب ودخل الخباء وأخرج طشتاً نظيفاً وإبريقاً حسناً ومنديلاً من الحرير أطرافه مزركشة بالذهب الأحمر وقمماً مملوءاً من الماورد الممسك. فتعجبت من ظرفه ورقة حاشيته، وقلت في نفسي: ما أغرب الظرف في البادية. ثم غسلنا أيدينا وتحدثنا ساعة ثم إنه قام ودخل الخباء وقطع بيني وبينه بمقطع من الديباج الأحمر، ثم خرج وقال: ادخل يا وجه العرب وخذ مضجعتك فقد لحقتك في هذه الليلة تعب وفي سفرك هذا نصب مفرط.

قال جميل: فدخلت فإذا أنا بفراش من الديباج الأخضر، فعند ذلك نزعت ما كان علي من الثياب ونمت بليلة لم أتم عمري مثلها، فلم أزل كذلك، وأنا متفكر في أمر هذا الشاب إلى أن جن الليل ونامت العيون، فلم شعر إلا بحس خفي لم أسمع أطف منه ولا أرق حاشية، فرفعت سجاف المضرب، ونظرت فإذا أنا بصبية لم أر أحسن منها وجهاً وهي إلى جانبه، وهما يبكيان ويتشاكيان ألم الهوى والصبابة والجوى وشدة اشتياقهما إلى التلاقي، فقلت: يا الله؛ العجب من هذا الشخص الثاني، وهذا بيت فرد فإني لم أر فيه غير هذا الفتى، وليس حوله أحد، ثم قلت في نفسي: لا شك أن هذه الجارية من بنات الجن تهوى هذا الغلام، وقد تفرد بها في هذا المكان وتفردت به، فحققتها فإذا

هي أنسية عربية إذا رمقت تخجل الشمس المضيئة، وقد أضاء الخباء من نور وجهها، فلما تحققت أنها محبوبته غلبتني الغيرة على الحب، فأرخت الستر وغطيت وجهي ونمت، فلما أصبحت لبست ثيابي، وتوضأت لصلاتي، وصليت ما كان علي من الفرض، ثم قلت له: يا أبا العرب، هل لك أن ترشدني إلى الطريق، فقد تفضلت علي.

فنظر إلي وقال: على رسلك يا وجه العرب، الضيافة ثلاثة أيام وما كنت بالذي يدعك إلى ثلاثة أيام.

قال جميل: فأقمت عنده ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع جلسنا للحديث فحادثته وسألته عن اسمه ونسبه فقال: أما نسبي فأنا من بني عذرة، وأنا فلان بن فلان وعمي فلان، فإذا هو ابن عمي، يا أمير المؤمنين، وهو من أشرف بيت في بني عذرة، قال: فقلت: يا ابن العم، ما حملك على ما أراه منك من الانفراد في هذه البرية، وكيف تركت عبيدك وإماءك وانفردت بنفسك في هذا المكان؟ فلما سمع يا أمير المؤمنين كلامي، ترغرغت عيناه بالدمع ثم قال: يا بن العم إنني كنت محباً لابنة عمي، مفتوناً بها هائماً بحبها مجنوناً عليها لا أطيق الفراق عنها، فزاد عشقي لها، فخطبتها من عمي، فأبى أن يزوجهها وزوجها من رجل من بني عذرة ودخل بها وأخذها إلى المحلة التي هو فيها من العام الأول، فلما بعدت عني وحجبت عن النظر إليها حملتني لوعات الهوى وشدة الشوق والجوى على تركي أهلي ومفارقتي عشيرتي وخلاني وجميع أمتعتي، وانفردت بهذا البيت في هذه البرية وألفت وحدتي. فقلت: واين أبياتهم؟ قال: هم قريب في ذروة هذا الجبل، وفي كل ليلة عند نوم العيون وهدو من الليل تنسل من الحي سراً بحيث لا يشعر بها أحد فأقضي منها بالحديث وطراً وتقضي هي كذلك، وها أنا مقيم كذلك على هذا الحال أتسلى بها ساعة من الليل ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، أو يأتيني الأمر على رغم الحاسدين، أو يحكم الله لي، وهو خير الحاكمين.

قال جميل: فلما حدثني الغلام يا أمير المؤمنين، غمني أمره وصرت من ذلك في حيرة لما أصابني عليه من الغيرة، فقلت له: يا ابن العم، هل لك أن أدلك على حيلة أشير بها عليك، وفيها إن شاء الله عين الصلاح وسبيل الرشد والنجاح، وبها يفرج الله عليك الذي تخشاه.

فقال لي: قل يا ابن العم.

فقلت له: إذا كان الليل وجاءت الجارية فاطرحها على ناقتي، فنها سريعة الرواح، واركب أنت جوادك، وأنا أركب بعض هذه النوق وأسير بكم الليلة

جميعها. فما يصبح الصباح إلا وقد قطعت بكم براري وقفاراً وتكن قد بلغت مرادك وظفرت بمحبة قلبك، وأرض الله واسعة فضاؤها، وأنا والله مساعدك ما حييت بروحي ومالي وسيفي.
فلما سمع ذلك قال لي: يا ابن العم، حتى أشاورها في ذلك، فإنها عاقلة لبيرة بصيرة بالأمور.

قال جميل: فلما جن الليل وحان وقت مجيئها وهو منتظر الوقت لمعلوم فأبطأت عن عاداتها فرأيت الفتى، وقد خرج من باب الخباء وفتح فاه وجعل يتنسم هبوب الريح التي تهب من نحوها وأنشد يقول:
ريح الصبا تهدي إلي نسيماً ... من بلدة فيها الحبيب مقيم
يا ريح فيك من الحبيب علاقة ... أفتعلمين متى يكون قدوم
ثم دخل الخباء وقعد ساعة زمانية، وهو يبكي، ثم قال لي: يا ابن العم، إن لبنت عمي في هذه الليلة نبأ وقد حدث لها حادث وعاقها عني عائق، ثم قال ل: كن مكانك حتى آتيك بالخبر. ثم أخذ سيفه وحجفته ثم غاب عني ساعة من الليل ثم أقبل وعلى يديه شيء يحمله ثم صاح إلي فأسرعت إليه. فقال: أتدري يا ابن المم ما الخبر؟ فقلت: لا والله.

فقال: فجعت في ابنة عمي في هذه الليلة لأنها كانت توجهت إلينا كعادتها إذ عرض لها في طريقها أسد فافترسها ولم يبق منها إلا ما ترى.
ثم إنه طرح ما كان على يده. فإذا هو مشاش الجارية وما فضل من عظامها. ثم بكى بكاء شديداً ورمى الترس من يده وأخذ كساء على يده ثم قال لي: لا تبرح إلى أن آتيك إن شاء الله تعالى. ثم سار فغاب عني ساعة ثم عاد وبيده رأس الأسد فطرحه عن يده ثم طلب ماء فأتيته به فغسل فم الأسد وجعل يقبله ويبكي ويئن وزاد حزنه عليها وأنشد يقول:

ألا أيها الليث المدل بنفسه ... هلكت لقد هيجت لي بعدها شجنا
وصيرتني فرداً وقد كنت إلفها ... وصيرت بطن الأرض لي ولها وطنا
أقول لدهر خاتني بفراقها ... وغار عليها أن أكن لها حزنا
ثم قال: يا ابن العم، سلتك بالله وبحق القرابة والرحم التي بيني وبينك إلا حفظت وصيتي؟ إنك ستراني الساعة ميتاً بين يديك، فإذا كان كذلك، فغسلني وكفني أنا وهذا الفاضل من مشاش الجارية في هذا الثوب وادفنا في قبر واحد واكتب على قبرنا هذه الأبيات، وأنشد يقول:

كنا على ظهرها، والعيش في رغد ... والشمل مجتمع والدار والوطن
ففرق الدهر والتصریف ألفتنا ... وصار يجمعنا في بطنها الكفن

قال: ثم بكى بكاء شديداً. ثم دخل المضرب وغاب عني ساعة وخرج وجعل يتنهد ويصيح ثم شهق شهقة فارق الدنيا، فلما رأيت ذلك منه عظم علي وكبر عندي حتى كدت ألحق به من شدة حزني عليه، ثم تقدمت إليه وفعلت به ما أمرني من الغسل وكفنتهما جميعاً ودفنتهما في قبر واحد، وأقمت عند قبرهما ثلاث أيام ثم ارتحلت وأقمت سنين أتردد إلى زيارتهما. وهذا ما كان من حديثهما، يا أمير المؤمنين قال: فلما سمع الرشيد كلامه استحسنه وخلع عليه وأجازه جائزة حسنة، والله أعلم⁽⁶⁾.

الرشيد والرجل الأموي

من غريب ما يحكى، ما حكاه القاضي أبو الحسن التنوخي في كتاب الفرج بعد الشدة: أن منارة وكان صاحب شرطة الرشيد قال رفع إلى هارون الرشيد أن رجلاً بدمشق من بقايا بني أمية عظيم المال كثير الجاه، مطاعاً في البلد، له جماعة وأولاد ومماليك يركبون الخيل ويحملون السلاح ويغزون الروم، وأنه سمح جواد كثير البذل والضيافة، وأنه لا يؤمن منه، فعظم ذلك على الرشيد. قال منارة: وكان وقوف الرشيد على هذا، وهو بالكوفة في بعض حججه، في سنة ست وثمانين ومائة، وقد عاد من الموسم، وقد بايع للأمين والمأمون والمعتصم أولاده، فدعاني، وهو خال، وقال: إني دعوتك لأمر يهمني، وقد منعني النوم، فانظر كيف يكون؟ ثم قص علي خبر الأموي. وقال: اخرج الساعة فقد أعددت لك الخيول وأزحت علتك في الزاد والنفقة والآلة، وتضم إليك مائة غلام واسلك البرية، وهذا كتابي إلى نائب دمشق، وهذه قيود فابدأ بالرجل، فإن سمع وأجاع فقديه وجئني به، وإن عصى فتوكل عليه أنت ومن معك لنلا يهرب، وانفذ الكتاب إلى أمير دمشق ليكون مساعداً لك، واقبضاً عليه وجئني به، وأجلت لذهابك ستاً ولإيابك ستاً ويوماً لمقامك، وهذا محمل تجعله في شقة منه، إذا قيدته، وتقع أنت في الشقة الأخرى، ولا تكل حفظه إلى غيرك، حتى تأتيني به في اليوم الثالث عشر من خروجك. فإذا دخلت داره فتفقدوها وجميع ما فيها من أهله وولده وحاشيته وغلماؤه، وقدر نعمته والحال والمحل واحفظ ما يقوله الرجل حرفاً بحرف من ألفاظه منذ يقع طرفك عليه حتى تأتيني به، وإياك أن يشكل عليك شيء من أمره. انطلق.

قال منارة: فودعته وانطلقت وخرجت فركبت الإبل وسرت أطوي المنازل أسير الليل والنهار ولا أنزل إلا للجمع بين الصلاتين والبول وتنفيس النفس قليلاً إلى أن وصلت إلى دمشق في أول الليلة السابعة، وأبواب البلد مغلقة

فكرهت طروقها ليلاً فبت بظاهر البلد إلى أن فتح بابها من غد، فدخلت حتى أتيت باب الرجل، وعليها صف عظيم وحاشية كثير، فلم أستاذن ودخلت بغير إذن، فلما رأى القوم ذلك سألوا بعض من معي عني. قال: هذا منارة رسول أمير المؤمنين إلى صاحبكم.

قال: فلما صرت في صحن الدار نزلت ودخلت مجلساً رأيته فيه قوماً جلوساً فظننت أن الرجل فيهم فقاموا ورحبوا بين فقلت: أفيكم فلان؟ قالوا: نحن أولاده وهو في الحمام. فقلت: استعجلوه.

فمضى بعضهم يستعجله وأنا أتفقد الدار والأحوال والحاشية فوجدتها ماجت بأهلها موجاً كبيراً فلم أزل كذلك حتى خرج الرجل بعد أن طال مكثه واستربت منه واشتد قلقي وخوفي من أن يتوارى إلى أن رأيته شخصاً بزي الحمام يمشي في صحن الدار وحواليه جماعة كهول وأحداث وصبيان، وهم أولاده وغلمانه، فقلت: إنه الرجل، فجاء وجلس وسلم عليّ سلاماً خفيفاً وسألني عن أمير المؤمنين واستقامة أمر حضرته، فأخبرته بما وجب وما قضى كلامه حتى جاءوا بأطباق فاكهة فقال: تقدم يا منارة وكل معنا. فقلت: مالي إلى ذلك من سبيل.

فلم يعاودني فأكل هو ومن معه ثم غسل يديه ودعا بالطعام، فجاءوا إليه بمائدة حسنة لم أر مثلاً إلا للخليفة، فقال: يا منارة ساعدنا على الأكل. لا يزيد عليّ أن يدعوني باسمي كما يدعوني الخليفة، فامتنعت عليه، فما عادوني فأكل هو ومن معه، وكانوا تسعة من أولاده، فتأملت أكله في نفسه فوجدته يأكل أكل الملوك ووجدت ذلك الاضطراب الذي كان في داره قد سكن ووجدتهم لا يرفعون شيئاً من بين يديه قد وضع على المائدة لا تهياً غيره حالاً أعظم وأحسن منه. وقد كان غلمانه أخذوا لما نزلت إلى الدار مالي وغلماني وعدلوا بهم إلى دار أخرى فما أطاقوا ممانعتهم، وبقيت وحدي وليس بين يدي إلا خمس أو ست غلمان وقوف على رأسي فقلت في نفسي: هذا جبار عنيد. فإن امتنع من الشخوص لم أطق إشخاصه بنفسي ولا بمنم معي ولا حفظ إلى أن يلحقني أمير البلد، وجزعت جزعاً شديداً ورأيت منه استخفافه وتهاون به بأمري، يدعوني باسمي ولا يفكر في امتناعي من الأكل ولا يسأل عما جئت به ويأكل مطمئناً، وأنا مفكر في ذلك، فلما فرغ من أكله وغسل يديه دعا بالبخور فتبخر وقام إلى الصلاة وصلى الظهر، وأكثر من الدعاء والبتغال، ورأيت صلاته حسنة، فلما انتقل من المحراب أقبل عليّ

وقال: ما أقدمك يا منارة؟ فأخرجت كتاب أمير المؤمنين ودفعته إليه، ففضه وقرأه، فلما استتم قراءته دعا أولاده وحاشيته فاجتمع منهم خلق كثير فلم أشك أنه يريد أن يوقع بي فلما تكاملوا ابتداءً فحلف إيماناً غليظة فيها الطلاق والعناق والحج والصدقة والوقف أن لا يجتمع اثنان في موضع واحد. وأمرهم أن ينصرفوا ويدخلوا منازلهم، ولا يظهروا إلى أن ينكشف لهم أمر يعتمدون عليه. وقال: هذا كتاب أمير المؤمنين بالمضي إليه، ولست أقيم بعد نظري فيه ساعة واحدة، فاستوصوا بمن ورائي من الحريم خيراً ومالي حاجة أن يصحبني أحد منكم هات قيودك يا منارة.

فدعوت بها وكانت في سبط ومد يده فقيدته وأمرت غلماني بحمله حتى صار في المحمل وركبت في الشق الآخر، وسرت من وقتي ولم ألاق أمير البلد ولا غيره، وسرت بالرجل وليس معه أحد إلى أن صرنا بظاهر دمشق فابتداءً يحدثني بانبساط حتى انتهينا إلى بستان حسن في الغوطة، فقال لي: أترى هذا؟ قلت: نعم.

قال: إنه لي، وقال: إن فيه من غرائب الأشجار كيت وكيت. ثم انتهى إلى آخر، فقال مثل ذلك. ثم انتهى إلى مزارع حسان وقرى، فقال مثل ذلك! هذا لي، فاشتد غيظي منه، وقلت: ألسنت تعلم أن أمير المؤمنين أهمة أمرك حتى أرسل إليك من انتزعك من بين أهلك ومالك وولدك وأخرجك فريداً مقيداً مغلولاً ما تدري إلى ما تصير إليه أمرك ولا كيف يكون، وأنت فارغ القلب من هذا حتى تصف ضياعك وبساتينك بعد أن جنتك؛ وأنت لا تفكر فيما جنت به، وأنت ساكن القلب قليل التفكير. لقد كنت عندي شيخاً فاضلاً.

فقال لي مجيباً: إنا لله وإنا إليه راجعون. أخطأت فراستي فيك. لقد ظننت أنك رجل كامل العقل وأنت ما حللت من الخلفاء هذا المحل إلا لما عرفوك، فإذا عقلك وكلامك يشبه كلام العوام، والله المستعان. أما قولك في أمير المؤمنين وإزعاجه وإخراجه إياي إلى بابه على صورتني هذه، فإني على ثقة من الله عز وجل الذي بيده ناصية أمير المؤمنين، ولا يملك أمير المؤمنين لنفسه نفعاً ولا ضرراً إلا بإذن الله عز وجل، ولا ذنب لي عند أمير المؤمنين أخافه، وبعد فإذا عرف أمير المؤمنين أمري وعرف سلامتي وصلاح ناصيتي سرحني مكرماً، فإن الحسدة والأعداء رموني عنده بما ليس في وتقولوا علي الأقاويل، فإما أن يستحل دمي أو يخرج من إيدائي وإزعاجي ويردني مكرماً، أو يقيمني ببلاده معظماً مبجلأً؟ وإن كان قد سبق في علم الله عز وجل أن هذا يبدو لي منه سوء وقد اقترب أجلي وكان سفك دمي على يده، فلو اجتهدت

الملائكة والأنبياء وأهل الأرض والسماء على صرف ذلك عني ما استطاعوا، فلم أتعجل الفكرة فيما فرغ الله منه، وإني أحسن الظن بالله الذي خلق ورزق وأحيا وأمات، وإن الصبر والرضا والتسليم إلى من يملك الدنيا والآخرة أولى، وقد كنت أحسب أنك تعرف هذا فإذا قد عرفت مبلغ فهمك، فإني لا أكلمك بكلمة واحدة حتى يفرق بيننا أمير المؤمنين إن شاء الله تعالى.

ثم أعرض عنين فما سمعت منه لفظة غير القرآن والتسبيح أو طلب ماء أو حاجة حتى شارفنا الكوفة في اليوم الثالث عشرة بعد الظهر، والنجب قد استقبلتني قبل ستة فراسخ من الكوفة يتجسسون خبري، فحين رأوني رجعوا عني متقدمين بالخبر إلى أمير المؤمنين، فأنتهيت إلى الباب في آخر النهار فحططت رحلي، ودخلت على الرشيد وقبلت الأرض بين يديه ووقفت، فقال: هات ما عندك يا منارة وإياك أن تغفل منه عن لفظة واحدة.

فسقت الحديث من أوله إلى آخره حتى انتهيت إلى ذكر الفاكهة والطعام والغسل والبخور وما حدثني به نفسي من امتناعه، والغضب يظهر في وجه أمير المؤمنين ويتزايد حتى انتهيت إلى فراغ الأمور من الصلاة والتفاتته إلي وسؤاله عن سبب قدومي ودفعي الكتاب إليه ومبادرته إلى إحضار ولده وأهله وأصحابه، وحلفه عليهم أن لا يتبعه أحد وصرفه إياهم ومد رجله، فقيدته فما زال وجه الرشيد يسفر، فلما انتهيت إلى ما خاطبني به عند توبيخي له لما ركبنا في المحمل، فقال: صدق واله ما هذا إلا رجل محسود على النعمة، مكذوب عليه، ولعمري، لقد أزعجناه وأذينا ورعنا أهله فبادر بنزع قيوده وأنتني به.

قال: فخرجت فنزعت قيوده وأدخلته إلى الرشيد فما هو إلا أن رآه حتى رأيت ماء الحياء يجول في وجه الرشيد فدنا الأموي وسلم بالخلافة ووقف فرد عليه الرشيد رداً جميلاً وأمره بالجلوس فجلس، وأقبل عليه الرشيد فسأله عن حاله، ثم قال له: بلغنا عنك فضل هيئة وأمر أحببنا معها أن نراك ونسمع كلامك ونحسن إليك، فاذا كنت حاجتك؟ فأجاب الأموي جواباً جميلاً وشكر ودعا، ثم قال: ليس لي عند أمير المؤمنين إلا حاجة واحدة.

فقال: مقضية، فما هي؟ قال: يا أمير المؤمنين، تردني إلى بلدي وأهلي وولدي.

قال: نفعل ذلك، ولكن سل ما تحتاج إليه من مصالح جاهك ومعاشك فإن مثلك لا يخرج إلا ويحتاج إلى شيء من هذا.

فقال: يا أمير المؤمنين، عمالك منصوفون وقد استغنيت بعدلهم عن مسألتني فأموري مستقيمة وكذلك أهل بلدي بالعدل الشامل في ظل أمير المؤمنين. فقال الرشيد: انصرف محفوظاً إلى بلدك واكتب إلينا بأمر إن عرض لك. فودعه الأموي، فلما ولى خارجاً قال الرشيد: يا منارة، احمله من وقتك وسر به راجعاً كما سيرته حتى إذا وصلت إلى مجلسه الذي أخذته منه فودعه وانصرف.

قال منارة: فما زلت معه حتى انتهى إلى محله، ففرح به أهله وأعطاني عطاء جزيلاً وانصرفت، والله أعلم، وهذه الحكاية على سبيل الاختصار⁽⁷⁾.

الرشيد والخليفة الثاني الكاذب

حكي أن الخليفة هارون الرشيد قلق في بعض الليالي قلقاً شديداً فاستدعى بوزيره جعفر البرمكي وقال له: يا وزير إن صديقي ضيق ومرادي الليلة التفرج في شوارع بغداد والنظر في مصالح العباد بشرط أن لا يعرفنا أحد من الناس ونتزياً بزي تجار الأكياس. فقال له الوزير: السمع والطاعة.

فقاموا في الوقت والساعة وقلعوا ما عليم من ثياب الملك والافتخار ولبسوا ثياب التجار: الخليفة والوزير جعفر ومسرور السيف الأكبر، وتمشوا من مكان إلى مكان حتى وصلوا إلى الدجلة فرأوا بالأمر المقدور شيخاً قاعداً في شختور، فتقدموا إليه وسلموا عليه، وقالوا: يا شيخ، نشتهي من فضلك وإحسانك أن تفرجنا الليلة في مركبك، وخذ هذين الدينارين أجرتك انتفع بهما.

فقال لهم الشيخ: ومن يقدر على الفرجة، والخليفة هارون الرشيد ينزل كل ليلة في حراقة صغيرة إلى الدجلة ومعه مناد ينادي: يا معشر الناس كافة من جيد ورديء شيخ وصبي خاص وعام عبد و غلام، كل من نزل في مركب بالليل وشق الدجلة ضربت عنقه أو يشنق على صاري مركبه، وكأنكم الساعة بالحراقة وهي مقبلة.

فقال له الخليفة هارون الرشيد وجعفر البرمكي: يا شيخ خذ هذين الدينارين وادخل بنا قبواً من هذه الأقبية إلى أن تروح الحراقة. فقال لهم الشيخ: هاتوا الذهب والله المستعان.

فأخذ الذهب و عوم بهم قليلاً، وإذا بالحراقة قد أقبلت من كبد الدجلة وفيها الشموع والمشاعل فقل لهم الشيخ: أما قلت لكم! يا ستار لا تكشف الأستار؟

فدخل إلى قبو ووضع عليهم منيراً أسود، وصاروا يتفرجون من تحت المنزر، وإذا بالحراقة قد أقبلت والشمع يوقد فيها، وإذا في مقدم الحراقة مشاعلي بيده مشعل من الذهب الأحمر يوقد فيه بالعود القاقلي وعلى المشاعلي قباء أطلس أحمر بطراز مزركش أصفر وعلى رأسه شاش موصلي وعلى كتفيه مخلاة من الحرير الأخضر ملأى من العود القاقلي. وهو يوقد به عوض الحطب، ومشاعلي آخر في مؤخر الحراقة مثله، ومائتا مملوك واقفون ميمنة ومسيرة، وكرسي منصوب من الذهب الأحمر وعليه شاب حسن جالس كالقمر وعليه خلعة سوداء بطرازين من الذهب الأصفر، وبين يديه إنسان كأنه الوزير جعفر. وعلى رأسه خادم واقف كأنه مسرور بسيف مشهر، وعشرون نديماً. فقال الخليفة: يا جعفر.

قال: لبيك، أمير المؤمنين.

قال: لعل أن يكون هذا أحد أولادي إما المأمون أو محمد الأمين.

فلما وصلت الحراقة إليهم وإذا بالمشاعلي ينادي: معاشر الناس كافة الخاص والعام، الجيد والرديء والعبد والغلام، جهات وغير جهات قد رسم خليفتنا هذا أن كل من تفرج في الدجلة أو فتح طاقته حل ماله وضربت رقبتة ومن لا يصدق يجرب.

قال: فتأمل الخليفة هارون الرشيد في الشاب وهو جالس على كرسي من الذهب قد كمل بالحسن والجمال والبهاء والكمال فلما تأمله هارون الرشيد التفت إلى الوزير وقال: يا وزير.

قال له: لبيك يا أمير المؤمنين.

قال: والله ما أبقي شيئاً من شكل الخلافة، وهذا الذي بين يديه كأنه أنت يا جعفر لا محالة، والخادم الذي على رأسه كأنه مسرور، هذا، وهؤلاء الندماء كأنهم ندمائي، وقد حار عقلي في هذا الأمر.

فقال له الوزير: وأنا والله يا أمير المؤمنين كذلك.

ثم تقدمت الحراقة إلى أن غابت عن العين فعند ذلك خرج الشيخ بالشيخوخة الذي فيه الجماعة من تحت القبوة. وقال: الحمد لله على السلامة، فإنه لم يصادفنا.

فقال له الخليفة: يا شيخ! وهذا الخليفة ينزل كل ليلة الدجلة؟ قال: نعم يا سيدي، له على هذه الحالة سنة كاملة.

فقال له الخليفة: يا شيخ! نشتهي من فضلك وإحسانك أن تقف لنا ليلة غد في هذه المكان، ونحن نعطيك خمسة دنائير، فإننا قوم غرباء وقصدنا التنزه، ونحن نازلون في الفندق.

فقال الشيخ: السمع والطاعة.

ثم إن الخليفة وجعفرًا ومسرورًا توجهوا من عند الشيخ المراكبي إلى القصر وقلعوا ما عليهم من لبس التجار ولبسوا ثياب الملك والافتخار، وجلس كل واحد في مرتبته، ودخلت الأمراء والحجاب والنواب. وانعقد المجلس بالناس، ولما انقضى النهار وتفرقت الأجناد قال الخليفة هارون الرشيد لوزيره: يا جعفر! انهض بنا للفرجة على الخليفة الثاني.

فضحك جعفر ومسرور، ولبسوا لبس التجار وخرجوا منشرحي الصدور، وكان خروجهم من باب السر، فلما وصلوا إلى الدجلة وجدوا الشيخ صاحب الشختور لهم في الانتظار فنزلوا عنده في المركب. فلما استقروا مع الشيخ المراكبي، وإذا بالخليفة الثاني في الحراقة، وقد أقبلت عليهم فتأمولها وإذا فيها مائتا مملوك غير المماليك الأول والمشاعلية تنادي على عادتهم، فقال الخليفة: يا وزير، هذا شيء لو سمعت به ما صدقت، ولكن رأيت هذا عياناً. ثم إن الخليفة قال لصاحب الشختور: يا شيخ! هذه عشرة دنائير وسر بنا في مساواتهم، فإنهم في النور ونحن في الظلام ننظرهم ونتفرج عليهم. وهم لا ينظروننا.

فأخذ الشيخ العشرة دنائير وأطلق الشختور في مساواتهم وصار في ظلام الحراقة، ولم يزالوا سائرين في أثرهم إلى آخر البساتين، وإذا بزريرة بطول الحراقة التصقت عليها، وإذا بغلامين واقفين، ومعهما بغلة مسرجة ملجمة، فطلع الخليفة الثاني وركب البغلة وسار بين الندماء، وزعقت المشاعلية والجاويفية، واشتالت الغاشية، وطلع هارون الرشيد وجعفر ومسرور إلى البر وشقوا بين المماليك وساروا قدامهم، فلاحت من المشاعلية لتفاتة فرأوا ثلاثة أنفار لبسهم لبس التجار، وهم غرباً فأنكروهم غمزوا عليهم فمسكواهم وأحضرهم بين يدي الخليفة الثاني، فلما نظرهم قال: كيف وصلتكم إلى هذا المكان وما الذي جاء بكم في مثل هذا الوقت؟ قالوا: يا مولانا! اليوم كان قدومنا، ونحن قوم غرباء تجار، وخرجنا نتمشى الليلة، وإذا بكم قد أقبلتم وجاء هؤلاء وقبضوا علينا وأوقفونا بين أيديكم، وهذا خبرنا. فقال لهم الخليفة الثاني: طيبوا قلوبكم، فلا بأس عليكم لأنكم قوم غرباء، ولو كنتم من بغداد لضربت أعناقكم للمخالفة.

ثم التفت إلى وزيره وقال: خذ هؤلاء صحبتك ليكونوا ضيوفنا الليلة.
فقال: سمعاً وطاعة.

ثم ساروا إلى أن وصلوا إلى قصر عظيم الشأن محكم البنيان ما حواه سلطان، قصر قام من التراب وتعلق بأكتاف السحاب، بابه من خشب الساج، مرصع بالذهب الوهاج، يدخل منه إلى إيوان بفسقية وشاذروان، وحصر عبدانية ومخدرات اسكدرانية، وستر مسبول وفرش يذهل العقول، وعلى عتبة الباب مكتوب هذان البيتان:

قصر عليه تحية وسلام ... نشرت عليه جمالها الأيام
فيه العجائب والغرائب نوعت ... فتحيرت في نعتها الأقلام
قال: فدخل الخليفة الثاني إلى القصر، والجماعة في خدمته، إلى أن جلس على كرسي من الذهب مرصع بالدر والجوهر، وعلى الكرسي بشخانة من الحرير الأخضر لا يرى مثلها إلا عند كسرى وقيصر، مزركشة بالذهب الأحمر، معلقة في بكرة من الصندل، رباطاتها من الحرير الأصفر، هذا وقد جلس الندماء في مراتبهم، وصاحب سيف النعمة واقف بين يديه، فمدوا السماط وأكلوا ورفعوا الخوان، ولأيديهم غسلوا، وأحضرت آلة المدام، ووضعت الطاسات والأواني وصففت الأباريق والكاسات والقناني، ودار الدور إلى أن وصل إلى الخليفة هارون الرشيد، فامتنع من الشراب فقال الخليفة الثاني لجعفر: ما بال صاحبك لا يشرب.
فقال: يا مولاي له مدة ما شرب.

فقال الشاب: عندي مشروب غير هذا يصلح لصاحبك. علي بشراب التفاح! ففي الحال أحضر فقدم بين يدي هارون الرشيد وقال: كلما وصل إليك الدور فاشرب من هذا، ولا يزالون يشربون في انشراح وتعاطي أقداح إلى أن تمكن الشراب من رؤوسهم واستولى على عقولهم ونفوسهم فقال الرشيد لوزيره: والله يا وزير ما عندنا آنية مثل هذه الآنية، فيا ليت شعري من يكون هذا الشاب.

فبينما هما يتحدثان بلطافة إذ لاحت من الشاب التفاتة فوجد الوزير يسار الخليفة، فقال: المسارة عريضة.

فقال الوزير: ما ثم عريضة، إلا أن رفيقي هذا يقول: سافرت غالب البلاد، ونادمت الملوك وعاشت الأجناد ما رأيت أحسن من هذا النظام ولا مثل آنية هذا المدام، إلا أن أهل بغداد يقولون الشراب بلا سماع من جملة المجون.

فلما سمع الخليفة الثاني هذا الكلام تبسم وانشرح، وكان بيده قضيب، فضرب به على مدورة، وإذا بباب قد فتح وخرج منه خادم يحمل كرسيًا من العاج مصفحاً بالذهب الوهاج، وخلفه جارية قد كملت بالحسن والجمال والبهاء والكمال، فنصب الخادم الكرسي وجلست عليه الجارية وهي كالشمس الضاحية، وبيدها عود من صنعة الهنود، وشدته وحنّت إليه بعد أن ضربت أربعة وعشرين طريقة عليه، فأذهلت العقول وعادت إلى الطريقة الأولى وجعلت تقول:

لسان الهوى من مقلتي لك ناطق ... يخبر عني أنني لك عاشق
ولي شاهد من طرف قلبي معذب ... وقلبي جريح من فراقك خافق
وكم أكنم الحب الذي قد أذابني ... وقلبي جريح والدمع سوابق
وما كنت أدري قبل حبك ما الهوى ... ولكن قضا الرحمن في الخلق سابق
قال: فلما سمع الخليفة الثاني هذا الشعر من الجارية صرخ صرخة عظيمة، وشق البذلة التي كانت عليه إلى الذيل، فأسبلت عليه البشخانة، وأتى ببذلة غيرها أحسن منها، فلبسها وجلس على عادته، فلما وصل القدح إليه ضرب القضيب على المدورة وإذا بباب قد فتح وخرج منه خادم حامل كرسيًا من الذهب، وخلفه جارية أحسن من الأولى، وجلست على الكرسي وبيدها عود يكمد الحسود، وأنشدت تقول:

كيف اصطباري! ونار العشق في كبيد ... والدمع من مقلتي صوفانه مدد
والله ما طاب لي عيش أسر به ... وكيف يفرح قلب حشوه كمد
قال: فصرخ الشاب صرخة عظيمة، وشق ما عليه إلى الذيل وأسبلت عليه البشخانة على العادة وأتى ببذلة غيرها أحسن منها فلبسها، واستوى جالساً، ودار المدام وانبسط الكلام، فلما وصل القدح إليه ضرب القضيب على المدور ففتح الباب وخرج منه خادم على العادة ومعه كرسي وخلفه جارية، فجلست على الكرسي، ومعها عود يذهل الأسود فغنت، وأنشدت تقول:

اقصروا هجركم وقولا جفاكم ... ففؤادي وحقكم ما سلاككم
وارحموا مدنفاً كئيباً حزينا ... ذا غرام متيماً في هواكم
قد براه السقام من عظم وجد ... يتمنى من الإله رضاكم
يا بدور محكم في فؤادي ... كيف أختار في الأنام سواكم
قال: فصرخ الشاب وشق ما عليه من الثياب فأخوا عليه البشخانة وأتوا ببذلة غيرها، وعاد إلى حالته مع ندمائه ودارت الأقداح وطاب الانشراح، فلما

وصل القدح إليه ضرب القضيب على المدورة، ففتح باب وخرج منه خادم حامل كرسيًا وخلفه جارية فجلست على الكرسي، وأخذت العود وغنت تقول: هل ينقضي حال التهاجر والقلبي ... ويعود لي ما قد تقضى أولا أيام كنا والديار تلمنا ... في طيب عيش والحواسد غفلا غدر الزمان بنا وفرق شملنا ... من بعد هاتيك المنازل والحلا أتروم مني يا عدولي سلوة ... وأرى فؤادي لا يطيع العذلا فدع الملام وخلصني بصبابتي ... فالقلب من أنس المحبة ما خلا يا سادة نقضوا العهود وبدلوا ... لا تحسبوا قلبي لبعدكم سلا قال: فلما فرغت الجارية صرخ الشاب صرخة عظيمة، وشق ما عليه من الثياب، ووقع إلى الأرض مغشياً عليه، وسقط منه القوى والحبل، فأرادوا أن يرخوا عليه البشخانة على العادة، فتعوقت حبالها بالإرادة، فلاحت من هارون الرشيد التفاتة فنظر على أجناب الشاب أثر مقارع، فقال الرشيد بعد النظر والتأكد لجعفر: إنه شاب مليح إلا أنه لص قبيح، وما عند أحد منه خبر. هل رأيت ما على جنبه من الأثر.

وقد أسبلت البشخانة عليه على العادة وأتى ببذلة غيرها فلبسها وقد أفاق من غشيته فاستوى جالساً على العادة مع الندماء، فحانت منه التفاتة فوجد جعفرًا والخليفة يتحدثان، فقال لهما: ما الخبر يا فتیان؟ فقال جعفر: يا مولاي خير، لا شك ولا خفاء، إن رفيقي هذا من التجار الكبار، وسافر إلى جميع الأمصار، وصحب الملوك والأخبار، قال: إن الذي حصل من مولانا الخليفة في هذه الليلة إسراف عظيم لم أر أحداً فعل هذا الفعل في هذه الأقاليم لأنه شق كل بذلة بخمسائة دينار، وهذا شيء زائد في العيار. فقال الشاب: يا هذا! المال مالي والقماش قماشي، وهذا من بعض إنعامي على الخدم والحواشي، فإن كل بذلة شقققتها هي لواحد من الندماء الحضار، وقد رسمت لهم أن العوض على كل بذلة خمسمائة دينا. فأنشد عند ذلك الوزير جعفر وقال:

بنت المكارم وسط كفك منزلاً ... فجميع مالك للأنام مباح
وإذا المكارم أغلقت أبوابها ... يوماً، فأنت لقفله مفتاح
قال: فلما سمع الشاب من الوزير جعفر ذلك، رسم له بألف دينار وبذلة، ثم دارت بينهم الأقداح وطاب لهم شراب الراح، فقال الرشيد: يا جعفر، أسأله عن الضرب الذي رأيناه على جنبه حتى ننظر ما يقول في جوابه. فقال الوزير: يا مولاي لا تعجل وترفق بنفسك فالصبر أجمل.

فقال: وحياء رأسي وتربة العباس إن لم تسأله أخذت منك الأنفاس.
فعند ذلك التفت الشاب إلى الوزير وقال: مالك مع رفيقك وما الخبر؟ فقال:
خير يا مولانا.

فقال: سألتك بالله إلا ما أخبرتني بخبره، ولا تكتم عني شيئاً من أمره.
فقال: يا مولاي! إنه أبصر على جنبك أثر سياط، فتعجب من ذلك غاية العجب
وقال: يا لله العجب! الخليفة يضرب؟ وقصده يعلم ما السبب؟ فلما سمع الشاب
هذا الكلام تبسم وقال: اللهم فنعم، واعلموا أن حديثي عجيبٌ وأمرِي غريبٌ
لو كتب بالإبر على آماق البصر لكان عبرة لمن اعتبر، ثم تأوه وأن واشتكى
وبكى وأنشد:

حديثي عجيب فاق كل العجائب ... وحق إليه غامر بالمواهب
فإن شئتمو أن تسمعوا إلي فأنصتوا ... فيطرب هذا الجمع من كل جانب
وأصغوا إلى قلبي، ففيه إشارة ... وإن كلامي صادق غير كاذب
لأنني قتيل من غرام ولوعة ... وقاتلتي فاقت جميع الكواعب
لها مقلة كحلا وخذ مورد ... ويقتلني منها قسي الحواجب
وقد حس قلبي أن فيكم إمامنا ... خليفة هذا الوقت ابن الأطايب
وثانيكمو يدعي الوزير بجعفر ... وفي الحق يدعي صاحباً وابن صاحب
وثالثكم مسرور سيفاف نعمة ... فإن كان هذا القول حقاً بصائب
فقد نلت ما أرجو على كل حالة ... وجاء سرور القلب من كل جانب
قال: فعند ذلك حلف له جعفر أنهم لم يكونوا المذكورين، فضحك الشاب وقال:
الذي أعرفكم به أني ما أنا أمير المؤمنين، وإنما سميت نفسي بهذا الاسم
لأبلغ ما أريد من أبناء المدينة، واسمي علي بن محمد الجوهري، وإن أبي كان
من الأعيان، ومات وخلف لي أموالاً لا تأكلها النيران من ذهب وفضة ولؤلؤ
ومرجان وياقوت وجوهر وزمرد وبهرمان وحمامات وغيطان وبساتين
وفنادق وطواحين وعبيد وجوار وغلما، فلما كان في بعض الأيام وأنا
جالس في حانوتي وحولي الحشم والخمد، وإذا أنا بجارية قد أقبلت على بغلة
وفي خدمتها ثلاث جوار كأنهن الأقمار، ونزلت على دكاني وجلست وقالت:
أنت علي بن محمد الجوهري.

فقلت لها: مملوكك وعبد رقبك.

فقالت: هل عندك عقد جوهر يصلح لمثلي؟ فقلت: يا ستي الذي عندي يحضر
بين يديك، فإن أعجبك شيء كان بسعد المملوك، وإن لم يعجبك شيء منه
فبسوء حظي.

وكان عندي مائة عقد جوهر فعرضت عليها الجميع فلم يعجبها شيء منها،
وقالت: أريد أحسن مما رأيت؛ وكان عندي عقد صغير شراؤه على والدي
بمائة ألف دينار لم يوجد مثله عند أحد السلاطين الكبار، فقلت: يا سيدتي بقي
عندي عقد الفصوص والجواهر الذي لم يملكه أحد من الأصاغر والأكابر.
فقلت: أرني إياه.

فلما رآته قالت: هذا الذي طول عمري أتمناه. ثم قالت: بكم ثمنه في الأسعار؟
فقلت: شراؤه على والدي بمائة ألف دينار.
فقلت: ولك خمسة آلاف زائدة.

فقلت لها: يا سيدتي العقد وصاحبه في الرق بين يديك، ولا خلاف.
فقلت: لا بد من الفائدة ولك الجميلة الزائدة.

وقامت من وقتها عجلة وركبت البغلة بسرعة، وقالت: يا سيدي نور الدين،
باسم الله فلتكن في صحبتنا لتأخذ الثمن، فإن نهارك اليوم بنا مثل اللبن.
فقلت وأقفلت الدكان وسرت معهن في أمان إلى أن وصلنا إلى الدار، فوجدتها
داراً عليها السعادة لائحة والافتخار وعلى بابها مكتوب بالذهب واللازورد
العجيب هذه الأبيات:

ألا يا دار لا يدخلك حزنٌ ... ولا يغدر بصاحبك الزمان
فنعم الدار أنت لك ضيفٌ ... إذا ما ضاق بالضيف المكان
فنزلت الجارية، ودخلت الدار وأمرت بجلوسي إلى أن يأتي الصيرفي، فجلست
على باب الدار ساعة لطيفة، وإذا بجارية خرجت إلي وقالت: يا سيدي ادخل
إلى الدهليز فإن جلوسك على الباب قبيح.
فقلت إلى الدهليز وجلست على الدكة ساعة، وإذا بجارية خرجت إلي،
وقالت: يا سيدي! تقول لك سيدتي ادخل واجلس على جانب الإيوان حتى
تقبض مالك.

فقلت فدخلت وجلست حيث أمرتني، وإذا بكرسي من الذهب وعليه ستارة من
الحرير الأحمر، وإذا بتلك الستارة قد رفعت فبان من تحتها تلك الجارية التي
اشتريت مني العقد، وقد أسفرت عن وجه كأنه دائرة القمر، والعقد في عنقها
فدهش عقلي وحار ذهني ولبي من رؤية تلك الجارية وحسنها، فلما رأته
قامت من على الكرسي، وسعت نحوي، وقالت: يا نور الدين! هل رأيت جميلة
مثلي؟ فقلت: يا سيدتي الحسن كله فيك، وهو من بعض معانيك.
فقلت: يا علي، اعلم أني أحبك وما صدقت أنك صرت عندي.

ثم إنها طوقتني وعانقتني، فقبلتها وقبلتني ثم جذبتني وعلى صدرها رمتني.
فلما علمت مني أنني أريد أن أهم بها قالت: يا علي، أتريد أنن تجتمع بي في
الحرام، والله لا كان من يفعل الآثام ويرضى بقبيح الكلام، فإني بكر عذراء ما
دنا مني أحد، ولست مجهولة في البلد، أتعلم من أنا؟ فقلت: لا والله، وحلفت
لها يمينا.

فقالت: أنا الست دنيا بنت يحيى بن خالد البرمكي، وأخي جعفر.
فلما سمعت منها ذلك جمعت خاطري عنها، وقلت: يا سيدتي ما لي ذنب في
التهجم عليك، أنت التي أطمعتني في إحسانك والوصول إلى جنابك.
فقالت: لا بأس عليك ولا بد من الإحسان إليك فإن أمري بيدي، والقاضي ولي
عقدي، والقصد أن أكون لك وتكون لي.
ثم إنها دعت بالقاضي والشهود وبذلت المجهود، فلما حضروا قالت لهم: هذا
نور الدين علي بن الجوهري قد طلب زواجي ودفع لي هذا العقد مهري، وأنا
قد قبلت ورضيت.

ثم إن القاضي حمد الله تعالى وأثنى عليه وكتب الكتاب فدخلت عليها بعد أن
أعطت للقاضي شيئا ما له حساب، وأحضرت المدام وأحضرت الأقداح بأحسن
نظام، فلما لعبت الخمرة في رؤوسنا أمرت جارية عودية أن تغني فأنشأت
تقول:

قلبي وآمالي بباب رجاكمو ... لا أبتغي في الكون غير رضاكمو
يا جيرة جاروا علي ببعدهم ... حنوا علينا وارحموا مضناكمو
حاشاكمو، يا سادتي، أن تهجروا ... صبا معنى مغرماً بهواكمو
بالله جودوا وارحموا لمتيم ... لم يستمع فيكم حديث سواكمو
مرسى فوادي فوق بحر رضاكمو ... فإذا شجاه حسنكم ناجاكمو
قال: فأطربتنا الجارية بحسن غنائها ولم تزل الجواري يغنين جارية بعد
جارية وينشدن الأشعار إلى أن غنت عشر جوارٍ، فعند ذلك أخذت العود الست
دنيا وأنشدت تقول:

قسماً بلين قوامك المياس ... إني لنار الهجر منك أقاسي
فارحم لصب في هواك متيم ... يا بدر تم أنت سيد الناس
أنعم بوصلك كي أبيت بليلة ... أجلو جمالك في ضياء الكاس
ما بين ورد جمعت ألوانه ... مع نرجس أيضاً وحسن الآس
قال الشاب: ثم إني أخذت منها العود وضربت عليه وغنيت هذه الأبيات:
سبحان ربي جميع الحسن أعطاك ... حتى بقيت أنا من بعض أسراك

يا من لها ناظر تسبي الأنام به ... خذي الأمان لنا من سحر عيناك
فالماء والنار في خديك قد جمعا ... والورد جوري نبت وسط خداك
أنت الغرام لقلبي والنعيم له ... فما أمرك في قلبي وأحلاك
قال: فلما سمعت مني ما قلت فرحت فرحاً شديداً، ثم إنها صرفت الجواري
وقمنا إلى أحسن مكان قد فرش لنا فيه من سائر الألوان، ونزعت ما عليها
من الثياب وخلوت بها خلوة الأحباب، فوجدتها بنتاً بكرأً بختم ربها، ففرحت
بي وفرحت بها فرحاً لم أجد في عمري ليلة أطيب منها، وفيها أنشدت أقول:
يا ليل! دم لي لا أريد صباحاً ... يكفي بوجه معانقي مصباحاً
طوقته طوق الحمام بساعدي ... وجعلت كفي للمنام مباحاً
هذا هو الفوز العظيم فخلنا ... متعانقين، فلا نريد براحاً
فأقمت عندها شهراً كاملاً، وقد نسيْتُ الدكان والأهل والأوطان إلى ذات يوم
من الأيام قالت: يا نور الدين قد عزمت اليوم على المسير إلى الحمام، وأنت
اقعد على هذا السرير إلى أن أرجع إليك.
فقلت: سمعاً وطاعة.

وحلفتني أن لا أنتقل من موضعي، فأخذت جواريتها وذهبت إلى الحمام، فوالله
يا إخواني ما لحقت أن تخرج من رأس الزقاق، إلا والباب قد فتح ودخلت منه
عجوز وأي عجوز، وقالت: يا نور الدين الست زبيدة تدعوك، فقد سمعت
بشبابك وطيب غنائك.

فقلت: والله علي يمين أنني ما أقوم من مقامي حتى تأتي الست دنيا.
فقالت العجوز: يا نور الدين لا تخل الست زبيدة تصير عدوتك، فقم كلمها
وارجع.

فقممت من وقتي إليها والعجوز أمامي إلى أن أوصلتني إلى الست زبيدة، فلما
وصلت إليها، قالت: يا نور الدين أنت معشوق الست دنيا؟ فقلت: مملوكك
وعبد رقبك.

فقالت: صدق الذي وصفك بالحسن والجمال، فإنك فوق الوصف والمقال،
ولكن عن لي شيئاً حتى أسمعك؟ فقلت: السمع والطاعة، فأتتني بعود فغنيت
عليه وأنشدت أقول:

قلب المحب مع الأحباب متعوب ... وجسمه بيد الأسقام منهوب
ما في الركائب من زمت حملهم ... إلا وكان له في الظعن محبوب
أستودع الله لي في حبكم قمراً ... يهواه قلبي وعن عيني محبوب
يرضى ويغضب، ما أحلى تدلله ... وكل ما يفعل المحبوب محبوب

فقلت لي: حفظ الله بدنك وطيب أنفاسك، فلقد كملت في الحسن والظرف والمعنى، فقم إلى مكانك قبل أن تجيء إليه الست دنيا فلا تجدك فتغضب عليك.

فقبلت الأرض وخرجت العجوز أمامي إلى أن أوصلتني إلى الباب الذي خرجت منه، فدخلت وجئت إلى السرير لأجلس فوجدتها جاءت من الحمام ونامت على السرير، فقعدت عند رجليها وصرت أكبسها، ففتحت عينيها فرأنتي فجمعت رجليها ورفستني فرمتني من على السرير وقالت: يا نور الدين! خنت اليمن وكذبت. وذهبت إلى الست زبيدة؟ ووالله لولا خوفي من الهتكة والفضيحة لخربت قصرها على رأسها. ثم قالت لعبدها: يا صواب، قم اضرب رقبة هذا النذل الكذاب، فلا حاجة لنا به.

فتقدم ذلك الخادم إلي وشرط ذيلي وعصب عيني، وأراد أن يضرب رقبتني فقامت إليها الجواري الكبار والصغار، وقلن لها: يا ستاه، ما هو بأول من أخطأ ما عرف خلقك، وأنت ما تبغضينه، وما فعل ذنباً يوجب أن تقتليه. فقلت: والله لا بد أن أؤثر فيه أثراً. ثم أمرت بضربي فضربت على أضلاعي الضرب الذي رأيتموه، وأمرت بإخراجي. فأخرجوني وأبعدوني عن القصر، ورموني ورجعوا وتركوني، فلمت نفسي: فمشيت قليلاً قليلاً إلى أن وصلت إلى منزلي، وأحضرت جراحاً وأريته الضرب فلاطفني وسعى في مصالحي. فلما صح جسمي دخلت الحمام وزالت عني الأوجاع والأسقام. وجئت إلى الدكان وأخذت جميع ما فيه وبعته وجمعت ثمنه واشتريت أربعمائة مملوك ما جمعهم أحد من الملوك يركب معي في كل يوم مائتان، وعملت هذا المركب الحراقه بألف ومائتين من الذهب العين، وسميت نفسي بالخليفة، ورتبت من معي من الخدام كل واحد في وظيفة وناديت: كل من تفرج في الدجلة ضربت عنقه بلا مهلة. ولي على هذه الحالة سنة كاملة ولم أسمع لها بخبر ولا وقفت لها على أثر، ثم إنه بكى وأن واشتكى وأنشد يقول:

والله ما كنت طول الدهر ناسيها ... ولا دنوت إلى من ليس يدينها
كأنها البدر في تكوين خلقتها ... سبحان خالقها سبحان باريها
صدت ولا ذنب لي إلا محبتها ... فكيف حال الذي قد بات نابيها
وصيرتني حزيناً ساهياً دنفاً ... والقلب قد حار مني في معانيها
قال: فلما سمع هارون الرشيد كلام الشاب وما أبداه من الخطاب تعجب غاية العجب. وقال: سبحان من جعل لكل شيء سبباً.

ثم إنهم طلبوا من الشاب الانصراف وأضمر الرشيد للشاب الإنصاف وأن يتحفه غاية الإتحاف، فانصرفوا من عنده سائرين وإلى قصر الخلافة طالبين، ولما استقر بهم في منزلهم الجلوس غيروا ما كان عليهم من الملبوس ولبسوا أثواب الموكب والملك والزينة، وكذلك مسرور سياف النعمة والعطب، فقال الخليفة لجعفر المهيب: يا وزير! علي بالشاب.

فخرج إليه في الحشم والخدم وسار إلى منزل الشاب فخرج إليه وسلم عليه فقال له الوزير جعفر: أجب أمير المؤمنين.

فقال: سمعاً وطاعة لأمر المؤمنين وحامي حوزة الدين.

فسار معه إلى القصر وهو من الترسيم عليه في حصر، فلما دخل إلى الخليفة ورفع الوزير الستر عن السدة الشريفة ورأى الشاب الخليفة عرفه، فقبل الأرض بين يديه ودعا له بدوام العز وأثنى عليه وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين وحامي حوزة الدين وقامع المفسدين وإمام المتقين هناك الله بما أعطاك وجعل الجنة مأواك والنار مثوى لأعداك وأنشد يقول:

لا زال بابك كعبة مقصودة ... وترابها فوق الجباه رسوم

حتى ينادي في البلاد بأسرها ... هذا المقام وأنت إبراهيم

فعند ذلك تبسم الخليفة في وجهه، ورد عليه السلام وأظهر له الإحسان

والإكرام وقربه إليه، وأجلسه بين يديه وقال له: يا نور الدين أريد أن تحدثني بحديثك الليلة يا مسكين، فإنه من أعجب الأمور.

فقال الشاب: العفو يا أمير المؤمنين، أعطني منديل الأمان ليهدأ روعي ويطمئن قلبي.

فقال الخليفة: لك الأمان.

فشرع الشاب يتحدث بالذي جرى له من أوله إلى آخره، فعلم الخليفة من غير

إطالة أن الصبي عاشق لا محالة، فقال الخليفة: أتحب أن أردها إليك يا

مسكين؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين ثم أنشد يقول:

إن رمت إحساناً فهذا وقته ... أو رمت معروفاً فهذا حينه

فعند ذلك التفت الرشيد إلى الوزير وقال له: أحضر أختك الست دنيا بنت

الوزير يحيى.

فقال له: السمع والطاعة.

فأحضرها في الوقت فلما مثلت بين يديه قال لها: أتعرفين هذا من؟ فقالت:

أين للنساء معرفة بالرجال؟

فتبسم وقال: يا دنيا قد عرفنا الحال وسمعنا الحكاية من أولها إلى آخرها وفهمنا باطنها وظاهرها، والأمر لا يخفى وإن كان مستوراً. فقالت: كان ذلك في الكتاب مسطوراً، وأن أستغفر الله مما جرى مني، وأسأل من فيض الفضل العفو عني.

فضحك الخليفة وأحضر القاضي والشهود وعقد له ثانياً عليها. وحصل له سعد السعود، وأكمد العدو والحسود وجعله نديمه وزاد تكريمه، وعاش بقية عمره في أهنأ عيش ونعمة، يجالس الخليفة في الليل والنهار، تؤانسهُ الست دنيا ذات الفخار⁽⁸⁾.

الرشيد وجارية جعفر

ويحكى أن جعفرأ البرمكي نادم الرشيد ليلة، فقال: يا جعفر بلغني أنك اشتريت الجارية الفلانية، ولي مدة أطلبها، فإنها بديعة الجمال، ولي شوق زائد إليها فبغنيها.

قال: ليس علي فيها بيع.

قال: هبنيها.

قال: ولا أهبها.

فقال الرشيد: زبيدة طالق مني ثلاثاً إن لم تبغنيها أو تهبنيها.

وقال جعفر: زوجتي طالق مني ثلاثاً إن بعثها أو وهبتها.

ثم أفاقا من نشوتهما وعلما أنهما وقعا في أمر عظيم وعجزا عن تدبير الحيلة فقال الرشيد: هذه واقعة ليس لها غير أبي يوسف، فاطلبوه، فكان قد انتصف الليل. فلما طلب قام فزعاً وقال: ما طلبت في هذا الوقت إلا لأمر حدث في الإسلام.

ثم خرج مسرعاً وركب بغلته وقال لغلامه: اصحب معك المخلاة، واجعل فيها بعض شعير، فإذا دخلنا دار الخلافة ودخلت فضع بين يدي الدابة شيئاً منه تشتغل به إلى حين خروجي، فإنها لم تستوف علفها في هذه الليلة. فقال: سمعاً وطاعة.

فلما دخل على الرشيد قام له وأجلسه على سريره بجانبه وكان لا يجلس معه غيره، وقال له: ما طلبناك إلا لأمر مهم، وهو كذا وكذا، وقد عجزنا عن تدبير الحيلة.

فقال: يا أمير المؤمنين، هذا من أسهل ما يكون. يا جعفر! بع أمير المؤمنين نصفها وهبه نصفها تبرأ من يمينكما.

⁽⁸⁾ (إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 57-63)

فسر بذلك أمير المؤمنين وفعلًا، فقال الرشيد: أحضر الجارية في هذا الوقت فإني شديد الشوق إليها.

فأحضرت، فقال القاضي أبي يوسف: أريد وطأها في هذا الوقت، ولا أطيق الصبر إلى مضي مدة الاستبراء، انظر لي الحيلة في ذلك؟ فقال أبو يوسف: انتوني بمملوك من ممالك أمير المؤمنين الذين لم يجر عليهم العتق. فأحضر مملوك، فقال أبو يوسف: يا أمير المؤمنين، إئذن لي أن أزوجه منها، ثم يطلقها قبل الدخول فيحل وطؤها في الحال من غير استبراء. فأعجب الرشيد ذلك أكثر من الأول، فقال: أذنت لك. فأوجب القاضي النكاح، ثم قبله المملوك، فقال له القاضي يطلقها. فقال له: هذه صارت لي زوجة وأنا لا أطلقها. فردد عليه القول فأبى وضاق صدر الخليفة لذلك، وقال: قد اشتد الأمر أعظم مما كان.

فقال القاضي أبو يوسف: يا أمير المؤمنين رغبه بالمال. فقال: أطلقها ولك مائة دينار.

قال: لا أفعل.

قال: مائتا دينار.

قال: لا أفعل.

إلى أن عرضوا عليه ألف دينار وهو يمتنع، وقال القاضي: الطلاق بيدي أم بيد أمير المؤمنين أم بيدك؟ قال: بل بيدك أنت. قال: والله لا أفعل أبداً.

فاشتد غضب أمير المؤمنين، فقال القاضي: يا أمير المؤمنين لا تجزع فإن الأمر هين اعتق الجارية، ثم ملك هذا العبد للجارية؟ قال: أعتقتها وملكته لها. فقال لها القاضي: قولي قبلت؟ فقالت: قبلت.

فقال القاضي: حكمت بالتفريق بينكما لأنه دخل في ملكها فانفسخ النكاح. فقام أمير المؤمنين على قدميه، وقال: مثلك من يكون قاضياً في زمانى. وستدعى بأطباق الذهب فأفرغت بين يديه، وقال للقاضي: هل معك شيء توعيه؟ فتذكر مخلاة البغلة. فاستدعى بها، فملئت له ذهباً، فأخذها وانصرف. فلما أصبح قال لخلانه: انظروا إلى من علم العلم فليتعلمه كذلك، فإني أعطيت هذا المال العظيم في مسألتين أو ثلاث.

فانظر أيها المتأدب إلى لطف هذه الواقعة فإنها اشتملت على محاسن منها
إدلال الوزير على قلب أمير المؤمنين وحلم الخليفة، وزيادة علم القاضي
فرحم الله أرواحهم أجمعين.

ولكن مسألة الاستبراء لم تتخرج إلا على مذهب أبي حنيفة فخرجها أبو
يوسف على قواعد مذهبه لأنه حنفي المذهب. والله أعلم⁽⁹⁾.

الست بدور والأمير عمرو

يحكى أن الرشيد أرق ذات ليلة أرقاً شديداً، فاستدعى جعفرأ وقال: أريد منك
أن تزيل ما بقلبي من الضجر.

فقال الوزير: يا أمير المؤمنين، كيف يكون على قلبك ضجر، وقد خلق الله
أشياء كثيرة، تزيل الهم عن المهموم، والغم عن المغموم، وأنت قادر عليها؟
فقال الرشيد: وما هي يا جعفر؟ فقال له: قم بنا الآن، حتى نطلع فوق سطح
هذا القصر ونتفرج على النجوم واشتباكها وارتفاعها والقمر وحسن طلعه
كأنه وجه من تحب كما قيل:

فكأنما حسن السماء ولونها ... قد رقمت فيها أفانين الصور
وكان هذا البدر حين بدا لنا ... في بعض ليل من غلاف قد ظهر
فقال الرشيد: يا جعفر، ما تلفتت نفسي إلى شيء من ذلك، فقال: يا أمير
المؤمنين، افتح شباك القصر الذي يطلع على البستان وتفرج على حسن تلك
الأشجار واسمع صوت تغريد الأطيوار وانظر إلى هدير الأنهار وشم روائح تلك
الأزهار واسمع الناعورة التي كأنها أنين محب فارق محبوبه، وهي كما قال
فيها بعض واصفيها:

وناعورة حنت وغنت وقد غدت ... تعبر عن حال المشوق وتعرب
وترقص عطف البان تيهاً لأنها ... تغني له طول الزمان ويشرب
وإما أن تنام يا أمير المؤمنين، إلى أن يدركنا الصباح.
فقال: يا جعفر، ما تلفتت نفسي إلى شيء من ذلك.

فقال: يا أمير المؤمنين، افتح الشباك الذي يطلع على الدجلة حتى تتفرج على
تلك المراكب والملاحين، فهذا يصفق، وهذا ينشد موالياً، وهذا يقول دوبيت،
وهذا يقول كيت وكيت.

فقال الرشيد: ما تلفتت نفسي إلى شيء من ذلك.
فقال جعفر: قم يا أمير المؤمنين، حتى ننزل إلى الاصطبل الخاص وننظر إلى
الخيال العربيات وتتفرج على حسن ألوانها، ما بين أدهم كالليل إذا أظلم،

وأشقر، وأشهب، وكميت أحمر، وأبيض، وأخضر، وأبلق، وأصفر، وألوان
تحير العقول.

فقال الرشيد: ما تلفتت نفسي إلى شيء من ذلك.

فقال جعفر: يا أمير المؤمنين، عندك في قصرِكَ ثلاثمائة جارية، ما بين
جنكية، إلى عودية، إلى دفية، إلى قانونية، إلى زامرة، إلى مغنية، إلى
راقصة، إلى سنطيرية، أحضر الجميع، وأحضر العقار المروق، فعل أن يزول
ما بقلبك من الضجر.

فقال: ما تهم نفسي إلى شيء من ذلك.

فقال جعفر: يا أمير المؤمنين ما بقي إلا ضرب عنق مملوكك جعفر، فإني قد
عجرت عن إزالة هم مولانا.

فقال: يا جعفر، أما سمعت قول ابن عمي رسول الله ﷺ؟ فقال: من فم مولانا
أسمع.

فقال الرشيد: قال رسول الله ﷺ: " فرح أمتي في ثلاث: أن يرى بعينه شيئاً
ما رآه، أو يسمع شيئاً ما سمعه، أو يطأ مكاناً ما وطئه " ، فيتفق يا جعفر أن
يكون في بغداد مكان ما وطنناه، أو شيء ما سمعناه، أو موضع ما رأيناه.
فقال جعفر: أتأذن لي يا أمير المؤمنين أن أطلع إلى مجلس النوبة وأنظر أحداً
من المسافرين أحضره بين يدي أمير المؤمنين، لعله أن يحدثك بحديث ما
سمعته؟ فقال الرشيد: قم وافعل.

فقام جعفر وطلع وعاد بسرعة بالشيخ أبي الحسن الخليلي الدمشقي المسامر.
قال: فلما رأى أمير المؤمنين سلم فأحسن وترجم فأبلغ، ثم قال: يا أمير
المؤمنين وحامي حوزة الدين وابن عم سيد المرسلين وخاتم النبي صلى الله
عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين، أطال الله بقاءك وجعل الجنة مأواك
والنار مثوى لأعداك لا خمدت لك نار ولا أغيط لك جار، ثم أنشد يقول:

دام لك العز والبقاء ... ما اختلف الصبح والمساء

ودمت ما دامت الليالي ... بمدة ما لها انقضاء

الناس ناس بكل أرض ... وأنت من فوقهم سماء

قال: فرد الشيخ السلام وقال له: اجلس يا أبا الحسن، وحدثنا بحديث عجيب

مليح لم نسمعه قط؟ فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، أحدثك بشيء سمعته

بأذني أو بشيء رأيته بعيني؟ قال الرشيد: يا شيخ أبا الحسن الذي تراه العين
أحسن من الذي تسمعه الأذن.

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، أفرغ لي عن ثلاثة أشياء منك؟ فقال: ما الثلاثة؟ فقال: ذهنك وسمعتك وقلبك.

فقال الرشيد: هات يا أبا الحسن.

فقال: يا أمير المؤمنين لي عادة أني أسافر في كل سنة إلى البصرة للأمير محمد بن سليمان الزينبي، وأقعد عنده أحدثه الأسمار، وأورد له الأخبار، وأنشد له الأشعار، ولي عليه رسم ألف دينار أخذها وأعود إلى بغداد. فاتفق لي من سنة من السنين أني سافرت إلى البصرة على عادتي ودخلت على الأمير محمد بن سليمان وجلست عنده اليوم الأول والثاني والثالث، فركب إلى الصيد وتركني في منزله وأوصى أرباب دولته بخدمتي وإكرامي إلى أن يعود، وأوصى الطباخ الذي له أن لا يطعمني إلا شيئاً تشتهي نفسي، فاشتيت السمك فقلت للطباخ: فعمل لي من السمك عدة ألوان فأكلت وطاب لي الأكل حتى ثقل على فؤادي، فقلت: ما يصرف عني هذا إلا المشي، ولي عدة أسفار إلى البصرة ما أعرف فيها مكاناً، وأريد اليوم أن أجعلها حجة وفرجة. ثم إنني نزلت أتمشي في شوارع البصرة فعطشت عطشاً شديداً وناهيك بعطش السمك، فقلت في نفسي: إن تناولت شربة من السقاء لا تطيب نفسي لأنه يشرب منه أصحاب الأمراض، وكبر على نفسي أن أحملها إلى شاطئ الدجلة، وقلت: ما لي إلا أن أقصد بعض دور المحتشمين وأطلب منها شربة من ماء، فأتيت إلى درب وفي ذلك الدرب خمسة دور داران مقابلتان لدارين ودار صدرانية قد قامت من التراب وتعلقت بأذيال السحاب، ولها باب مقتطر مزخرف بمصاطب طولانية، مفروش عليها حصر عبدانية، والباب ساج مصفح بصفائح الذب الوهاج ومسامير الفضة وستر من الحرير الأصفر المدثر مكتوب عليه هذه الأبيات:

ألا يا دارُ لا يدخلك حزنٌ ... ولا يغدر بصاحبك الزمان
فنعم الدار أنت لكل ضيفٍ ... إذا ما ضاق بالضيف المكانُ
قال: فقلت في نفسي، من هذه الدار أشرب الماء، فأتيت إلى الباب فسمعت صوتاً ضعيفاً من فؤاد نحيف، وقائلاً يقول:

بالله ربكما عوجا على سكني ... وعاتباه لعل العتب يعطفه
وعرضاً بي وقولاً في حديثكما ... ما بال عبدك بالهجران تتلفه
فإن تبسم قولاً في ملاطفةٍ ... ما ضر لو بوصالٍ منك تسعفه
وإن بدا لكما في وجهه غضبٌ ... فغالطاه وقولا ليس نعرفه

قال: فقلت، يا حبذا إن كان قائل هذا الصوت شخصاً صورته على قدر صوته واحتشمت، ثم إني قويت قلبي ورفعت الستر ودخلت الدهليز إلى أن انتهيت إلى آخره ومديت طرفي، وإذا أنا بدار قد أقبلت عليها السعادة، وزالت عنها الشقاوة، ورأيت في صدر ذلك المكان إيواناً وبركة وشاذرواناً، وفي ذلك الإيوان تخت من السياج، وقوائمه من العاج، ومصفح بالذهب الوهاج، وفوق التخت فراش من الحرير الأطلس، ومسند مزركش، وعليه جارية نائمة خماسية القد، قائمة النهد لا بالطويلة الشاهقة ولا بالقصيرة اللاصقة، أشهر من علم، تربية العجم على أكتاف الخدم، بخد أسيل، وطرف كحيل، وخصر نحيل، وردف ثقیل، إن أقبلت فتنت، وإن ولت قتلت، كما قال فيها بعض واصفيها:

كما اشتت خلقت حتى إذا اعتدلت ... في قالب الحسن لا طول ولا قصر
جرى بها الشحم حتى دار أعكها ... طي القباطي فلا سمن ولا غور
كأنها أفرغت من ماء لؤلؤة ... في كل جارحة من حسنها قمر
إلا أن الجارية، يا أمير المؤمنين، قد حكمت عليها يد الأيام ونزلت بها جميع الأسقام وعند رأسها طبيب، وهو يجس يدها ويقول: يا ست بدور، الضارب ضارب والساكن ساكن ولا برد ولا حمى ولا شيء تشتكينه أكثر من سهر الليل وجريان الدمع لعل الست في قلبها هوى من أحد، فلما سمعت كلام الطبيب أنشدت تقول:

إذا هممت بكتمان الهوى نطقت ... مدامعي بالذي أخفي من الألم
فإن أبح افتضح من غير منفعة ... وإن كتمت فدمعي غير منكم
لكن إلى الله أشكو ما أكابده ... من طول وجد ودمع غير منصرم
قال: فنهض الطبيب قائماً على قدميه فناولته صرة فيها عشرون ديناراً، ثم التفتت إلي وقالت: من أين يا شيخ؟ فقلت لها: من بغداد، حملني العطش إلى أن أتيت إلى هنا.

فقلت: لعل أن يكون على يدك فرجي، فأنا أكتب لك ورقة فتسال عن بيت الأمير عمرو وتعطيه إياها، فإن رددت علي الجواب فأنا أعطيك خمسمائة دينار.

ثم استدعت بدواة وورق وكتبت، وهي تقول: أما بعد، يعجز لساني ويكل جنائي عن بث الأشواق، ولكن أسأل الكريم الخلاق أن يمن علينا بالتلاق بالسعد الرائق والأمر الموافق، وأنا القائلة حيث أقول:
سروري من الدنيا لقاكم وقربكم ... وحبكم فرض وما منكم بد

ولي شاهد دمعي إذا ما ذكرتكم ... جرى فوق خدي لا يطاق له رد
إذا الريح من نحون الحبيب تتسمت ... وجدت لمسراها على كبدي برد
فوالله ما أحببت ما عشت غيركم ... ولا كنت إلا ما حييت لكم عبد
سلام عليك ما أمر فراقكم ... فلا كان منكم ما جرى آخراً عهد
أما بعد، فهذا كتاب ممن ليلها في نحيب، ونهارها في تعذيب، لا أتركن إلى
عاذل ولا تصغي إلى قائل، قد غلبتها أيدي الفراق، ولو شرحت بعض ما
عندها للفسيح ضاق وما وسعته الأوراق، ولكن أسأل الكريم الخلاق، رافع
السبع الطباق، أن يمن علينا بالتلاق، وأنشدت تقول:

أحبة قلبي وإن جرتم ... علي فكل المنى أنتم
رحلتكم وفي القلب خلفتم ... لهيباً فهلا ترفقتم
وأودعتم يوم ودعتم ... بأحشاي ناراً وأضرمت
وما كنتم تعرفون الجفا ... على شؤم بختي تعلمتم
فألف ألف لا أوحش الله منكم والسلام مني عليكم عدد شوقي إليكم ما حن
الغريب إلى الأوطان، وغرد حمام الأيك على البان، فرحم الله من قرأ كتابي
وتعطف برد جوابي، وأنشدت تقول:

أحبابنا ما رقا دمعي لفرقتكم ... يوم الفراق ولا كفت غواديه
بنتم فلم يبق لي من بعدكم جلد ... ولا فؤاد ولا صبر أرجيه
فكم أمني فؤادي بالهوى كذباً ... ولست أول من بانت غواشيه
قال: ثم إنها طوت الكتاب وختمته بعداً، نثرت فيه فتات المسك والعنبر،
وناولتني إياه فأخذته، وأتيت إلى دار الأمير عمرو فوجدته في الصيد
والقنص، فجلست على بابه ساعة أنتظره وإذا به قد أقبل، وهو راكب على
حصان أشقر، من الخيل الضمر يساوي ملك كسرى وقيصر، من أولاد
الأبجر، الذي كان لعنتر، إن طلب لحق، وإن طلب لم يلحق، والأمير في ظهره
كأنه البدر في منزلته، والمماليك قد أحدقوا به كما تحديق النجوم بالقمر، وهو
بخد أسيل وطرف كحيل وخصر نحيل وردف ثقیل وله عذار أخضر فوق خد
أحمر وثغر جوهر وعنق مرمر كما قال فيه ابن معشر:
قمر تكامل في نهاية حسنه ... مثل القضيب على رشاقة قده
فالبدر يطلع من ضياء جبينه ... والشمس تغرب في شقائق خده
ملك الجمال بأسره فكأنما ... حسن البرية كلها من عنده
قال أبو الحسن: فما أمهله دون أن قبلت ركابه، فلما نظر إلي ترجل
واعتنقتي وخذ بيدي وأدخلني الدار وأنشد يقول:

ما أظن الزمان يأتي بهذا ... غير أنني رأيته في منامي
قال: فلما جلس على حافة البركة أقبل علي يحدثني ساعة، وإذا بالمائدة قد
وضعت بين أيدينا، وإذا عليها من ألوان الطعام ما درج وتطاير في الأسفار،
وتناكح في الأوكار من قطعاً وسماني وأفراخ حمام وبط مسمن ودجاج محمر
وأفراخ رضع وبعلبكات السكر فقال لي: بسم الله يا شيخ يا أبا الحسن، فقلت:
لا والله يا مولاي، ما أكلت لك طعاماً ولا شربت لك مداماً، إلا أن قضيت لي
حاجتي.

فقال: يا أبا الحسن كان هذا من الأول. أين الكتاب الذي لست بدور؟ فقلت: يا
سيدي وما هي الست بدور.

فقال: التي جئت من عندها تطلب شربة من الماء منها، ووجدت عندها
الطبيب وجرى لك معها ما هو كيت وكيت.

فقلت: يا مولاي أكنت حاضراً؟ فقال: لو كنت حاضراً فلأي شيء كتبت
الكتاب؟ فقلت: هل جاء أحد من عندها وأعلمك؟ فقال: إنه لا يجسر أحد من
غلمانها أن يقابلني.

فقلت: ولا راح أحد من عندك إليها.

فقال: هي أخس وأحق من أن يمضي إليها أحد من عندي.

فقلت: يا سيدي! الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى والوحي ما نزل إلا على رسول
الله ﷺ.

فقال: يا عاقل أما سمعت قول القائل:

قلوب العاشقين لها عيون ... ترى ما لا يراه الناظرون

وأجنحة تطير بغير ريش ... إلى ملكوت رب العالمينا

فقلت: صدقت يا مولاي، ثم ناولته الكتاب ففضه وقرأه ثم بصق فيه وداسه
برجله ورماه في البركة فصعب علي، فلما علم مني ذلك قال: مم غيظك؟ أقعد
الليلة عندي كل واشرب وخذ مني الخمسمائة دينار التي وعدتك بها الست
بدور، وأنا أحب إليك منها وأنشد يقول:

رأيت شاة وذئباً وهي ماسكة ... بأذنه وهو منقاد لها ساري

فقلت: أعجوبة ثم التفت رأي ... ما بين نابيه ملقى نصف دينار

فقلت للشاة: ماذا الإلف بينكما ... والذئب يسطو بأنياب وأظفار

تبسمت ثم قالت وهي ضاحكة ... بالتبر يكسر ذاك الضيغم الضاري

قال: فلما سمعت كلامه، يا أمير المؤمنين تقدمت وأكلت بحسب الكفاية
والنهاية. ثم انتقلنا إلى مجلس الشراب وقدمت بين أيدينا البوطي

والسلاحيات، فتناول الأمير عمرو وشرب وسقاني، وأنا أحدثه وأنادمه إلى أن قرب الغروب فقال: يا أبا الحسن، ما لذة الأمير إذا شرب إلى المساء من غير غناء؟ فقلت: يقال: الشراب بلا طرب ولا سماع، الدن أولى به. فقال لي: قم بسم الله.

فقمتم معه إلى مجلس وحضيرة تنقط بالذهب واللازورد العجيب، وهي مزخرفة قد عبقت أزهارها وضحكت سلاحيتها وصفت بواطيلها ورفعت أقداحها فجلس الأمير عمرو وأجلسني بجانبه وقدمت بين أيدينا الشموع وأسرجت القناديل فنظرت إلى مجلس عجيب وحضيرة مليحة ثم قلت: يا مولاي، قد تقدم القول إن الشراب بلا سماع، الدن أولى به، فصفق بكف وإذا بثلاث جوار قد أقبلن كأنهن الأقمار. الواحدة تحمل عوداً، والثانية تحمل دفاً، والثالثة تحمل مزماراً ثم نقرت الدفية على دفها، وألحت العودية عودها وزمرت الزامرة بمزمارها فخيل إلي أن المجلس الذي نحن فيه يرقص بنا ثم إن الدفية غنت تقول:

أحبابنا إنني من يوم فرقتكم ... على فراش الضنا ما زلت مضطجعا
داويت قلبي بحسن الصبر بعدكم ... عسى يفيق من الأسقام ما نفعا
فوالله يا أمير المؤمنين لقد طربت غاية الطرب من حسن صوتها. فلما فرغت الدفية ضربت العودية على عودها طرقاً عديدة، ثم رجعت إلى الطريقة الأولى وأنشدت تقول:

أمونس طرفي لا خلا منك ناظري ... وجامع شملي لا خلا منك مجلسي
ويا ساكناً قلبي وما فيه غيره ... يحل فما استوحشت فيه لمؤنسي
وبالله يا أغنى الورى من ملاحه ... تصدق على صب من الصبر مفلس
أنلني الرضا حتى أغيظ به العدا ... ويا موحشي من بعد ما كان مؤنسي
رضاك الذي إن نلته نلت رفعة ... وألبسني في الناس أشرف ملابس
قال: والله يا أمير المؤمنين لم نتمالك عقولنا من الطرب، ثم التفتت العودية نحو الدفية وقالت لها: يا فلانة أتحسني أن تقولي مثل هذا؟ فقالت الدفية: أنا أحفظ أبياتاً ما أظن أنك تحفظين لهن وزناً ولا قافية ولا عروضاً. فقالت العودية: هات ما عندك.

فنقرت الدفية على دفها بأناملها ورفعت صوتها وهي تقول:
كرر وردد ذكرهم في مسمعي ... فهم الشفا لتألمي وتوجعي
أقصر بعذك يا عدول فإن لي ... قلباً لعذك لا يفيق ولا يعي
فقالت لها العودية: أنا أحفظ الوزن والقافية والعروض.

فقال الدفية: هات.

فصربت العودية طريقة من اثنين واثنين وأربعة وأربعة وثمانية وثمانية وستة عشرة وستة عشر ثم عادت إلى الطريقة الأولى وجعلت تقول:
إن لم إل وادي إلا سيل بأدمعي ... أعلم بأنني في الصبابة مدعي
يا سعد إن جئت الغوير وعانيت ... عيناك بأن المنحني فلترجع
وخذ الحذار من الغزال المختفي ... واحذر يصيدك لحظ ذات البرقع
قال: والله يا أمير المؤمنين فلقد طربنا حتى قام كل منا ورقص. فلما فرغت
الجارية قال لها سيدها: عن لي على الذي بقلبي وحدي، فعندها ساوت عودها
وقالت:

ما كنت أول راق صبا صبا ... نحو التصابي، وهو في عمر الصبا
فعلام يعذلني العذول على البكا ... لولا الغرام لما غدوت معذبا
حم الغرام بحكمه في مهجتي ... ولقد غدا قلبي به متقلبا
يا للرجال خبا الهوى بحشاشتي ... ناراً، فما تخبو على ذاك الخبا
ولقد سبى قلبي غزال لو رأت ... بلقيس طلعت له لما سكنت سبا
ولقد هربت من الغرام فقال لي: ... مهلاً! فلن تجدن مني مهربا
فلما سمع الأمير عمرو ذلك صرخ ووقع على الأرض مغشياً عليه. فقالت
الجارية: يا مولاي، إنه قد نام سيدي، فإن اخترت أن تنام فقم نم في مرقدك،
وإن اخترت الشراب فدونك، ونحن بين يديك إلى الصباح.
فقامت ونمت فلما أصبحت قامت وسألت عن الأمير عمرو فقال بعض
الجواري: إنه قد سرح إلى الصيد والقنص فأخذت شاشاً لألبسه فرأيت تحته
كيساً فيه ألف دينار، فأخذته وأتيت إلى الست بدور، وإذا بها واقفة خلف
الباب تنظر وهي تقول:

يا رسولي إلى الحبيب اعتذر لي ... ففعل الحبيب بقبل عذري
ثم قل للحبيب عني بلطف: ... أي ذنب جرى فأوجب هجري
فلما رأته قالت: يا شيخ أقمح أم شعير؟ فقلت: لا والله ما هو إلا زوان، والله
ما رضي يقرأ مكتوبك ولا يرد جوابك.

فرمت إلى الصرة وفيها مائة دينار، وقالت: اذهب يا أبا الحسن، ما مضى
الليل وأتى النهار على شيء إلا وأزاله وغيره ويغير الله ما في القلوب.
ثم إنها أغلقت الباب في وجهي ومضت وعدت إلى دار الأمير محمد بن سليمان
الزنبلي فلقبته قد جاء من الصيد فقعدت عنده أياماً وأخذت رسمي وعدت إلى
بغداد. ثم إنني في السنة الثانية سافرت إلى البصرة على ما جرت العادة به

ومضيت إلى الأمير عمرو بن جبير الشيباني لأتمنع بذلك الوجه المليح والقدر الجريح، فوجدت الدار متغيرة الآثار والعبيد لابسين السواد فلما رأيت ذلك بكيت وأنشدت أقول:

يا دار أين ترحل السكان ... وسرت بهم من بعدها الأظعان
بالأمس كان بك الضياء مع هنا ... واليوم عرصاتك الغربان
فسمعتني بعض الغلمان، فظهر لي وقال: من ذا الذي يبكي على ديارنا ويندب منازلنا؟ كفى بنا ما عندنا.

فقلت له: يا عبد الخير، إن صاحب هذه الدار كان من أصدق الناس إلي فما فعل به الزمان؟ فقال لي الغلام: يا مولاي هو في قيد الحياة. وهو يطلب الموت فلا يجده.

فقلت له: بالله عليك خذ لي الطريق.

فقال لي الغلام: يا مولاي من أقول.

فقلت: قل الشيخ أبو الحسن الخليلي الدمشقي المسامر.

قال: فعبر الغلام وغاب ساعة وعاد وقال لي: بسم الله أدخل. ويقول له: يا مولاي الضارب ضارب والساكن ساكن لا برد ولا حمى ولا تشتكي غير سهر الليل وجريان الدمع، لا يكون المولى إلا مسحوراً.

فلما سمع الأمير عمرو كلام الطبيب بكى وأنشد يقول:

قال الطبيب لقومي، حين جس يدي: ... هذا فتاكم ورب البيت مسحور

فقلت: ويحك قد قاربت في صفتي ... عين الصواب فهلا قلت مهجور

ثم إنه ناوله كاغداً فيه بعض دنائير، فأخذها الطبيب وانصرف ثم التفت الأمير عمرو إلي وقال: يا شيخ أبي الحسن أما تنظر إلى هذا الحال الذي وقعت فيه؟ فقلت له: حاشاك من الأسوأ ما سبب ذلك؟ قال: ما أعرف له سبباً إلا أن هجر الست بدور قد قتلتني وحبها أضنى فؤادي.

فقلت: يا مولاي، بالعام الماضي تركتك أميراً، واليوم أتيت لقيتك أسيراً فما

السبب؟ فقال الأمير عمرو: يا شيخ إني في ليلة من الليالي ركبت في الشط،

وقد شحنت مركبي من سائر الأزهار والفواكه والرياحين والطعام والدمام،

وأوقدت الشموع حتى صارت مثل ضوء النهار، وقد غرقنا في البسط، وبقينا

في لعب وضحك إلى ثلث الليل الأول، وإذا قد أقبل من صدر الشط مركب وهو

يعزف بالطارات والدقوف ويضيء كضوء الشمس وفيه وهج عظيم، فقلت

للملاح: قدم بنا حتى نتفرج وننظر أينما أحسن تعبئة مركبنا أو هذا المركب؟

فمددت عيني فرأيت صاحبتني الست بدور، وهي بين جواربها وغلمانها تلعب

وتضحك، وهي مثل اسمها، اسم على مسمى، فلما وقعت عيني عليها، كأنما رمت في قلبي جمرة نار فقلت في نفسي: ما فارقت هذا الوجه المليح بذنب. ثم إني تذكرت العهد القديم الذي كان بيننا فلم أقدر أن اصبر، فمدت يدي وأخذت تفاحة ورميتها إلى الست بدور فالتفتت فرأتني. فقالت للملاح: ارجع بنا إلى البر، نحن خرجنا هذه الليلة ننشرح، فأرسل الله لنا هذا الفتى ينغص علينا عيشنا. فلما سمعتها تشتمني أضربت النار في قلبي ثم قلت لنفسي: أنت كنت المطلوب فصرت الطالب، فلم يهن لي عيش في هذه الليلة فقلت للملاح: ارجع إلى الشط. ثم إني نزلت ومضيت إلى منزلي وما ذقت طعم المنام. فلما أصبحت لم يقر لي قرار وصرت أترقب أن يأتي أحد من عندها، ثلاثة أيام، فلم يأت أحد فبعثت من يعرض بذكري لها، فدعت عليهم وشتمتهم. فكتبت لها بعد ذلك ألف كتاب، فلم ترد لي جواباً، وقد رميت روعي على كل كبير في البصرة، فيدخلون عليها فلم تقبل ولم تزد إلا جفاء، ولي مدة أنتظرك يا شيخ أبا الحسن حتى أبعث معك كتاباً وأنا أحلف لك إن هي ردت لك جوابه أعطيتك ألف دينار، وإن لم ترد جوابه أعطيتك مائة دينار. فقلت له: اكتب!.

فدعا بدواة وقرطاس وكتب في أول الكتاب: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هذا كتاب من متيم يشكو إليك الصبابة ويسألك بالله أن تردي جوابه. أما بعد، فإنه يعجز لساني ويكل جنائي مما أنا فيه من طول السهر ودوام الفكر، وبكى لبكائي أصم الحجر فألف ألف لا أوحش الله منك والسلام عليك. ثم ختم الكتاب وناولني إياه فأخذته وأتيت به إلى دار الست بدور، فلقيت الباب على غير تلك الحالة الأولى عليه ستر مرخي وبواب وخادم. فقلت: لا إله إلا الله، كان هذا الباب بالأمس خالياً من الأصحاب، واليوم عليه خادم وبواب، ثم إني تقدمت إلى الخادم، وقلت له: قم يا ولدي ادخل واستأذن على مولاتك الست بدور وقل لها: الشيخ أبو الحسن الخليلي الدمشقي قد أتى ويطلب المثل بين يديك.

فغاب الخادم ثم عاد مسرعاً وقال: بسم الله ادخل. فدخلت الدهليز فسمعت الست بدور وهي تقول:

ولأصبرن على الزمان وجوره ... حتى يعود كما أريد وأشتهي
قال: فلما دخلت رأيته قاعداً على حافة البركة، وبين يديها جارية تروح لها، فتقدمت وقبلت يدها وجلست فنظرت، وإذا عليها غلالة لازوردية، وجميع

جسدها بائن من تحت الغلالة كأنه عمود مرمر، وعلى الغلالة مكتوب هذا
البيات:

أقبلت في غلالة زرقاء ... لازوردية كلون سماء
فتأملت في الغلالة ألقى ... قمر الصيف في ليالي الشتاء
ليتني كنت للمليحة عقداً ... أو لثاماً للوجه مثل الرداء
أو قميصاً من الحرير خفيفاً ... لاصقاً بالفؤاد والأحشاء
ضربتني بخنجر العشق حتى ... صرت ملقى مخضباً بدمائي
تركنتي على الطريق ونادت ... من يصلي على قتيل هوائي
ثم إني لما فرغت من قراءة الأشعار قالت لجارياتها: هات لي بذلة قماش، ثم
غيرت ما كان عليها، وجلست ثم أمرت بإحضار المائدة وقالت: بسم الله، كل
يا أبا الحسن.

فقلت: لا والله لا أكلت لك طعاماً ولا شربت عندك مداماً حتى تقضي حاجتي.
فقال: كان هذا من الأول لكن والله قد وقعت من عيننا برواحك إلى الأمير
عمرو قبل مجيئك إلينا.
فقلت لها: أنا ما رحت.

فقالت: تكون شيخاً وتكذب، أنت ما عبرت عليه ولقيت الطبيب، وهو يقول
له: كيت وكيت، وجرى لك معه كذا وكذا، وهذا الكتاب في طبي عمامتك
وبالأمانة قال لك: إن ردت الجواب أعطيتك ألف دينار وإن لم ترد لي الجواب
أعطيتك مائة دينار؟ فقلت: يا ستي من أعلمك بهذا؟ فقالت: أليس القائل
يقول:

قلوب العاشقين لها عيون ... ترى ما لا يراه الناظرون
وأنا يا شيخ أبا الحسن أعشق منه وأرى أكثر مما يراه.
فقلت: صدقت يا مولاتي، كان ذلك.

ثم ناولتها الكتاب ففضته وقرأته ثم إنها مزقته وبصقت عليه، وداسته ورمته
في البركة. فلما رأيت ذلك قلت في نفسي: هذا بذاك وفرض الدين لا بد له من
وفاء إلا أنني حصل لي بعض غيظ على الألف دينار التي تفوتني، فنظرت غلي
وعرفت مني ذلك فقالت: يا شيخ أبا الحسن مم غيظك؟ إن كان وعدك بألف
دينار، فبت الليلة عندي وكل واشرب والتذ واطرب، وخذ لك غداً مني ألف
دينار وامض في حفظ الله.

فقلت: يا سيدتي يكاد الأمير عمرو أن يموت.
فقالت: دعنا من هذا الكلام.

ثم إن المائدة حضرت فأكلنا بحسب الكفاية، فلما فرغنا قالت: يا شيخ أتعرف لعب الشطرنج.

قلت: ما ألعب إلا على الحكم والرضا.

فقالت: نعم. ثم دعت بالشطرنج فوضع بين أيدينا ولعبت معها الدست الأول، غلبتني فأمرت الجواري أن يرموني في البركة، فمسكوني ورموني في البركة، فضحكت علي ساعة. ثم أخرجوني وقد ابتلت جميع حوائجي. فلما رأني على تلك الحالة أمرت ببذلة من القماش من أفخر الملبوس فلبست فقالت: أتلعب أيضاً على الحكم والرضا؟ قلت: نعم، فلعبنا فاحتلت عليها، وأتيت لها بحكاية لطيفة مضحكة وشغلتها وسرقت القطع إلى أن غلبتها وتحكمت فيها وقلت: أريد الألف دينار وجواب الكتاب فأعطتني الألف دينار، وطلبت دواة والقرطاس، ثم إنها أطرقت ساعة ورفعت رأسها وكتبت تقول:

ألا يا عمرو كم هذا العناء ... وكم هذا التجلد والجفاء

كتبت إلي تشكو ما تلاقي ... من الأسقام إذ نزل القضاء

فسقم لا يزال بطول دهر ... وداء ما له أبداً دواء

ولو ساعدتنا يا عمرو يوماً ... لساعدناك إذ نزل البلاء

فعش ضباً وامت كمداً حزيناً ... فواجدةً بواحدةٍ جزاء

فلا فرغت ناولتني الورقة فقرأتها فقلت: يا ستي، بالله عليك لا تفعلي

وارحمي الأمير عمراً واكتبي له غير هذا.

فقالت: يا شيخ أبا الحسن، أنت رسول أو فضولي؟ فقلت لها: رسول وفضولي

وطفيلي، ويعظ القطط ويحلف أنه ما يبيت إلا في الوسط ويعني بليت بكم.

قال: فضحكت من كلامي، وقالت: حكمتك في نفسي.

فقلت: ست بدور أين تلك المحبة التي كنت تحبينها للأمير عمرو؟ فلو أبصرته

ما عرفته من شدة ما يقاسي من الأسقام والآلام والأمراض.

فلما سمعت ذلك قالت: أخبرني عن أقوى شيء به من المرض؟ فقلت: يا

سيدتي، ما أقدر أصف لك بعض ما فيه من ألم المرض. فترغرغت عيناها

بالدموع ثم قالت: يعز علي ما وصفت لي عنه وروحي لروحه الفداء فالحمد

لله الذي جعل اجتماعنا على يديك. ثم دعت بدرج غير تلك الورقة وكتبت في

أول الكتاب: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ثم إنها ابتدأت تنشد وتقول:

وصل الكتاب فلا عدمت أناماً ... عنيت به حتى تزوع طيباً

ففضضته وقرأته، فوجدته ... لخفي أوجاع القلوب طيباً

فكأن موسى قد أعيد لأمة ... أو ثوب يوسف قد أتى يعقوباً

المملوكة تقبل الأرض وتنتهي أن شوقها شديد، وغرامها ما عليه من مزيد،
ومأمولها من الحميد المجيد أن يجمع شملها بك قبل أن تريد، وأقول:
أشتاقكم حتى إذا نهض الهوى ... لمقامكم قعدت بي الأيام
والله إني لو وصفت صبابتي ... فني المداد وقلت الأقسام
ثم إنها نثرت فتات المسك والطيب في رسالتها وطوتها وحققته وناولتني
إياها فأخذتها وقمت مسرعاً وأنا فرحان إلى أن أتيت دار الأمير عمرو ودخلت
الدليل فسمعتة يقول:

تري حرمت كتب المحبة بيننا! ... أسحر أم القرطاس أصبح غاليا
فاستأذنت عليه ودخلت فلما رأي قال لي: أقمح أم شعير؟ فقلت له: قمح مغر
بل ليس فيله كدر. ثم ناولته الكتاب ففضه وقرأه فلما فهم معناه تهلل وجهه
بالفرح فبكى وقال: هجم السرور علي حتى إنه ... من فرط ما قد سرنى
أبكاني

يا عين! قد صار البكا لك عادةً ... تبكين في فرح وفي أحزان
فلما فرغ من البكاء قال لي: يا شيخ ما أظن الحديد يلين ولا الصخر يذوبُ
نعل أن تكون صنت هذا الكتاب من عندك؟ فقلت: يا مولاي والله ما صنعتة ولا
كتبته بل هو خطها بيدها.

فبينما هو يخاطبني، إذ هي عبرت علينا وهي تخطر لفي قوامها وهي تنشد
وتقول:

نزورك لا نجازيكم بجفوتكم ... إن الكريم إذا لم ستر زارا
فلما رآها الأمير عمرو نهض قائماً على قدميه ورمى بروحه عليها واعتنقها
واعتنقته ساعة زمانية، فقامت لأخلي لهما المكان، فقالت الست بدور: إلى
أين تروح يا شيخ؟ قلت أخلي لكما المكان لأنكما ما اجتمعتما من مدة سنة
كاملة.

فقالت: لا تفارقني من الساعة إلى الصباح.
فقام الأمير عمرو وأخذنا ومضى بنا إلى مجلس مليح وقدم لنا الطعام المفطر
وأمر بإزالة كل شيء كان عليه من آلة الحزن وجيء له بالماء فغسل يديه
وغسلنا أيدينا، وانتقلنا إلى مجلس الشراب، وبتنا في لذة ورأيت الماوية تدب
في وجه الأمير عمرو. فلما أصبحت قالت: يا شيخ أبا الحسن، امض وائتنا
بالقاضي والشهود.

فلم يكن بأسرع مما أضرتهم. فقالت الست بدور للقاضي: اكتب كتابي على
الأمير عمرو، وقد وليت الشيخ أبا الحسن عقد النكاح.

فخطب القاضي خطبة النكاح وعقد العقد بينهما، فرسم الأمير عمرو للقاضي بألف دينار وللشهود بمائتي دينار، وعمل الوليمة وطبخ الطعام وعمل الحلوات وجمع الناس ووضع بين أيديهم الموائد وأطعم الشارد والوارد، وزفت الست بدور تلك الليلة إلى الأمير عمرو، فلما وقفوا على المنصة قلت: ما تصلح إلا له ولا يصلح إلا لها، ولو رآها غيره لزلزلت الأرض زلزالها، ثم تقدمت إلى الأمير عمرو وقلت له: يا مولاي، المثل يقول: العصفور يتفلى والصياد يتفلى، وأنتم تقولون: وا طرباه وأنا أقول وا حزنه. فقالت الست بدور: ما معنى كلامك هذا؟ قلت: يا سيدتي الأمير عمرو وعدني بوعد والوعد على الكرماء دين.

فقالت الست بدور: صدق الشيخ أعطه الذي وعدته به. فقال الأمير عمرو لبعض غلمانه: أعط الشيخ أبا الحسن ألفاً وخمسمائة دينار، يستحق أكثر من ذلك.

فمضى الغلام وعاد بسرعة ومعه كيس وناولني إياه وأعطتني الست بدور مثله. ثم إني ودعتهم وخرجت إلى أن أتيت إلى الأمير محمد بن سليمان الزينبي، وقعدت عنده على عادتي، وأخذت رسمي الذي عليه في كل سنة وعدت إلى بغداد فما رأيت سنة أبرك علي منها، حصل لي فيها أربعة آلاف دينار.

وهذا جملة الحديث فتعجب الخليفة وقال: ما قصرت يا شيخ أبا الحسن خذ من جعفر ألف دينار لأنك أنت الذي أزلت عني ما بقلبي. فقال جعفر: ومن عند أمير المؤمنين ألف دينار لأنه هو الذي زال عنه ما كان يجده.

فقال أبو الحسن: صدق الوزير أبقاه الله تعالى، ثم إنه قبض الألفين ديناراً ومضى إلى منزله والله أعلم⁽¹⁰⁾.

الرشيد يبكي على البرامكة

قال يحيى بن سلام الأبرش، قال: حدثني أبي قال: خرج الرشيد للصيد يوماً بعدما أباد البرامكة فاجتاز بجدار خراب من جدران بني برمك فرأى لوحاً مكتوباً عليه هذه الأبيات:

يا منزلاً لعب الزمان بأهله ... فأبادهم بتفرق لا يجمع
إن الذين عهدتهم فيما مضى ... كان الزمان بهم يضر وينفع
أصبحت تفرع من رآك، وطالما ... كنا إليك من المخاوف نضرع

ذهب الذين يعيش في أكنافهم ... وبقي الذين حياتهم لا تنفع
قال: فبكي الرشيد، وأقبل على الأصمعي وقال: أتعرف شيئاً من أخبار
البرامكة تحدثني به؟ فقال الأصمعي: ولي الأمان.
قال: ولك الأمان.

فقال: أحدثك بشيء شاهدته بعيني من الفضل بن يحيى، وذلك أنه خرج يوماً
للصيد والقنص، وهو في موكبه، إذ رأى أعرابياً على ناقة قد أقبل من صدر
البرية يركض في سيره، قال: هذا يقصدني.
فقلت: ومن أعلمك؟ قال: لا يكلمه أحدٌ غيري.

فلما دنا الأعرابي ورأى المضارب تضرب والخيام تنصب والعسكر الكثير،
والجم الغفير، وسمع الغوغاء والضجة، ظن أنه أمير المؤمنين، فنزل وعقل
راحلته وتقدم وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.
قال: الآن قاربت، اجلس.

فجلس الأعرابي فقال له الفضل: من أين أقبلت يا أخا العرب؟ قال: من
قضاة.

قال: من أدناها أم من أقصاها؟ قال: من أقصاها.
قال الأصمعي: فالتفت إلي الفضل وقال: كم من العراق إلى أرض قضاة؟
فقلت: ثمانمائة فرسخ.

فقال: يا أخا العرب، مثلك لم يقصد من ثمانمائة فرسخ إلى العراق إلا لشيء.
قال: قصدت هؤلاء الأماجد الأنجاد الذين قد اشتهر معروفهم في البلاد.
قال: من هم؟ قال: البرامكة.

قال الفضل: يا أخا العرب البرامكة خلق كثير، وفيهم جليل وخطير، ولكن
منهم خاصة وعامة، فهلا أفردت لنفسك منهم من اخترت لنفسك وأتيته
لحاجتك؟ قال: أجل! أطولهم باعاً وأسمحهم كفاً.
قال: من هو؟ قال: الفضل بن يحيى بن خالد.

فقال له الفضل: يا أخا العرب، إن الفضل جليل القدر عظيم الخطر، إذا جلس
للناس مجلساً عاماً لم يحضر مجلسه إلا العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء
والكتاب والمناظرون للعم، أعالم أنت؟ قال: لا.

قال: أفأديب أنت؟ قال: لا.

قال: أفعارف أنت بأيام العرب وأشعارها؟ قال: لا.

قال: هل وردت على الفضل بكتاب وسيلة؟ قال: لا.

فقال: يا أخا العرب غرتك نفسك، مثلك يقصد الفضل بن يحيى، وهو كما عرفتكَ عنه من الجلالة، بأي ذريعة أو وسيلة تقدم عليه؟ قال: والله يا أمير المؤمنين ما قصدته إلا لإحسانه المعروف وكرمه الموصوف وببيتين من الشعر قلتهما فيه.

فقال الفضل: يا أخا العرب أنشدني البيتين فإن كانا يصلحان أن تلقاه بهما أشرت عليك بلاقئه، وإن كانا لا يصلحان أن تلقاه بهما بررتك بشيء من مالي ورجعت إلى باديتك وإن كنت لم تستحق بشعرك شيئاً. قال: أفتفعل أيها الأمير؟ قال: نعم.
قال: فإني أقول:

ألم تر أن الجود من عهد آدم ... تحدر حتى صار يملكه الفضل
ولو أن أمأً قضها جوع طفلها ... ونادت على الفضل بن يحيى اغتذى الطفل
قال: أحسنت يا أخا العرب. فإن قال لك هذان البيتان قد مدحنا بهما شاعر،
وأخذ الجائزة عليهما، فأنشدني غيرهما فما تقول؟ قال: أقول:
قد كان آدم حين حان وفاته ... أوصاك، وهو يجود بالحبوباء
ببنيه أن ترعاهمو، فرعيتهم ... وكفيت آدم عيلة الأبناء
قال: أحسنت يا أخا العرب، فإن قال لك الفضل ممتحناً: هذان البيتان أخذتهما
من أفواه الناس، فأنشدني غيرهما ما تقول، وقد رمقتك الأدباء بالأبصار،
وامتدت الأعناق إليك، وتحتاج أن تناضل عن نفسك؟ قال: إذن أقول:
ملت جهابذة فضل وزن نائله ... ومل كاتبه إحصاء ما يهب
والله لولاك لم يمدح بمكرمة ... خلق، ولم يرتفع مجد ولا حسب
قال: أحسنت يا أخا العرب، فإن قال لك هذان البيتان أيضاً أخذتهما من أفواه
الناس ما كنت قائلاً؟ قال: أقول:

وللفضل صولات على مال نفسه ... يرى المال منه بالمذلة والعنا
ولو أن رب المال أبصر ماله ... لصلى على مال الأمير وأذنا
قال: أحسنت يا أخا العرب، فإن قال لك الفضل: هذان البيتان مسروقان،
أنشدني غيرهما ما تقول؟ قال: إذن أقول:
ولو قيل للمعروف ناد أخا العلا ... لنادى بأعلي الصوت يا فضل يا فضل
ولو أنفقت جدواك من رمل عالج ... لأصبح من جدواك قد نفذ الرمل
قال: أحسنت يا أخا العرب، فإن قال لك الفضل: هذان البيتان مسروقان أيضاً
أنشدني غيرهما ما تقول؟ قال: أقول:
وما الناس إلا اثنان: صب وبازل ... وإني لذاك الصب والبازل الفضل

على أن لي مثلاً كما ذكر الورى ... وليس لفضل في سماحته مثل
قال: أحسنت يا أبا العرب، فإن قال لك الفضل: أنشدني غيرهما ما تقول؟
قال: أقول أيها الأمير:

حكى الفضل عن يحيى سماحة خالد ... فقامت به التقوى وقام به العدل
وقام به المعروف شرقاً ومغرباً ... ولم يك للمعروف بعد ولا قبل
قال: أحسنت يا أبا العرب، فإن قال لك: قد ضجرنا من الفاضل والمفضول
أنشدني بيتين على الكنية لا على الاسم ما تقول؟ قال: إذن أقول:
ألا يا أبا العباس يا واحد الورى ... ويا ملكاً خد الملوك له نعل
إليك تسير الناس شرقاً ومغرباً ... فرادى وأزواجاً كأنهم نحل
قال: أحسنت يا أبا العرب، فإن قال لك الفضل: أنشدنا غير الاسم والكنية
والقافية.

قال: والله لئن زادني الفضل وامتحنني بعد هذا لأقولن أربعة أبيات ما سبقني
إليها عربي ولا أعجمي، ولئن زادني بعدها لأجمعن قوائم ناقتي هذه وأجعلها
في حر أم الفضل وأرجعن إلى قضاة خاسراً، ولا أبالي. فنكس الفضل رأسه،
وقال للأعرابي: يا أبا العرب أسمعني الأبيات الأربعة: قال: أقولك
ولائمة لامتك، يا فضل، في الندى ... فقلت لها: هل يقدر اللوم في البحر
أتهين فضلاً عن عطايه للغنى ... فمن ذا الذي ينهى السحاب عن القطر
كأن نوال الفضل في كل بلدة ... تحدر هذا المزن في مهمة فقر
كأن وفود الناس في كل جهة ... إلى الفضل لا قوا عنده ليلة القدر
قال: فأمسك الفضل عن فيه، وسقط على وجهه ضاحكاً، ثم رفع رأسه وقال:
يا أبا العرب، أنا والله الفضل بن يحيى، سل ما شئت.
فقال: سألتك بالله أيها الأمير إنك لهو؟ قال: نعم.
قال له: فأقلني.

قال: أقالك الله، اذكر حاجتك.

قال: عشرة آلاف درهم.

قال الفضل: ازدريت بنا وبنفسك، يا أبا العرب، تعطى عشرة آلاف درهم في
عشرة آلاف.

وأمر بدفع المال، فلما صار المال إليه حسده وزيره الفضل، وقال: يا مولاي
هذا إسراف يأتيك جلف من أجلاف العرب بأبيات استرقها من أشعار العرب
فتجزيه بهذا المال؟ فقال: استحقه بحضوره إلينا من أرض قضاة.

قال الوزير: أقسمت عليك يا مولاي إلا أخذت سهماً من كنانتك وركبته في كبد قوسك وأومات به إلى الأعرابي فإن رد عن نفسه ببيت من الشعر، وإلا استعدت مالك، ويكون له في بعضه كفاية.

فأخذ الفضل سهماً وركبه في كبد قوسه وأوماً به إلى الأعرابي وقال له: رد سهمي ببيت من الشعر؟ فأنشأ يقول:

لقوسك قوس الجود والوتر والندى ... وسهمك سهم العز فارم به فقري
قال: فضحك الفضل وأنشأ يقول:

إذا ملكت كفي منالاً ولم أنل ... فلا انبسطت كفي ولا نهضت رجلي
على الله إخلاف الذي قد بذلته ... فلا مسعدي بخلي ولا متلفي بذلي
أروني بخيلاً نال مجداً ببخله ... وهاتوا كريماً مات من كثرة البذل
ثم قال الفضل لوزيره: أعط الأعرابي مائة ألف درهم لقصده وشعره، ومائة ألف درهم ليكفيها شر قوائم ناقتة.

فأخذ الأعرابي المال وانصرف، وهو يبكي فقال له الفضل: مم بكائك يا أعرابي استقلاً بالمال الذي أعطيناك؟ قال: لا، ولكني أبكي على مثلك يأكله التراب وتواريه الأرض، وتذكرت قول الشاعر:
لعمرك ما الرزية فقد مال ... ولا فرس يموت ولا بعير
ولكن الرزية فقد حر ... يموت لموته خلق كثير
وتوجه الأعرابي بالمال مسروراً رحمة الله عليهم أجمعين⁽¹¹⁾.

الرشيد وذقن أبي نواس

ويحكى أن الرشيد قال لأبي نواس: بعني ذقنك؟ قال: بكم؟ قال: بألف دينار.
قال: بعتك.

فقال الرشيد لخازن داره: ادفع له ألف دينار، فدفعها له فأخذها وربطها وقال:
يا أمير المؤمنين خذ ما اشتريت.
قال: لا، ولكن جعلتها وديعة عندك.

قال: فمضى أبو نواس واشتغل بأمره ولهوه، وهو خائف على ذقنه من أمير المؤمنين. قال: فبينما هو متفكر في شيء يفعله إذ جاء قاصد أمير المؤمنين، فلم يقدر أن يتكلم دون أن قام معه ودخل إلى دار الخلافة، فوجده في جمع كثير من خواص المملكة وأعوان الدولة، وكان من شأنه أن يجلس بالقرب من أمير المؤمنين، فتحدثوا وتماجنوا فضرط أبو نواس ضرورة مزعجة

أزعجت الحاضرين، فضحكوا جميعاً، وضحك أمير المؤمنين وقال له: في ذقنك يا معرص.
فقال له في الحال: الله أعلم هي ذقن من؟ فقال أمير المؤمنين: قد وهبتها لك يا معلون.

فأخذها وانصرف وكسب الألف دينار بهذه الحيلة والله أعلم، انتهى. (12)

يضرب الشاة الحد

وكان نصر بن مقبل عاملاً على الرقة، فلقي برجل من الظرفاء وجده ينكح شاة فقال: ما حملك على هذا؟ فقال: أيها الأمير، إنها والله ملك يميني، وقد قال الله تعالى: " أو ما ملكت أيمانكم " .

فأطلقه وأمر بضرب الشاة الحد، فإن ماتت تصلب.

قالوا: أيها الأمير إنها بهيمة.

قال: وإن كانت بهيمة فإن الحدود لا تعطل وإن عطلتها فبئس الوالي أنا. فأنتهى إلى الرشيد خبرها ولم يكن رآه قبل فدعا به فلما حضر بين يديه، قال: من أنت؟ قال: مولى لكلب.

فضحك منه ثم قال: كيف بصرك بالحكم؟ فقال: يا أمير المؤمنين، البهائم عندي والناس سواء، ولو وجب حد على بهيمة، وكانت أُمي أو أختي لحديثها ولم تأخذني في الله لومة لائم. فأمر الرشيد أن لا يستعان به على عمل فلم يزل معطلاً إلى أن مات، والله أعلم.

الرشيد يأمر بقتل أبي نواس

ويحكى أن هارون الرشيد أمر بقتل أبي نواس فقال: أتقتلني شهوةً لقتلي؟ فقال: لا، بل أنت مستحق للقتل.

قال: فيم استحقيت القتل؟ قال: بقولك:

ألا فاسقتني خمراً وقل لي هي الخمر... ولا تسقتني سراً إذا أمكن الجهر فقال: يا أمير المؤمنين، أفتعلم أنه سقاني وشربت؟ فقال له أمير المؤمنين: أظن ذلك.

فقال: يا أمير المؤمنين، أفتقتلني على الظن، وقد قال الله تعالى: " إن بعض الظن إثم " .

فقال له الرشيد: قد قلت ما تستحق به القتل.

فقال: ما هو؟ فقال له: قولك:

ما جاءنا أحدٌ يخبر أنه... في جنةٍ من مات أو في نار

فقال له: يا أمير المؤمنين! هل جاءنا أحد؟ قال: لا.

قال: أتقتلني على الصدق؟ فقال له الرشيد: أولست القائل:

يا أحمد المرتجى في كل نائبة ... قم سيدي نعص جبار السموات

فقال له: يا أمير المؤمنين! أوصار القول فعلاً؟ قال: لا أعلم.

قال: أفتقتلني على ما لم تعلم.

فقال له أمير المؤمنين: دع هذا كله، فقد اعترفت في مواضع كثيرة من شعرك بالزنا.

قال أبو نواس: قد علم الله هذا قبل علم أمير المؤمنين بقوله تعالى: " والشعراء يتبعهم الغاؤون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون " .

فقال الرشيد: خلوا عنه.

ومن هذا أخذ الصفي الحلي فقال:

نحن الألى جاء الكتاب مخبراً ... بعفاف أنفسنا وفسق الألسن

تغفر ذنوبه بأبيات

وعن محمد بن نافع، قال: رأيت أبا نواس في النوم بعد موته، فقلت: يا أبا نواس!

فقال: لآحين كنيت.

فقلت: الحسن بن هانئ.

قال: نعم.

قلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بأبيات قتلها عي علتي قبل موتي هي تحت الوسادة.

فسألت أهله فقلت: هل قال أخي شعراً؟ قالوا: لا نعلم! إلا أنه دعا بدواة وقرطاس وكتب شيئاً لا ندري ما هو.

فدخلت ورفعت وسادته وإذا أنا برقة مكتوب فيها:

يا رب! إن عظمت ذنوبي كثرة ... فلقد علمت بان عفوك أعظم

إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فمن الذي يدعو ويرجو المجرم

مالي إليك وسيلة إلا الرجا ... وجميل عفوك ثم إني مسلم (13)

وما جرى بينهما على يد القاضي بسبب الجراب

قيل إن الخليفة هارون الرشيد قلق ليلة، فاستدعى بوزيره جعفر البرمكي، فلما حضر عنده قال له: يا جعفر، غني قلقت وضاق صدري وأريد منك شيئاً يشرح خاطري.

فقال له جعفر: يا أمير المؤمنين، إن لي صديقاً اسمه علي العجمي، وعنده من جميع الحكايات والأخبار.

فقال: علي به.

فقال: سمعاً وطاعة.

ثم إن جعفرأ خرج من عند الخليفة في طلب علي العجمي، فأرسل خلفه فلما حضر قال: أجب أمير المؤمنين.

قال: سمعاً وطاعة.

فأتى الخليفة فسلم وترحم، فقال له: اجلس فجلس، فقال له الخليفة: اسمع يا علي، إنني الليلة ضيق الصدر، وسمعت عنك أن في ذهرك حكايات وأخباراً وأريد منك أن تسمعي ما يزل همي وفكري.

فقال: يا أمير المؤمنين، تريد أن أحكي لك شيئاً سمعته أو رأيته؟ فقال: إن كنت رأيت شيئاً فاحكه.

فقال: سمعاً وطاعة؟! اعلم يا أمير المؤمنين أنني سافرت في بعض السنين من بلدي إلى هذه المدينة، وهي بغداد، وصحبني غلام ظريف ومعه جراب نظيف، فأودعني إياه. فبينما أنا أبيع وأشتري، وإذا أنا برجل كردي ظالم معتد هجم علي وأخذ الجراب مني وقال: هذا الجراب جرابي، وكل ما فيه قماشي وثيابي.

فقلت: يا معشر الناس قد اعتراني الوسواس.

فقال الناس جميعاً: امضوا إلى القاضي، وكل بحكمه راضي.

فدخلنا عليه، وتمثلنا بين يديه، فقال القاضي: في أي شيء جئتما؟ فقال

الكردي: نحن خصمان.

قال: أيكما المدعي؟ فتقدم الكردي، وقال: أيد الله مولانا القاضي! هذا الجراب جرابي، وكل ما فيه قماشي وثيابي، وقد ضاع ووجدته مع هذا الرجل.

فقال القاضي: ومتى ضاع منك؟ فقال الكردي: ضاع مني بالأمس.

فقال القاضي: إن كنت عرفته فصف لي ما فيه.

فقال الكردي: إن في جرابي هذا مرودين من لجين، وأكحالا لعينين، ومنديلاً لليدين، ومشربتين مذهبتين، وشمعدانين ومكبتين وطبقين، وإبريقين،

وصينية وطشتين، وقدر ودستين، ومغرفة وملعقتين، ومسلة ومقلمة
وملبتين، وقعباً وقصعتين، ومخدة ونطعين، وجبة وفروتين، وبقرة
وعجلتين، وعنزاً وشاتين، ونعجة وخروفين، وقطين أبلقين، وجمالاً وناقتين،
وبقرة وثورين، ولبوة وسبعين، ودبة وثعلبين، ومرتبة وسريرين، وطبقة
وقاعتين، ورواقاً ومقعدين، ومطحناً ببابين، وجماعة أكراد يشهدون أن
الجراب جرابي.

فقال القاضي: فما تقول أنت يا علي؟ فتقدمت يا أمير المؤمنين، وقد بهتني
كلامه فقلت: أعز الله مولانا القاضي، أنا ما في جرابي إلا دويرة حراب
وأخرى بلا باب ومقصورة للكلاب وفيه للصبيان كتاب وشبان يلعبون
بالكعاب، وفيه عساكر وأطناب ومدينة بصرى وبغداد، وقصر كنعان بن شداد،
وكور وحداد، وشبكة وصياد وعصا وأوتاد، وبنات وأولاد وألف قواد
يشهدون أن الجراب جرابي.

فلما سمع الكردي هذا الكلام بكى وانتحب وقال: يا سيدي القاضي، جرابي
هذا معروف، وكل ما فيه موصوف، في جرابي هذا حصون وقلاع وقرى
وضياع وطابق للصراع ووحوش وضباع ورجال يلعبون الطابة والرقاع،
وإن في جرابي هذا حجرة ومهرين وفحلاً وحصانين ورمحين طويلين وسبعاً
وأرنبيين، وسكيناً وخنجرين، وبحراً وخليجين، وكمرأ وجوختين، وعشاري
وموكبين، وصاري وقريتين، وكوراً ودكانين، ومنقلة ونردين، وعجوزاً
وقحبتين، وقواداً وشاطرين ومخنثاً وعلقين وأعمى وبصيرين وأعرج
وكسيحين وعياراً وأزعرين وجامعاً ومدرستين وديراً وكنيستين وقسيساً
وشماسين وبطركاً وراهبين وقاضياً وشاهدين يشهدون أن الجراب جرابي.
فقال القاضي: ما تقول أنت يا علي.

فبادرت يا أمير المؤمنين، وقد امتلأت غيظاً وزدت في الحمق وقلت: أيد الله
مولانا القاضي! إن في جرابي هذا زردخانات صفاح، وخزائن سلاح، وألف
كباش نطاح في عشرين مراح، وأربعين كلباً نباح، وبساتين وكروم عنب
وتين وتفتح، وصوراً وأشباحاً وقتاني وأقداحاً وعرائس ملاحاً ومغاني
وأفراحاً وهرجاً وصباحاً وعبدلاً وفلاحاً وأخاه نجاحاً ورفيقه صباحاً، ومعهم
سيوف ورماح، وقسي ونشاب وأصدقاء وأحباب وخلان وأصحاب ومجلس
للعتاب وندمان للشراب، وطنبور مع رباب، ونايات وقنان مصفوفات،
وصبيان ودائيات، وأخوات معلمات، وبنات متجليات وجوار مغنيات وجوار
حبشيات وثلاث هنديات وأربع بدويات وخمس روميات وست تركيات وسبع

عجميات وثمانى قفجيات وتسع كرجيات وعشر كلبات، والدجلة الفرات وشبكة وصياد وقداحة وزناد، وإرم ذات العماد، وألف جواد، وقصر شداد بن عاد، وخانات مع حمامات، وقدم ونجار وخشبة مع مسمار وتاجر مع عطار، وبزار مع بيطار، وعبد أسود بمزمار ومقدم وركبدار ومدن وأمصار ومائة ألف دينار، وبواب وكشدار ورأس نوبة، وعلم دار، والكوفة مع الأنبار وعشرين صندوقاً ملأى قماشاً ودكان نحاس، وحاصل معاش، وبرجان للحمام وغزة وعسقلان، ومن دمياط إلى أسوان وإيوان كسرى وملك سليمان، ومن كوش نعمان إلى أرض خراسان وبلخ وأصبهان ومن الهند إلى بلاد السودان، وفيه أطال الله عمر مولانا القاضي، قماش وغلائل وعراض وموسى بحد ماض، يحلق ذقن مولانا القاضي، إن حكم أن الجراب ما هو جرابي.

فعند ذلك يا أمير المؤمنين حار القاضي مما سمع ثم قال: ما أراكما إلا شخصين نحسين تلعبان بالقضاة والحكام لأنه ما وصف الواصفون ولا سمع السامعون ما وصفتم في هذا الجراب، ما هذا إلا بحر ليس له قرار. ثم أمر القاضي بفتح الجراب ففتحه الكردي، فإذا فيه خبز وليمون، وجبن وزيتون، ثم إني رميت الجراب قدام القاضي والكردي، ومضيت إلى حال سبيلي.

فلما سمع أمير المؤمنين ذلك ضحك حتى استلقى على قفاه وقد زال همه وغمه، وأحسن جائزة علي العجمي، وانصرف والله أعلم⁽¹⁴⁾.

الرشيد في منزل إبراهيم الموصلي

وحكى مسرور الخادم أن الرشيد قصد الركوب في غير عادته، فقلت له: أين تريد يا أمير المؤمنين في هذا الوقت؟ قال: إلى منزل إبراهيم الموصلي. قال: فمضى حتى انتهى إلى منزل إبراهيم الموصلي، فخرج وتلقاه وقبل حافر حماره، وقال: يا أمير المؤمنين في مثل هذه الساعة تظهر؟ قال: نعم، شوق طرق بي إليك. ثم نزل وجلس في طرف الإيوان وأجلس إبراهيم، فقال له إبراهيم: يا سيدي استنبطنا شيئاً نأكله قبل الشراب. قال: نعم. فجاء بمطعم كان معداً له، فأصاب منه يسيراً، ثم دعا بشراب حمل معه، فقال له الموصلي: يا سيدي أغنيك أم تغنيك إماؤك؟ قال: بل الجواري.

فخرجت جوارى إبراهيم فأخذن صدر الإيوان وجانيبه، فقال إبراهيم: يضربن كلهن أم واحدة واحدة؟ فقال: بل يضربن اثنتان اثنتان، وواحدة واحدة تغني. قال: فضربن اثنتان وغنت واحدة منهن، فقالت:

إذا دعا باسمها داع يحدثني ... كادت لها مهجتي من حرها تقع
لو أن لي صبرها أو عندها جزعي ... لكنت أعقل ما آتي وما أدع
لا أحمل اللوم فيها، والغرام بها ... ما كلف الله نفساً غير ما تسع
ثم غنت أخرى، فقالت:

طرقك زائرةٌ فحي خيالها ... بيضاء تخلط بالجمال دلالها
هل يطمسون من السماء نجومها ... بأكفهم أو يطمسون هلالها
شهدت من الأنفال آخر آيةٍ ... فأردتموا بمحالكم إبطالها
ثم غنت أخرى، فقالت:

شطت سعاد وأضحى البين قد أبدا ... وأورثتك سقاماً يصدع الكبد
فما احتيالك في جد الرحيل بهم ... وخلفوك غداة البين، منفردا
لا أستطيع لهم صبراً ولا جلدأ ... ولا تزال أحاديثي بهم جددا
قال: فقام حتى وصل إلى صدر الإيوان، وأخذ بجانيبه والرشيد يسمع ولا
ينصت لشيء من غنائهن، إلى أن غنته صبية من صدر الإيوان من حاشية
الصفة هذين البيتين لأبي نواس:

يا موري الزند قد أعيت قوادحه ... أقبس بما شئت من قلبي بمقباس
ما أقبح الناس في عيني وأسمجهم ... إذا نظرت فلم أنظرك في الناس
فطرب الرشيد لغنائهما واستعاد الصوت مراراً وشرب أرطالاً، وسأل الجارية
عن صانعه، فأمسكت فاستدناها، فتقاعست، فأمر بها، فأقبلت بين يديه،
فأخبرته بشيء أسرته إليه، فدعا بحماره فركبه، ثم التفت إلى إبراهيم
الموصللي، فقال له: ما ضرك أن تكون خليفة.

فكادت روحه تخرج حتى دعاه بعد ذلك وأدناه. قال: وكان الذي أخبرته به
سراً أن الصنعة في الصوت لأخته عليّة بنت المهدي، وكانت الجارية لها،
فوجهتها إلى إبراهيم الموصللي يطارحها، ومن قول أبي نواس:
دع عنك لومي فإن اللوم إغراء ... وداوني بالتي كانت هي الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها ... لو مسها حجر مسته سراء
من كف ذات حر في ذي ذكر ... لها محبان لواط وزناء
قامت بإبريقها، والليل معتكراً ... فلاح من وجهها في البيت للألاء
أرسلت من قم الإبريق صافية ... كأنما أخذها بالعين إغفاء

رقت عن الماء حتى ما يلائمها ... لطافةً وجفا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نوراً لمازجها ... حتى تولد أنوارٌ وأضواءٌ
دارت على فتية دان الزمان لهم ... فما يُصيبهمو إلا بما شاؤوا
فقل لمن يدعي في العلم فلسفةً ... حفظت شيئاً وغاب عنك أشياء
وقال الشاعر:

كعصفورةٍ في كف طفلٍ يهينها ... تذوق مرار الموت، والطفل يلعب
فلا الطفل ذو عقل يرق لحالها ... ولا الطيرُ مطلق الجناحين يهرب (15)

يا أحمق

قال المأمون تدرون ما جرى بيني وبين أمير المؤمنين هرون الرشيد كان لي
اليه ذنب فدخلت مسلماً عليه فقال أغرب يا أحمق فاتصرفت مغضباً ولم أدخل
اليه أياما فكتب الي رقعة يقول:

ليت شعري وقد تمادى بك الهجر أمنك التفريط أم كان مني إن تكن خنتنا
فعنك عفا الله وإن كنت خنتكم فاعف عني فسرت اليه فقال إن كان الذنب لنا
فقد استغفرناك وإن كان لك فقد غفرناه فقلت له قلت لي يا أحمق ولو قلت لي
يا أرعن كان أسهل علي فقال ما الفرق بينهما قلت له الرعونة تتولد عن
النساء فتلحق الرجل من طول صحبتهن فإذا فارقهن وصاحب فحول الرجال
زالت عنه وأما الحمق فانه غريزة (16).

هذا شيخ سخيف سفلة فاعزله

حدث عبد الرحمن بن مسهر قال ولاني القاضي أبو يوسف القضاء بجبل
وبلغني أن الرشيد منحدر الى البصرة فسألت أهل جبل أن يثنوا علي
فوعدونني ان يفعلوا ذلك وتفرقوا فلما آيسوني من انفسهم سرحت لحيتي
وخرجت فوقفت له فوافي وأبو يوسف في الحراقة فقلت يا أمير المؤمنين نعم
القاضي قاضي جبل قد عدل فينا وفعل وصنع وجعلت أثني على نفسي فرآني
أبو يوسف فطأطأ رأسه وضحك فقال هارون مم تضحك فقال إن المثني على
نفسه هو القاضي فضحك هرون حتى فحص برجليه وقال هذا شيخ سخيف
سفلة فاعزله فعزلني (17).

¹⁵ (إعلام الناس بما وقع للبرامكة ، ص 131-132

¹⁶ (ابن الجوزي ، أخبار الحمقى والمغفلين ، ص 24

¹⁷ (ابن الجوزي ، أخبار الحمقى والمغفلين ، ص 101-102

والله لقد كنت أسوأ الناس حالاً

وعن محمد بن المبرد عن الحسن بن رجاء أن الرشيد لما غضب على ثمامة دفعة إلى سلام الأبرش وأمره أن يضيق عليه وأن يدخله بيتاً ويطين عليه ويترك فيه ثقباً ففعل دون ذلك وكان يدس إليه الطعام فجلس سلام عشية وهو يقرأ في المصحب فقرأ ويل يومئذ للمكذبون فقال ثمامة إنما هو المكذبين وجعل يشرح ويقول المكذبون هم الرسل والمكذبين هم الكفار فقال قد قيل لي أنك زنديق ولم أقبل ثم ضيق عليه أشد الضيق.

قال ثم رضي الرشيد عن ثمامة فجالسه فقال أخبروني عن أسوأ الناس حالاً فقال كل واحد شيئاً قال ثمامة وبلغ القول إلي فقلت يا أمير المؤمنين عاقل يجري عليه حكم جاهل فتبينت الغضب في وجهه فقلت يا أمير المؤمنين ما أحسبني وقعت بحيث أردت قال لا والله فأنشرح فحدثته بحديث سلام فضحك حتى استلقى وقال صدقت والله لقد كنت أسوأ الناس حالاً⁽¹⁸⁾.

جمال الوجه فتنة لعباد الله

قال حليان المغني: دخلت دار هارون الرشيد فإذا أنا بجارية خماسية، أحسن الناس وجهاً، على يدها سطران مكتوبان بالغالية، فقرأتها فإذا هما ممّا عمل في طران الله، فتنة لعباد الله وقال بعضهم: سمعت يحيى بن سفيان يقول: رأيت بمصر جاريةً بيعت بألف دينار، فما رأيت وجهاً قط أحسن من وجهها صلى الله عليها. قال: فقلت له يا أبا زكريّا، مثلك يقول هذا مع ورعك وفقهك؟ فقال: وما تنكر عليّ من ذلك؟ صلى الله عليها وعلى كلّ مليح: يا ابن أخي الصلّاة رحمة⁽¹⁹⁾.

على العهد باقية

قال الأصمعي: قال لي الرشيد: امض إلى بادية البصرة فخذ من تحف كلامهم وطرف حديثهم. فأنحدرت، فنزلت على صديق لي بالبصرة، ثم بگرت أنا وهو على المقابر، فلما صرت إليها إذا بجارية نادى إلينا ريح عطرها قبل الدنوّ منها، عليها ثياب مصبغات وحلى، وهي تبكي أحرّ بكاء. فقلت: يا جارية ما شأنك؟ فأنشأت تقول:

فإن تسألاني فيم حزني؟ فأنني ... رهينة هذا القبر يا فتیان.
أهابك إجلالاً، وإن كنت في الثرى، ... مخافة يوم أن يسوءك مكاني
وإنّي لأستحييك، والترّب بيننا، ... كما كنت أستحييك حين تراني.

¹⁸ (ابن الجوزي ، أخبار الحمقى والمغفلين ، ص151-152

¹⁹ (ابن الجوزي ، أخبار النساء ، ص4

فقلنا لهاك ما رأينا أكثر من التّفاوت بين زيّك وحزنك فأخبرني بشأنك؟ فأنشأت تقول:

يا صعب القبر، يا من كان يؤنسني ... حياً، ويكثر في الدّنيا مواساتي،
أزور قبرك في حلّي وفي حلّ، ... كأثني لست من أهل المصيبات؛
فمن رأي، رأى عبريّ مفاجئة ... مشهورة الزّيّ تبكي بين أمواتي.
فقلنا لها وما الرّجل منك: قالت: بعلي، وكان يجب أن يراني في مثل هذا
الزّيّ، فاليت على نفسي أن لا أغشى قبره إلّا في مثل هذا الزّيّ لأنّه كان
يحبه أيام حياته، وأنكرتماه أنتما عليّ.

قال الأصمعي: فسألته عن خبرها ومنزلها. وأتيت الرّشيد فحدّثته بما سمعت
ورأيت، حتّى حدّثته حديث الجارية. فقال: لا بدّ أن ترجع حتّى تخطبها إليّ من
وليّها، وتحملها إليّ، ولا يكون من ذلك بد. ووجه معي خادماً ومالاً كثيراً.
فرجعت إلى قومها فأخبرتهم الخبر، فأجابوا وزوّجوها من أمير المؤمنين
وحملوها معنا وهي لا تعلم. فلمّا صرنا إلى المدائن نما إليها الخبر، فشهمت
شهقة فماتت، فدفناها هنالك. وسرت إلى الرّشيد فأخبرته الخبر، فما ذكرها
وقتاً من الأوقات إلّا بكى أسفاً عليها⁽²⁰⁾.

زوجة الرّشيد ومخارق

قال إسحاق بن إبراهيم: كان مخارق يهوى البهار جارية أمّ جعفر وشغف بها
حتّى أفضى غايته في حبّها. فبينما هو منصرف ذات ليلة من دار المأمون في
دجلة، وقد عمل الشراب فيه، وأمّ جعفر جالسة في دارها على دجلة إذ رفع
عقيرته يغني شعر عباس بن الأحنف:

إن يمنعوني ممري قرب داركم، ... فسوف أنظر من بعد إلى الدار.

ما ضرّ جيرانكم، والله يكلؤهم، ... لولا شقائي إقبالي وإدباري

لا يقدرّون على منعي، وإن جهدوا ... إذا مررت، وتسليمي بإجهاري.

فسمعت أمّ جعفر صوته فأمرت خدامها فصاحوا بملاحة فقدم وصعد إليها،

فدعت له بكرسيّ وصينيّة فيها نبيذ فشرب، وخلعت عليه وقالت لجواريتها:

أضربن معه. فكان أوّل ما تغنى به:

أغيب عنك بوّد لا يغيره ... نأي المحلّ ولا صرف من الزّمن

فإن أعش فلعلّ الدّهر يجمعنا ... وإن أمت فبطول الشّوق والحزن

قد حسّن في عينيّ ما صنعت ... حتّى أرى حسناً ما ليس بالحسن

قال، فاندفعت البهار تباريه في الصّوت وتغني:

تعتلّ بالشغل عَنَّا لا تكَلِّمنا ... والشغل للقلب ليس الشغل للبدن
فضحكت أم جعفر، وقالت، ما رأيت ولا سمعت قط بأحسن من هذا. ووهبت له
الجارية فأخذها وانصرف⁽²¹⁾.

أخذ الجارية والعتيدة والدنانير

قال إبراهيم بن الخطيب: حدثني مخارق قال: كنت عند الرشيد فلما أراد
الانصراف قال لي: يا مخارق بگر عليّ. فقلت: نعم يا أمير المؤمنين. فلما
أصبحت بگرت أريد ما ذكره، فإذا جارية راكبة وهي أحسن الناس عينين في
النقاب، فنظرت إليها، ونظرت إليّ، فلم أملك نفسي وتعشقتها وتبعتها حتى
دخلت منزل المعبدى الهاشمي، فقلت لغلماي: إذا كان المغرب فصيروا إليّ،
فإذا كنت في الدنيا خرجت إليكم، وإذا كنت مت فقد قضيت وطراً. قال:
واقترحت ودخلت الدار، فإذا جماعة مجتمعون وقد أحضروا طعاماً فأكلت
معهم، وأحضر الشراب، وغنت الجارية فإذا هي أحذق الناس وأطيبهم،
فغنيّت، فقال المعبدى: ما أحسنه وأبهاء، فمن هو؟ فقال له القوم: ما نعرفه.
فقال: ما أظرف هذا يدخل منزلي بغير أمرى أبغوا إليّ صاحب الشرطة. وكلّ
ذلك بمسمعي، قالت الجارية: يا مولاي لا تفعل، لعلّ له عذراً. فبحياتي هب لي
جرمه فقد رحمته، وأحسب أنّ هذه صناعته. قال: فطابت نفسي فلما خرجت
قال لي: يا فتى تغني؟ فقلت: نعم. فغنيّت، فطرب القوم وقال المعبدى: إن كان
في الدنيا مخارق فأنت هو! قلت: نعم أنا مخارق وحدثته حديثي والسبب في
دخول منزله، فسرّ وفرح ودعا بدواة وقرطاس وأقبل يكتب ويعود إليه
الجواب، ثم وزن مالا ووجه به.

فلما كان بالعشيّ قال: يا غلام هات تلك العتيدة. فأحضر عتيدة مملوءة طيباً،
وقال: هات ذلك التخت. فأحضره إيّاه، فقال: أتدري ما نحن فيه: قلت: لا. قال:
قد اشتريت لك الجارية بأربعين ألف دينار، وهذه عتيدة فيها طيب، وتخت
ثياب. فأخذت بيدها وانصرفت بها عروساً، فلما أصبحت بگرت على الرشيد
فقال لي: يا ابن الفاعلة أين كنت؟ فحدثته الحديث فسرّ به، وقال: ما توهّمت
أنّ في أهلي مثل هذا. وأمر من ساعته أن يحمل إليه أربعون ألف دينار⁽²²⁾.

²¹ (ابن الجوزي ، أخبار النساء ، ص 54

²² (ابن الجوزي ، أخبار النساء ، ص 55

دخل وأجبر على تركها

وروي عن يحيى بن خالد بن برمك قال: كنت أهوى جاريتي دنائير، وهي لمولاتها زهراء، فلما وضع المهدي الرّشيد في حجري اشتريتها؛ فلم أسرّ بشيءٍ من الدنيا مثل سروري بها وبملكها، فما لبثت إلّا يسيراً حتّى وجّه المهدي ابنه الرّشيد غازياً إلى بلد الرّوم، فخرجت معه، فعظم على فراقها، فأقبلت لا أتهنأ بطعان ولا شراب صباة بها وذكراً لها. فأنا ليلةً في مضربي، وقد أصابني بردٌ شديدٌ وثلجٌ كثيرٌ، وأنا أتقلب على فراشي أذكر الجارية، إذ سمعت غناءً خفياً وصوت عودٍ بالقرب مني. فأنكرت ذلك وجلست على فراشي فأشجاني الصّوت من غير أن أفهم حتّى أبكاني. فقامت، ولم أوقظ أحداً من العسكر، حتّى انتهيت إلى خيمةٍ صغيرةٍ من خيام الجند، فإذا فيها سراجٌ، فدنوت منها، فإذا فتى جالسٌ، وإذا بين يديه ركوةٌ فيها شرابٌ وفي حجره عودٌ يضرب عليه ويتغنّى بهذا الصّوت:

ألا يا لقومي أطلقوا غلّ مرتهن ... ومنّوا على مستشعر الهمّ والحزن.
ألم ترها بيضاء، روداً شابها ... لطيفةً طيّ البطن كالشّادن الأغن
قال: فكّلما غنى بيتاً بكى وتناول قدحاً فصّب فيه من ذلك الشّراب، وشرب، ثمّ يعود إلى مثل ذلك.

قال: فأقامت طويلاً أرى ما يفعل وأبكي لبكائه، ثمّ سلّمت فردّ السّلام، واستأذنت فأذن لي فدخلت، فلما رآني أجلّني وأوسع لي. فقلت: يا فتى خبرني بخبرك، وما أنت فيه، وما سبب هذا البكاء؟ قال: أنا فتى من الأبناء، لي ابنة عمّ قد نشأنا جميعاً فعلقتها وعلقتني، ثمّ بلغنا فحجبت عني، فسألت عمّي ليزوجنيها فأجاب، فمكثت حيناً أحتال لمهرها حتّى تهيأ فأديته، فدخلت بها، فلما أن كان يوم سابعها ضرب عليّ البعث وخرجت وبني من الشّوق إليها ما لا أجده، فحملت معي هذا العود، فإذا أصبت شراباً في بعض هذا القرى أخذت منه شيئاً، ثمّ أفعل ما ترى تذكّاراً إليها.

فقلت: فهل تعرفني؟ فأكرني، فما أدري أتعمداً أم حقيقةً.
قال، فقلت له: أنا يحيى بن خالد، فلما قلت له ذلك نهض قائماً. فقلت: اجلس، فإذا كان غداً فألقني، فهذا مضربي بالقرب منك، فأني أصير منك إلى ما تحب.
قال: ووافق ذلك رسولاً قد هيّأناه إلى المدينة، فما كان أسرع شيءٍ حتّى دنا الصّبح وتهيأ الناس للرّحيل، فأول من لقيني ذلك الفتى، فأثبت وجهه وقلت له: من أنت، وفي قيادة من أنت؟ فخبّرني، فمضيت حتّى دخلت على الرّشيد ومعى المؤتمرات، فكنت أمرها على سمعةٍ من عنوانٍ يكون له فيها، فقلت

وفتّى من الأنباء فلان بن فلان يطلق سراحه ويعطى عشرة آلاف درهم معونة له ويصحب فلاناً الرسول. ففعل ذلك وانصرف إلى أهله⁽²³⁾.

زَوْجُهَا الرَّشِيدُ وَأَمْرُ لَهَا بِالْمَالِ

قال إبراهيم بن المهدي: حجت مع الرشيد، فلما كنا بالمدينة خرجت إلى العقيق أسير على دابتي وليس معي غلامٌ، فوقفت على بئر عروة وعليها جارية سوداء وفي يدها دلوّ تملأ قربةً لها، فقلت: يا هذه اسقني. فنظرت إليّ وقالت: أنا مشغولة عنك. فقرعت قربوسي بمقرعتي موقعاً بها على القربوس، وغنّيت. فلما سمعت ذلك منّي ملأت دلوها وبادرت به إليّ وقالت: اشرب يا عمّ فشربت، فقالت: بالله يا عم أين أهلك أحمل إليهم هذه القربة؟ فقلت: بين يدي. فمضت معي حتّى أتت المضرب فلما رأت الولدان والخدم ذعرت، فقلت لها: لا بأس عليك. وأخذت الماء وأمرت من وصله، فقال لي الغلمان: قد جاء رسول أمير المؤمنين مراراً فمضيت إليه، فقال لي: أين كنت؟ فأخبرته بخبر الجارية، فأمر بطلبها، فأتي بها، فأمر بابتلاعها من مولاها، وأعتقها، وقال لها: هل من تودّينه يودّك وتحبّينه يحبّك؟ قالت: نعم عبدٌ لآل فلان. فأمر بابتلاعها وأعتقه ثمّ زوجها إياها، وأمر لهما بمالٍ.

أَرْجَعَهُ مِنَ الْيَمَنِ وَزَوْجَهُ مِنْ يَحِبِّ

حجّ الرشيد سنة إحدى عشرة من خلافته، فلما نزل بالكوفة، بعد قفوله من الحج، دعا إسماعيل بن صبيح فقال: إنّي أردت الليلة أن أطوف في محال الكوفة وقبائلها فتأهبّ لذلك، قلت: نعم. فلما مضى ثلث الليل قام وقمت معه، وركب حماراً وركبت أنا آخر، ومعني خادمٌ ومعه خادمٌ من خاصّة خدمه. فلم نزل نطوف المحال والقبائل حتّى انتهينا إلى النّخع فسمعنا كلاماً. فقال الرشيد لأحد الخادمين: أدن من الباب وتعرّف ما هذا الكلام؟ فتطلّع من موضع في الباب فرأى نسوةً يغزلن حول مصباح وجاريةٍ منهنّ تنشد شعراً وتردّد أبياته وتتبع كلّ بيت برنةٍ وأنةٍ، وتبدي زفرةً: وتفيض عبرةً، والنّسوان اللواتي معها يبكين لبكائها فحفظ الخادم من شعرها هذه الأبيات: هل أرى وجه حبيبٍ شقني، ... بعد فقدانيه، أفرط الجزع؛ قد برى شوقي إليه أعظمي، وبلى قلبي هواه وفزع. ليت دهرًا مرّ، والقلب به ... جذلّ، والعيش حلوّ قد رجع؛ وعفت آثاره منه فيا، ... ليت شعري، ما به الدّهر صنع؟ قد تمسّكت على وجدي به ... بجميل الصّبر، لو كان نفع.

فقال للخادمين: أعرفا الموضع إلى غد. ورجعنا إلى البصرة، فلما طلع الفجر وفرغ من صلاته وتسبيحه، قال للخادمين: أمضيا إلى الدار فإن كان فيها رجل من وجوه الحي فجيئنا به حتى أسأله عما أريده. فسار الخادمان إلى الدار فلم يجدا فيها رجلاً، فدخلوا إلى مسجد الحي فقالا لأهله: أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ويقول لكم: أحببت أن يجيئني منكم أربعة أسألهم عن أمر. قالوا: سمعاً وطاعة. وقاموا معهما فدخلوا على الرشيد، فقرّبهم وأدناهم، وقال لهم: طفت البارحة في بلدكم تفقّداً لأحوالكم، فسمعت في دار من دياركم امرأة تنشد شعراً وتبكي. وقد خفت أن تكون مغيبة، وأن نزاع النفس أهون من نزاع الشوق، وقطع الأوصال أهون من قطع الوصال، وقد أحببت أن أعرف خبرها منكم.

قالوا: يا أمير المؤمنين، هذه البارعة بنت عوف بن سهم كان أبوها زوجها ابن عمّ لها يقال له سليمان بن همام على عشرة آلاف درهم، فهلك أبواهما من قبل أن يجتمعا، فاكتتب زوجها مع عاملك إلى اليمن لقلة ذات يده، وخرج منذ خمس سنين، فحزنت عليه، وطال شوقها إليه، فهي تنشد الأشعار فيه وتستريح إلى ذكره. فأمر الرشيد من ساعته أن يكتب إلى عامله باليمن في حمل سليمان بن همام على البريد إلى حضرته إلى بغداد.

فما مضت أيام بعد وصول الرشيد حتى دخل عليه إسماعيل بن صبيح، فقال: يا أمير المؤمنين قد وصل النّخي الذي أمرت بحمله إليك. فأمر بإدخاله عليه، فنظر إلى رجل معتدل القامة، ظاهر الوسامة، ذرب اللسان، حسن البيان، فقال: أنت سليمان بن همام؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين. قال له: أقصص عليّ خبرك! فقصّ عليه الخبر فوجده مطابقاً لما خبره به الأربعة النّفر، فأمر له بعشرين ألف درهم، فأخذ ذلك من يومه ورحل إلى الكوفة فدخل بأهله وكان الرشيد يتعاهده ببرّه⁽²⁴⁾.

ما هذه؟

وبلغنا عن الرشيد أنه رأى يوماً في داره حزمة خيزران فقال له لوزيره الفضل بن الربيع ما هذه؟ فقال عروق الرماح يا أمير المؤمنين، ولم يرد أن يقول الخيزران لموافقته اسم أم الرشيد⁽²⁵⁾.

²⁴ (ابن الجوزي ، أخبار النساء ، ص 79

²⁵ (ابن الجوزي ، الأذكياء ، ص 22

ولكن هكذا قال لي أبو يوسف

كان عند الرشيد جارية من جواريه وبحضرته عقد جوهر فأخذ يقلبه ففقده فاتهما فسأله عن ذلك فأنكرت فحلف بالطلاق والعقاق والحج لتصدقته فأقامت على الإنكار وهو متهم لها وخاف أن يكون قد حنت في يمينه فاستدعى أبا يوسف وقص عليه القصة فقال أبو يوسف بتخليني مع الجارية وخادم معنا حتى أخرجك من يمينك ففعل ذلك فقال لها أبو يوسف إذا سألك أمير المؤمنين عن العقل فأنكريه فإذا أعاد عليك السؤال فقول لي قد أخذته فإذا أعاد عليك الثالثة فأنكري وخرج فقال للخادم لا تقل لأمر المؤمنين ما جرى وقال للرشيد سلها يا أمير المؤمنين ثلاث دفعات متواليات عن العقد فإنها تصدقك فدخل الرشيد فسألها فأنكرت أول مرة وسألها الثانية فقالت تصدقك فدخل الرشيد فسألها فأنكرت أول مرة وسألها الثانية فقالت نعم قد أخذته فقال أي شيء تقولين فقالت والله ما أخذته ولكن هكذا قال لي أبو يوسف فخرج إليه فقال ما هذا قال يا أمير المؤمنين قد خرجت من يمينك لأنها أخبرتك أنها قد أخذته وأخبرت أنك أنها لم تأخذه فلا يخلو أن تكون صادقة في أحد القولين وقد خرجت أنت من يمينك فسر ووصل أبا يوسف فلما كان بعد مدة وجد العقد (26).

هذه أجرة لوصفتك فإن نفعتنا زدناك

قال ابن خلف حدثني بعض أصحابنا قال بلغني أن الرشيد خرج يوماً متنزهاً وانفرد عن عسكره والفضل بن الربيع خلفه فإذا هو بشيخ قد ركب حماراً له وفي يده لجام كأنه مبرع محشو فنظر إليه فإذا هو رطب العينين فغمز الفضل عليه فقال له الفضل أين تريد قال حائطاً لي قال هل لك أن أدلك على شيء تداوي به عينيك فتذهب هذه الرطوبة قال ما أحوجني إلى ذلك قال له خذ عيدان الهواء وغبار الماء وورق الكمامة فصيره في قشر جوزة واكتحل به فإنه يذهب عنك ما تجد قال فاتكأ على قربوسة فضرط ضرطة طويلة ثم قال تأخذ هذه أجرة لوصفتك فإن نفعتنا زدناك قال فاستضحك الرشيد حتى كاد أن يسقط عن ظهر دابته. (27)

(26) ابن الجوزي ، الأذكياء ، ص36

(27) ابن الجوزي ، الأذكياء ، ص64

ما سلم الظبي على حسنه

قال الأصمعي كنت عند أمير المؤمنين الرشيد إذ دخل رجل ومعه جارية للبيع فتأملها الرشيد ثم قال خذ جاريك فلولا كلف في وجهها وخنس في أنفها لاشتريتها فانطلق بها فلما بلغت الستر قالت يا أمير المؤمنين ارددني إليك أنشدك بيتين حضراني فردها فأنشأت تقول:

ما سلم الظبي على حسنه ... كلا ولا البدر الذي يوصف
الظبي فيه خنس بين ... والبدر فيه كلف يعرف

فأعجبته بلاغتها فاشتراها وقرب منزلها وكانت أحظى جواريه عنده (28).

يا أحسن الناس خلقاً وخلقاً؟

عن العباس ابن رستم قال: دخلت أنا وأبان اللاحقي على جارية الناطفي في يوم صائف، وهي جالسة في الخيش فقال لها أبان.

لذة عيش الصيف في الخيش فقالت: لا في لقاء الجيش بالجيش.

فقلت لها معرضاً لها: ما أحسن ما قال جرير:

ظللت أراعي صاحبي تجلداً ... وقد علقتني من هواك علوق
فقلت غير متوقفة:

إذا عقل الخوف اللسان تكلمت ... بأسراره عين عليه نطوق

ثم عرضت على الرشيد، فدخلت عليه تتبخر، فقال لها: أتحيين أن أشتريك؟

قالت: ولم لا أحب ذلك يا أحسن الناس خلقاً وخلقاً؟ فقال لها: أما الخلق

فظاهر فما علمك بالخلق؟ قالت: رأيت شرارة، قد طاحت على ثوبك من

المجمر، لما جاء الخادم بالبخور إليك فسقطت على ثوبك فأحرقتة، فو الله ما

قطبت لها وجهاً، ولا راجعت من جناها حرفاً! فقال لها: والله لولا أن العيون

قد ابتذلتك ابتذالاً، مشتركاً كبيراً، لاشتريتك ولكنه لا يصح للخليفة، من هذه

سبيله! وردها إلى مولاها، فاشتراها طاهر بن الحسين بعد ذلك، وجعلها على

خزانة طيبه، فقالت: عرضتني للغيرة! فاعفني من ذلك، وأجعل إلي كسوتك،

ففعل (29).

من زهد رجال الحديث

قال محمد ابن المنذر الكندي -: وكان جاراً لعبد الله بن إدريس قال: حج الرشيد

ومعه الأمين والمأمون فدخل الكوفة فقال لأبي يوسف: قل للمحدثين يأتونا

يحدثونا، فلم يتخلف عنه من شيوخ الكوفة إلا اثنان عبد الله بن إدريس

²⁸ (ابن الجوزي ، الأذكياء ، ص103

²⁹ (أبو الفرج الأصبهاني ، الإمام الشواعر ، 3/1

وعيسى بن يونس، فركب الأمين والمأمون على عبد الله بن إدريس فحدثهما بمائة حديث، فقال المأمون لعبد الله: يا عم! أتأذن لي أن أعيدها عليك ومن حفظي؟ قال: افعل، فأعادها كما سمعها فكان ابن إدريس من أهل الحفظ يقول: لو لا أنني أخشى أن ينفلت مني القرآن ما رويت العلم، يعجب عبد الله من حفظ المأمون، وقال المأمون: يا عم! إلى جنب مسجدك دارٌ إن أذنت لنا اشتريناها ووسعنا بها المسجد، فقال: ما بي إلى هذا حاجة قد أجزأ من كان قبلي وهو يجزئني، فنظر إلى قرح في ذراع الشيخ فقال: إن معنا متطبين وأدوية، أتأذن لي أن يجيئك من يعالجك؟ قال: لا، قد ظهر بي مثل هذا وبرا، فأمر له بمال وجائزة فأبى أن يقبلها وصار إلى عيسى بن يونس فحدثهما، فأمر له المأمون بعشرة آلاف درهم، فأبى أن يقبلها فظن أنه استقلها، فأمر له بعشرين ألفاً، فقال عيسى: لا ولا إهليلجة ولا شربة ماء على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو ملأت لي هذا المسجد ذهباً إلى السقف، فانصرفا من عنده (30).

وكيف لا يكون ذلك؟

حدثنا محمد بن القاسم الأنباري، قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو محمد بن أبي سعد، قال: حدثنا عبد الله بن الربيع، قال: حدثني بعض أصحابنا، قال: صنع الرشيد ذات ليلة بيتاً واضطرب عليه الثاني، فقال: علي بالعباس بن الأحنف، فأتي به في جوف على حال من الذعر عظيمة، فقال له الرشيد: لا ترع، قال: وكيف لا يكون ذلك؟ وقد طرقت في منزلي في مثل هذا الوقت فلم أخرج من منزلي إلا والراعبة فيه، وأهلي لا يشكون في قتلي، فقال: إنما أحضرتك لبيت قتلته صعب علي أن أشفعه بمثله، قال: ما هو؟ قال: جنانٌ قد رأيناها ... فلم نر مثلاً بشراً فقال العباس:

يزيدك وجهها حسناً ... إذا ما زدته نظراً
إذا ما الليل جن علي ... ك بالإظلام واعتكرا
ودج فلم تر قمرا ... فأبرزها ترى قمرا
فقال الرشيد: أقل ما يجب علينا أن ندفع إليك دينك إذ نزل بك هذا الروع بعيالك منا. فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه (31).

³⁰ (المعافى بن زكريا، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 15/1

³¹ (المعافى بن زكريا، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 45/1

من مخارج أبي يوسف الفقيه

قال حماد بن إسحاق الموصلي، قال: حدثني أبي، قال: حدثني بشر بن الوليد وسألته من أين جاء؟ قال: كنت عند أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي، وكنا في حديث طريف، قال: فقلت له: حدثني به قال: قال لي يعقوب: بينا أنا البارحة قد أويت إلى فراشي، فإذا داق يدق الباب دقاً شديداً، فأخذت علي إزارني وخرجت، فإذا هرثمة بن أعين فسلمت عليه فقال: أجب أمير المؤمنين، قلت: يا أبا حاتم! لي حرمة وهذا وقت كما ترى، ولمت آمن أن يكون أمير المؤمنين دعاني لأمر من الأمور، فإنك أمكنك أن تدفع بذلك إلى غد فلعله أن يحدث له رأي، فقال: ما إلى ذلك سبيل، قلت: فما كيف كان السبب؟ قال: خرج إلي مسرور الخادم فأمرني أن آتي أمير المؤمنين بك، قلت: تاذن لي أن أصب علي ماء وأتحنط، فإن كان أمر من الأمور كنت قد أجدت وأحكمت أمري، وإن رزق الله تعالى العافية فلن يضر، فأذن لي فدخلت فلبست ثياباً جدداً وتطيبتُ بما أمكن من الطيب، ثم خرجنا حتى أتينا دار أمير المؤمنين الرشيد، فإذا مسرور واقف فقال له هرثمة: قد جئت به، فقلت لمسرور: يا أبا هاشم! خدمتي وحرمتي وميلي، وهذا وقت ضيق، لم طلبني أمير المؤمنين؟ قال: لا، قلت: فمن عنده؟ قال: عيسى بن جعفر، قلت: ومن؟ قال: ما عنده ثالث، قال: مر، فإذا صرت في الصحن فأتته في الرواق وهو ذاك جالس، فحرك رجلك بالأرض فإنه سيسألك، فقل له: أنا، فجئت ففعلت، قال: من هذا؟ قلت: يعقوب، قال: ادخل، فدخلت فإذا هو جالس وعن يمينه عيسى بن جعفر، فسلمت فرد علي السلام، وقال: أظننا روعناك؟ قلت: إي والله وكذاك من خلفي، قال: اجلس فجلست حتى سكن روعي، ثم التفت إلي فقال: يا يعقوب تدري لم دعوتك؟ قلت: لا. قال: دعوتك لأشهدك على هذا، إن عنده جارية سألته أن يهبها لي فامتنع، وسألته أن يبيعها فأبى، والله لئن لم يفعل لأقتلنه، قال: فالتفت إلى عيسى، فقلت: وما بلغ الله بجارية تمنعها أمير المؤمنين وتنزل نفسك هذه المنزلة؟ قال: فقال: عجلت علي في القول قبل أن تعرف ما عندي؟ قلت: وما في هذا الجواب؟ قال: إن علي يميناً بالطلاق والعناق وصدقة ما أملك ألا أبيع هذه الجارية ولا أهبها، فالتفت الرشيد فقال: هل له في ذلك مخرج؟ قلت: نعم، يهب لك نصفها ويبيعك نصفها، فيكون لم يهب ولم يبيع، قال عيسى: ويجوز ذلك؟ قلت: نعم، قال: فأشهدك أنني قد وهبت له نصفها وبعته النصف الباقي بمائة ألف دينار، فقال: الجارية، فأتي بالجارية وبالمال، فقال: خذها يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيها، قال: يا

يعقوب؟ بقيت واحدة، قلت: وما هي؟ قال: هي مملوكة ولا بد أن تستبرأ،
 ووالله لئن لم أبت معها ليلتي إني لأظن نفسي ستخرج، فقلت: يا أمير
 المؤمنين تعتقها وتتزوجها فإن الحرة لا تستبرأ، قال: فإني قد عتقتها فمن
 يزوجنيها؟ قلت: أنا، قال: فافعل، فدعا بمسرور الخادم وحسين فخطبت
 فحمدت الله وزوجته على عشرين ألف دينار، ودعا بالمال ودفعه إليها، ثم
 قال: يا يعقوب؟ انصرف، ورفع رأسه إلى مسرور فقال: يا مسرور؟ قال لبيك
 يا أمير المؤمنين، قال: احمل إلى يعقوب مائتي ألف درهم وعشرين تختاً
 ثياباً، فحمل ذلك معي. قال: فقال بشر بن الوليد: فالتفت إلي يعقوب فقال: هل
 رأيت بأساً فيما فعلت؟ قلت: لا، قال: فخذ منها حقك، قال: وما حقي؟ قال:
 العشر. فشكرته ودعوت له، ذهبت لأقوم فإذا بعجوز قد دخلت فقالت: يا أبا
 يوسف؟ ابنتك تقرئك السلام وتقول لك والله ما وصل إلي في ليلتي هذه من
 أمير المؤمنين سوى المهر الذي قد عرفته، وقد حملت إليك النصف منه
 وخلفت الباقي لما أحتاج إليه فقال: رديه فوالله لا قبلتها، أخرجتها من الرق
 وزوجتها أمير المؤمنين وترضى لي بهذا، فلم نزل نطلب إليه أنا وعمتي حتى
 قبلها وأمر لي بألف دينار (32).

خبر مقدم وكيع وابن إدريس وحفص على الرشيد

قال أبو جعفر الضرير الكلبى، حدثني شيخ على باب بعض المحدثين، قال:
 سألت وكيعاً عن مقدمه وهو وابن إدريس وحفص على هارون الرشيد، فقال
 لي: ما سألتني عن هذا أحد قبلك، قدمنا على هارون أنا وعبد الله بن إدريس
 وحفص بن غياث، فأقعدها بين السريرين فكان أول من دعا به أنا، فقال لي
 هارون: يا وكيع! فقلت: لبيك يا أمير المؤمنين قال: إن أهل بلدك طلبوا مني
 قاضياً وسموك لي فيمن سموا، وقد رأيت أن أشركك في أمانتي وصالح ما
 أدخل فيه من أمر هذه الأمة، فخذ عهدك وامض. فقلت: يا أمير المؤمنين!
 وإحدى عيني ذاهبة والأخرى ضعيفة؟ فقال هارون: اللهم غفراً، خذ عهدك
 أيها الرجل وامض، فقلت: يا أمير المؤمنين والله لئن كنت صادقاً إنه لا ينبغي
 أن تقبل مني وإن كنت كاذباً فلا ينبغي أن تولي القضاء كذاباً، فقال: اخرج،
 فخرجت، فدخل ابن إدريس فكان هارون قد وسم له من ابن إدريس واسم،
 يعني خشونة جانبه، فدخل فسمعنا صوت ركبتيه على الأرض حين برك، وما
 سمعناه يسلم إلا سلاماً خفياً، فقال له هارون: أتدري لم دعوتك؟ قال: لا، قال:
 إن أهل بلدك طلبوا مني قاضياً وأنهم سموك لي فيمن سموا، وقد رأيت أن

أشركك في أمانتي وأدخلك في صالح ما أدخل فيه من أمر هذه الأمة، فخذ عهدك وامض، فقال له ابن إدريس: لست أصلح للقضاء، فنكت هارون بإصبعه وقال له: وددت أنني لم أكن مثلك، قال له ابن إدريس: وأنا وددت أنني لم أكن رأيتك، فخرج ثم دخل حفص بن غياث، فقال له كما قال لنا، فقبل عهده وخرج، فأتانا خادم معه ثلاثة أكياس في كل كيس خمسة آلاف دينار، فقال: إن أمير المؤمنين يقرئكم السلام ويقول لكم: قد لزمتمكم مؤونة في شخوصكم فاستعينوا بهذه في سفرتكم، قال وكيع: أقرئ أمير المؤمنين السلام وقل: قد وقعت مني بحيث يحب أمير المؤمنين وأنا عنها مستغن، وفي رعية أمير المؤمنين من هو أحوج إليها مني، فإن رأى أمير المؤمنين أن يصرفها إلى من أحب، وأما ابن إدريس فصاح به: مر من هنا وقبلها حفص، وخرجت الرقعة إلى ابن إدريس من بيننا، عافانا الله وإياك سألناك أن تدخل في أعمالنا فلم تفعل، ووصلناك من أموالنا فلم تقبل، فإذا جاءك ابني المأمون فحدثه إن شاء الله، فقال للرسول: إذا جاء مع الجماعة حدثنا إن شاء الله، ثم مضينا، فلما صرنا إلى الياسرية حضرت الصلاة فنزلنا نتوضأ للصلاة، قال وكيع: فنظرتُ إلى شرطي محموم نائم في الشمس عليه سواده فطرحت كسائي عليه، وقلت: تدفأ إلى أن نتوضأ، فجاء ابن إدريس فاستلبه ثم قال: رحمته لا رحمك الله، في الدنيا أحد رحم مثل ذا؟ ثم التفت إلى حفص وقال: قد علمت حين دخلت إلى سوق أسد فخضبت لحيتك ودخلت الحمام أنك ستلي القضاء، ولا والله لا كلمتك حتى تموت، فما كلمه حتى مات (33).

زبيري يفتُّ بهاشم

قال أبو زيد عمر بن شبة: لما قال الزبيري للرشيد فيما أغراه بيحيى بن عبد الله بن حسن وعند الرشيد يحيى، فقال: إن هذا يخبرني عنك بأمور إن صحت وجب علي تأديبك وإن أتى التأديب على نفسك. قال يحيى: يا أمير المؤمنين! إنما الناس نحن وأنتم، فإن خرجنا عليكم فيما أكلتم وأجعتمونا، ولبستم وأعريتمونا، وركبتم وأرحلتمونا، فوجدنا بذلك مقالاً فيكم ووجدتم بخروجنا عليكم مقالاً فينا يتكافأ فيه القول، ويعود أمير المؤمنين فيه على أهله بالفضل، يا أمير المؤمنين! فلم تجرئ هذا وضرباؤه على أهل بيتك؟ يسعى بهم عندك، والله ما يسعى بنا إليك نصيحة منه لك، وإنه ليأتينا فيسعى بك عندنا من غير نصيحة منه لنا، يريد أن يباعد بيننا ويشتفي من بعض ببعض، والله يا أمير المؤمنين إنه للخائن بن الخائن، يسقط بين اللحاء والقضيب،

يريد أن يوهنهما جميعاً حسداً وبغياً وغلاً، ثم التفت إلى الزبيري متمثلاً بقول الشاعر:

وقد يسود عصر السوء مثلكم ... وقد يعود رعوس الناس أذئاباً
وقد قال بعض أهلك:

أليس من إلقاء الزمان على استه ... وقوف زبيري يقت بهاشم
إذا ما رآهم كان همزاً ولامزاً ... لأعراضهم مينا وبغياً لحازم
قوله: يقت معناه ينم، وقال: لا يدخل الجنة قتات، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لعن القتات يعني النمام (34).

أبو إسحاق الفزاري يرد على اتهام الرشيد له

قال الأصمعي: كنت جالساً بين يدي هارون الرشيد أنشده شعراً، وأبو يوسف القاضي جالس على يساره، فدخل الفضل بن الربيع، فقال: بالبواب أبو إسحاق الفزاري، فقال: أدخله، فلما دخل قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال له الرشيد: لا سلم الله عليك ولا قرب دارك ولا حيا مزارك، قال: لم يا أمير المؤمنين؟ قال: أنت الذي يحرم لبس السواد، قال: يا أمير المؤمنين، من أخبرك بهذا؟ لعل ذا أخبرك؟ وأشار إلى أبي يوسف - فعلى هذا لعنة الله وعلى أستاذه من قبله، والله يا أمير المؤمنين لقد خرج إبراهيم على جدك المنصور فخرج أخي معه، وعزمت على الغزو فأتيت أبا حنيفة فذكرت ذلك له، فقال لي: مخرج أخيك أحب إلي مما عزمت عليه من الغزو، والله ما حرمت السواد. فقال الرشيد: فسلم الله عليك وقرب دارك وحيا مزارك، اجلس يا أبا إسحاق، يا مسرور! ثلاثة آلاف دينار لأبي إسحاق، فأتى بها ووضعها في يده وخرج وانصرف، فلقية ابن المبارك فقال: من أين أقبلت؟ فقال من عند أمير المؤمنين، وقد أعطاني هذه الدنانير، وأنا عنها غني، قال: فإن كان في نفسك منها شيء فتصدق بها فما خرج من سوق الرافقة حتى تصدق بها كلها (35).

كأس أم حكيم

قال إبراهيم بن إسماعيل، أبو أحمد إبراهيم: ركب الرشيد يوماً بكراً فنظر إلى محمد الأمين يميل به سرجه، فقال: ما أصارك إلى هذا يا محمد؟ قال: أصارني إليه البارحة:

عللاني بعاتقات الكروم ... واسقياني بكأس أم حكيم

³⁴ (المعافى بن زكريا، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 79/1

³⁵ (المعافى بن زكريا، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 79/1

قال: فانصرف يا محمد، فلما رجع الرشيد وجه إليه بخادم ومعه كأس أم حكيم، وكان كأساً كبيراً فرعونياً، قد جعل فيه طوق ذهب ومقبض من ذهب، فإذا هو مملوء دنانير، وقال له: يقول لك أمير المؤمنين بعثت إليك بالذي أسهرك لتشرب فيه وتنتفع بما يصل معه، قال: فأعطى الخادم قبضة من دنانير، وفرق نصفه ما فيه على جلسائه وأعطى النصف خازنه وشرب في القدر ثلاثة أرطال رطلاً بعد رطل ورده، فكان مبلغ الدنانير عشرة آلاف دينار (36).

رأي أبي يوسف القاضي فيمن يشهدون عنده

قال الرشيد لأبي يوسف القاضي: بلغني أنك تقول إن هؤلاء الذين يشهدون عندك وتقبل أقوالهم متصنعة، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، قال وكيف ذلك؟ قال: لأن من صح ستره وخلصت أمانته لم يعرفنا ولم نعرفه، ومن ظهر أمره وانكشف ستره لم يأتنا ولم نقبله، وبقيت هذه الطبقة وهم هؤلاء المتصنعة الذين أظهروا السر وأبطنوا غيره، فتبسم الرشيد وقال: صدقت (37).

الرشيد يحبس محمد بن الليث ثم يطلقه ويكرمه

قال ثمامة بن أشرس: أول ما أنكر يحيى بن خالد من أمره، أن محمد بن الليث أبي الربيع الكاتب كتب إلى الرشيد رسالة يعظه فيها ويذكر فيها يحيى بن خالد ويقول: يا أمير المؤمنين إن يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئاً، وقد جعلته فيما بينك وبين الله عز وجل، فكيف أنت إذا وقفت بين يديه فسألك عما عملت في عبادته وبلاده، فقلت: أي رب! استكفيت يحيى بن خالد أمور عبادك، أترأى تحتج بحجة يرضاها؟ مع كلام فيه توبيخ وتقريع، فلما قرأها الرشيد دعا يحيى بن خالد وقد تقدم إلى يحيى خبر هذه الرسالة، فقال له: أتعرف محمداً بن الليث؟ قال: نعم، قال: فأبي الرجال هو؟ قال: متهم على الإسلام. فأمر الرشيد بمحمد بن الليث فوضع في المطبخ فأقام دهرأ، فلما تنكر الرشيد للبرامكة ذكره فأمر بإخراجه فأحضر، فقال له بعد مخاطبة طويلة: يا محمد! أتحبني، قال: لا والله يا أمير المؤمنين، قال: أوتقول هذا؟ قال: نعم، وضعت في رجلي الأكبال وحلت بيني وبين العيال بلا ذنب ولا حدث أحدثت سوى قول حاسد يكيد الإسلام وأهله، ويحب الإلحاد وأهله، فكيف أحبك؟ قال: صدقت، وأمر بإطلاقه، ثم قال له: يا محمد بن الليث أتحبني، قال لا والله يا أمير المؤمنين، ولكن قد ذهب بعض ما كان في قلبي، فأمر أن يدفع إليه من ساعته مائة ألف درهم فأحضرت، فقال: يا محمد أتحبني؟ قال: أما الآن

³⁶ (المعافى بن زكريا، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 107/1

³⁷ (المعافى بن زكريا، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 118/1

فنعم، قد أنعمت وأحسننت، فقال: انتقم الله لك ممن ظلمك وأخذ بحقك ممن بغى عليك، فكان هذا أول ما ظهر من الرشيد في أمر يحيى بن خالد ثم تزيد الأمر بعد ذلك (38).

تصميم قاضي الرقة على إنصاف المظلوم

قال مصعب بن عبد الله : كان عبيد الله بن ظبيان قاضي الرقة، وكان الرشيد إذ ذاك بها، فجاء رجل فاستعدى إليه من عيسى بن جعفر، فكتب إليه ابن ظبيان: " أما بعد، أبقى الله الأمير وحفظه، وأتم نعمته عليه، أتاني رجلٌ يذكر أنه فلان بن فلان، وأن له على الأمير - أبقاه الله - خمس مائة ألف درهم - فإن رأى الأمير - أبقاه الله - أن يحضر معه مجلس الحكم أو يوكل وكيلاً يناظر خصمه فعل " .

قال: ودفع الكتاب إلى الرجل، فأتى باب عيسى بن جعفر فدفع الكتاب إلى حاجبه فأوصله إليه، فقال له: كل هذا الكتاب. فرجع إلى القاضي فأخبره، فكتب إليه: أبقاك الله وحفظك وأمتع بك، حضر رجلٌ يقال له فلان بن فلان، فذكر أن له عليك حقاً فصر معه إلى مجلس الحكم أو وكيك إن شاء الله.

ووجه بالكتاب مع عونين من أعوانه، فحضرا باب عيسى بن جعفر ودفعا الكتاب إليه، فغضب ورمى به، فانطلقا إليه فأخبراه. فكتب إليه: حفظك الله وأبقاك وأمتع بك، لا بد أن تصير أنت وخصمك إلى مجلس الحكم، فإن أنت أبيت رفعت أمرك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله. ووجه الكتاب مع رجلين من أصحابه العدول، فقعدوا على باب عيسى بن جعفر حتى خرج، فقاما إليه ودفعا إليه كتاب القاضي، فلم يقرأه ورمى به، فأبلغاه ذلك.

فختم قمطره وانصرف وقعد في بيته، وبلغ الخبر الرشيد فدعاه فسأله عن أمره، فأخبره بالقصة حرفاً حرفاً، فقال لإبراهيم بن عثمان: صر إلى باب عيسى بن جعفر فاختم عليه أبوابه كلها، ولا يخرجن أحدٌ ولا يدخلن أحدٌ عليه حتى يخرج إلى الرجل من حقه أو يصير معه إلى الحاكم.

قال: فأحاط إبراهيم بداره ووكل بها خمسين فارساً وأغلقت أبوابه، وظن عيسى أنه قد حدث للرشيد رأيٌ في قتله، فلم يدر ما سبب ذلك، وجعل يكلم الأعوان من خلف الباب، وارتفع الصياح من داره، وصرخ النساء، فأمرهن أن يسكتن، وقال لبعض غلمان إبراهيم: أدع لي أبا إسحاق لأكلمه، فأعلموه

ما قال: فجاء حتى صار إلى الباب، فقال له عيسى ويلك ما حالنا؟ فأخبره خبر ابن ظبيان، فأمر أن تحضر خمسمائة ألف درهم من ساعته ويدفع بها إلى الرجل.

فجاء إبراهيم إلى الرشيد فأخبره، فقال: إذا قبض الرجل ماله فافتح أبوابه (39).

عدل سوار القاضي وانتصار الرشيد له

كان حماد بن موسى صاحب أمر محمد بن سليمان والغالب عليه، فحبس سوار القاضي رجلاً في بعض ما يحبس فيه القضاة، فبعث حماداً فأخرج الرجل من الحبس فجاء خصمه إلى سوار حتى دخل، فأخبره أن حماداً قد أخرج الرجل من الحبس.

وركب سوار حتى دخل على محمد بن سليمان وهو قاعد للناس، والناس على مراتبهم، فجلس بحيث يراه محمد بن سليمان، ثم دعا آخر من نظرائه، فقال له كما قال لأول، فأجاب مثل جواب الأول فأقعه مع صاحبه، ففعل ذلك بجماعة منهم، ثم قال لهم: انطلقوا إلى حماد بن موسى فضعوه في الحبس، فنظروا إلى محمد بن سليمان فأعلموه ما أمرهم به، فأشار إليهم: أن افعلوا ما يأمركم به، فانطلقوا إلى حماد فوضعوه في الحبس، وانصرف سوار إلى منزله، فلما كان بالعشي أراد محمد بن سليمان الركوب إلى سوار، فجاءته الرسل فقالوا: إن الأمير على الركوب إليك، فقال: لا، نحن بالركوب أولى إلى الأمير. فركب إليه فقال: كنت على المجيء إليك أبا عبد الله، قال: ما كنت لأجشم الأمير ذاك، قال: بلغني ما صنع هذا الجاهل حماد، قال: هو ما بلغ الأمير، قال: فأحب أن تهب لي ذنبه، قال: أفعل أيها الأمير، اردد الرجل إلى الحبس، قال: نعم، بالصغر له والقماءة.

فوجه إلى الرجل فحبسه وأطلق حماداً، وكتب بذلك صاحب الخبر إلى الرشيد، فكتب إلى سوار يجريه ويحمده على ما صنع، وكتب إلى محمد بن سليمان كتاباً غليظاً يذكر فيه حماداً ويقول: الرافضي ابن الرافضي، والله لولا أن الوعيد أمام العقوبة ما أدبته إلا بالسيف، ليكون عظة لغيره ونكالا.

يفتات على قاضي المسلمين في رأيه، ويركب هواه لموضعه منك، ويعرض في الأحكام استهانةً بأمر الله تعالى، وإقداماً على أمير لمؤمنين، وما ذاك إلا

بك، وبما أرخيت من رسنه، فأنا لله لئن عاد إلى مثلها ليجدني أغضب لدين الله تعالى، وأنتقم من أعدائه لأوليائه(40).

ربما نفع الحمق

انفرد الرشيد وعيسى بن جعفر بن المنصور والفضل بن الربيع في صيد من الموكب، فلقوا أعرابياً مليحاً فصيحاً فولع به عيسى إلى أن قال له: يا ابن الزانية! فقال: بئس ما قلت، قد وجب عليك ردها أو العوض، فارض بهذين المليحين يحكمان بيني وبينك، فقال: قد رضيت، فقالا: يا أعرابي! خذ منه دانقين عوضاً من شتمك، فقال: أهذا الحكم؟ فقالا: نعم، فقال: هذا درهم وأمكم جميعاً زانية، وقد أرجحت لكما بترك ما وجب ليفعلب عليهم الضحك، وما كان لهم سرور يومهم ذلك غير الأعرابي، وضم الرشيد الأعرابي إليه وخص به، وكان يدعو في أكثر الأوقات، فكان الأعرابي بعد ذلك يقول للرشيد: لو عرفت لأبقيت، ولربما نفع الحمق. (41).

إنهن يكفرن العشير

خرج أمير المؤمنين الرشيد من عند زبيدة - وقد تغذى عندها ونام وشرب - وهو يضحك، فقلت: قد سرنى سرور أمير المؤمنين، فقال: ما أضحك إلا تعجباً، أكلت عند هذه المرأة ونمت وشربت فسمعت رنة، فقلت: ما هذا، قالوا: ثلثمائة ألف دينار وردت من مصر، فقالت: هبها لي يا ابن عم، فدفعها إليها فما برحت حتى عربدت، وقالت: أي خير رأيت منك؟ قال القاضي: قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في النساء: " إنهن يكفرن العشير " ، وفسره بما ذكرت من إحسان الرجل إليها وأنها ترب منزلها، وتكشف وجهها بعد الحجر والخطر، وتقول لزوجها: ما رأيت منك خيراً قط(42).

ألا أن تحج ثانية يا أمير المؤمنين

عن إبراهيم الجرجاني، قال: حججت مع أمير المؤمنين الرشيد فدخلت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبينما أنا بين القبر والمنبر، إذ أنا عن يميني برجل حسن الهيئة خاضب، معه رجل في مثل حاله، فحانت مني لفتة نحوه فإذا هو يكسر حاجبه، ويفتح فاه، ويلوي عنقه، ويشير بيده، فتجوزت في صلاتي وسلمت، فقلت: أفي مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تتغنى؟

⁴⁰ (المعافى بن زكريا، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 148/1

⁴¹ (المعافى بن زكريا، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 162/1

⁴² (المعافى بن زكريا، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 173/1

قال: قنعك الله دار مخرمة، ما أجهلك! - قال: ودار مخرمة صخرة - أما في الجنة غناء؟ قلت: بلى، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، قال: فأنا في روضة من رياض الجنة، قلت: لا، قال: واحرباه! أترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: " بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة " ، فنحن في تلك الروضة، فقلت: قبح الله شيخاً وشاره، ما أسفحك! فقال: بالقبر لما أنصت إلي، فتخوفت إلا أنصت إليه، فاندفع فتغنى بصوت يخفيه: فليست عشيات الحمى برواجع ... عليك ولكن خل عينك تدمعا فوالله إن قمت للصلاة مما دحا علي، فلما رأى ما نزل بي، قال: يا ابن أمي! أرى نفسك قد استجابت وطابت، فهل لك في زيادة؟ قلت: ويحك! مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: أنا أعرف بالله ورسوله منك، فدعنا من جهلك، وتغنى:

فلو كان واش باليمامة داره ... وداري بأعلى حضرموت اهتدى ليا وما بالهم لا أحسن الله حفظهم ... من الحظ هم في نصر هم ليلي حيا ليا قال: فقال له صاحبه: يا ابن أخي! أحسنت والله، عتق ما يملك لو أن هذا في موضع أمير المؤمنين الرشيد لخلع عليك ثيابه مشقومة طرباً، قال: فقمت وهما لا يعلمان من أنا، فدخلت على أمير المؤمنين الرشيد، فحدثته، فقال: أدركهما لا يفوتانك، فوجهت من أتى بهما، فلما دخلا عليه ودخلا بوجوه قد ذهب ماؤها، وأنا قائم على رأسه، فقال: يا إبراهيم! هذان هما؟ قلت: نعم، يا أمير المؤمنين، فنظر المغني منهما إلي وقال: سعاية في جوار قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فسري عن أمير المؤمنين بعض غضبه، فقال: ما كنتما فيه؟ قال: خيراً، قال: فما من ذلك الخير؟ فسكتا، فقال للمغني منهما: من أنت؟ فابتدره جماعة فقالوا: يا أمير المؤمنين! هذا ابن جريج فقيه أهل مكة، فقال: فقيه يتغنى في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: يا أمير المؤمنين! لم يكن ذلك بالقصد مني، ولكني سمعت من هذا المخزومي - يعني صاحبه - صوتين لم يزالا في قلبي حتى التقينا وأحببت أن يأخذهما علي فأخذهما علي، وحلفت إنني قد أحسنت وأنه لو كان في موضع أمير المؤمنين لخلع علي، وسكت.

فقال: إن كنت تركت من الحديث شيئاً فهاته، فقال: ما تركت يا أمير المؤمنين شيئاً، قال: والله لتقولن ما قال أو لأضربن عنقك. قال: يا أمير المؤمنين! قال: لو كنت في موضعه لخلعت عليه ثيابك مشقوفة طرباً، فتبسم الرشيد وقال: أما هذا فلا، ولكن سأنبذها لك صحيحة فهو خير

لك، ثم دعا بثيابٍ ونبذ إليه ثيابه، وأمر له بعشرة آلاف درهم، ولصاحبه بخمسة آلاف درهم، وقال: لا تعود لمثل هذا.
قال: فقال صاحب ابن جريج: إلا أن تحج ثانيةً يا أمير المؤمنين، فضحك وقال: ألقوه بصاحبه في الجائزة (43).

محمد البيدق ينتقم من النمري

قال محمد البيدق - وكان أحسن الشعراء إنشاداً كان إنشاده أحسن من الغناء - قال: دعاني هارون الرشيد في عشي يوم وبين يديه طبقٌ وهو يأكل مما فيه ومعه الفضل بن الربيع، فقال لي الفضل: يا محمد! أنشد أمير المؤمنين ما يستحسن من مديحه، فأنشدته للنمري، فلما بلغت إلى هذا الموضع.
أي امرئٍ بات من هارون في سخطٍ ... فليس بالصلوات الخمس ينتفع
إن المكارم والمعروف أودية ... أحلك الله منها حيث تجتمع
إذا رفعت أمراً فالله رافعه ... ومن وضعت من الأقوام متضع
نفسى فداؤك والأبطال معلمة ... يوم الوغى والمنايا بينهم قرع
قال: فأمر برفع الطعام، وقال: هذا والله أطيب من كل الطعام ومن كل شيء، وأجاز النمري بجائزة سنية، قال محمد البيدق: فأتيت النمري فعرفته أني كنت سبب الجائزة فلم يعطني شيئاً، وشخص إلى رأس عين فأحفظني وأغاظني، ثم دعاني الرشيد يوماً آخر، فقال: أنشدني يا محمد، فأنشدته:
شاء من الناس راتع هامل ... يعلون النفوس بالباطل
فلما بلغت إلى قوله:

إلا مساعير يغضبون لها ... بسلة البيض والقنا الذابل
قال: أراه يحرض علي، ابعثوا إليه من يجيئني برأسه، فتكلم الفضل بن الربيع فلم يغن كلامه شيئاً، فوجه الرسول إليه فوافاه في اليوم الذي مات فيه وقد دفن، فأراد نبشه وصلبه فكلم في ذلك فأمسك عنه. (44).

الرشيد ولحم الجزور

عن إبراهيم بن المهدي أنه كان يتغدى مع الرشيد في يوم شاتٍ، وإن الرشيد سأل صاحب المطبخ: هل عنده برمة من لحم الجزور؟ فأعلمه أن عنده عدة ألوان منه، فأمر بإحضار ما عنده منه، فقدمت إليه صحفة ومد يده إلى لقمة منها فأدخلها في فيه، فلما حرك لحييه عليها مرتين ضحك جعفر بن يحيى، فسأله الرشيد عن سبب ضحكه، وأمسك عن المضغ، فقال: ذكرت كلاماً دار

⁴³ (المعافى بن زكريا، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 219-218/1

⁴⁴ (المعافى بن زكريا، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 256-255/1

بيني وبين جاريتي البارحة فضحكت منه، فقال له الرشيد: هذا محال، فأخبرني عن السبب بحقي عليك، فقال له جعفر: إذا ابتلع أمير المؤمنين لقمته حدثته السبب، فأخرج لقمته من فيه وألقاها تحت المائدة، فلما فعل ذلك قال له جعفر: بكم يتوهم أمير المؤمنين أن هذا اللون يقوم عليه؟ فقال له الرشيد: أتوهمه يقوم علي بأربعة آلاف درهم، فقال له جعفر: والله إن هذا اللون ليقوم عليك بأربع مائة ألف درهم، فقال: وكيف ويحك؟ فقال جعفر: سأل أمير المؤمنين صاحب المطبخ منذ أكثر من أربع سنين عن برمة من لحم الجزور فأخبره أنه لم يتخذها، فأنكر ذلك علي أمير المؤمنين وقال: لا يفت مطبخي لون يتخذ من لحم الجزور في كل يوم، فأنا منذ ذلك اليوم أنحر جزوراً في كل يوم لأن الخلفاء لا يبتاع لهم لحم الجزور من السوق، ولم يدع أمير المؤمنين بشيء من لحمها إلى يومه هذا. قال إبراهيم: وكان الرشيد في أول طعامه ولم يكن أكل إلا ملهوجة واحدة، وكان أشد خلق الله تقززاً، فصعق حين قال له جعفر ما قال، وضرب بيده اليمنى وفيها الغمر وجهه ومد بها لحيته ثم قال: هلكت ويلك يا هارون، واندفع يبكي، وأمر برفع المائدة وطفق يبكي حتى أذنه المؤذنون بصلاة الظهر، وأمر بألف ألف درهم وأن يفرق في كل جانب من جانب من جانبي بغداد خمسمائة ألف درهم وأن يفرق في كل مدينة من الكوفة والبصرة خمسمائة ألف درهم، وقال: لعل الله تعالى أن يغفر لي هذا الذنب. وقام يصلي الظهر، ثم عاد في مكانه فلم يزل باكياً حتى أذنه المؤذنون بصلاة العصر وقام فصلى: وعاد لمكانه إلى أن قرب ما بين صلاة العصر والمغرب، فأخبره القاسم بن الربيع مولاه أن أباه يوسف القاضي بالباب فأمره بإدخاله، فدخل وسلم فلم يرد عليه وأقبل يقول: يا يعقوب هلك هارون، فسأله يعقوب عن القصة فقال: يخبرك جعفر بهان وعاد لبكائه. وحضر جعفر فسأله أبو يوسف عن القصة والسبب المخرج للرشيد إلى ما خرج إليه، فحدثه جعفر عن الجزور التي كانت تنحر في كل يوم طول تلك المدة ومبلغ ما أنفق في أثمانها من الأموال، فقال له أبو يوسف: أخبرني عن هذه الإبل التي كانت تبتاع بهذه الدراهم هل كانت تترك إذا نحرت حتى تفسد، ولا تؤكل لحومها حتى تنتن فيرمي بها؟ قال جعفر: اللهم لا، قال أبو يوسف: فكان يصنع بها ماذا؟ قال: يأكلها الحشم والموالي وعيال أمير المؤمنين، فقال أبو يوسف: الله أكبر الله أكبر، أبشر يا أمير المؤمنين بالثواب الجزيل من الله عز وجل على نفقتك، وأبشر بثواب الله تعالى على ما فتح لك من الصدقة في يومك هذا، ومن البكاء للتقية من ربك، فإني لأرجو يا أمير المؤمنين أن لا

يرضى الله تعالى من ثوابه على ما قد داخلك من الخوف من سخطه عليك إلا الجنة، فإنه يقول تعالى: " ولمن خاف مقام ربه جنتان " الرحمن: 46 وأنا أشهد بالله تعالى أنك خفت مقام ربك، فسري عن الرشيد وطابت نفسه ووصل أبا يوسف بأربعمائة ألف درهم، ثم صلى المغرب ودعا بطعامه فأكل، فكان غداؤه في اليوم عشاءه(45).

حسد إسحاق الموصلي للأصمعي

قال أحمد بن علي بن أبي نعيم: كان الرشيد يحب الوحدة، فكان إذا ركب حماره عادله الفضل بن الربيع، وكان الأصمعي يسير قريباً منه بحيث يحادثه، وإسحاق الموصلي على دابة يسير قريباً من الفضل. فأقبل الأصمعي لا يحدث الرشيد شيئاً إلا سر به وضحك منه، فحسده إسحاق. وكان فيما حدثه الأصمعي قال: يا أمير المؤمنين مررت على رجل زانكي جالس على بابه قال: ويحك فما الزانكي؟ فوصفه له قال العسكري: هو الشارط قال: فقلت له: يا فتى أيسرك أنك أمير المؤمنين؟ قال: لا، قلت: ولم؟ قال: لا يدعوني أذهب حيث شئت، قال فقال الرشيد: صدق والله ما يدعونا نذهب حيث شئنا. قال: فاستضحك الرشيد. قال فقال إسحاق للفضل: ما يقول كذب، فقال الرشيد: أي شيء قال؟ فأخبره فغضب فقال: والله إن كان ما يقول كذباً إنه لأظرف الناس، وإن كان حقاً إنه لأعلم الناس فمكث بينهما شر دهرًا من الدهر(46).

صدق أبو هريرة

قال عمر بن حبيب: كنا عند هارون أمير المؤمنين، وبين يديه قوم يتناظرون، فذكروا حديثاً فقالوا: رواه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذب أبو هريرة، وارتفعت أصواتهم بتكذيب أبي هريرة، فرأيت هارون قد نحا نحوهم ومال إلى قولهم، فقلت أنا: صدق أبو هريرة، وأبو هريرة الصادق في روايته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقمت فانصرفت.

فلما دخلت منزلي وافى بريد فأدخلته فقال: أجب أمير المؤمنين أجابة مقتول لأنك لا ترجع، فقلت في نفسي: الله يعلم أنني قمت بحق، ونصرت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومضيت إلى هارون فدخلت عليه وهو جالس على كرسي من ذهب حاسراً عن ذراعية، بيده سيف، فقال: يا عمر بن

⁴⁵ (المعافى بن زكريا، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 283/1

⁴⁶ (المعافى بن زكريا، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 286-285/1

حبيب، تقبل علي بالرد بما أقبلت به؟! فقلت: يا أمير المؤمنين، الذي قتلته إزرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كذابين فأمر الإسلام كله باطل، والصلاة الصوم والطلاق والحدود. قال: صدقت يا عمر بن حبيب، أحييتني أحياءك الله، أحييتني أحياءك الله (47).

خبر ابن جامع في مجلس الرشيد

قال إسماعيل بن جامع السهمي : ضمنى الدهر ضمناً شديداً بمكة، فانتقلت منها بعيالي إلى المدينة، فأصبحت يوماً لا أملك إلا ثلاثة دراهم، فخرجت وهي في كمي، فإذا بجارية حميراء على رقبته جرة تريد الركي، تمشي بين يدي وتترنم بصوتٍ شجي تقول فيه:

شكونا إلى أحبائنا طول ليلنا ... فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
وذلك أن النوم يغشى عيونهم ... سراعاً وما يغشى لنا النوم أعينا
إذ ما دنا الليل المضر بذي الهوى ... جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما ... نلاقي لكانوا في المضاجع مثلنا
فو الله ما دار لي منه حرف واحد فقلت لها: يا جارية ما أدري أوجهك أحسن
أم صوتك أم جرمك، فإن شئت أعدتني علي، فقالت: حباً وكرامة، ثم أسندت
ظهرها إلى جدار كان بالقرب منها ورفعت إحدى رجليها فوضعتها على
ركبتها وحطت الجرة فوضعتها على ساقها واندفعت تغني بأحسن صوت، فو
الله ما دار لي منه حرف واحد، فقلت لها: لقد أحسنت وتفضلت فلو شئت
أعدتني مرة أخرى، فقطبت وكلحت وقالت: ما أعجب هذا، أحكم يجيء إلى
الجارية عليها ضريبة فيقول لها: أعيدي مرة بعد أخرى، فضربت يدي إلى
الثلاثة الدراهم فدفعتها إليها وقلت لها: أقيمي بهذا وجهك اليوم إلى أن
نلتقي، فأخذتها شبه المتكرهة ثم قالت: الآن تريد أن تأخذ عني صوتاً أحسبك
تأخذ عليه ألف دينار، وألف دينار وألف دينار، ثم انبعثت تغني وأعملت فكري
في غنائها فدار لي الصوت وفهمته، وانصرفت به مسروراً إلى منزلي
المكاري على باب المحول، فدخلت لا أدري أين أتوجه ولا من أقصد، وانتهى
بي الناس إلى الجسر، فعبرت في من عبر حتى انتهوا بي إلى شارع الميدان
عند دار الفضل بن الربيع، فرأيت هناك مسجداً مرتفعاً فقلت: هذا مسجد قوم
سراة، وحضرت المغرب فصعدت المسجد فما لبثت أن جاء المؤذن فأذن
وأقام وصليت، وانصرف الناس وأقامت مكاني إلى أن رجع المؤذن فأذن

وأقام، وصليت وانصرف الناس وأقمت مكاني إلى أن رجع المؤذن فأذن وأقام، وصليت مع الناس على تعبٍ وجوع، وانصرف الناس وبقي رجل يصلي ملياً وخلفه جماعة من الخدم والفحولة ينتظرونه، فلما فرغ من صلاته انصرف إلي ببدنه كله فقال: أحسبك غريباً، قلت: أجل، قال: متى كنت بهذه المدينة؟ قلت: آنفاً دخلتها، وليس لي بها معرفة، وليست صناعتني من الصنائع التي يمت بها إلى أهل الخير، قال: وما صناعتك؟ قلت: الغناء، فوثب مبادراً ووكل بي رجلاً، فقلت للموكل بي: من هذا؟ قال: أوما تعرفه؟ هذا سلام الأبرش قال: وإذا رسول قد جاء في طلبني ثم مشينا حتى انتهى بي إلى قصرٍ من قصور الخلافة وجعل يجاوز بي مقصورة بعد مقصورة إلى أن دخلنا مقصورة في آخر الدهليز، فدعاني بالطعام، فأتييت بمائدة عليها من كل شيء، فأقبلت علي أكلي حتى تراجعت إلي نفسي، وسمعت ركضاً في الدهليز، فإذا إنسان يقول: أين الرجل، أين الرجل؟ فقليل: ها هو ذا، فقال يدعى له بغسول وطيب وخلعة، فغلفت وخلع علي وأخذ الرجل بيدي فحملني على دابةٍ وأتى بن منزل الخليفة فاستدلت على ذلك بالحرس والتكبير والنيران، فما زال يدخلني من دار إلى دار إلى أن دخلت إلى دارٍ قوراء وإذا فيها أسرة مضاف بعضها إلى بعض، فلما انتهيت إلى الأسرة أمرني بالصعود فصعدت، وإذا رجل جالس على يمينه ثلاث جوارٍ في حجورهن العيدان، وإذا في حجر الرجل عود فسلمت فرحب بي وأمرني بالجلوس فجلست، وإذا مجالس خالية قد كان فيها قوم فقاموا عنها، فما لبثت أن خرج خادم من وراء الستر فقال للرجل: تغنه، فاندفع يغني بصوتٍ لي يقول فيه:

لم تمش ميلاً ولم تركب على جمل ... ولم تر الشمس إلا دونها الكلل
تمشي الهوينا كأن الشوك يحبسها ... مشي اليعافير في جيئاتها الوجل
فو الله ما أحسن الغناء، ولقد غنى بغير إصابةٍ وأوتارٍ متنافرة ودساتين
مختلفة، ثم عاد ذلك الخادم إلى الجارية التي تلي الرجل فقال لها: تغني
فانبعثت تغني بصوت لي كانت فيه أحسن حالاً من الرجل تقول فيه:
يا دار أضحت خلاء لا أنيس بها ... إلا الأطباء وإلا الناشط الفرد
أين الذين إذا ما زرتهم جذلوا ... وطار عن قلبي التشواق والكمد
ثم عاد الخادم إلى الجارية الثاني فقال لها: تغني فانبعثت تغني بصوت حكم
الوادي تقول فيه:

فو الله ما أدري أيغلبني الهوى ... إذا جد وشك البين أم أنا غالبه
فإن أستطع أغلب وإن يغلب الهوى ... ففي دون ما لاقيت يغلب صاحبه

ثم عاد الخادم إلى الجارية الثالثة فقال لها: تغني فغنت بصوت لحنين تقول فيه:

مررنا على قيسية عامرية ... لها بشر صافي الأديم هجان
فقلت وألقت جانب السجف دونها ... من آية حي أو من الرجلان
فقلت لها أما تميم فأسرني ... هديت وأما صاحبي فيماني
رفيقان ضم السفر بيني وبينه ... وقد يلتقي الشتى فيأتلفان
قال فعاد الخادم إلى الرجل فقال له: تغنه، فغنى بصوت لي شبه فيه، والشعر
لعمر بن أبي ربيعة الغناء للغريض يقول فيه:

أمس بأسماء هذا القلب معمودا ... إذا أقول صحا يعتاده عيدا
كأن أحور من غزلان شيهمة ... أعارها شبها خديه والجيدا
قامت تراءى وقد جد الرحيل بنا ... لتتكأ القرع من قلب قد اصطلدا
بمشرق كشعاع الشمس بهجته ... ومسبكر على لباتها سودا
ثم عاج الخادم إلى الجارية التي تليه فقال لها: تغني، فغنت بصوت لحكم
الوادي يقول فيه:

تعيرنا أنا قيل عدينا ... فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا ... عزيز وجار الأكثرين ذليل
وإنا لقوم ما نرى القتل سبة ... إذا كرهته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول
وتغنت الجارية الثانية عند قول الخادم لها تغني:
وددتك لما كان ودك خالصاً ... وأعرضت لما صار نهباً مقسماً
ولن يلبث الحوض الوثيق بناءه ... إذاكثر الورد أن يتهدما
وتغنت الثالثة بشعر الخنساء بنت عمرو بن الحارث في أخيها صخر:
وما كر إلا كان أول طاعن ... ولا أبصرته العين إلا اقشعرت
فيدرك ثاراً ثم لم يخطه الغنى ... فمثل أخي يوماً به العين قرت
وإن طلبوا وتراً بدا بتراتهم ... ويضربهم شزراً إذا الخيل ولت
فلست أرزا بعده برزية ... فأذكره إلا سلت وتجلت
وكان غناء الرجل في الدور الثالث:

لحا الله صعلوكاً يببب وهمه ... من الدهر أن يلقي لبوساً ومطعماً
ينام الضحى حتى إذا نومه استوى ... تنبه مسلوب الفؤاد مورماً
ولكن صعلوكاً يساور همه ... ويمشي على الهيجاء ليثاً مصمماً
فذلك إن يلق المنية تلقه ... كريماً وإن يستغن يوماً فربما

وكان غناء الجارية في الدور الثالث بشعر لحاتم يقول فيه:
إذا كنت رباً للقلوص فلا تدع ... رفيقك بمشي خلفها غير راكب
أنحها فأردفه فإن حملتكما ... فذاك وإن كان العقاب فعاقب
وكان غناء الجارية الثانية في الدور بشعر عمرو بن معدي كرب:
ألم تر لما ضمنى البلد القفر ... سمعت نداءً يصدع القلب يا عمرو
أغثنا فإننا معشر مذحجية ... نزار على وفر وليس لنا وفر
وكان غناء الثالثة بشعر لعمر بن أبي ربيعة والغناء فيه للغريض:
فلما تلاقينا وسلمت أشرقت ... وجوه زهاها الحسن أن تتقتعا
تبالهن بالعرفان لما رأييني ... وقلن امرؤ باغ أكل وأوضعا
فلما تواضعنا الأحاديث قلن لي ... أخفت علينا أن نغر ونخدعا
قال فقلت في نفسي: أي شيء أنتظر؟ يجيء الخادم الساعة يطالبني بمثل ما
طالب به أصحابي، فقلت للرجل: بأبي أنت خذ العود إليك وشد وتر كذا وارفع
الطبقة وغير وتر كذا وحط دستان كذا، فعلم ما أريد فوزنه، فلم ألبث أن خرج
الخادم فقال لي تغنه، عافاك الله، فانبعثت أغني بصوت الرجل الأول على غير
ما غنى به فإذا بنحو من خمسين أو ستين خادماً يحضرون حتى استندوا إلى
الأسرة ثم قالوا: ويحك لمن هذا الغناء؟ قلت: لي، فانصرفوا عني بتلك
السرعة، فخرج إلي الخادم فقال: كذبت هذا الغناء لابن جامع، فسكت، ودار
الدور فلما انتهى إلي خرج الخادم فقال تغنه، فقلت للجارية التي تلي الرجل:
خذي العود فانبعثت أغني صوتها، فخرجت الجماعة من الخدم فقالوا: ويحك
لمن هذا؟ فقلت: لي، فمضوا ورجع الخادم فقال لي: كذبت، هذا لابن جامع.
فأمسكت عنه ودار الدور، فلما بلغ إلي خرج الخادم فقال: تغنه، فقلت في
نفسي، وقد شربت وقويت منتي: ما أنتظر؟ فاندفعت أغني بصوت لا يعرف
إلا بي:

عوجي علي فسلمي جبر ... فيم الوقوف وأنتم سفر
مانلتقي إلا ثلاث منى ... جتى يفرق بيننا النفر

قال: فتزلزلت والله عليهم الدار، وخرج الخادم فقال: ويحك، لمن هذا؟ فقلت:
لي، قال: فرجعوا فقالوا: هذا لابن جامع، فقلت: أنا إسماعيل ابن جامع، قال:
فما شعرت إلا وأمير المؤمنين وجعفر بن يحيى قد أقبلوا من وراء الستر، فلما
صعدا السرير وثبت على قدمي، فابتدأني أمير المؤمنين فقال: ابن جامع؟
فقلت: ابن جامع جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين، قال: ويحك متى كنت في
هذه المدينة؟ قلت: أنا دخلتها في الوقت الذي علم بي أمير المؤمنين قال:

اجلس ويحك يا ابن جامع، وجلس أمير المؤمنين وجعفر بن يحيى في بعض تلك المجالس الفرغ وقال لي: يا ابن جامع، أبشر وابسط أملك، فدعوت له دعواتٍ ثم قال: عن يا ابن جامع، قال: فخطر بقلبي صوت الجارية المدينية، فقلت للرجل: أصلح عودك وارفع طبقتة، قال: فعلم ما أريد فوزن العود وزناً، وتعهده حتى استقامت الأوتار وأخذت الدساتين مواضعها، وانبعثت أغني بصوت الجارية الحميراء، فنظر أمير المؤمنين إلى جعفر بن يحيى فقال له: أسمعت كذا قط؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين ما سمعت ولا خرق سمعي مثله قط، ولا ظننت أن الله عز وجل خلق على وجه الأرض مثل ما أسمع، قال فرفع الرشيد رأسه إلى خادم بالقرب منه فقال له: كيس فيه ألف دينارٍ قال: فمضى الخادم فلم يلبث أن عاد بكيسٍ فيه ألف دينارٍ، فصيرته تحت فخذي ودعوت لأمر المؤمنين، فقال لي: يا ابن جامع رد على أمير المؤمنين هذا الصوت، فرددته وتزيدت في غنائي وأعاني على ذلك استواء الأوتار، قال: فنظر جعفر إلى أمير المؤمنين فقال: يا سيدي أما تسمعه كيف يتزايد في الغناء؟ هذا خلاف الذي سمعنا أولاً، على أن الأمر فيه واحد، قال: فرفع الرشيد رأسه إلى الخادم فقال: كيس فيه ألف دينار، فمضى الخادم وجاء بكيس فيه ألف دينار فرمى به إلي فصيرته تحت فخذي، ثم قال لي أمير المؤمنين: تغن ما حضرك، فأقبلت أقصد إلى الصوت بعد الصوت مما كان يبلغني أنه يشتري عليه الجواني فأغنيه، فلم أمزل أفعل ذلك إلى أن عسعس الليل، فقال: يا إسماعيل قد أتعبناك في هذه الليلة لسروري بغنائك، فتعيد علي الصوت الذي تغنيت به أولاً يعني صوت الجارية فغنيتها إياه، فرفع رأسه إلى الخادم فقال: كيس فيه ألف دينار، وذكرت قول الجارية: إني أحسبك تأخذ عليه ألف دينار وألف دينار وألف دينار، فكان مني شبه التبسم، ولحظني من بين الشمع فقال لي: مم تبسمت؟ قال: فجتوت على ركبتني ثم قلت: يا أمير المؤمنين الصدق منجاة، فقال لي بانتهار: قل، فحدثته حديث الجارية فقال: صدقت قد يكون هذا وأعجب منه؛ ثم قال لي: انصرف مودعاً، فقامت لا أدري إلى أين انفذ ذلك الوقت، فما هو إلا أن نزلت من الأسرة حتى وثب إلي غفيران من الفراشين، فأخذ أحدهما بيدي المينى والآخر باليسرى ومضيا بي لا أدري أين يتوجهان بي، حتى وقفا بي على باب داري هذه، فإذا أمير المؤمنين قد أمر سلاماً فابتاع لي هذه الدار وحول أهلها، وحشيت بالفرش والوصائف والوصفاء والطعام والشراب، ودفع إلي أحدهما إضبارة مفاتيح وقال لي: ادخل بارك الله لك فيها، وهذا مفتاح بيت كذا، وهذا مفتاح بيت

مالك، وهذا مفتاح سبرة الجواري، وهذا مفتاح بيت فرشك وآيتك، وأوقفني على ما أردت، فأصبحت وأنا من مياسير أهل بغداد، ودخلتها وأنا أفقر أهلها، والحمد لله رب العالمين (48).

أعرابي معه نصيحة يدخل على الرشيد

عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال: بينا أنا جالس مع الرشيد على المائدة إذ دخل الحاجب فأعلمه أن بالباب أعرابياً معه نصيحة، فأمر بإحضاره، فلما دخل أمره بالجلوس على المائدة ففعل، وكان معه صباحة وفصاحة، فلما تم الغداء ورفعت الموائد وجاء الغسل غسل يده، ثم أمر بالشراب فأحضر، فقال: يا أمير المؤمنين ما حالتي في اللباس، فاستحسن هارون ذلك من فعله وأمر بثياب حسنة فطرحته عليه، وقال له: يا أعرابي من أين؟ قال: من الكوفة قال: أعرابي أم مولى؟ قال: بل عربي قال: فما الذي قصد بك إلينا وما نصيحتك؟ قال: قصد بي إليك قلة المال وكثرة العيال، وأما نصيحتي فإني علمت أني لا أصل إليك إلا بها، قال: فأخذ إسحاق العود فغنى صوتاً يشتهيهِ الرشيد ويطرب عليه وهو:

ليس لي شافع إلي ... ك سوى الدمع يشفع
عشت بعدي ومت قب ... لك هل فيك مطمع
قسم الحب خمسة ... صار لي منه أربع
فإلى الله أشتكى ... كبداً لي تقطع

فقال الرشيد كالمازح: كيف ترى هذا يا أعرابي؟ قال: بئس والله ما غنى، فغضب من ذلك هارون وصعب عليه، قال إسحاق: وسقط في يدي، فقال هارون: ويلك يا أعرابي، وهل يكون شيء أحسن من هذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قل لي حيث أقول:

لا وحبك لا أصا ... فح بالدمع مدمعا
من بكى شجوه استرا ... ح وإن كان موجعا
كبدي في هواك أس ... قم من أن تقطعا
لم تدع سورة الهوى ... للبلى في مطعم
قال: فاستملح هارون ذلك منه وأمر إسحاق أن يغنيه به شهراً لا يقطعه عنه، وأمر للأعرابي بعشرة آلاف درهم وصرفه. (49)

⁴⁸ (المعافى بن زكريا، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 347-345/1

⁴⁹ (المعافى بن زكريا، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 349/1

أعرابياً ما أدهاه!!

قال أبو الفضل الربيعي: خرج الرشيد في بعض متنزهاته فلما أسرع السير في بعض البراري انفرد من الناس على نحو من ميل، فرفع له خباء منصوب فأمه حتى وقف عليه، فإذا فيه أعرابي جالس، فسلم عليه الرشيد، فرد عليه الأعرابي السلام ثم رفع رأسه إليه فقال: من أنت يا حسن الوجه؟ فقال له الرشيد: أنا من أبغض الناس إلى الناس، قال الأعرابي: أنت إذاً من معد، قال نعم، قال: من أي معد؟ قال: من أبغض معد إلى معد، قال: فأنت إذاً من مضر، قال: نعم، قال: فمن أي مضر أنت؟ قال: من أبغض مضر إلى مضر، قال: فأنت إذاً من كنانة، قال: نعم، قال: من أي كنانة؟ قال: من أبغض كنانة إلى كنانة، قال: فأنت إذاً من قريش، قال: نعم، قال: من أي قريش أنت؟ قال: من أبغض قريش إلى قريش، قال: فأنت إذاً من بني هاشم، قال نعم، قال: فمن أي بني هاشم أنت؟ قال: من أبغض بني هاشم إلى بني هاشم، قال: فأنت إذاً من ولد العباس، قال: نعم، قال: فمن أي ولد العباس؟ قال: من أبغض بني العباس إلى بني العباس، قال: فوثب الأعرابي قائماً ثم قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، وتوافت الجيوش، فقال الرشيد: احملوه قاتله الله أعرابياً ما أدهاه!! (50)

كيف سار المثل الخير يبقى والشر أخبث زاد

عن الشرقي بن القطامي قال الرشيد للمفضل الضبي: أخبرني يا مفضل عن قول العرب:

الخير يبقى وإن طال الزمان به ... والشر أخبث ما أوعيت من زاد
فقال: يا أمير المؤمنين هذا مثل لهم سائر قبل الإسلام، وكان من حديث هذا المثل أن عبيد بن الأبرص الأسدي كان حكيماً من حكماء العرب وشاعراً مجيداً، قتله المنذر بن ماء السماء من أجل الغريين وكان من حديث هذا المثل قبل أن يقتله المنذر بثلاثة أحوال أن ناساً نزلوا عليه فقراهم وأحسن ضيافتهم وكان يقري الضيف ويحسن إلى المنقطع به، فلما أراد القوم الرحيل خرج معهم يشيعهم، فشيعهم حتى أبعدها ونزلوا في موضع وقال غيره: فلما نزل القوم وعرسوا خرج عبيد وصاحب له يمشيان في الموضع الذي نزل القوم فيه، وسارا حتى أتيا حياً هناك فرأيا شجاعاً عظيماً أقرع يلهث قد أدلع لسانه من العطش، فأخذ صاحب عبيد حجراً وهم أن يشدخه به، فقال له عبيد: ما أنت صانع؟ قال: أقتل هذا الشجاع فإنه عدو، قال عبيد: لا تفعل فإن

الأسير قد يجار وإن كان عدواً، ثم استقى من الحب ماءً فسقى الشجاع، فجعل يشرب حتى روي، ثم تسبب في الرمل فغاب، قال: ورجع عبيد إلى القوم فودعهم ثم رحلوا، ورجع عبيد إلى منزله فأقام حولين، فأتاه بعض الرعاة فخبّره أن إبله قد شردت فركب راحلة له وخرج في طلب الإبل، وكان شجاعاً بطلاً، فسار عشر مراحل لا يرى له أثراً ولا يعرف لها خبراً، حتى إذا كان في بعض الليالي وقد كلت راحلته وتعب وأظلم الليل وهبت الرياح فلم ير سهلاً ولا جبلاً نفقت الراحلة، فقال: يا لك من ليلٍ ديجور ومن نفوق راحلةٍ بالليل، وكان الموضع الذي هو فيه يقال له الصادي وهناك ماء، فقال: والله ما أرى إلا الإقامة على هذا الماء والموت، ثم حط رحله عن راحلته وأسند ظهره إليه وطأ رأسه إلى الأرض وجمع أثوابه عليه، فإذا هاتف يهتف به من خلفه، يسمع صوته ولا يرى شخصه وهو يقول:

يا أيها الشخص المضل مذهبه ... وليس معه من أنيس يصحبه
دونك هذا البكر خذه فاركبه ... حتى إذا الليل توارى مغربه
بساطع الصبح ولاح كوكبه ... فحط عنه رحله وسبببه

قال القاضي: ويروى توارى غيبه، والغيب الظلمة. فالتفت وراءه فإذا بكر معقول عليه رحل، فوثب حتى حل عقاله وصار في متنه، فوثب البكر من غير أن يثيره حتى استقام على الطريق يسير به كالبرق الخاطف وكالريح العاصف لا يلوي على شيء ولا يفتر من السير، حتى إذا كان في وجه الصبح ونظر عبيد إلى بياض الحيرة برك البكر فلم يقم، فاستحثه فلم يقم، فقال: إنه لمأمور، وثنى رحله فنزل عنه وولى ناحية فثار البكر يجر بزمامه، فقال عبيد: بكر يسري في ليلةٍ واحدةٍ عشر مراحل لا أسأله ما أنت ولا من الذي أرسلك إلي؟! ثم أدار وجهه إليه وهو يقول:

يا أيها الكبر قد أنجيت من كربٍ ... ومن فيافٍ تضل المدلج الهادي
ألا أنبت لنا بالقول نعرفه ... من الذي جاد بالنعماء في الوادي
أذهب سليماً فقد بلغت مأمنا ... بوركت من ذي سنامٍ حامل حادي
قال: فأجابه البكر وهو يقول:

أنا الشجاع الذي ألفيته رمضاً ... ينازع الماء من ذي المورد الصادي
فجدت بالماء لما ضن حامله ... رويت هامى ولم تولع بإنكادي
الخير يبقى وإن طال الزمان به ... والشر أخبت ما أوعيت من زاد
قال القاضي ويرى: ما أوعبت في الزاد

هذا جزاؤك من لا أمن به ... فسر سليماً وقاك الله من هاد

فقال له الرشيد: أحسنت يا مفضل، يا ربيع أعطه عشرين ألفاً، عشرة آلاف لمعرفته بالمثل وأصله، وعشرة آلاف لحسن روايته له.
قال القاضي: في هذا الخبر نفقت الراحلة وإنما يقال نفق الفرس وتنبل البعير(51).

أرق الرشيد

قال السجستاني : أرق الرشيد ذات ليلة ، فوجه إلى عبد الملك الأصمعي ، وإلى الحسين الخليع ، فأحضرهما ، وشكا إليهما مدافعة نومه ، وشدة أرقه ، وقال لهما : علاني بأحاديثكما ، وابدأ أنت يا حسين . قال : نعم يا أمير المؤمنين خرجت في بعض السنين منحدرًا إلى البصرة ، وممتدحًا لآل سليمان ، فقصدت محمد بن سليمان بقصيدي ، فقبلها وأمرني بالمقام ، فخرجت ذات يوم إلى المربد ، وجعلت المهالبة طريقي ، فأصابني حر وعطش ، فدنوت من باب دار كبير لأستسقي ، فإذا بجارية أحسن ما يكون كأنها قضيب يتثنى ، وسناء العينين ، زجاء الحاجبين ، مهفهفة الخصر ، حاسرة الرأس ، مفتوحة الجربان ، عليها قميص لاذ جلناري ، ورداء عدني ، قد علت شدة بياض بدنها حمرة قميصها ، تتلألأ من تحت القميص بثديين كرمانتين ، وبطن كطي القباطي ، وعكن مثل القراطيس ، لهما جمعة جعدة ، بالمسك محشوة ، وهي ، يا أمير المؤمنين ، متقلدة خرزاً من ذهب ، والجوهر يزهو بين ترائبها ، وعلى صحن جبينها طرة كالسبج ، وحاجبان مقرونان ، وعينان كحلاوان ، وخدان أسيلان ، وأنف أقنى ، تحته ثغر كاللؤلؤ وأسنان كالدر ، وقد غلب جريانها سواد المسك والغالية ودابر العود الهندي ، على لبتها ، عبق الخلق وهي والهة حيرى ، واقفة في الدهليز ، وجائية تخطر في مشيتها ، قد خالط صرير نعلها أصوات خلخالها كأنها تخطر على أكباد محبيها ، فهي كما قال الأفوه الأودي : ليس منها ما يقال لها . . . كملت لو أن ذا كملا كل جزءٍ من محاسنها . . . كائنٌ من حسننها مثلاً لو تمت في براعتها . . . لم نجد في حسننها بدلاً فهبتها ، والله ، يا أمير المؤمنين ؛ ثم دنوت منها لأسلم عليها ، فإذا الدار والدهليز والشارع قد عبقت بالمسك . فسلمت عليها ، فردت السلام بلسان منكسر ، وقلب حزين محرق ، فقلت لها : يا سيدتي إني شيخ غريب أصابني عطش ، فأمرني لي بشربةٍ من ماءٍ ، تؤجري . قالت : إليك عني ، يا شيخ ، فإني مشغولة عن سقي الماء وادخار الأجر فقلت لها : يا سيدتي ، لأية علة ؟ قالت : لأنني عاشقة من لا ينصفني ،

وأريد من لا يريدني ، ومع ذلك فإني ممتحنة برقباء فوق رقباء . قلت لها : يا سيدتي ، هل على بسيط الأرض من تريدينه ولا يريديك ؟ قالت : إنه لعمرى على ذلك الفضل الذي ركب الله فيه من الجمال والدلال . قلت لها : يا سيدتي ، فما وقوفك في الدهليز ؟ قالت : هو طريقه ، وهذا أوان اجتيازهِ . قلت لها : يا سيدتي ، هل اجتمعتما في خلوة في وقت من الأوقات ، أم حب مستحدث فتتفسدت الصعداء ، وأرخت دموعها على خديها كطل على ورد ، وأنشأت تقول : وكنا كغصني بانه وسط وردة . . . نشم جنة اللذات في عيشة رغد فأفرد هذا الغصن من ذاك قاطع . . . فيا من رأى فرداً يحن إلى فرد قلت لها : يا هذه ، ما بلغ من عشقك هذا الفتى ؟ قالت : أرى الشمس على حائطهم أحسن منها على حائط غيرهم ؛ وربما أراه بغتة ، فأبهت وتهرب الروح عن جسدي ، وأبقى الأسبوع والأسبوعين بغير عقل ؛ قلت لها : عزيز علي ، وأنت على مابك من الضنى وشغل القلب بالهوى ، وانحلال الجسم وضعف القوى ، ما أرى من صفاء اللون ، ورقة البشرة فكيف لو لم يكن بك من الهوى شئ ، أراك كنت مفتنة في أرض البصرة . قالت : كنت ، والله ، يا شيخ ، قبل محبتي لهذا الغلام ، تحفه الدلال والجمال والكمال ، ولقد فتنت جميع ملوك البصرة ، وفتنتي هذا الغلام . فقلت : يا هذه ، ما الذي فرق بينكما قالت : نواب الدهر ، وأوابد الحدثان ، ولحديثي وحديثه شأن من الشأن ، وأنبيك أمري : إني كنت أفصدت ، في بعض أيام النيروز ، فأمرت ، فزين لي وله مجلس بأنواع الفرش ، وأواني الذهب ؛ ونضدنا الرياحين والشقائق والمنثور وأنواع البهار ، وكنت دعوت لحبيبي عدة من متظرفات البصرة ، فيهن من الجواري ، جارية شهران ، وكان شراؤها عليه من مدينة عمان ثمانمائة ألف درهم ؛ وكانت الجارية ولعت بي ، وكانت أول من أجابت الدعوة ، وجاءتني منهن ؛ فلما حصلت عندي ، رمت بنفسها علي ، تقطعني عضاً وقرصاً . ثم خلونا نتمزج القهوة إلى أن يدرك طعامنا ، ويجتمع من دعونا ، فتارة هي فوق ، وتارة أنا فوقها ، فحملها السكر على أن ضربت يدها على تكتي فحلتها ، ونزعت هي سراويلها ، وصارت بين فخذي كمصير الرجال من النساء . فبينما نحن كذلك ، إذ دخل علي حبيبي ، وقد التزق قرطي بخلخالي ؛ فلما نظر إلينا ، اشمأز لذلك ، وصدف عني وعنهما صدوف المهرة العربية إذا سمعت صلاصل اللحم ، وعض على أنامله ، وولى خارجاً . فأنا ، يا شيخ ، منذ ثلاث سنين ، اسل سخيمته ، وأستعطفه فلا ينظر إلي بعين ، ولا يكتب إلي بحرف ، ولا يكلم لي رسولاً . قلت لها : يا هذه ، أفمن العرب

هو أم من العجم ؟ قالت : هو من جلة ملوك البصرة . قلت : من أولاد نياها
أو من أولاد تجارها . قالت : من عظيم ملوكها . قلت لها : أشيخ هو أم شاب
؟ فنظرت إلي شزراً وقالت : إنك لأحمق . أقول : هو مثل القمر ليلة البدر ،
أمرد أجرد ، وطرة رقعاء كحنك الغراب ، تعلوه شقرة في بياض ، عطر لباس
، ضارب بالسيف ، طاعن بالرمح ، لاعب بالنرد والشطرنج ، ضارب بالعود
والطنبور ، يغني وينقر على أعدل وزن ، لا يعيبه شئ إلا انحرافه عني ، لا
نقصاً لي منه بل حقداً لما رأيته عليه . قلت : يا هذه ، وكيف صبرك عنه ؟
فأنشأت تقول :

أما النهار ، فمستهامٌ والهِ . . . وجفون عيني ساجفاتٌ تدمع
والليل ، قد أرعى النجوم مفكراً . . . حتى الصباح ومقلتي لا تهجع
كيف اصطباري عن غزالٍ شادن . . . في لحظ عينيهِ سهامٌ تصدع
وجهٌ يضى ، وجاجبان تقوسا . . . وكأن جبهته سراجٌ يلمع
وبياض وجهٍ قد أشيب بجمرة . . . في وجنتيه كأنه مستجمع
والقد منه كالقضيبي إذا زها . . . والغصن في قنوائه يترعرع
تمت خلائقه ، وأكمل حسنه . . . كمثال بدرٍ ، بعد عشرٍ ، أربع
قلت لها : يا سيدتي ، ما اسمه ، وأين يكون ؟ قالت : تصنع به ماذا ؟ قلت :
أجهد في لقائه ، وأتعرف الفضل بينكما في الحال ، قالت : على شريطة قلت :
وما هي ؟ قالت : تلقانا إذا لقيته ، وتحمل لنا إليه رقعة . قلت : لا أكره ذاك .
قالت : هو ضمرة بن المغيرة بن المهلب بن أبي صفرة ، يكنى بأبي شجاع ،
وقصره في المربد الأعلى ، وهو أشهر من أن يخفى . ثم صاحت في الدار :
يا جوارى ، دواة وقرطاساً وشمرت عن ساعدين كأنهما طومارا فضة ، ثم
حملت القلم وكتبت : بسم الله الرحمن الرحيم ، سيدي : تركي الدعاء في
صدر رقعتي ، ينبئ عن تقصيري ، ودعائي ، إن دعوت ، يكون هجئة . فلولا
أن بلوغ المجهود يخرج عن حد التقصير ، لما كان لما تكلفته خادمته من
كتب هذه الرقعة معنى ، مع إياسها منك ، وعلمها بتركك الجواب . سيدي ،
فجد بنظرة ، وقت اجتيازك في الشارع إلى الدهليز ، تحي بها أنفساً ميتة
أسرى ؛ واخطط بخط يدك ، بسطها الله بكل فضيلة ، رقعة فأجعلها عوضاً من
تلك الخلوات التي كانت بيننا في الليالي الخاليات التي أنا ذاكرتها . سيدي ،
ألست لك محبة ، وبك مدنفه ؟ فإن رجعت ، مولاي ، إلى الأشبه بك ،
وأنقذتني من عوارض التلف ، كنت لك خادمة ، ولك شاكرة . فلما فرغت من
الكتاب ، يا أمير المؤمنين ، ناولتني إياه ، فقلت لها : يا سيدتي ، قد وجب

حقك علي ، ولزمتك حرمتي لطول وقوفي عليك . وكنت قد سألت شربة ماء .
قالت : استغفر الله ، ما فهمنا عنك . ثم صاحت في الدار : أخرجن إلينا شراباً
من ماء وغير ماء . فما كان إلا أن أقبل ثلاثون وصيفة ، بأيديهن الطاسات
والجامات والأقداح ، مملوءة ماء وثلجاً وفقاعاً وشراباً ، فشربت الماء ثم
قلت : يا سيدتي ، مع قدرتك على هذا من استواء الحال ، وكثرة الخدم
والعبيد والجواري ، فلم لا تأمرين إحدى الجواري أن تقف مراعية للغلام ،
حتى إذا مر أعلمتك ، فتخرجين إليه ؟ قالت : لا تغلط يا شيخ ، فتمثلت ؟
عبالة عنق الليث من أجل أنه . . . إذا رام امرأة قام فيه بنفسه
ثم انصرفت عنها ، يا أمير المؤمنين ؛ فلما أصبحت غدوت على محمد بن
سليمان فوجدت مجلسه محتفلاً بالملوك ، ورأيت غلاماً قد زان المجلس ،
وفاق من فيه حسناً وجمالاً ، قد رفعه الأمير فوقه ، فسألت عنه ، فقيل :
ضمرة بن المغيرة ، فقلت في نفسي : بالحقيقة حل بالمسكينة ما حل ، هو ،
والله ، قاتلها فيما أرى . ثم قمت فقصدت المربد ، ووقفت على باب داره ،
فإذا هو قد ورد في موكب جليل ، فوثبت إليه ، وبالغت في الدعاء والثناء ؛ ثم
دنوت منه ، وفاوضته في الذي بيني وبينها ، وناولته الرقعة ، فلما قرأها
ضحك ، ثم قال : يا شيخ قد استبدلنا بها ، فهل لك في أن تنظر إلى البديل ؟
قلت : نعم . فصاح في الدار : يا جواري ، أخرجن إلينا لذيذاً . فما كان إلا أن
طلعت جارية وضيئة الكمين ، ناهدة الثديين ، تمشي مشية مستوحل ، ترتج
من دقة خصرها على كبر عجزه ذات فخذين وعجيزتين تختطفان الأنفس
اختطافاً ، على رأسها بطيخة من الكافور ، مكتوب علي جبينها :
آه من الحب آه . . . ما أقتل الحب وأضناه
ودون ذلك مكتوب :

عياراً قياساً في الخط . . . رخيمة الدل ، صيود للرجال
وقد كتبت بالغالية على عصابتها ثلاثة أسطر ، وهي :
إذا غضبت رأيت الناس قتلى . . . وإن رضيت فأرواح تعود
لها في عينها لحظات سحر . . . تميت بها ، وتحيي من تريد
وتسبي العالمين بمقلتيها . . . فكل العالمين لها عبيد
فناولها الرقعة ، وقال : اقربي وأجيبي صاحبتك . فلما قرأت الرقعة ،
اصفرت ، وعرقت ، ومزقتها ، وضربت بها في وجه الغلام ، وغابت في
الستر . فقال لي : أما أنت ، يا شيخ ، فاستغفر الله مما مشيت فيه . قلت : بل
أنت استغفر الله من هجرانك إياها ، وتركك إتيانها . والله ما أرى لها في

البشر نظيراً . قال : لا أفعل ، ولو أنها في حسن يوسف وكمال حواء .
فخرجت ، يا أمير المؤمنين ، وأنا أجر ذيلي حتى وردت عليها ؛ فاستأذنت
ودخلت ، فبدأت بي ، فقالت : ما وراء الشيخ ؟ قلت : البؤس واليأس . قالت
: لا عليك . فأين الله والقدر ؟ ثم أمرت لي بخمسمائة دينار ، وعشرة أثواب ،
وخرجت من عندها وأنا ممتدح لآل سليمان . فلم يكن لي ، والله ، إلا معرفة
خبرها في العام الذي عدت فيه إلى البصرة ، فوردت عليها ، فوجدت على
بابها أمراً ، ونهياً ، وأسباباً لا تكون إلا على باب الخلفاء . فاستأذنت ،
فدخلت ، فإذا فوق رأسها ثلاثون رجلاً من شيوخ وشبان وخدم ، وقوف
بسيوفهم ، فلما نظرت إلي ، عرفتني ، ووثبت إلي ، وقبلت رأسي ، وقالت :
يا شيخ الحمد لله الذي جعل العبيد بالصبر ملوكاً ، وجعل الملوك بالتية عبيداً
، إن الذين تراهم وقوفاً ، أصحاب ضمرة ، يسلون سخيمتي ، ويسألونني
الرجوع له ، والله ، لا نظرت إليه في وجه ، ولو أنه في حسن يوسف وكمال
حواء . فسجدت ، يا أمير المؤمنين ، شماتة بضمرة ، وتقرباً إلى الجارية .
فقال بعض حجاب ضمرة : مهلاً يا شيخ ، فمن طاب محضره ، طاب مولده .
ثم انصرفوا . فناولتني خريطة فيها أوراق ، فقالت : هذا أول ما ورد علينا
منه ، فإذا ثوب خز أبيض يقق ، مكتوب فيه بماء الذهب : بسم الله الرحمن
الرحيم . لولا تغاضي عليك ، أدام الله حياتك ، لو صفت شطراً من غدرك ،
ولبسطت سوط عتبي عليك ، وحكمت سيف ظلامتي فيك ، إذ كنت الجانية
على نفسك ، والمظهرة لسوء العهد وقلة الوفاء ، المؤثرة علينا غيرنا ،
فخالفت هواي ، وفرشت نفسك لها ، على حالتي جد وهزل ، وصحو وسكر ،
والمستعان الله على ما كان من سوء اختيارك . وقد ضمنت رقعتي هذه ،
أبيات شعر ، أنت المتفضلة بالنظر إليها ، وهي :
قطع قلبي فراقكم قطعاً . . . وكدت أقضي بينكم جزعاً
ما تكحل العين بالرقاد ولا . . . ينام جنبي في الليل مضطجعا
لا عيش لي مذ نأت ولا وجدت . . . عينا في الأرض قط متسعا
قلت لها : أفلا تحدثيني كيف سليت عنه ، وابتلى ؟ قالت : كيف لا أحدثك ؟
افتصدت تفاحة ، جارية محمد بن سليمان ، فدعينا إلى خورنق لمحمد بن
سليمان ، فلما طعمنا ، دعت لنا بالشراب ، فبينما نحن كذلك ، إذا بحراقة
سلطانية قد وردت ، وفيها عدة من أبناء الملوك ، وفيهم هذا العيار ، ولا علم
لي بمكانه ، وكنت حملت العود وغنيت :
أبلى فوادي وشفني الأرق . . . والدمع من مقلتي يستبق

من حب ظبي أغن ذي دعج . . . وقلبه للشفاء منطبق
فلما وجبت العتمة انصرفنا ، وأبطأت الجارية ، وأتاني هؤلاء القوم من عنده
يسلون سخيمتي ، ويستعطفونني عليه . ثم انصرفت عنها ، يا أمير المؤمنين
، ودخلت الحمام من ساعتني ، فما كان إلا دخلت ، حتى أتاني غلامي ، فقال :
جماعة من جلة الناس قد طرّقوا دارك يطلبونك . فلبست ثيابي ، وخرجت
مسرّعا ، فإذا بضمرة قد كبس داري في عدة من الرؤساء ، فقال : والله ، لا
برحنا ، حتى تنفق علينا الخمسمائة دينار التي أخذتها من الجارية ، سيدتي .
قلت : أي والله ، بالسمع والطاعة . ثم جذبني إلى نفسه ، فلم يزل يناظرني
في أمرها حتى أقبل المساء ، ثم انصرف إلى رحله . فلما كان من الغد ،
وردت له رقعة مع خادم ، وكيس فيه ألف دينار ، واستزارني ، فقبلت ذلك ،
وصرت معه إليه . فلما نظر إلي ، تتحى عن مقعده ، وأقعدني ، ثم قال : هذا
قد أعدته ، للنيروز ، لسيدتي هدية ، وأنت أولى من تجشم مع الخادم إليها .
قلت : السمع والطاعة . ثم صاح في الدار : هاتوا الهدية . فإذا مائة تخت من
ثياب ، وصندوق من ذهب مقفل عليه ، فقال لي : في التخت والصندوق مبلغ
ثلاثين ألف دينار ، وأنت أولى من تفضل بالإيصال . فصرنا إليها ، واستأذنا ،
فلما مثلنا بين يديها ، أنكرتني وقالت : من الشيخ ؟ قلت : الخليع ، شاعر
العراق ؛ ومعني هدية عبدك ضمرة . فصاحت في الدار : تملك فإذا جارية
كأنها الظبية المنفلتة من الشبكة ، قالت لها : خذي هذه الهدايا ، وفرقيها
على جوارى الدار ، ثم قالت : أيطمع الخنوص أن يجتمع معي ، بعد قبولي
الهدية ، في ثلاثين سنة ؟ قلت لها : العفو عند المقدرة يعدل عتق رقبة ،
قالت : ففي خمس عشرة سنة ؟ قلت لها : أنقصيها ، أولى بك . قالت : ففي
ثلاث سنين ، قلت لها : حطة أخرى ، وقد اجتمعنا ، قالت : لا ، والله ، لا أكل
ولا أشرب حتى آتية . وأمرت أن يسرج ؛ وبادرت إلى باب ضمرة مبشرا ، فلما
وصلت أو سمعت صلاصل اللجم ، فإذا هي قد سبقتنني في جواريتها وخدمها .
فدخلت ، فإذا هما يتعانقان ويتعاقبان ، فقلت : يا سيدتي ، ما أنتما إلى شئ
أحوج منكما إلى خلوة . قالا : هو ذاك فانصرفت عنهما ، ثم بكرت عليهما ،
فإذا هي في المرقد الأول جالسة ، عليها جبة وشئ مطير ، وهي تعصر الماء
عن ذوائبها ، وتصلح قرونها ، فاستحييتني وقالت : لا تفكرن في ريبة ، فو
الله ما صلينا البارحة ، حتى بعثت إلى عبد الرحمن بن أبي ليلى القاضي ،
فزوجت نفسي سيدي . ولكن صر إليه في المرقد الثاني . فصعدت إليه ، فلما
نظر إلي ، وثب إلي ، وقبل بين عيني وقال : يا شيخ ، قد جمع الله بيني وبين

سيدتي بك . ثم دعا بدواة وقرطاس ، وكتب إلى ابن نوح الصيرفي في ثلاثة آلاف دينار ؛ فرجعت إليها ، فقالت : بماذا برك سيدي ؟ فأقرأتها الرقعة ، فقالت : نعجل إليك مثلها ، فدعت بمال وطيّار ووزنت ثلاثة آلاف دينار ، ودعت بعشرة أثواب من ثياب مصر ، وقالت : هذه وظيفتك علينا كل عام ، فخرجت من عندي ، وأخذت مرفوعي من آل سليمان ، وانصرفت إلى العراق . وكان الرشيد متكئاً ، فاستوى جالساً وقال : أوه يا حسين لولا أن ضمرة سبقتي إليها ، لكان لي ولها شأن من الشأن . (52)

أفأفهمه وأنا وحدي!

قيل: دخل رجل على الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين إني هجوت الروافض. قال: هات، فقال:

شمساً ورغماً وزيتوناً ومظلمةً ... من أن ينالوا من الشيخين طغيانا فقال: فسّر. قال: يا أمير المؤمنين أنت في مائة ألف أنت في مائة ألف لا تفهم هذا أفأفهمه وأنا وحدي! فضحك وأمر له بصلة (53).

هذا عقوبة من عصي

قال: وكتب يحيى بن خالد البرمكي إلى الرشيد: من الحبس لأمر المؤمنين وخلف المهديين وخليفة رب العالمين، من عبد أسلمته عيوبه وأوبقته ذنوبه وخذله شقيقه ورفضه صديقه وزال به الزمان ونزل به الحدثان وحلّ به الضيق بعد السعة والشقاء بعد السعادة وعالج البؤس بعد الدعة ولبس البلاء بعد الرخاء وافترش السخط بعد الرضى واكتحل السهود وفقد الهجود، ساعته شهر وليلته دهر، قد عاين الموت وشارف الفوت، جزعاً يا أمير المؤمنين قدمني الله قبلك من موجدتك وأسفاً على ما حرمته من قربك لا على شيء من المواهب، لأن الأهل والمال إنما كانا لك وعارية في يديّ منك، والعارية لا بد مردودة، فأما ما اقتصصته من ولدي فبذنبه وعاقبته بجرمه وجريته على نفسه فإنما كان عبداً من عبيدك لا أخاف عليك الخطأ في أمره ولا أن تكون تجاوزت به فوق ما كان أهله ولا كان مع ذلك بقاؤه أحب إلي من موافقتك، فتذكّر يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداك وحجب عني فقدك، كبر سني وضعف قوتي وارحم شيبتي وهب لي رضاك عني ولتمل إليّ بغفران ذنبي، فمن مثلي يا أمير المؤمنين الزلل ومن مثلك الإقالة، ولست أعتذر إليك إلا بما تحب الإقرار به حتى ترضى، فإذا رضيت رجوت أن يظهر لك من أمري

⁵² (المحاسن والأضداد ، 211-208

⁵³ (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوئ ، 187/1

وبراعة ساحتي ما لا يتعاضدك معه ما مننت به من رأفتك بي وعفوك عني
ورحمتك لي، زاد الله في عمرك يا أمير المؤمنين وقدمني للموت قبلك. وكتب
في أسفله:

قل للخليفة ذي الصنا ... نِع والعطايا الفاشيه
وابن الخلائف من قري ... ش والملوك الهاديه
ملك الملوك وخير من ... ساس الأمور الماضيه
إن البرامكة الذي ... ن رموا لديك بداهيه
عمتهم لك سخرية ... لم تبق منهم باقيه
فكانهم مما بهم ... أعجاز نخل خاويه
صفر الوجوه عليهم ... خلع المذلة باديه
متفرقين مشتتي ... ن بكل أرض قاصيه
بعد الإمارة والوزا ... رة والأمر الساميه
ومنازل كانوا بها ... فوق المنازل عاليه
وتحرّم برضاع أو ... في مريض لك فاديه
فاليوم قد رموا لدي ... ك بما يشيب الناصيه
أضحوا وجلّ مناهم ... منك الرضى والعافيه
فإذا رضيت فإن أن ... فسهم بحكمك راضيه
فاليوم قد سلب الزما ... ن كرامتي وبهائيه
واليوم قد ألقى الزما ... ن جرانه بفنائيه
ورمى سواد مقلتي ... فأصاب حين رمانيه
يا من يود لي الردى ... يكفيك ويحك ما بيه
يكفيك ما أبصرت من ... ذلي وذلل مكانيه
يكفيك أني مستبأ ... ح معشري ونسائيه
ورزئت مالي كله ... وفدى الخليفه ماليه
إن كان لا يرضيك إ ... لا أن أدوق حماميه
فلقد رأيت الموت من ... قبل الممات علانيه
وفجعت أعظم فجعة ... وفنيت قبل فنائيه
ولبست أثواب الذلي ... ل ولم تكن بلباسيه
وعطبت في سخط الإما ... م على رفيع بنائيه
فانظر بعينك هل ترى ... إلا قصوراً خاليه
وذخائراً مقسومة ... قسمن قبل مماتيه

وحريراً من بين صا ... رخّة عليّ وباكيه
 ونوادباً يندبنني ... تحت الدجى بكنائيه
 يا با عليّ البرمك ... يّ فما أجيب الداعيه
 وبكاؤهن وقد سمع ... ت مقلقل أحشائيه
 أخليفة الله الرضى ... لا تشتمن أعدائيه
 اذكر عهدك لي وما أعطيتني بوفائيه
 اذكر مقاساتي الأمو ... ر وخدمتي وعنائيه
 ارحم جعلت لك الفدا ... كبري وشدة حاله
 ارحم أخاك الفضل وال ... باقين من أولاديه
 فلقد دعوك وقد دعو ... تك إن سمعت دعائيه
 أخليفة الرحمان إ ... نك لو رأيت بناتيه
 وبكاء فاطمة الكئي ... بة والمدامع جاريه
 ومقالها بترجع ... وا شقوتا وشقائيه
 من لي ولا من لي وقد ... فصم الزمان قناتيه
 وعدمت صفو معيشتي ... وتغيرت حالاتيه
 من لي وقد غضب الزما ... ن على جميع رجاليه
 أودى الزمان بجوره ... بساستي وحماتيه
 يا عطفة الملك الرضى ... عودي علينا ثانيه
 فوقع الرشيد في رقعته: ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها
 رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما
 كانوا يصنعون. وقد قلت:
 يا آل برمك إنما ... كنتم ملوكاً عاديه
 فطغيتم وبغيتم ... وكفرتم نعمائيه
 هذا عقوبة من عصى ... من فوقه وعصائيه
 كنتم كشيء قد مضى ... أحلام نوم ساريه
 وتمثل بقول مهلهل:
 بات ليلي بالأنعمين طويلاً ... أرقب النجم ساهراً أن يزولا
 أزجر العين أن تُبكي الطلولا ... إن في الصدر من كليب غليلاً
 إن في الصدر غلة لن تقضى ... ما دعا في الغضون داع هديلاً
 لم يطيقوا أن ينزلوا فنزلنا ... وأخو الحرب من أطاق النزولا⁽⁵⁴⁾

أحسبه صادقاً

وحكي عن الرشيد في عبد الله بن مالك الخزاعي حين غضب عليه فأمر أهله وحشمه وجميع قراباته أن يتجنبوا كلامه ومعاملته ومعاطاته حتى أثر ذلك في بدنه وتحاماه أقرب الناس إليه من ولد وأهل فلم يدن منه أحد ولم يطف به.

فجاءه محمد بن إبراهيم الهاشمي وكان أحد أودائه، في جوف الليل، فقال له: إن لك عندي يداً ما أنساها ومعروفاً ما أكفره وقد علمت ما تقدم به أمير المؤمنين في أمرك وها أنا بين يديك ونصب عينيك فمرني بأمرك فوالله لأجعلن نفسي وقاية لك. فقال له عبد الله خيراً وأثنى عليه وأخبره بعذره فيما وجد عليه الرشيد.

فلما دخل عليه قال له: أين كنت في هذه الليلة؟ قال: عبدك يا أمير المؤمنين عبد الله بن مالك كنت عنده وهو يحلف بطلاق نسائه وعتق مماليكه وصدقة ماله مع عشرين بدنة يهديها إلى بيت الله الحرام حافياً راجلاً إن كان ما بلغ أمير المؤمنين سمعه الله جل وعز من عبد الله ولا اطلع عليه ولا هم به أو أظهره. قال: فأطرق الرشيد ملياً مفكراً ومحمد يلحظه ووجهه يشرق مرة ويسفر أخرى وكان قد حال لونه حين دخل عليه، ثم رفع رأسه فقال: أحسبه صادقاً يا محمد فمره بالرواح إلى الباب. قال: وأكون معه؟ قال: نعم. فأنصرف محمد إلى عبد الله فبشّره وأمره بالركوب رواحاً. فدخلوا جميعاً، فلما أبصر عبد الله بالرشيد انحرف نحو القبلة وخرّ ساجداً ثم رفع رأسه، فاستدناه الرشيد فدنا وعيناه تهملان فأكب عليه وقبّل بساطه ورجليه وموطيء قدميه ثم طلب أن يأذن له في الاعتذار. فقال: ما بك حاجة إلى أن تعتذر إذ قد عرفت عذرك. قال: فكان عبد الله يرى بعد ذلك إذا دخل على الرشيد بعض الانقباض، فشكا ذلك إلى محمد، فقال محمد: يا أمير المؤمنين إن عبدك عبد الله يشكو أثراً باقياً من تلك النبوة التي كانت من أمير المؤمنين ويسأل الزيادة في بسطه. فقال الرشيد: إنا معشر الملوك إذا غضبنا على أحد من بطانتنا ثم رضينا عنه بقي لتلك الغضبة أثر لا يخرج له ليل ولا نهار.

قيل: ومدح شاعر أبا حاتم كاتب الديوان فلم يصله بشيء فأنشأ يقول:

لَتُنصِفَنِي يَا أبا حاتم ... أو لأصيرنّ إلى حاكم

أول ما أتلفت من ماله ... خمسين ألفاً في شري هاشم

خمسين ألفاً وضحاً كلها ... من مال هذا الملك النائم

فاحتفظها صاحب الخبر ورفعها إلى الرشيد فقال: صدق، لولا أنني نائم ما كانت أموري تجري على هذا السبيل: وأمر بإخراج الجرائد من الدار إليه. فأول ما وجد على منصور بن زياد عشرة آلاف ألف درهم.

عذره له أحسن من إحيائه إياه

فحدث صالح صاحب المصلّى قال: دعاني الرشيد وهو على كرسي فقال: اذهب الساعة فخذ منصور بن زياد بالخروج من عشرة آلاف ألف درهم فإن لم يوردها بينك وبين المغرب فاضرب عنقه وجنني برأسه وأنا نفي من المهدي لأن أنت دافعت عنه لأضربن عنقك. قلت: يا سيدي فإن أعطاني بعضها ووقت لي في بعضها وقتاً؟ قال: لا. فخرجت فأعلمته الخبر فأسقط في يده وقال: ما أراد إلا قتلي لأنه يعلم أن مقدار مالي لا يبلغ ما به طالبني، ولكن تأذن لي أن أدخل بيتي فأودع أهلي؟ فأذنت له فدخل ودخلت معه وبقيت واقفاً فبعث إلى أمهات أولاده وبناته ونسائه أن اخرجن إلي كما كنتن تخرجن عند موتي فإن هذا آخر أيامي ولا ستر لكن بعدي. فخرجن إليه مشققات الجيوب مخمّشات الوجوه بصراخ شديد. فبكى إليهن وبكين إليه وبكيت معهن ثم ودعهن وخرج وهنّ في أثره واضعات التراب على رؤوسهن، ثم قال: يا أبا مقاتل لو أذنت لي في المصير إلى أبي عليّ يحيى بن خالد البرمكي فكنت أوصيه بولدي وأهلي؟ فقلت: امض.

وصرنا إليه وقد نزل في ساعته وهو على كرسي يغسل يده، فلما توسطنا الدار جعل منصور يبكي ويمشي إليه حتى دنا منه وهو يسأله عن الحال فيمنعه البكاء من إخباره، فأقصصت عليه قصته فقال: ارجع إلى أمير المؤمنين وسله أن يهبه لي. قلت: ما لي إلى ذلك سبيل ولا يراني إلا والمال معي أو رأس منصور كما أمرني. فقال لخادم له: انت فلانة فسلها كم لنا عندها من المال. فانصرف وذكر أن عندها خمسة آلاف ألف درهم. فقال لي: احملها وابلغ أمير المؤمنين رسالتي في باقيها. فأعلمته أن لا سبيل إلى حمل بعضها دون بعض. فأطرق ثم رفع رأسه ثم قال: يا غلام انت دنانير فقل لها تبعث إلي بالجواهر الذي وهبه لها أمير المؤمنين. فبعثت إليه بحق فقال: هذا جوهر ابتغناه لأمر المؤمنين بمائتي ألف دينار وهو عارف به وقد جعلته له بمائة ألف دينار وهو ألفا ألف درهم، واحمل إليه هذه السبعة الآلاف الألف والرسالة. فأبيت.

فوجه إلى الفضل ابنه: إنك كنت أعلمتني أنك على ابتياع ضيعة نفيسة وقد أصبتها ولا يوجد مثلها في كل وقت وابتياعها فرصة فاحمل إلي مالها. فعاد

الرسول ومعه ألف ألف درهم. ووجه إلى جعفر ابنه أن يوجه إليه بألف ألف درهم. فأنفذ إليه صكاً أو صكاً إلى الجهد بها. فقبضت المال ووافيت الرشيد قبل المغرب وهو منتصب على حالته ينتظر رجوعي إليه. فأخبرته الخبر فلما انتهيت إلى خبر الحقّة قال: صدق وقد ظننت أنه لا ينجليه غيرهم، احمل هذا المال أجمع إلى أبي عليّ وارده عليه وأعلمه أنني قد قبلت ذلك عن منصور وردته عليه. ففعلت ذلك.

ولقيني بعد ذلك يحيى منصرفاً من الدار ومنصور معه يسايره ويضاحكه والناس خلفه فقلت: والله لأنصحن هذا الشيخ الكريم. فدخلت معه ودخل منصور ودعا بغدائه، فلما نهض منصور قلت: يا أبا عليّ إني والله ما رجعت معك إلا لنصحك وقد رأيت مكان هذا الرجل منك وكنا حين حملت المال أنهضته معي فوالله ما قطع نصف الصحن من الدار حتى تمثل بهذا البيت: فما بَقيا علي تركتmani ... ولكن خفتما صرد النبال
فعارض أكرم فعلك بالأم خصلة فيه فدعاني الامتعاض من ذلك إلى إخبارك، فإني من تعلم في مودتك وطاعتك. فأكب على الأرض ساعة ثم رفع رأسه فقال: اعذره فقد كان عقله عزب عنه في ذلك الوقت. قال: فكان عذره له أحسن من إحيائه إياه⁽⁵⁵⁾.

أندرون ما قالت هذه المرأة؟!!

ودخلت امرأة على هرون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه فقالت يا أمير المؤمنين أقر الله عينك وفرحك بما آتاك وأتم سعدك لقد حكمت فقسطت فقال لها من تكونين أيتها المرأة فقالت من آل برمك ممن قتل رجالهم وأخذت أموالهم وسلبت نوالهم فقال أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله ونفذ فيهم قدره وأما المال فمردود إليك ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال أندرون ما قالت هذه المرأة؟! فقالوا ما نراها قالت إلا خيراً قال ما أظنكم فهتمم ذلك أما قولها أقر الله عينك أي أسكنها عن الحركة وإذا سكنت العين عن الحركة عميت وأما قولها وفرحك بما آتاك فأخذته من قوله تعالى (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة) وأما قولها وأتم الله سعدك فأخذته من قول الشاعر

(إذا تم أمر بدا نقصه ... ترقب زوالا إذا قيل تم)
وأما قولها لقد حكمت فقسطت فأخذته من قوله تعالى (وأما

القاسطون فكانوا لجهنم حطباً (فتعجبوا من ذلك)⁽⁵⁶⁾

فلما جاءك المال والجائزة جلست

وحج هارون الرشيد، فأرسل إلى سفيان بن عيينة فأمره أن يحدث بنيه، فقال يا أمير المؤمنين قد سألتني الناس فامتنعت عليهم، ولكني أجلس لبنيك وللناس، فقال: نعم. فلما جلس صاح به الناس: سألناك الجلوس لنا فأبيت علينا، فلما جاءك المال والجائزة جلست. فقال للمستملي: أنصتهم لي. فصاح المستملي: صه صه. فسكت الناس، فأخرج سفيان بن عيينة رأسه إليهم، وقال: حدثني الزهري، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما شيء أحل وأطيب من ثلاثة: صداق الزوجة، والميراث، وما أتاك الله به من غير مسألة، فإنه رزق ساقه الله إليك ". والله ما جئت هذا الرجل ولا سألته شيئاً من ماله، ولو وجه إلي شطر ماله لقبلته، ثم أدخل رأسه ولم يحدثهم في ذلك الموسم بشيء. ⁽⁵⁷⁾

بعثت فيك لرؤيا رأيته

رأى الرشيد رؤيا فهمته، فوجه في الكرمانى بريداً، فلما أتاه ومثل بين يديه خلا به وقال: بعثت فيك لرؤيا رأيته. فقال: وما هي؟ قال: رأيت كلبين ينهشان قبل جارية من جواري. فقال له الكرمانى: ما رأيت إلا خيراً يا أمير المؤمنين، فقال له الرشيد: قل ما تراه وهات ما عندك، فقال له: هذه جارية دعوتها لتجامعها، وكان لا عهد لك معها بذلك، وكانت ذات شعر، فكرهت أن تحلق فتجد أثر الموسى، وكرهت أن تبقى على هيئتها، فأخذت جلماً فحلقت بعض الشعر وتركت بعضه، فأشار الرشيد إليه بالعود، وقام فدخل إلى نسائه، ودعا بتلك الجارية فسارها مستفهماً منها عن ذلك، فأقرت به وصدقت الكرمانى، فخرج إليه الرشيد، فقال له: أصبت وسررتني، وأمر له بصلة سنية، ثم قال له: إياك أن تحدث بها ما كنت حياً. قال: فو الله ما حدثت بها ما دام الرشيد حياً ⁽⁵⁸⁾.

ابن السماك والرشيد

وذكر محمد بن هرون عن أبيه قال حضرت الرشيد وقال له الفضل بن الربيع يا أمير المؤمنين قد أحضرت ابن السماك كما أمرتني قال أدخله فدخل فقال له: عظمى قال يا أمير المؤمنين اتق الله وحده لا شريك له واعلم أنك واقف غدا

56 (الأبشيهي ، المستطرف في كل فن مستظرف ، ، 101/1-102

57 (ابن عبد البر ، بهجة المجالس وأنس المجالس ، 32/1

58 (ابن عبد البر ، بهجة المجالس وأنس المجالس ، 203/1

بين يدي الله ربك ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالثة لهما جنة أو نار فبكى هرون حتى اخضلت لحيته فأقبل الفضل على ابن السماك فقال سبحان الله وهل يتخالج أحدا شك في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله لقيامه بحق الله وعدله في عباده وفضله فلم يحفل بذلك ابن السماك من قوله ولم يلتفت إليه وأقبل على أمير المؤمنين فقال يا أمير المؤمنين إن هذا يعنى الفضل بن الربيع ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم فاتق الله وانظر لنفسك فبكى هرون حتى أشفقنا عليه وأفحم الفضل بن الربيع فلم ينطق بحرف حتى خرجنا .

قال ودخل ابن السماك على الرشيد يوما فبينما هو عنده إذ استسقى ماء فأتى بقلة من ماء فلما أهوى بها إلى فيه ليشربها قال له ابن السماك على رسلك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشريها قال بنصف ملكي قال اشرب هناك الله فلما شربها قال له أسألك بقرابتك من رسول الله لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشريها قال بجميع ملكي قال ابن السماك إن ملكا قيمته شربة ماء لجدير ألا ينافس فيه فبكى هرون فأشار الفضل بن الربيع إلى ابن السماك بالانصراف فانصرف (59)

وفي بدنك أربعة أسياف لا بد أن يقتلك أحدها ؟!

وعن أبي يعقوب قال: كنت قائماً بين يدي الرشيد وقد قدم إليه جماعة من الملحدين، فدعا بالسيّاف لقتلهم، فلما رآه شيخٌ منهم اضطرب وجزع، فقال له شاب منهم: يا شيخ، ترتاع من سيف هذا وفي بدنك أربعة أسياف لا بد أن يقتلك أحدها ؟! وهي: الدم والبلغم والصفراء والسوداء ؟! فتماسك الشيخ. فأمر الرشيد بأن يقدم قتل الشاب، وقال: هذا الغلام فتنة من فتنهم (60).

من إجلال الله تعالى إجلال العلم

وجه الرشيد إلى مالك بن أنس رحمه الله ليأتيه فيحدثه فقال مالك: إن العلم يؤتى! فسار الرشيد إلى منزله فاستند معه إلى الجدار، فقال: يا أمير المؤمنين، من إجلال الله تعالى إجلال العلم، فقام وجلس بين يديه وبعث إلى سفيان بن عيينة فأتاه وقعد بين يديه وحدثه، فقال الرشيد بعد ذلك: يا مالك تواضعنا لعلمك فانتفعنا به وتواضع لنا علم سفيان فلم ننتفع به. (61)

59 (جمهرة خطب العرب ، 3 / 100

60 (أسامة بن منقذ ، لباب الآداب ، ص 60

61 (الراغب الأصفهاني ، محاضرات الأدباء ، 10/1

أقتله فلأن يموت خير من أن يموق

وضرب أبو مريم مؤدب الأمين والمأمون الأمين بعود فخدش ذراعه. فدعاه الرشيد إلى الطعام فتعمد أن حسر عن ذراعه، فرآه الرشيد، فسأله فقال: ضربني أبو مريم، فبعث إليه ودعاه قال فخفت، فلما حضرت قال: يا غلام وضئه. فسكنت وجلست أكل فقال: ما بال محمد يشكوك؟ فقلت: قد غلبني خبثاً وعرامة! قال: أقتله فلأن يموت خير من أن يموق⁽⁶²⁾.

فقيه عرض عليه مال فتزهد فيه:

لما رجع الرشيد عن الحج كان قد نذر أن يتصدق بألف دينار على أحق من يجده، فدفع يوماً ألف دينار إلى بعض ثقاته وأمره أن يطلب فقيراً مستحقاً فيعطيه، فأخذ يطوف في الأسواق، فإذا رأى فقيراً مستحقاً للإعطاء قال: لعلي أجد أفقر منه، فانتهى بالعشي إلى عريان مخلوق الرأس في خربة فقال في نفسه: لا أجد أفقر من هذا. فقال: يا فتى خذ هذا المال واستغن به. فقال: لا حاجة لي فيه. قال: أحب أن تأخذه. قال: إن كان ولا بد فثم حجام حلق رأسي، ولم يكن معي شيء فأدفعه إليه. قال: فقصدت الحجام فامتنع من أخذه، فقلت: هو ألف دينار! فقال: ما حلقت رأسه إلا للوثاب فلا أخذه عليه أجره. قال: فعدت وما وجدت أكرم منهما وأهون مني، فأخبرت الرشيد بأمرهما فبعثني في طلبهما، فكأن الأرض ابتلعتهما ولم أظفر بهما، ولما حج الرشيد دخل على الفضيل فوعظه بما وعظه، وأراد الخروج فقال: يا فضيل هل عليك دين؟ فقال: نعم دين ربي لو يحاسبني عليه، فالويل لي إن حاسبني عليه، والويل لي إن ناقشني. فقال الرشيد: إني أسألك عن دين العباد. فقال: عندنا بحمد الله خير كثير لا نحتاج معه إلى ما في أيدي الناس. قال: هذه ألف دينار فاستعن بها. فقال: يا حسن الوجه أدلك على النجاة وتكافئني بالهلاك، أسأل الله التوفيق! فلما خرج عاتبته بنيته فقالت: لو أخذتها فاستعنا بها. فقال: إن مثلي ومثلكم مثل قوم كان لهم بغير يكدونه ويأكلون من كسبه، فلما كبر وسقط عن العمل نحروه فأكلوه. ومر الإسكندر ببلد كان ملكه سبعة ملوك من صلب واحد ففنوا، فقال لأهله: هل بقي من نسل الأملاك السبعة أحد؟ قالوا: نعم رجل يكون في المقابر. فقصده وقال: ما دعاك إلى ملازمة المقابر؟ فقال: أردت أن أعزم عظام الملوك من عظام عبيدهم، فوجدت عظامهم سواء. قال: لهل لك أن تبتغي فأحيي لك شرف آبائك إن كان لك همة؟ قال: إن همتي عظيمة إن كانت بغيتي عندك. قال: وما بغيتك؟ قال: حياة لا موت فيها،

وشباب لا هرم فيه، وغنى لا فقر بعده، وسرور لا يغيره مكروه. فقال: لا أقدر من رأيت. فقال: امض لشأنك ودعني أطلب بغيتي ممن عنده ذلك. قال الإسكندر: هذا أحكم من رأيت. وقف أعرابي على محمد بن معمر وكان محمد جواداً، فسأله فخلع خاتمه ودفعه إليه، فلما ولى قال: يا أعرابي لا تخذعن عن هذا الفص فإن شراءه علي مائة دينار. فمضغ الأعرابي الخاتم وقلع فسه وقال: دونكه فالفضة تكفيني أياماً. فقال: هذا والله أجود مني⁽⁶³⁾.

هذا أمر يريده الله جل وعز

وحدثنا ابن المكي عن أبيه قال: قال محمد الأمين في آخر أيامه: يا مكي والله أحب أن أقعد يوماً قبل أن يحال بيننا وبين ما نريد. فقلت: يا أمير المؤمنين افعل ذلك، فقال: اغد عليّ في غد. قال: فانصرفت وغدا عليّ رسوله في السحر فجئت إليه وهو في صحن داره وعليه جبة وشي مذهبة تأتلق وعمامة مثلها ما رأيت لأحد قط مثل ذلك وتحتة كرسي من ذهب مرصع بالجواهر. فدعا بكرسي فجلست عليه عن يساره. ثم قال لخادم علي رأسه: ادع لي فلانة وفلانة، حتى عدّ أربع جوار ما منهن جارية إلا وأنا أعرف حذقها وجودة غنائها. فخرجن وجلسن عن يمينه. ثم قال: يا غلام عليّ برطل، فأتي برطل وقدح بلّور مكلل بالجواهر. فالتفت إلى التي تليه فقال لها: غني، فضربت ضرباً حسناً وتغنت بشعر الوليد بن عقبة بن أبي معيط:

هم قتلوه كي يكونوا مكانه ... كما قتلت كسرى بليل مرآبه
بني هاشم ردوا سلاح أخيكم ... ولا تنهبوه لا تحلّ مناهبه

قال: فرمى بالقدح في وسط الدار ثم قال: لعنك الله! ما هذا؟ قالت: لا والله يا سيدي ما جاء على لساني غير هذا. ثم التفت إلى الغلام فقال: اسقني. فأتاه بقدح مثل الأول. وقال للأخرى: غني. فغنت ما قيل في كليب وائل:

كليب لعمرى كان أكثر ناصراً ... وأيسر ذنباً منك ضُرج بالدم
فرمى بالقدح في صحن الدار وكسره ثم قال: يا غلام عليّ برطل. وقال للثالثة: غني، فغنت:

أتقتل عمراً لا أبا لك شارداً ... وتزعم بعد القتل أنك هارب
فلو كنت بالأقطار ما فتّ ضربتي ... وكيف تفوت الحين والدم طالب

قال: فرماها بالقدح وقال: يا غلام عليّ برطل. وقال للرابعة: غني. فغنت:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيسٌ ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالي والجدود العوائر

قال: فالتفت إلي وقال: قد سمعت هذا أمر يريد الله جل وعز. قال: فما مضت أيام حتى رأيت رأسه بين شرفتين من شرف قصره.⁽⁶⁴⁾

والله ما أبالي وقعت على الموت أو وقع علي الموت.

- قال أبو سهل الرازي: كنت واقفاً على رأس الأمين فقال لكاتب بين يديه: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله محمد أمير المؤمنين إلى طاهر بن الحسين؛ أما بعد، فإن الأمر قد خرج بيني وبين أخي إلى هتك الستور، وكشف الحرم، ولست آمن أن يطمع في هذا الأمر السحيق البعيد، لشتات ألفتنا، واختلاف كلمتنا، وقد رضيت أن تكتب لي أماناً فأرج إلى أخي به، فإن تفضل علي بالعفو فأهل ذلك هو، وإن قتلتني فمروءة كسرت مروءة، وصمصامة قطعت صمصامة، وأن يفترسني الأسد أحب إلي من أن تنهشني الكلاب. وأمر بختم الكتاب وأرسله مع ثقة إلى طاهر، فلما قرأه طاهر قال: الآن حين انحرف عنه مراقه وفساقه، وبقي مخذولاً معلولاً، يلوذ بالآمال؟! لا والله، أو يجعل في عنقه ساجوراً ويقول: ها أنا ذا قد نزلت على حكمك، فقلنا له: فما الجواب؟ قال: ما سمعتم، فانصرفنا إلى محمد بالخبر فقال: كذب العبد السوء العاض هن أمه، والله ما أبالي وقعت على الموت أو وقع علي الموت⁽⁶⁵⁾.

غازني أبوك الساعة

قال إسحاق الموصلي: دخلت يوماً على الأمين فرأيت م غضباً كالحاء، فقلت له: يا أمير المؤمنين ما لي أراك كالخائر؟ قال: غازني أبوك الساعة، لا رحمه الله، والله لو كان حياً لضربته خمسمائة سوط، ولولاك لنبشت الساعة قبره وأحرقت عظماءه. فقامت على رجلي وقلت: أعوذ بالله من سخطك يا أمير المؤمنين. ومن أبي وما مقداره حتى تغتاض منه؟ وما الذي غاظك؟ فلعل له فيه عذراً. فقال: شدة محبته للمأمون وتقديمه إياه علي حتى قال في الرشيد شعراً يقدمه علي فيه وغناه فيه، وغنيته الآن فأورثني هذا الغيظ، فقلت: والله ما سمعت هذا قط ولا لأبي غناء إلا وأنا أرويه، فما هو؟ قال: قوله: من الوافر

أبو المأمون فينا والأمين ... له كنفان من كرم ولين

فقلت له: يا أمير المؤمنين، لم يقدم المأمون في هذا الشعر لتقديمه إياه في الموالاته، ولكن الشعر لم يصح له وزنه إلا هكذا، فقال: كان ينبغي إذا لم يصح له الشعر إلا هكذا أن يدعه إلى لعنة الله. فلم أزل أداريه وأرفق به حتى سكن.

⁶⁴ (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، 151/1

⁶⁵ (أبو حيان التوحيدي ، البصائر والذخائر ، 341/1

فلما قدم المأمون سألني عن هذا الحديث، فحدثته به فجعل يعجب مه ويضحك⁽⁶⁶⁾.

كيف ترى سفينتي؟

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: عمل محمد الأمين سفينةً فأعجب بها وركب فيها يريد الأنبار وأنا معه. فقال لي: يا إسحاق كيف ترى سفينتي؟ قلت حسنة يا أمير المؤمنين، عمرها الله ببقائك. وقام يريد الخلاء، وقال: قل فيها أبياتاً، فقلت: نعم، وخرج. فقامت بالأبيات إليه فاشتتهاها جداً وقال لي: أحسنت يا إسحاق، وحياتي لأهبن لك عشرة آلاف دينار، فقلت: متى يا أمير المؤمنين، إذا وسع الله عليك؟ فضحك ودعا بها على المكان⁽⁶⁷⁾.

أزنديق أنت؟

ولما حبس الأمين أبو نواس دخل عليه خال الفضل بن الربيع، وكان يتعهد المحبوسين، ويسأل عنهم وكانت فيه غفلة، فأتى أبو نواس وقال: ما جرمك حتى حبست في حبس الزنادقة؟ أزنديق أنت؟ قال: معاذ الله. قال: أتعبد الكباش؟ قال: ولكني أكله بصوفه. قال: أتعبد الشمس؟ قال: والله ما أجلس فيها من بغضها، فكيف أعبدها! قال: أفتعبد الديك؟ قال: لا والله، بل أكله، ولقد ذبحت ألف ديك، لأن ديكاً نفرني مرة، فحلفت ألا أجد ديكاً إلا ذبحته. قال: فلاي شيء حبست؟ قال: لأنني أشرب شراب أهل الجنة، وأنام خلف الناس. قال: وأنا أيضاً أفعل ذلك، ثم خرج إلى الفضل فقال: ما تحسون جوار الله تحبسون من لا ذنب له، سألت رجلاً في الحبس عن خبره، فقال كذا وكذا، وعرفه بكل ما جرى بينه وبين أبي نواس، فضحك ودخل على الأمين فأخبره الخبر، فأمر بتخليته للحال.

الأمين يحبس أبو نواس

وكان أبو نواس حبس في أيام الأمين مرتين؛ إحداهما أنه بلغ الأمين قوله: ومستعبد إخوانه بثرائه ... لبست له كبراً أبرّ على الكبر إذا ضمّني يوماً وإياه مجلس ... رأى جانبي وعراً يزيد على الوعر أخالفه في شكله وأجره ... على المنطق المنزور والنظر الشّرر فوالله لا ألوي لساني بحاجة ... إلى أحد حتى أوسد في قبري وقد زادني تيهاً على الناس أنني ... أراني أغناهم وإن كنت ذا فقر فلو لم أنل فخراً لكانت صيانتني ... فمي عن جميع الناس حسبي من فخر

⁶⁶ (أبو حيان التوحيدي ، البصائر والنخائر ، 366/2)

⁶⁷ (أبو حيان التوحيدي ، البصائر والنخائر ، 361/1)

فلا يطمعن في ذاك مني طامع ... ولا صاحب التاج المحجب في القصر
فقال: وبلغ بك الأمر إلى أن تعرض بي في شعرك يابن اللخناء ! فقال سليمان
بن أبي جعفر: هو والله يا أمير المؤمنين زنديق، وقد شهد عندي جماعة أنه
شرب ماء مطر مع خمر، فقليل له: لم فعلت ذلك ؟ قال: لأشرب الملائكة فإنه
كان مع كل قطرة ملك، فأمر بحبسه فقال:

يا رب إن القوم قد ظلموني ... وبلا اقتراف خطيئة حبسوني
وإلى الجحود بما عليه طويّتي ... بالزور والبهتان قد نسبوني
أما الأمين فلست أرجو دفعه ... عني فمن لي اليوم بالمأمون
فقال المأمون لما بلغه ذلك: والله لن أدركته لأحسنن إليه، فمات قبل دخول
المأمون بغداد.

ولما دخل بها سنة أربع ومائتين وأتاه الشعراء يمدحونه قال: ما فعل أبو
علي الحسن بن هانيء؟ قالوا: توفي، فلم يسمع منهم شعراً وتوجع وقال: لقد
ذهب ظرف الزمان بموته، وانحطت رتبة الشعر بذهابه.
وكان أبو نواس في آخر أيام الأمين مستخفياً فلم يظهر حتى قتل؛ لأنه كان
أملح الناس وجهاً، وكان أبو نواس إذا نظر إليه بقي باهتاً فقال فيه:
عذب قلبي ولا أقول بمن ... أخاف من لا يخاف من أحد
إذا تفكرت في هواي له ... مسست رأسي هل طار عن جسدي
إني على ما ذكرت من فرقي ... لأمل أن أناله بيدي
وقال:

يا قاتل الرجل البري ... وسالبا عزّ الملك
كيف السبيل للثم سا ... لفتيك أو تقبيل فيك
الله يعلم أنني ... أهوى هواك وأشتهيك
وأصدّ عنك حذار أن ... تقع الظنون عليّ فيك
فظهر الشعر، فلم يزل أبو نواس مستخفياً.

وحبسه الأمين قبل ذلك: وذلك لأن المأمون لما خلعه بخراسان ووجه طاهر
بن الحسين إليه ليحاربه، كان يعمل بعيوب الأمين كتباً لتقرأ على المنابر
بخراسان، وكان مما عابه به أنه قال: احتبس شاعراً ماجناً كافراً يقال له
الحسن بن هانيء، واستخلصه معه لشرب الخمر وارتكاب المآثم وانتهاك
المحارم، وهو القائل:

ألا فاسقتي خمرأً وقل لي هي الخمر ... ولا تسقتي سرّاً إذا أمكن الجهر
وبح باسم من أهوى ودعني من الكنى . فلا خير في اللذات من دونها ستر

ثم يذكر الأمين في خطبة العراق، فيقول: أهل فسق وخمور وفجور وماخور،
ويقوم رجل بين يديه فينشد أعابيس أبي نواس كقوله:
يا أحمد المرتجى في كل نائبة ... قم سيدي نعص جبّار السموات
فقام والليل يجلوه النهار كما ... يجلي التبسّم عن غرّ الثنّيات
ومن هنا أخذ ابن الرومي، فجاء بأبداع عبارة، وأنصع استعارة، وأصح
تشبيه، وأملح تنبيه. فقال يصف سوداء:
يفترّ ذاك السواد عن يققٍ ... من ثغرها كاللآلئ اليقق
كأنّها والمزاح يضحكها ... ليلٌ تعرّى دجاء عن فلق
فاتصل بالأمين خبر المأمون، فأغراه الفضل بن الربيع بأبي نواس فحبسه،
فكتب أبو نواس إلى الفضل من الحبس:
أنت يابن الربيع علّمتني الخي ... ر وعودتنيهِ والخير عاده
فارعوى باطلي وعاودني حل ... مي وأحدثت رغبة وزهاده
لو تراني شبهتني الحسن البص ... ريّ في حال نسكه أو قتاده
المسابيح في ذراعي والمص ... حف في لبيّ مكان القلاده
فإذا شئت أن ترى طرفةً تع ... جب منها مليحةً مستفاده
فادع بي لا عدمت تقويم مثلي ... فتأمل بعينك السجّاده
ترى أثراً من الصلاة بوجهي ... توقن النفس أنّها من عباده
لو رآها بعض الرائيين يوماً ... لاشتراها يعدّها للشهاده
ولقد طالما شقيت ولكن ... أدركتني على يدك السعاده
فلما بلغ الشعر الفضل ضحك، وقال: من علم أن السجادة تصلح للشهادة بعد؛
وكلم فيه الأمين فتركه بعد أن أخذ عليه ألا يشرب الخمر فقال:
ما من يدٍ في الناس واجدةٍ ... كيدي أبي العباس مولاهـا
نام الثقات على مضاجعهم ... وسرى إلى نفسي فأحياها
قد كنت خفتك ثم أمّنتني ... من أن أخافك خوفك الله
فعفوت عني عفو مقتدرٍ ... وجبت له نقمٌ فألفاها
ومن قوله في ترك الشرب:
أيّها الرائحان باللوم لوما ... لا أدوق المدام إلاّ شميما (68)

بين المأمون وعمر بن مسعدة

قال علي ابن محمد النوفلي: أن المأمون ذكر عمر بن مسعدة، فاستبطأه في أشياء، وقال: أبحسب عمرو أنني لا أعرف أخباره، وما يجبي إليه، وما يعامل به الناس، بلى والله، ثم يظن أنه لا يسقط علي منه شيء؟، وكان أحمد بن أبي خالد حاضراً لذلك، فمضى إلى عمرو، فأخبره بما قال المأمون. فنهض من ساعته، ودخل إلى المأمون، فرمى بسيفه، وقال: أنا عائد بالله من سخط أمير المؤمنين، وأنا أقل من أن يشكوني إلى أحد، أو يسر علي ضغناً يظهر منه بكلامه ما ظهر.

فقال له المأمون: وما ذاك؟ فأخبره بما بلغه.

فقال: لم يكن الأمر كذلك، وإنما جرى معنى أوجب ذكر ما ذكرت، فقدمته قبل أن أخبرك به، وكان ذلك عزمي، وما لك عندي إلا ما تحب، فليفرخ روعك، وليحسن ظنك، وسكن منه حتى شكره، وجعل ماء الحياة يدور في وجهه. فلما دخل أحمد بن أبي خالد إلى المأمون، قال له: أشكو إليك من بحضرتي من خدمي وأهلي، أما لمجلسي حق ولا حرمة ليحكم ما يجري فيه، حتى يؤدي إلى عمرو بن مسعدة؟ فإنه قد أبلغ أشياء قتلها فيه، واتهمت فيها بعض بني هاشم ممن كان حاضراً، وذلك أن عمراً دخل علي، وأعاد ما كان، فاعتذرت له بعذر لم يبين الحق نسجه، ولم يتسق القول مني فيه، وإن لسان الباطل، لعي الظاهر والباطن، وما نعش الباطل أحداً قال له أحمد: لا يتهم أمير المؤمنين أحداً، أنا أخبرت عمراً، قال: وما دعاك إلى ذلك؟ قال: الشكر لله، ولك لاصطناعك، والنصح لك، والمحبة لتمام نعمتك على أوليائك وخدمك، وقد علمت أن أمير المؤمنين يحب استصلاح الأعداء والبعداء، فكيف بالأولياء والقرباء، ولا سيما مثل عمرو، في موضعه من الدولة، وموقعه من الخدمة، ومكانه من رأي أمير المؤمنين، فخبرته بما أنكره عليه، ليقوم أود نفسه، ويتلافى ما فرط منه، وإنما العيب لو أفشيت كلاماً فيه لأمر المؤمنين سر، أو قدح على السلطان، أو نقض تدبير له.

فقال له: أحسنت والله يا أحمد، إذ كفيتني مخاضة الظن، وصدقني عن نفسك، وأزلت التهمة عن غيرك. (69)

المأمون يعفو عن الحسين بن الضحاك ويمتنع عن استخدامه

حدث حماد بن إسحاق، عن أبيه قال: كنت بين يدي المأمون قائماً فدخل ابن البواب الحاجب، برقعة فيها أبيات، فقال له: أتأذن في إنشادها؟ قال: هات، فأنشد:

أجرني فإني قد ظمئت إلى الوعد ... متى ينجز الوعد المؤكد بالعهد
أعذك من خلف الملول وقد ترى ... تقطع أنفاسي عليك من الوجد
رأى الله عبد الله خير عباده ... فملكه والله أعلم بالعبد
ألا إنما المأمون للناس عصمة ... مميزة بين الضلالة والرشد
فقال له المأمون: أحسن يا عبد الله، وظنها له.

فقال: بل أحس قائلها يا أمير المؤمنين.

قال: ومن هو قائلها؟ قال: عبدك الحسين بن الضحاك.

فقطب، وقال: لا حيا الله من ذكرت، ولا بياه، ولا قربه، أليس هو القائل:
أعيني جوداً وابكياً لي محمداً ... ولا تذخراً دمعاً عليه وأسعداً
فلا تمت الأشياء بعد محمدٍ ... ولا زال شمل الملك فيه مبدداً
ولا فرح المأمون بالعيش بعده ... ولا زال في الدنيا طريداً مشرداً
هذا بذاك، ولا شيء له عندنا.

فقال ابن البواب: فأين فضل أمير المؤمنين، وسعة حلمه، وعادته في العفو؟ فأمر بإحضاره.

فلما حضر، سلم، فرد عليه السلام رداً خفياً، ثم قال: أخبرني عنك، هل عرفت - يوم قتل أخي - هاشمية قتلت، أو هتكت؟ قال: لا. قال: فما معنى قولك؟

ومما شجى قلبي وكفكف عبرتي ... محارم من آل النبي استحلت
ومهتوكة بالخلد عنها سجوفها ... كعاب كقرن الشمس حين تبدت
إذا خفرتها روعة من منازع ... لها المرط عاذت بالخضوع ورنّت
وسرب طباءٍ من ذؤابة هاشم ... هتفن بدعوى خير حيٍّ وميت
أردّ يداً مني إذا ما ذكرته ... على كبدٍ حرّى وقل مفتت
فلا بات ليل الشامتين بغبطة ... ولا بلغت آمالها من تمت

فقال: يا أمير المؤمنين، لوعة غلبتني، وروعة فاجأتني، ونعمة فقدتها بعد أن غمرتني، وإحسان شكرته فأنطقتني.

فدمعت عينا المأمون، وقال: قد عفوت عنك وأمرت لك بإدراك أرزاقك عليك، وإعطائك ما فات منها، وجعلت عقوبة ذنبك، امتناعي عن استخدامك⁽⁷⁰⁾.

وال مستعطف خير من وال مستأنف

ووقف أحمد بن عروة بين يدي المأمون، لما عزله عن الأهواز، فقال له: أخرجت البلاد، وقتلت العباد، لأفعلن بك وأصنعن. فقال: يا أمير المؤمنين، ما تحب أن يفعله الله بك إذا وقفت بين يديه، وقد قرعك بذنوبك؟ قال: العفو، والصفح.

قال: فافعل بعبدك، ما تحب أن يفعله الله بك. قال: قد فعلت، ارجع إلى عملك، فول مستعطف، خير من وال مستأنف⁽⁷¹⁾.

المأمون يصفح عن دعبل الخزاعي الشاعر ويصله

قرىء على أبي بكر الصولي، سنة خمس وثلاثين وثلثمائة، بالبصرة، وأنا أسمع: حدثكم هرون بن عبد الله المهلب، سنة ثمانين ومائتين، قال: لما هجا دعبل، المأمون، قال لهم: أسمعوني ما قال، فأنشدوه هذين البيتين من أبيات، وهما:

إني من القوم الذين سيوفهم ... قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله ... واستنقذك من الحضيض الأوهده.
فقال المأمون: قبحه الله، ما أبهته، متى كنت خامل الذكر، وفي حجر الخلافة
ربيت، وبدرها غزيت، خليفة، وأخو خليفة، وابن خليفة.
ثم جد في طلب دعبل، حتى ظفر به، فلم يشك أحد في أنه قاتله.
فلما دخل عليه، قال له: يا دعبل، واستنقذك من الحضيض الأوهده.
فقال: يا أمير المؤمنين، قد عفوت عن من هو أعظم مني جرماً.
فقال: صدقت، لا بأس عليك، أنشدني مدارس آيات.
فقال: أنشدها وأنا آمن؟ قال: نعم.

فأنشده إياها، فجعل المأمون يبكي، لما بلغ قوله:
بنات زياد في القصور مصونة ... وبنات رسول الله في الفلوات
ثم وصله وأمنه⁽⁷²⁾.

⁷¹ (القاضي التنوخي ، الفرغ بعد الشدة ، ص 66

⁷² (القاضي التنوخي ، الفرغ بعد الشدة ، ص 66

المأمون يهب عمرو بن مسعدة ستة آلاف ألف درهم فيهبها عمرو لأحد أتباعه

أمر المأمون محمد بن يزيد، وأحمد بن أبي خالد، أن يناظرا عمرو ابن مسعدة، في مال الأهواز، فناظراه، فتحصل عليه ستة عشر ألف ألف درهم، فأعلما المأمون بذلك.

فقال: اقبلا منه كل حجة، وكل تعلق، وكل ادعاء. فقالا: قد فعلنا.

فقال: عودا. فعادا، فتعلق عمرو بن مسعدة بأشياء لا أصل لها، فسقط من المال عشرة آلاف ألف درهم، وبقي ستة آلاف ألف درهم واجبة عليه، لا حجة له فيها، وأخذ خطه بذلك.

فأحضر المأمون عمراً، بعد خروجهما، فقال له: هذه رقعتك؟ قال: نعم. قال: وهذا المال واجب عليك؟ قال: نعم.

قال: خذ رقعتك، فقد وهبته لك.

فقال: أما إذ تفضل أمير المؤمنين علي به، فإنه واجب على أحمد بن عروة، وأشهدك أنني قد وهبته له.

فاغتاظ المأمون، وخرج عمرو وقد عرف غيظ المأمون، وعلم خطأه في عمله، فلجأ إلى أحمد بن أبي خالد، فأعلمه بذلك، وكان يختصه.

فقال: لا عليك، ودخل إلى المأمون.

فلما رآه المأمون، قال: ألا تعجب يا أحمد من عمرو، وهبنا له ستة آلاف ألف درهم، بعد أن تجاوزنا له عن أضعافها، فوهبها بين يدي لأحمد بن عروة، كأنه أراد أن يباريني، ويصغر معروفني؟ فقال له أحمد: أو قد فعل ذلك يا أمير المؤمنين؟ فقال: نعم.

قال: لو لم يفعل هذا، لوجب أن يسقط حاله.

قال: وكيف؟ قال: لأنه لو استأثر به على أحمد بن عروة، وأخذ أحمد بأداء هذا المال، لكان قد أخرجه من معروفك صفراً، ولما كانت نعمتك على عمرو، نعمة على أحمد، وهما خادماك، فكان الأجمل أن يتضاعف معروفك عندهما، فقصد عمرو ذلك، فصار المال تفضلاً منك على عمرو، وعلى أحمد بن

عروة، ومع ذلك، فأنت سيد عمرو لا يعرف سيدياً غيرك، وعمرو سيد أحمد،

فاقتدى في أمر أحمد بما فعلت في أمره، وأراد أيضاً أن ينتشر في ملوك

الأمم، أن خادماً من خدمك اتسع قلبه لهبة هذا المال، من فضل إحسانك إليه، فيزيد في جلالة الدولة، وجلالة قيمتها، فيكسر ذلك الأعداء الذين يكاثرونك.

فسري عن المأمون، وزال ما بقلبه على عمرو⁽⁷³⁾.

المأمون يصفح عن الفضل بن الربيع

لما ظفر المأمون بالفضل بن الربيع، ومثل بين يديه، قال له: يا فضل، أكان من حقي عليك، وحق آبائي، ونعمتهم عندك، وعند أبيك، أن تثلبني، وتشتمني، وتحرض على دمي؟ أتحب أن أفعل بك مع القدرة، ما أردته بي؟ فقال له الفضل: يا أمير المؤمنين، إن عذري يحقّك إذا كان واضحاً جميلاً، فكيف إذا عفّته العيوب، وقبحته الذنوب، فلا يضيق عني من عفوك ما وسع غيري منه، فأنت - والله - يا أمير المؤمنين، كما قال الشاعر:

صفوح عن الإجرام حتّى كآته ... من العفو لم يعرف من الناس مجرماً
وليس يبالي أن يكون به الأذى ... إذا ما الأذى لم يغش بالكره مسلماً

قال الصولي: والشعر للحسن بن رجاء⁽⁷⁴⁾.

المأمون يرضى عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي

عن إسحاق، قال: أقام المأمون بعد دخوله بغداد عشرين شهراً، ولم يسمع حرفاً من الأغاني، ثم كان أول من تغنى بحضرته أبو عيسى بن الرشيد أول مرة، ثم واطب على السماع متستراً، متشبهاً بالرشيد في أول أمره، فأقام المأمون كذلك أربع سنين، ثم ظهر للندماء والمغنين.

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: وكان حين أحب السماع، سأل عني، فجرحت بحضرته، وقال الطاعن علي: ما يقول أمير المؤمنين في رجل يتيه على الخلفاء، ما بقى هذا من التيه شيئاً إلا استعمله.

فأمسك عن ذكرني، وجفاني من كان يصلني لسوء رأيه فيّ، فأضر ذلك بي، حتى جاءني علويه يوماً، فقال لي: أتأذن لي في ذكرك بحضرة المأمون، فإننا قد دعينا اليوم.

فقلت: لا، ولكن غنه بهذا الشعر، فإنه يبعثه على أن يسألك لمن هو؟ فإذا سألك انفتح لك ما تريده، وكان الجواب أسهل عليك من الابتداء.

قال: هات، فألقيت عليه لحن في شعري:

يا سرحة الماء قد سدّت موارده ... أما إليك طريق غير مسدود

لحائم حام حتّى لا حيام به ... مشرّد عن طريق الماء مطرود

قال أبو الفرج الأصبهاني: والغناء فيه لإسحاق الموصلي، رمل بالوسطى، عنه، وعن عمرو بن بانه.

⁷³ (القاضي التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ص66

⁷⁴ (القاضي التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ص68

رجع الحديث، قال: فمضى علويه، فلما استقر به المجلس، غناه بالشعر، الذي أمره به إسحاق.

فقال المأمون: ويلك يا علويه، لمن هذا الشعر؟

فقال: يا سيدي لعبد من عبيدك، جفوته، واطرحته، من غير ذنب.

فقال: إسحاق تعني؟ قال: نعم.

فقال: يحضر الساعة.

قال إسحاق: فجاءني رسول المأمون، فصرت إليه، فلما دخلت إليه استدناني،

فدنوت منه، فرفع يديه إلي مادهما، فانكبت عليه، فاحتضني بيديه، وأظهر

من بري وإكرامي، ما لو أظهره صديق مؤانس لصديق، لسر به.

وقد ذكر القاضي أبو الحسين هذا الخبر، في كتابه بغير إسناد، وبأقل من هذا

الشرح، والمعنى متقارب⁽⁷⁵⁾.

يهب أحد أتباعه خمسة آلاف ألف درهم

قال أبو عبد الله محمد بن عيسى المروزي صاحب يحيى بن خاقان، عنه،

قال: كان المأمون ألزمني خمسة آلاف ألف درهم، فأعلمته أنني لا أملك إلا

سبعمائة ألف درهم، وحلفت له على ذلك، بأيمان مغلظة، اجتهدت فيها، فلم

يقبل مني، وحبسني عند أحمد بن هشام، وكان بيني وبينه شر قد اشتهر

وعرف، وكان يتقلد الحرس.

فقال أحمد للموكلين بي: احفظوه، واحذروا أن يسم نفسه.

ففطن المأمون لمراده، فقال: لا يأكل يحيى بن خاقان، ولا يشرب إلا ما يؤتى

به من منزله.

قال: فأقمت على ذلك مدة، فوجه إلي الحسن بن سهل بألف ألف درهم، ووجه

إلي فرج الرخجي بألف ألف درهم، ووجه إلي حميد الطوسي بألف ألف

درهم، وأضفت ذلك إلى ما كان عندي، واضطربت حتى جمعت خمسة آلاف

ألف درهم.

فلما اجتمعت، كتبت إلى المأمون بحضور المال الذي ألزمني إياه، فأمر

بإحضاري، فدخلت إليه وبين يديه أحمد بن أبي خالد، وعمرو بن مسعدة،

وعلي بن هشام.

فلما رأيته، قال لي: أولم تخبرني وتحلف لي أنك لا تملك إلا سبعمائة ألف

درهم، فمن أين لك هذا المال؟ فصدقته عن أمره، وقصصت القصة عليه.

فأطرق طويلاً، ثم قال لي: قد وهبته لك.

فقال له الحضور: أتهب له خمسة آلاف ألف، وليس في بيت المال درهم واحد، وأنت محتاج إلى ما دون ذلك بكثير؟ فلو أخذته منه قرصاً، فإذا جاءك مال رددته عليه.

فقال لهم: أنا على المال أقدر من يحيى، وقد وهبته له.

فرددت إلى القوم ما كانوا حملوه، وتخلصت.

يتنازل لأحد أتباعه عن عشرة آلاف ألف درهم

قال محمد بن عبدوس في كتابه أخبار الوزراء: ذكر الفضل بن مروان، أن محمد بن يزيد سعى إلى المأمون بعمر بن بهنوي.

فقال له المأمون: يا فضل، خذ عمراً إليك، وقيده، وضيق عليه، ليصدق عما صار إليه من مال الفيء، فقد اختان مالاً عظيماً، وطالبه به.

فقلت: نعم، وأمرت بإحضار عمرو، فأحضر، فأخليت له حجرة في داري،

وأقمت له ما يصلحه، وتشاغلت عنه بأمور السلطان، في يومي وفي الغد.

فلما كان في اليوم الثالث، أرسل إلي عمرو يسألني الدخول عليه، فدخلت،

فأخرج إلي رقعة، قد أثبت فيها كل ما يملكه من الدور، والضياح، والعقار،

والأموال، والفرش، والكسوة، والجوهر، والقماش، والكراع، وما يجوز بيعه

من الرقيق، وكان قيمة ذلك عشرون ألف ألف درهم، وسألني أن أوصل

رقعته إلى المأمون، وأعلمه أن عمراً قد جعله من ذلك كله في حل وسعة.

فقلت له: مهلاً، فإن أمير المؤمنين أكبر قدراً من أن يسلبك مالك كله، ونعمتك عن آخرها.

فقال عمرو: إنه لكما وصفت، في كرمه، ولكن الساعي لا ينام عني ولا عنك،

وقد بلغني ما أمرت به في أمري من الغلظة، وما عاملتني بضد ذلك، وقد

طبت نفساً بأن أشتري عدل أمير المؤمنين في أمري، ورضاه عني، بجميع مالي.

فلم أزل أنزله، حتى وافقته على عشرة آلاف ألف درهم، وقلت له: هذا شطر

مالك، وهو صالح للفريقين، وأخذت خطه بالتزام ذلك صلحاً عن جميع ما

جرى على يده.

وصرت إلى المأمون فوجدت محمد بن يزيد وقد سبقني إليه وهو يكلمه، فلما

رآني قطع الكلام وخرج.

فقال لي المأمون: يا فضل.

قلت: لبيك يا أمير المؤمنين.

قال: ما هذه الجرأة منك علينا؟

قلت: يا أمير المؤمنين، أنا عبد طاعتك و غرسك.
فقال: أمرتك بالتضييق على النبطي عمرو بن بهنوى، فقابلت أمري بالضد،
ووسعت عليه، وأقمت له الأنزال.

فقلت له: يا أمير المؤمنين، إن عمراً يطالب بأموال عظيمة، ولم آمن أن أجعل
محبسه في بعض الدواوين فيبذل مالاً يرغب في مثله، فيتخلص، فجعلت
محبسه في داري، وأشرفت على طعامه وشرابه، لأحرس لك نفسه، فإن
كثيراً من الناس خانوا السلطان، وتمتعوا بالأموال، ثم طولبوا بها، فاحتيل
عليهم أن يتلفوا، ويفوز بالأموال غيرهم.

قال الفضل: وإنما أردت بذلك تسكين غضب المأمون علي، ولم أعرض
الرقعة عليه، ولا أعلمته ما جرى بيني وبين عمرو، لأنني لم آمن سورته في
ذلك الوقت، لاشتداد غضبه.

فقال لي: سلم عمراً إلى محمد بن يزيد، قال: فوجهت من ساعتني، من سلم
عمراً إلى محمد بن يزيد، فلم يزل يعذبه بأنواع العذاب، ليبذل له شيئاً، فلم
يفعل.

فلما رأى أصحابه وعماله، ما قد ناله، جمعوا له بينهم ثلاثة آلاف ألف درهم،
وسألوا عمراً أن يبذلها لمحمد بن يزيد، فبذلها، فصار محمد إلى المأمون
متبجحاً بها، فأوصل الخطبها إلى المأمون، وأنا واقف.

فقال المأمون: يا فضل، ألم أعلمك، أن غيرك أقوم بأمورنا منك، وأطوع لما
نأمره به؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أرجو أن أكون في حال استبطاء أمير
المؤمنين أعزه الله، أبلغ في طاعته من غيري.

فقال المأمون: هذه رقعة عمرو بن بهنوى بثلاثة آلاف ألف درهم.

فقلت، وما اجترأت عليه قط، جرأتني عليه في ذلك اليوم، فإني خرجت إلى
إضبارة كانت مع غلامي، فأخذت الرقعة منها مسرعاً، وقلت: والله، لأعلمن
أمير المؤمنين، أنني مع رفيقي، أبلغ في حياطة أمواله من غيري مع غلظته،
وأريته رقعة عمرو التي كان كتبها لي، وحدثته بحديثه عن آخره.

فلما تبين المأمون الخطين، وعلم أنهما جميعاً خط عمرو، قال: ما أدري أيكما
أكرم، عمرو حين شكر برك، وطاب نفساً بالخروج عن ملكه بهذا السبب، أم
أنت، ومحافظتك على أهل النعم، وسترك عليه في ذلك الوقت، والله، لا كنتما
يا نبطيان، أكرم مني.

ودفع الرقعة التي أخذها محمد بن يزيد من عمرو إلي، وأمرني بتخريقها،
وتخريق الأول، وأنفذ من سلم عمراً من محبسه إلي، وأمرني بإطلاقه.

فخرجت من بين يديه، وفعلت ذلك من وقتي⁽⁷⁶⁾.

المأمون يغضب على فرج الرخجي ثم يرضى عنه ويقلده فارس والأهواز
وكان المأمون قد غضب على فرج الرخجي، فكلّمه عبد الله بن طاهر،
ومسرور الخادم، في إطلاقه.

قال فرج: فبت ليلتي، فأتاني آت في منامي، فقال لي:
لَمَّا أَتَى فَرَجًا مِنْ رَبِّهِ فَرَجٌ ... جِئْنَا إِلَى فَرَجٍ نَبْغِي بِهِ الْفَرَجَا
فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ، لَمْ أَشْعُرْ إِلَّا وَاللَّوَاءَ قَدْ عَقَدَ لِي عَلَى وَلايَةِ فَارِسٍ وَالْأَهْوَازِ،
وَأَطْلَقَ لِي خَمْسَمِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَعُونَةً.

فإذا أبو الينبغي الشاعر على الباب، وقد كتب هذا البيت في رقعة.
فقلت له: متى قلته؟ قال لي: البارحة، في الوقت الذي رضي عنك فيه.
فأمرت له بعشرة آلاف درهم⁽⁷⁷⁾.

ما قصتك؟

وحدث أبو القاسم علي بن محمد بن أبي حسان الزياتي، وكان محدثاً ببغداد،
ثقة، مشهوراً، قال: حدثني أبي، عن أبيه، قال:
كنت وليت القضاء من قبل أبي يوسف القاضي رحمه الله، ثم صرفت،
وتعطلت، وأضقت إضاقاً شديدة، وركبني دين فادح، لخباز، وبقال، وقصاب،
وعطار، وبزاز، وغيرهم، حتى قطعوا معاملتي لكثرة مالهم علي، وإياسهم
من أن أقضيهم، فتضاعفت إضاقتي، واشتدت حيرتي.
فإني يوماً بمسجدي، قد صليت بأهله الغداة، ثم انفتلت أدرس أصحابي الفقه
إذ جاءني رجل خراساني، وذكر الحديث على نحو ما ذكره طلحة، إلا أنه لم
يقُلْ فيه حملة: فإلى....

وقال أبو الفرج في حديثه: فلما بلغت مربعة الخرسى، استقبلني موكب فيه
شموع ونفطات، قد أضاء منه الطريق، فصار كالنهار، فطلبت زقاقاً أستخفي
فيه، حتى يجوز الموكب، فلم أجد، فإذا برجل من الموكب، يقول: أبو حسان
والله، فتأملت، فإذا هو دينار بن عبد الله، فسلمت عليه.
فقال: إليك جنت، أرسل إلي أمير المؤمنين الساعة، وأمرني أن أركب إليك
بنفسي، وأحضره إياك.
فمضيت معه، حتى أدخلني على المأمون.

⁷⁶ (القاضي التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ص 102-103

⁷⁷ (القاضي التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ص 109

فقال لي المأمون: ما قصتك ؟ فإني رأيتك في النوم البارحة، والنبي ﷺ،
يأمرني بإغاثتك.

فحدثته بحديثي.

فقال المأمون: أعطوا أبا حسان ثلاث بدر، وولاني الري، وأمرني بالخروج إليها.

قال: فعدت إلى بيتي وما طلع الفجر، فلما كان وقت صلاتي في مسجدي، خرجت، وإذا بالخراساني، فلما قضيت الصلاة، أدخلته إلى البيت، فأخرجت إليه البدر.

فلما رآها، قال: ما هذا ؟ فقصصت عليه القصة، وأعطيته بدرة منها، فأخذها وانصرف.

وذكر محمد بن عبدوس، في كتاب الوزراء، في أخبار دينار بن عبد الله: أن رسوله لقي أبا حسان في الطريق، فقال له: قسمت شيئاً على عيالنا، فذكرت عيالك، فأنفذت إليك عشرة آلاف درهم، فأخذها، ورجع من الطريق، وباركه الخراساني، فأعطاه إياها كلها، لأنه كان قد أنفق جميع مال الخراساني، ثم عاد من غد إلى دينار، فعرفه، وشكره، وعرفه الحديث.

فقال: فكأنما قضينا الخراساني في ماله، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم أخرى، ولم يذكر ابن عبدوس في خبره ذكر المنام.

وحدثني أبي هذا الحديث في المذاكرة، قال: حدثني شيخ - ذكره أبي وأنسيته أنا، عن أبي حسان الزيادي، بنحو ما ذكره محمد بن جعفر في حديثه، إلا أنه قال فيه: إن الخراساني قال في حديثه لأبي حسان: إن رجع الحجاج ولم ترني قد رجعت إليك، فاعلم أنني هلكت، والبدر هبة مني إليك، وإن رجعت فهي لي، ثم يتقارب لفظ الحديثين، إلى أن لقيه في الجانب الشرقي قوم فلما رأهم تتحى عن طريقهم، فلما رأوه بطيلسان، بادروا إليه، وقالوا له: أتعرف منزل رجل يقال له أبو حسان الزيادي ؟ فقال: أنا هو.

فقالوا له: أجب أمير المؤمنين، وحمل فأدخل إلى المأمون.

فقال له: من أنت ؟ فقال: رجل من أصحاب أبي يوسف القاضي من الفقهاء وأصحاب الحديث.

قال: بأي شيء تكني ؟ فقال: بأبي حسان.

فقال: بماذا تعرف ؟ فقال: بالزيادي، ولست منهم، وإنما نزلت فيهم، فنسبت إليهم.

فقال: قصتك، فشرحت له قصتي.

فبكى بكاء شديداً، وقال: ويحك، ما تركني رسول الله أن أنام بسببك، أتاني في أول الليل فقال: أغث أبا حسان الزيادي، فانتبهت ولم أعرفك، واعتمدت السؤال عنك، وأثبت اسمك ونسبك ونمت، فأتاني، فقال كمقالته، فانتبهت منزعجاً، ثم نمت، فأتاني، وقال: ويحك، أغث أبا حسان، فما تجاسرت على النوم، وأنا ساهر، وقد بثت في طلبك، ثم أعطاني عشرة آلاف درهم، وقال: هذه للخراساني، ثم أعطاني عشرة آلاف درهم أخرى، وقال: اتسع بهذه، وأصلح أمرك، وعمر دارك، واشتر مركوباً سرياً، وثياباً حسنة، وعبدًا يمشي بين يدي دابتك، ثم أعطاني ثلاثين ألف درهم، وقال: جهز بها بناتك، وزوجهن، فإذا كان يوم الموكب، فصر إلي، حتى أقلدك عملاً جليلاً، وأحسن إليك.

فخرجت والمال بين يدي محمول، حتى أتيت مسجدي، فصليت الغداة، والتفت فإذا الخراساني بالباب، فأدخلته إلى البيت، وأخرجت بدرة فدفعها إليه. فقال: ليس هذه بدرتي، أريد مالي بعينه.

فقصصت عليه قصتي، فبكى، وقال: والله لو صدقتني في أول الأمر عن خبرك لما طالبتك، وأما الآن، فوالله لا دخل مالي شيء من مال هؤلاء، وأنت في حل، وانصرف.

فأصلحت أمري، وبكرت يوم الموكب إلى باب المأمون، فدخلت، وهو جالس جلوساً عاماً.

فلما مثلت بين يديه استدنانني، ثم أخرج عهداً من تحت مصلاه، وقال: هذا عهدك على قضاء المدينة الشرقية من الجانب الغربي من مدينة السلام، وقد أجريت عليك في كل شهر كذا وكذا، فاتق الله تدم عليك عناية رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فعجب الناس من كلام المأمون وسألوني عن معناه، فأخبرتهم الخبر، فانتشر. فما زال أبو حسان قاضي الشرقية، إلى آخر أيام المأمون⁽⁷⁸⁾.

المأمون بخراسان ينقلب حاله من أشد الضيق إلى أفصح الفرج

وذكر في كتابه عن جبريل بن بختيشوع، في خبر طويل، أنه سمع المأمون يقول: كان لي بخراسان يوم عجيب، فأولى الله فيه بإحسانه جميلاً، لما توجه طاهر بن الحسين إلى علي بن عيسى بن ماهان، كما قد عرفتوه من ضعف طاهر وقوة علي، وقر في نفوس عسكري جميعاً، أن طاهراً ذاهب، ولحق أصحابي إضاعة شديدة، وظهرت فيهم خلة عظيمة، ونفذ ما كان معي، فلم

يبقى منه لا قليل ولا كثير، وأفضيت إلى حال كان أصلح ما فيها الهرب، فلم أدر إلى أين أهرب، ولا كيف آخذ، وبقيت حائراً متفكراً.

فأنا - والله - كذلك وكنت نازلاً في دار أبوابها حديد، ولي مستشرفات أجلس فيها إذا شئت، وعدد غلماني ستة عشر غلاماً، لا أملك غيرهم، وإذا بالقواد والجيش جميعاً قد شغبوا، وطلبوا أرزاقهم، ووافوا جميعاً يشتموني، ويتكلمون بكل قبيح.

فكان الفضل بن سهل بين يدي، فأمر بإغلاق الأبواب، وقال لي: قم فاصعد إلى المجلس الذي يستشرف فيه، إشفافاً علي من دخولهم، وسرعة أخذهم إياي، وتعليلاً لي بالصعود.

فقلت: القوم يدخلون الساعة، فيأخذوني، فلأن أكون بموضعي، أصلح. فقال لي: يا سيدي اصعد، فوالله، ما تنزل إلا خليفة.

فجعلت أهزأ به، وأعجب منه، وأحسب أنه إنما قال ما قال، ليسمعني، وأركنت للهرب من بعض أبواب الدار، فلم يكن إلى ذلك سبيل، لإحاطة القوم بالدار والأبواب كلها.

فألح علي أن أصعد، فصعدت وأنا وجل، فجلست في المستشرف، وأنا أرى العسكر.

فلما علموا بصعودي اشتد كلبهم، وشتهم، وضجيجهم، وبادروني بالوعيد والشتم، فأغلظت على الفضل بن سهل وقلت له: أنت جاهل، غررتني، لوم تدعني أعمل برأيي، وليس العجب إلا ممن قبل منك، وهو في هذا كله، يحلف أنني لا أنزل إلا خليفة، وغيظي عليه، وتعجبي من حمقه، ومواصلة الأيمان أنني لا أنزل إلا خليفة، مع ما أشاهده، والحال يزيد، أشد علي مما أقاسيه من الجند.

ثم وضع القوم النار في شوك جمعوه، وأدنوه من الدار، ونقبوا في سورها عدة نقوب، وثلموا منه قطعة، فذهبت نفسي خوفاً وجزعاً، وعلمت أنني بين أن أحترق، وبين أن يصلوا إلي فيقتلوني، فهممت بأن ألقى نفسي إليهم، وقدرت أنهم إذا رأوني استحيوا مني، وأقصروا.

وجعل الفضل بن سهل يقبل يدي ورجلي، ويناشدني أن لا أفعل، ويحلف لي أنني لا أنزل إلا خليفة، وفي يده الإسطرلاب، ينظر فيه في الوقت بعد الوقت. فلما اشتد علي الأمر، واستحكم اليأس، قال لي: يا سيدي، قد - والله - أتاك الفرج، أرى شيئاً في الصحراء قد أقبل، ومعه فرجنا، فازددت من قوله غيظاً، وأمرت غلماني بتأمل الصحراء، فلم أر، ولم يروا شيئاً.

وجد القوم في الهدم والحريق، حتى هممت - لما داخلني - أن أرمي بالفضل إليهم.

فقال الغلمان: إنا نرى في الصحراء شيئاً يلوح، فنظرت فإذا شبح، وجعل يزيد تبياناً، إلى أن تبينوا رجلاً على بغلة، ثم قرب، فإذا هو يلوح، وقرب من العسكر، وقويت له قلوبنا، ورأى الجند ذلك فتوقفوا، وخالطهم، فإذا هو يقول: البشرى، هذا رأس علي بن عيسى بن ماهان معي في المخلاة، فلما رأوا ذلك أمسكوا عنا، وانقلبوا بالدعاء، والسرور بالظفر والفتح. فقال لي الفضل بن سهل: يا سيدي، إذن لي في إدخال بعضهم، فأذنت له، فشرط عليهم أن لا يدخل إلا من يريد، فأجابوا إلى ذلك، وسمى قوماً من القوم، فأدخلهم.

فكان أول من دخل علي، عبد الله بن مالك الخزاعي، فقبل يدي، وسلم علي بالخلافة، ثم أدخل القواد بعده، واحداً، واحداً، ففعلوا مثل ذلك، فأطفأ الله - عز وجل - النائرة، ووهب السلامة، وقلدني الخلافة، فظفرت من أموال علي بن عيسى بن ماهان، وما في عسكره، بما أصلحنا به أمور جندنا⁽⁷⁹⁾.

المعية المأمون وذكاؤه

قال: دعا المأمون يوماً بأبي عباد، فدفع إليه كتاباً مختوماً، وأمره أن يأتي عمرو بن مسعدة، فيناظره على ما فيه باباً، باباً، ويأخذ تحت كل باب خطه فيه، ويختمه بخاتمه، وخاتم عمرو، ويحتفظ به إلى أن يسأله عنه، ولا يذكره ابتداءً، وأكد على ذلك.

قال: فعلمت أنها وقية، وقد كنت شاركت عمراً في أشياء، فصارت إلينا منها أموال، فخفت أن تكون مذكورة في الكتاب.

فقصدت عمراً، فوجدته في بستان أحمد بن يوسف، يلعب بالشطرنج مع بعض أصحابه، فعرفته أني محتاج إلى الخلوة معه. فقال: دعني الساعة، فقد استوى لي هذا الدست.

فضاق صدري، وقلبت الشطرنج، وقلت: قد سال السيل، وهلكنا وأنت غافل، اقرأ هذا الكتاب، فقرأه، فطالبت أن يكتب خطه، تحت كل فصل منه، بحجته. فضحك، وقال: ويحك، أما تستحي، تخدم رجلاً طول هذه المدة، ولا تعرف أخلاقه، ولا مذهبه؟

فقلت: يا هذا، أخبرني عنك، إن أقدمت على جحد ما في هذا الكتاب، لتعذر حجة ما شاركتك فيه، أما أنا فوالله أجحد، ولكن أصبر لأمر الله تعالى.

قال: فتحب أن اطلعك على ما هو أشد عليك من هذا؟
قلت: وما هو؟

فقال: كتاب دفعه إلي أمير المؤمنين منذ سنة، وأمرني فيه بمثل ما أمرك في هذا، فعرفت ضيق صدرك، فلم أذكره لك.
فكدت أموت إلى أن فرغ من كلامه، فقلت له: أرني إياه، فأحضره، وقرأته، وأنا أنتفض، وعمرى يضحك.
فلما فرغت منه، قلت: عند الله أحاسب نفسي ونعمتي.
فقال: أنت والله مجنون.

فقلت: دعنا من هذا، ووقع تحت كل فصل.
فنظر إلى جملة ما نسب إليه في الكتاب، فوجده أربعين ألف ألف درهم، فوقع في آخره: لو قصرت هممتنا في هذا القدر وأضعافه، لو سعتنا منازلنا، وما يفي هذا، بدلجة في برد، أو روحة في حر، وأرجو أن يطيل الله بقاء أمير المؤمنين، ويبلغنا فيه ما نؤمله به، وعلى يده.
وكان جملة ما رفع علي، سبعة وعشرون ألف ألف درهم.
فقال: يا هذا، إن صاحبنا ليس ببخيل، ولكنه رجل يكره أن يطوى معروفه، وإنما أراد أن يعلمنا أنه قد علم بما صار إلينا، فأمسك عنه على علم.
ثم ختم الكتاب بخاتمه، وخاتمي، وانصرفت وأنا في الموت، فلم ألبث أن كتبت وصيتي، وأحكمت أمري، وكنت سنة مغموماً، وذاب جسمي.
فقال لي المأمون يوماً: يا أبا عباد، قد أنكرت حالك، أتشكو علة؟ فقلت: لا، يا أمير المؤمنين، ولكني منذ سنة، حي كميته، لأجل الكتاب الذي دفعه إلي أمير المؤمنين، لأنظر عليه عمرو بن مسعدة.
فقال: أمسك عني، حتى أعيد عليك جميع ما جرى بينكما، فحدثني بجميع ما دار بيننا، كأنه كان ثالثنا.

فقلت: لقد استقصى لك الذي وكلته بخبرنا، والله، ما خرم منه حرفاً.
فقال: والله، ما وكلت بكما أحداً، ولكن ظناً ظننته، وعلمت أنه لا يدور بينكما غيره، ولقد عجبت من غير عجب، لأن عقول الرجال يدرك بعضها بعضاً، وهذا عمرو بن مسعدة، أعرف بنا منك، وأوسع صدراً، وأبعد همة، وما أردت بما فعلت، إلا أن تعلمنا أنني قد عرفت ما صار إليكما، وتستكثرانه، فأحببت أن أزيل عنكما غم المساترة، وثقل المراقبة، وأني لمتذمم لكما، خجل من ضعف أثري عليكما.
فسررت، وصرت كأني أطلقت من عقال، فشكرته ودعوت له.

ثم قلت: ما أصنع بذلك الكتاب؟
قال: خرقه إلى لعنة الله، وامض مصاحباً، آمناً، في ستر الله عز وجل⁽⁸⁰⁾.

المأمون يهب أحد كتابه اثني عشر ألف ألف درهم

وجدت في كتاب عتيق فيه أخبار جمعها يعقوب بن بيان الكاتب: حدثني أبو القاسم علي بن داود بن الجعد، قال: حدثني يزيد بن دينار بن عبد الله، قال: حدثني أبي، عن يحيى بن خاقان، قال: كنت كاتب الحسن بن سهل، فقدم المأمون مدينة السلام، فقال لي: يا يحيى، خلوت بالسواد، ولعبت بالأموال التي لي، واحتجنتها، واقتطعتها.

فقلت: يا أمير المؤمنين، إنما أنا كاتب الرجل، والمناظرة في الأموال، والأعمال، مع صاحبي، لا معي.

فقال: ما أطالب غيرك، ولا أعرف سواك، فصالحني على مائة ألف ألف درهم.

قال: فضحكت.

فقال: يا يحيى، أجد وتهزل؟

فقلت: لا، يا أمير المؤمنين، إنما ضحكت تعجباً، وبالله، ما أملك إلا سبعمائة ألف درهم.

فقال: دع هذا عنك، واعطني خمسين ألف ألف درهم.

قال: فما زلت أجاذبه، ويجاذبني، إلى أن بلغ اثنا عشر ألف ألف درهم، فلما بلغ إليها، قال: نفيت من الرشيد، إن نقصتك شيئاً منها.

فقلت: السمع والطاعة.

قال: أقم لي ضميناً، إن لم تف لي بها، طالبتة.

قلت: صاحبي يا أمير المؤمنين يضمنني.

فقال: أتراني إن دافعت الاداء، أطالب الحسن بن سهل عنك؟ هذا ما لا يكون.

فقلت: عبد الله بن طاهر.

فقال: عبد الله بن طاهر، سبيله سبيل صاحبك.

قلت: فحميد.

قال: وهذه سبيله.

قلت: ففرج مولاك يا أمير المؤمنين.

قال: مليء - والله - وثقة، ثم التفت إلى فرج، فقال: أتضمنه يا فرج؟

قال: نعم، يا أمير المؤمنين، قد ضمنته.

فقال: أنا والله محرجه بالإلحاح في المطالبة، حتى يهرب، أو يستتر، ثم آخذك بالمال، فتؤديه، فإنك ملي به.

فقال فرج: صاحبي ثقة، وهو لا يخفني، إن شاء الله.

قال يحيى: فكتبت إلى الحسن بن سهل، وعبد الله بن طاهر، وحميد، ودينار بن عبد الله، وغسان، ورجال المأمون، أسألهم إعانتني في المال. قال: فحملوا لي ذلك عن آخره، حمل كل إنسان منهم، على قدره، قال يحيى: فكتبت رقعة إلى المأمون، أعرفه أن المال قد حضر، وأسأله أن يأمر من يقبضه.

قال: فأحضرنني، فلما وقعت عينه علي، قال لي: يا خائن، الحمد لله الذي بين لي خيانتك، وأظهر لي كذبك، ألم تذكر أنك لا تملك إلا سبعمائة ألف درهم؟ فكيف تهياً لك أن حملت في عشرة أيام إثني عشر ألف ألف درهم؟ قال: فقلت: حملت، يا أمير المؤمنين من هذه الجريدة، ودفعت إليه جريدة بأسماء من حمل إلي المال، ومبلغ ما حمل كل واحد منهم.

قال: فقرأ الجريدة، ثم أطرق ملياً، ورفع رأسه، فقال: لا يكون أصحابنا، أجود منا، هذا المال قد وهبناه لك، وأبرأنا ضمينك.

قال يحيى: فانصرفت، فرددت المال إلى أصحابه، فأبوا أن يقبلوه، وقالوا: قد وهبناه لك، فاصنع به ما أحببت.

قال: فحلقت، أن لا أقبل منه درهماً، وقلت لهم: أخذته في وقت حاجتي، ورددته عند استغنائي عنه، وقبولي إياه في هذا الوقت ضرب من التغم.- فرددته عليهم⁽⁸¹⁾..

جيء به مذنب وخرج وهو مثاب

حدث أبو نصر بن أبي داود، قال: حدثني أبي، عن أبيه، قال: كنت يوماً عند المأمون، وقد جاءوه بإبراهيم بن المهدي، وفي عنقه ساجور، وفي رجله قيدان، فوقف بين يدي المأمون.

فقال له: هيه، يا إبراهيم، إني استشرت في أمرك، فأشير علي بقتلك، فرأيت ذنبك يقصر عن واجب حق عمومتك.

فقال: يا أمير المؤمنين، أبيت أن تأخذ حقك إلا من حيث عودك الله تعالى، وهو العفو عن قدرة.

فقال المأمون: مات - والله - الحقد، عند هذا العذر، يا غلام، لا يتخلف أحد من أهل المملكة عن الركوب بين يديه، ويحمل بين يديه عشر بدر، وعشرة تخوت ثياب.

قال: ما رأيت إنساناً جيء به وهو مذنب، فخرج وهو مثاب، وأهل المملكة بين يديه، إلا هو⁽⁸²⁾.

قبض عليه وهو بزي امرأة

وجد في كتاب أبي الفرج المخزومي الحنطي: أن إبراهيم بن المهدي، لما طال استتاره من المأمون، ضاق صدره، فخرج ليلة من موضع كان فيه مستخفياً، يريد موضعاً آخر، في زي امرأة، وكان عطراً. فعرض له حارس، فلما شم منه رائحة الطيب، ارتاب به، فكلمه، فلم يجب، فعلم أنه رجل، فضبطه.

فقال له: خذ خاتمي، فثمنه ثلاثون ألف درهم وخنني، فأبى، وعلق به، وحمله إلى صاحب الشرطة، فأتى به المأمون. فلما أدخله داره، وعرف خبره، أمر بأن يدخل إليه، إذا دعي، على الحال التي أخذ عليها.

ثم جلس مجلساً عاماً، وقام خطيب بحضرة المأمون، يخطب بفضله، وما رزقه الله، جلت عظمته، من الظفر بإبراهيم.

وأدخل إبراهيم بزيه، فسلم على المأمون، وقال: يا أمير المؤمنين، إن ولي الثأر محكم في القصاص، والعفو أقرب للتقوى، ومن تناولته يد الاغترار، بما مد له من أسباب الرجاء، لم يأمن عادية الدهر، ولست أخلو عندك من أن أكون عاقلاً أو جاهلاً، فإن كنت جاهلاً فقد سقط عني اللوم من الله تعالى، وإن كنت عاقلاً، فيجب أن تعلم أن الله عز وجل، قد جعلت فوق كل ذي عفو، كما جعل كل ذي ذنب دوني، فإن تؤاخذ، فبحقك، وإن تعف، فبفضلك، ثم قال:

ذنبك إليك عظيم ... وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أو لا ... فاصفح بحلمك عنه
إن لم أكن في فعالي ... من الكرام فكنه
وقال:

أذنبت ذنباً عظيماً ... وأنت للعفو أهل
فإن عفوت فمن ... وإن جزيت فعدل

قال: فرق له المأمون، وأقبل على أخيه أبي إسحاق وابنه العباس والقواد، وقال: ما ترون في أمره ؟ فقال بعضهم: يضرب عنقه.
وقال البعض: تقطع أطرافه، ويترك إلى أن يموت، وكل أشار بقتله، وإن اختلفوا في القتلة.

فقال المأمون، لأحمد بن أبي خالد: ما تقول أنت يا أحمد ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن قتلتها، وجدت مثلك قد قتل مثله، وإن عفوت عنه، لم تجد مثلك قد عفا عن مثله، فأبي أحب إليك، أن تفعل فعلاً تجد لك فيه شريكاً، أو أن تنفرد بالفضل ؟ فأطرق المأمون طويلاً، ثم رفع رأسه، فقال: أعد علي ما قلت يا أحمد، فأعاد.

فقال المأمون: بل ننفرد بالفضل، ولا رأي لنا في الشركة.
فكشف إبراهيم المقتعة عن رأسه، وكبر تكبيرة عالية، وقال: عفا - والله - أمير المؤمنين عني، بصوت كاد الإيوان أن يتزعزع منه، وكان طويلاً، آدم، جعد الشعر، جهوري الصوت.
فقال له المأمون: لا بأس عليك يا عم، وأمر بحبسه في دار أحمد بن أبي خالد.

فلما كان بعد شهر، أحضره المأمون، وقال له: اعتذر عن ذنبك.
فقال: يا أمير المؤمنين، ذنبي أجل من أن أتفوه معه بعذر، وعفو أمير المؤمنين، أعظم من أن أنطق معه بشكر، ولكني أقول:
تفديك نفسي أن تضيق بصالح ... والعفو منك بفضل جود واسع
إنّ الذي خلق المكارم حازها ... في صلب آدم للإمام السابع
ملئت قلوب الناس منك مهابة ... وتظلّ تكلّوهم بقلب خاشع
فعفوت عمّن لم يكن عن مثله ... عفو ولم يشفع إليك بشافع
ورحمت أطفالاً كأفراخ القطا ... وحنين والدّة بقلب جازع
ردّ الحياة إليّ بعد ذهابها ... كرم المليك العادل المتواضع
فقال له المأمون: لا تثريب عليك يا عم، قد عفوت عنك، فاستأنف الطاعة متحرزاً من الظنة، يصف عيشك، وأمر بإطلاقه، ورد عليه ماله وضياعه، فقال إبراهيم يشكره في ذلك:

رددت مالي ولم تبخل عليّ به ... وقبل ردّك مالي قد حقنت دمي
فأبت عنك وقد خوّلتني نعماً ... هما الحياتان من موت ومن عدم
فلو بذلت دمي أبغي رضاك به ... والمال، حتى أسلّ النعل من قدمي
ما كان ذاك سوى عارية رجعت ... إليك لو لم تعرها كنت لم تلم

وقام علمك بي فاحتجّ عندك لي ... مقام شاهد عدل غير متهم
فإن جحدتك ما أوليت من نعم ... إني لباليوم أولى منك بالكرم
فقال المأمون: إن من الكلام، كلاماً كالدر، وهذا منه، وأمر لإبراهيم بخلع
ومال، قيل أنه ألف ألف درهم.

وقال له: يا إبراهيم، إن أبا إسحاق، وأبا عيسى، أشارا علي بقتلك.
فقال إبراهيم: ما الذي قلت لهما يا أمير المؤمنين ؟ قال: قلت لهما: إن قرابته
قريبة، ورحمه ماسة، وقد بدأنا بأمر، وينبغي أن نستتمه، فإن نكث فالله مغير
ما به.

قال إبراهيم: قد نصحا لك، ولكنك أبيت إلا ما أنت أهله يا أمير المؤمنين،
ودفعت ما خفت، بما رجوت.

فقال المأمون: قد مات حقدي بحياة عذرك، وقد عفوت عنك، وأعظم من
عفوي عنك أنني لم أجرك مرارة امتنان الشافعين⁽⁸³⁾.

إن من أعظم المحنة أن تسبق أمية هاشماً إلى مكرمة

لما دخل إبراهيم بن المهدي على المأمون وقد ظفر به، كلمه بكلام كان سعيد
بن العاص كلم به معاوية بن أبي سفيان في سخطة سخطها عليه، واستعطفه
به، وكان المأمون يحفظ الكلام.

فقال له المأمون: هيهات يا إبراهيم، هذا كلام قد سبقك به فحل بني العاص،
وقارحهم، سعيد بن العاص، خاطب به معاوية.

فقال له إبراهيم: وأنت إن عفوت عني، فقد سبقك فحل بني حرب، وقارحهم،
إلى العفو، ولم تكن حالي في ذلك، أبعد من حال سعيد عند معاوية، فإنك
أشرف منه، وأنا أشرف من سعيد، وأنا أقرب إليك من سعيد إلى معاوية، وإن
من أعظم المحنة أن تسبق أمية هاشماً إلى مكرمة.
فقال له: صدقت يا عم، وقد عفوت عنك⁽⁸⁴⁾.

لما قدم للقتل تماسك فلما عفي عنه بكى

لما حصل إبراهيم بن المهدي في قبضة المأمون، لم يشك هو وغيره في أنه
مقتول، فأطال حبسه في مطمورة، بأسوأ حال وأقبحها.

قال إبراهيم: فأيست من نفسي ووطنها على القتل، وتعزيت عن الحياة، حتى
صرت أتمني القتل، للراحة من العذاب، وما أومله في الآخرة، من حصول
الثواب.

⁸³ (القاضي التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ص225

⁸⁴ (القاضي التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ص176-177

فبينما أنا كذلك، إذ دخل علي أحمد بن أبي خالد مبادراً، فقال: أعهد، فقد أمرني أمير المؤمنين بضرب عنقك.

فقلت: أعطني دواة وقرطاساً، فكتبت وصية ذكرت فيها كلما احتجت إليه، وأسندتها إلى المأمون، وشكلة والدتي، وتوضأت، فتطوعت ركعات، ومضى أحمد.

وفرغت من الصلاة، وجلست أتوقع القتل، فعاد إلي أحمد بعد ساعتين، فقال: أمير المؤمنين، يقرؤك السلام، ويقول لك: أنا أحمد الله - جلت عظمتة - الذي وفقتي لصلة رحمك، والصفح عنك، وقد أمنك، ورد عليك نعمتك، وجميع ضياعك وأملكك، فانصرف إلى دارك.

قال: فبدأت أدعو للمأمون، وغلب البكاء علي والانتحاب، وهو يطالبني بالجواب، وأنا غير متمكن منه.

فقال لي أحمد: لقد رأيت منك عجباً، أخبرتك أنني أمرت بضرب عنقك، فلم تجزع، ولم تبك، ثم أخبرتك بتفضل أمير المؤمنين عليك، وصفحته عنك، فلم تتمالك من البكاء.

فقلت له: أما السكوت عند الخبر الأول، فلأنني لم أتوسم - منذ ظفر بي - أن أسلم من القتل، فلما ورد علي ما لم أشك فيه، لم أجزع له، ولم أبك. وأما بكائي عند الخبر الثاني، فوالله العظيم شأنه، ما هو عن سرور بالحياة، ولا لرجوع النعمة، وما بكائي إلا لما كان مني في قطيعة رحم من عنده - بعد استحقاقي منه القتل - مثل هذا الصفع الذي لم يسمع في جاهلية ولا إسلام، بأن أحداً أتى بمثله، فقد حاز أمير المؤمنين الثواب من الله تعالى، في صلة رحمه، وبوّت أنا بالإثم، في قطيعة رحمي، وقد أظهر إحسانه إساءتي، وحلمه جهلي، وفضله نقصي، وجوابي هو ما شاهدت وسمعت.

فرجع أحمد إلى المأمون فأخبره، ثم عاد إلي بمال وخلع، ومركوب، فانصرفت إلى داري ونعمتي⁽⁸⁵⁾.

قال المأمون لقد حبيب إلي العفو حتى خفت أن لا أؤجر عليه ووجدت الخبر على خلاف هذه الرواية، فأخبرني أبو الفرج الأموي المعروف بالأصبهاني، قال: أخبرني علي بن سليمان الأخفش، قال: حدثنا محمد بن يزيد النحوي، عن الجاحظ، قال: أرسل إلي ثمامة، يوم حبس المأمون إبراهيم بن المهدي، وأمر بإحضار الناس على مراتبهم، فحضروا، وجيء بإبراهيم.

وفي رواية أنه لما ظفر المأمون بإبراهيم المهدي، أحب أن يوبخه على رؤوس الأشهاد، فأمر بإحضار الناس على مراتبهم، وحيء إبراهيم يرسف في قيوده، فوقف على طرف البساط في طرف الإيوان، يحجل في قيوده. فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، ورحمة الله تعالى وبركاته. فقال له المأمون: لا سلم الله عليك، ولا كلاك، ولا حفظك، ولا رعاك. فقال له إبراهيم: على رسلك يا أمير المؤمنين، فلقد أصبحت ولي الثأر، والقدرة تذهب الحفيظة، وقد أصبح ذنبي فوق كل ذنب، كما أصبح عفوك فوق كل عفو، ولم يبق إلا عفوك، أو انتقامك، فإن تعاقب فبحقك، وإن تعف فبفضلك، وأنت للعفو أقرب. فأطرق المأمون ملياً، ثم رفع رأسه، فقال: إن هذين أشارا علي بقتلك، يعني أخاه المعتصم، وابنه العباس، وكنا يشيران عيه في معظم تدبير الخلافة والسياسة.

فقال إبراهيم: لقد نصحا لك يا أمير المؤمنين فيما أشارا عليك به، وما غشاك، إذ كان مني ما كان، ولكن الله عز وجل، عودك في العفو عادة جريت عليها، دافعاً ما تخاف بما ترجو، فكفاك الله كل مكروه، ودفع عنك كل محذور. قال: فتبسم المأمون، وأقبل على ثمامة، وقال: إن من الكلام ما يفوق الدر، ويغلب السحر، وكلام عمي منه، أطلقوه، وفكوا عن عمي حديدته، وردوه إلي مكرماً.

فلما رد إليه، قال: يا عم، صر إلى المنادمة، وارجع إلى الأنس، فلن ترى مني أبداً إلا ما تحب، فلقد حبب إلي العفو، حتى خفت أن لا أؤجر عليه، أما أنه لو علم الناس ما لنا في العفو من اللذة، لتقربوا إلينا بالذنوب، لا تثريب اليوم عليك يا عم، يغفر الله لنا ولك، ولو لم يكن في حق نسبك ما يبلغ الصفع عن إساءتك، ولو لم يكن في حق قرابتك، ما يستحق العفو عن جرمك، لبلغت ما أملت بحسن تنصلك، ولطف توصلك، ثم أمر برد ضياعه وأمواله إليه.

فلما كان من الغد، بعث إليه إبراهيم درجاً فيه هذه الأبيات:

يا خير من ذملت يمانية به ... بعد الرسول لايس أو طامع
والله يعلم ما أقول فإنها ... جهد الآلية من حنيف راع
قسماً وما أدلي إليك بحجة ... إلا التضرع من مقر خاشع
ما إن عصيتك والغواة تمد لي ... أسبابها إلا بقلب طامع
حتى إذا علقت حبال شقوتي ... بردى على حفر المهالك هائع
لم أدر أن لمثل ذنبي غافراً ... فأقمت أرقب أي حتف صارعي

ردّ الحياة عليّ بعد ذهابها ... عفو الإمام القادر المتواضع
أحياءك من ولّاك أطول مدّة ... ورمى عدوك في الوتين بقاطع
إنّ الذي قسم الفضائل حازها ... في صلب آدم للإمام السابع
كم من يد لك لا تحدّثني بها ... نفسي إذا آلت إليّ مطامعي
أسديتها عفواً إليّ هنيئة ... فشكرت مصطنعاً لأكرم صانع
ورحمت أطفالاً كأفراخ القطا ... وحنين والهة كقوس النازع
وعفوت عمّن لم يكن عن مثله ... عفو ولم يشفع إليك بشافع
إلاّ العلوّ عن العقوبة بعدما ... ظفرت يداك بمستكين خاشع
قال: فبكى المأمون، ثم قال: علي به، فأتي به، فخلع عليه، وأمر له بخمسة
آلاف درهم، وكان ينادمه، لا ينكر منه شيئاً⁽⁸⁶⁾.

الفضل بن الربيع يتحدّث عما لاقى أيام استتاره من المأمون

عن أبي طالوت كاتب ابن طاهر، قال: سمعت الفضل بن الربيع، يقول: لما
استترت من المأمون، أخفيت نفسي حتى عن عيالي وولدي، وكنت أنتقل
وحيدي.

فلما اقترب المأمون من بغداد، ازداد حذري، وخوفي على نفسي، فتشدّدت في
الاحتياط والتواري، وأفضيت إلى منزل بزاز كنت أعرفه في درب بباب
الطاق، وشدّد المأمون في طلبي فلم يعرف لي خبراً.
فتذكرني يوماً، فاغتاظ على إسحاق بن إبراهيم، وجد به في طلبي، فأغلظ له،
فخرج إسحاق من حضرته، وجد بأصحاب الشرط، وأوقع ببعضهم المكاره،
ونادى في الجانبين، من جاء به فله عشرة آلاف درهم وإقطاع غلته ثلاثة
آلاف دينار في السنة، وإن من وجد بعد النداء ضرب خمسمائة سوط وهدمت
داره وأخذ ماله وحبس طول الدهر، فنودي بذلك عشياً.
فما شعرت، إلا وصاحب الدار قد دخل علي وأخبرني الخبر، وقال: والله، ما
أقدر بعد هذا على سترك، ولا آمن من زوجتي، وجاريّتي، وغلّامي، وأن
تشره نفوسهم إلى المال، فيدلّون عليك، وأهلك بهلاكك، وإن صفح الخليفة
عنك، لم آمن من أن تتهمني بأنّي دلّلت عليك، فيكون ذلك أقبح وأشنع، وليس
الرأي لي ولك إلا أن تخرج عني.
فورد علي ذلك أعظم مورد، وقلت: إذا جاء الليل خرجت عنك.

قال: ومن يطيق الصبر على هذا الضرر إلى الليل، فإنك إن وجدت عندي قبل الليل أهلكتي وأهلك نفسك، وهذا وقت حار، وقد طال عهد الناس بك، فقم وتنكر واخرج.

فقلت: كيف أنتكر؟

فقال: تأخذ أكثر لحيتك، وتغطي رأسك وبعض وجهك، وتلبس قميصاً ضيقاً، وتخرج.

فقلت: أفعل.

فجاء بمقراض فأخذت أكثر لحيتي، وتنكرت، وخرجت من عنده في أول أوقات العصر، وأنا ميت خوفاً.

فمشيت في الشارع، حتى بلغت الجسر، فوجدته قد رش، وهو خال من الناس، متزلق.

فلما توسطته، إذا أنا بفارس من الجند الذين كانوا في داري في أيام وزارتي، قد قرب مني، فعرفني، وقال: طلبة أمير المؤمنين، وعدل إلي ليقبض علي. فلحلاوة النفس دفعته ودابته، فزلق، ووقع في بعض السفن التي في الجسر، وتعادى الناس لخلاصه، وظنوا أنه زلق بنفسه.

وتشاغل عني بهم، وزدت أنا في المشي، ولم أعد لنألا ينكر حالي من يراني، إلى أن عبرت الجسر ودخلت درب سليمان.

فوجدت امرأة على باب دار مفتوح، فقلت لها: يا امرأة، أنا خائف من القتل، فأجيريني واحقني دمي.

فقالت: أدخل، وأومأت إلى غرفة، فصعدتها.

فلما كان بعد ساعة، إذا بالباب يدق، ففتحته، وإذا زوجها قد دخل، فتأملته، فإذا هو صاحبي على الجسر، وهو مشدود الرأس يتأوه من شجة لحقته، وثيابه مغموسة بالدم.

وسألته المرأة عن خبره، فأخبرها بالقصة، وقال لها: قد زمنت دابتي وأنفذتها لتباع في سوق اللحم، وقد فانتني الغنى، وجعل يشتمني، وهو لا يعلم بوجودي معه في الدار، وأقبلت المرأة تترفق به إلى أن هدا.

فلما صليت المغرب، وأقبل الظلام، صعدت المرأة إلي، وقالت: أظنك صاحب القصة مع هذا الرجل.

فقلت: نعم.

فقالت: قد سمعت ما عنده، فاتق الله في نفسك واخرج، فدعوت لها.

فنزلت، ففتحت الباب فتحاً رقيقاً، وقالت: اخرج، وكانت الدرجة في الدهليز، فأفضيت إلى الباب، فلما انتهيت إلى آخر الدرب وجدت الحراس قد أغلقوه، فتحيرت.

ثم رأيت رجلاً يفتح باباً بمفتاح رومي، فقلت: هذا رومي، وهو ممن يقبل مثلي.

فدنوت منه وقلت: أسترني، سترك الله.

فقال: ادخل، فدخلت، فرأيت رجلاً فقيراً وحيداً، فأقمت ليلتي عنده، وبكر من غد، وعاد نصف النهار ومعه حمالان يحمل أحدهما حصيراً ومخدة، وجرار، وكيزان، وغضائر جدداً، وقدرًا جديدًا، ويحمل الآخر خبزاً وفاكهة، ولحمًا، وثلجاً، فدخل، وترك ذلك كله عندي، وأغلق الباب.

فنزلت، وعذلت، وقلت له: لم كلفت نفسك هذا؟ فقال: أنا رجل مزين، وأخاف أن تستقذرنني، وقد أفردت لك هذا، فاطبخ أنت وأطعمني في غضارة أجيء بها من عندي، فشكرته على ذلك، وأقمت عنده ثلاثة أيام.

فلما كان آخر اليوم الثالث، ضاق صدري، فقلت له: يا أخي الضيافة ثلاثة أيام، وقد أحسنت وأجملت، وأريد الخروج.

فقال: لا تفعل، فإني وحيد، ولست ممن يطرق، وخبرك لا يخرج من عندي أبداً، فأقم إلى أن يفرج الله عنك، فلست أتناقل بك.

فأبيت للحين، وخرجت على وجهي أريد منزل عجوز بباب التبن من موالينا، فدققت الباب عليها، فخرجت، فلما رأني بكيت، وحمدت الله على رؤيتي، وأدخلتني الدار.

فلما كان في السحر، وأنا نائم، بكرت العجوز فغمزت علي بعض أصحاب إسحاق بن إبراهيم، فما شعرت إلا بإسحاق نفسه، في خيله ورجله، قد أحاط بالدار، ثم كبسها واستخرجني منها، حتى أوقفني بين يدي المأمون حافياً حاسراً.

فلما رأيته سجد طويلاً ثم رفع رأسه، وقال: يا فضل، أتدري لم سجدت؟ فقلت: نعم، شكراً لله تعالى الذي أظفرك بعدو دولتك، المغربي بينك وبين أخيك.

قال: ما أردت هذا، ولكني سجدت شكراً لله على ما ألهمني من العفو عنك، فحدثني بخبرك؟ فشرحته له من أوله إلى آخره.

فأمر بإحضار العجوز مولاتنا، وكانت في الدار تنتظر الجائزة، فقال لها: ما حملك على ما فعلت، مع إنعامه وإنعام أهله عليك؟ قالت: رغبة في المال.

قال: هل لك زوج أو ولد أو أخ ؟ قالت: لا، فأمر بضربها مائة سوط، وتخليدها في السجن.

ثم قال لإسحاق: أحضر الساعة الجندي، وامراته، والمزين، فحضروا في مجلس واحد، فاستثبنتي فيهم، فعرفته أنهم القوم بأعيانهم. فسأل الجندي عن السبب الذي حمله على فعله، فقال: الرغبة في المال، ووالله، إنه الذي أثبتني في الجيش، ولكني رغبت في المال العاجل. فقال: أنت بأن تكون حجاماً أولى بأن تكون من أوليانا، وأمر بأن يسلم للمزينين في الدار، ويوكل به من يعسفه حتى يتعلم الحجامة. وأمر باستخدام زوجته قهرمانة في دور حرمه، وقال: هذه المرأة عاقلة أدبية.

قالت له: وكيف ذلك ؟ قال لها: مر بي الفضل، فمددت يدي لأقبض عليه، فابتلعه الأرض.

فقالت له امرأته: الحمد لله - عز وجل - الذي كفاك أمره وأبقى دينك عليك، ولم تكن سبباً لسفك دمه، أو مكروه يلحقه.

فلما خرج، صعدت إليه، فقالت: قد سمعت، وما هذا المكان لك بموضع، فخرج إلى بعض منازل معامليه، فلما صار إليه، نبه العامل عليه، وأسلمه إلى طالبه، فحمل إلى المأمون، فلما رآه، وسأله عن خبره، شرح له قصته، فأمر للمرأة بثلاثين ألف درهم وقال للرسول: قل لها، يقول لك الفضل: هذا جزاء لك على ما فعلته من الجميل، فردتها، وأبت قبولها، وقالت: لست آخذ على شيء فعلته لله عز وجل، جزاءً، إلا منه⁽⁸⁷⁾.

إسحاق الموصلي يتطفل ويقترح

حدث حماد بن إسحاق بن إبراهيم الموصلي، قال: حدثني أبي، قال: غدت يوماً، وأنا ضجر من ملازمة دار الخلافة، والخدمة فيها، فركبت بكرة، وعزمت على أن أطوف الصحراء، وأتفرج بها.

فقلت لغلماني: إن جاء رسول الخليفة، فعرفوه أنني بكرت في مهم لي، وأنكم لا تعرفون أين توجهت.

ومضيت، وطففت ما بدا لي، ثم عدت وقد حمي النهار، فوقفت في شارع المخرم، في الظل، عند جناح رحب في الطريق، لأستريح.

فلم ألبث أن جاء خادم يقود حماراً فارهاً، عليه جارية راكبة، تحتها منديل ديبقي، وعليها من اللباس الفاخر ما لا غاية وراءه، ورأيت لها قواماً حسناً، وطرفاً فاتناً، وشمائل ظريفة، فحدست أنها مغنية. فدخلت الدار التي كنت واقفاً عليها، وعلقها قلبي في الوقت علوقاً شديداً، لم أستطع معه البراح.

فلم ألبث إلا يسيراً، حتى أقبل رجلان شابان جميلان، لهما هياة تدل على قدرهما، راكبان، فاستأذنا، فأذن لهما، فحملني حب الجارية على أن نزلت معهما، ودخلت بدخولهما، فظنا أن صاحب الدار دعاني، وظن صاحب الدار أنني معهما.

فجلسنا، فأتي بالطعام فأكلنا، وبالشراب فوضع، وخرجت الجارية، وفي يدها عود، فرأيتها حسناء، وتمكن ما في قلبي منها، وغنت غناء صالحاً، وشربنا. وقمت قومة للبول، فسأل صاحب المنزل من الفتيتين عني، فأخبراه أنهما لا يعرفاني، فقال: هذا طفيلي، ولكنه ظريف، فأجملوا عشرته.

وجئت، فجلست، وغنت الجارية في لحن لي:

ذكرتك إذ مرّت بنا أمّ شادن ... أمام المطايا تستريب وتطمح
من المولعات الرمل أدماء حرّة ... شعاع الضحى في متنها يتوضّح
فأدته أداً صالحاً، ثم غنت أصواتاً فيها من صنعتي:

الطلول الدوارس ... فارقتها الأوانس

أوحشت بعد أهلها ... فهي قفر بسابس

فكان أثرها فيه أصلح من الأول، ثم غنت أصواتاً من القديم والمحدث، وغنت في أضعافها من صنعتي، في شعري:

قل لمن صدّ عاتبا ... ونأى عنك جانباً

قد بلغت الذي أرد ... ت وإن كنت لاعبا

واعترفنا بما أدعي ... ت وإن كنت كاذبا

فكان أصلح ما غنته، فاستعدته منها لأصححه لها، فأقبل علي رجل منهم، فقال: ما رأيت طفلياً أصفق منك وجهاً، لم ترض بالتطفيل حتى اقترحت، وهذا تصديق للمثل: طفيلي ويقترح، فأطرقت، ولم أجبه، وجعل صاحبه يكفه عني، فلا يكف.

ثم قاموا إلى الصلاة، وتأخرت، فأخذت العود وشددت طبقته، وأصلحته إصلاحاً محكماً، وعدت إلى موضعي، فصليت، وعادوا، وأخذ الرجل في عربدته علي، وأنا صامت.

وأخذت الجارية العود، وجسته، فأكرت حاله، وقالت: من مس عودي ؟ فقالوا: ما مسه أحد.

قالت: بلى، والله، قد مسه حاذق متقدم، وشد طبقتة، وأصلحه إصلاح متمكن من صنعتة.

فقلت لها: أنا أصلحته.

قالت: بالله عليك، خذه، فاضرب به.

فأخذته، وضربت به مبدأً عجيباً، فيه نقرات محرقة، فما بقي في المجلس أحد إلا وثب فجلس بين يدي.

وقالوا: بالله عليك يا سيدنا، أتغني ؟ قلت: نعم، وأعرفكم نفسي أيضاً، أنا

إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وإني - والله - لأتية على الخليفة، وأنتم

تشتمونني اليوم، لأنني تملحت معكم بسبب هذه الجارية، ووالله، لا نطقت بحرف، ولا جلست معكم، أو تخرجوا هذا المعاند.

ونهضت لأخرج، فتعلقوا بي، فلم أرجع، فلحقنتي الجارية، فتعلقت بي، فانت،

وقلت: لا أجلس، حتى تخرجوا هذا البغيض.

فقال له صاحبه: من هذا كنت أخاف عليك، فأخذ يعتذر.

فقلت: أجلس، ولكني، والله، لا أنطق بحرف وهو حاضر، فأخذوا بيده،

فأخرجوه.

فبدأت أغني الأصوات التي غنتها الجارية من صنعتي، فطرب صاحب البيت

طرباً شديداً، وقال: هل لك في أمر أعرضه عليك ؟ فقلت: وما هو ؟ قال: تقيم

عندي شهراً، والجارية لك بما لها من كسوة.

فقلت: أفعل.

فاقمت عنده ثلاثين يوماً، لا يعرف أحد أين أنا، والمأمون يطلبني في كل

موضع، فلا يعرف لي خبراً.

فلما كان بعد ذلك، سلم إلي الجارية والخادم، وجئت بها إلى منزلي، وكان أهل

منزلي في أقبح صورة لتأخري عنهم.

وركبت إلى المأمون من وقتي، فلما رأيته، قال لي: يا إسحاق، ويحك، أين

كنت ؟ فأخبرته بخبري.

فقال: علي بالرجل الساعة، فدللتهم على بيته، فأحضر، فسأله المأمون عن

القصة، فأخبره بها.

فقال: أنت ذو مروءة، وسبيلك أن تعان عليها، فأمر له بمائة ألف درهم.

وقال: لا تعاشر ذلك المعربد السفلى.

فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين.
وأمر لي بخمسين ألف درهم، وقال لي: أحضر الجارية، فأحضرتة إياها، فغنته.

فقال لي: قد جعلت لها نوبة كل يوم ثلاثاء، تغيني من وراء الستارة، مع الجواري، وأمر لها بخمسين ألف درهم.
فربحت - والله - بتلك الركبة، وأربحت⁽⁸⁸⁾.

بعض صنائع البرامكة

ومما وضع في بطون الدفاتر، واستحسنته عيون البصائر، ونقلته الأصاغر عن الأكابر، ما رواه خادم أمير المؤمنين المأمون قال: طلبني أمير المؤمنين المأمون ليلة، وقد مضى من الليل ثلثه، فقال لي: خذ معك فلاناً وفلاناً، وسماهما لي: أحدهما، علي بن محمد، والآخر، دينار الخادم، واذهب مسرعاً لما أقول لك، فإنه بلغني أن شيخاً يحضر ليلاً إلى آثار دور البرامكة، وينشد شعراً ويذكرهم ذكراً كثيراً ويندبهم ويبكي عليهم، ثم ينصرف فامض أنت وعلي ودينار حتى تردوا تلك الخرائب فاستتروا خلف بعض الجدران، فإذا الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد أبياتاً فاتوني به.

قال: فأخذتهما ومضيتهما حتى أتينا الخرائب، فإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسی حديد، وإذا شيخ قد جاء وله جمال وعليه مهابة ولطف، فجلس على الكرسي وجعل يبكي وينتحب ويقول هذه الأبيات:

ولما رأيت السيف جندل جعفرأ ... ونادى مناد للخليفة: يا يحيى بكيت على الدنيا وزاد تأسفي ... عليهم وقلت: الآن لا تنفع الدنيا مع أبيات أطالها. فلما فرغ قبضنا عليه، وقلنا له: أجب أمير المؤمنين، ففرع فزعاً شديداً وقال: دعوني حتى أوصي بوصية فإني لا أوقن بعدها بحياة. ثم تقدم إلى بعض الدكاكين واستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصية وسلمها إلى غلامه ثم سرنا به، فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين قال: حين رآه: من أنت، وبم استوجبت منك البرامكة ما تفعله في خرائب دورهم؟ قال الخادم: ونحن نستمتع.

فقال: يا أمير المؤمنين، إن للبرامكة أيادي خضرة عندي، أفتأذن لي أن أحدثك بحالي معهم؟ قال: قل.

فقال: يا أمير المؤمنين؟؟! أنا المنذر بن المغيرة، من أولاد الملوك، وقد زالت عني نعمتي، كما تزول عن الرجال، فلما ركبني الدين، واحتجت إلى بيع ما

على رأسي ورؤوس أهلي وبيتي الذي ولدت فيه، أشاروا علي بالخروج إلى البرامكة، فخرجت من دمشق ومعني نيف وثلاثون امرأة وصبياً وصبية، وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب، حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد، فدعوت ببعض ثياب كنت أعددتها لأستتر بها، فلبستها وخرجت وتركتهم جياً لا شيء عندهم، ودخلت شوارع بغداد سائلاً عن البرامكة، فإذا أنا بمسجد مزخرف وفي جانبه شيخ بأحسن زي وزينة، وعلى الباب خادمان، وفي الجامع جماعة جلوس، فطمعت في القوم ودخلت المسجد وجلست بين أيديهم، وأنا أقدم رجلاً وأوخر أخرى، والعرق يسيل مني لأنها لم تكن صناعتي، وإذا الخادم قد أقبل ودعا القوم فقاموا وأنا معهم، فدخلوا دار يحيى بن خالد، فدخلت معهم، وإذا بيحيى جالس على دكة له وسط بستان، فسلمنا، وهو يعدنا مائة وواحداً، وبين يديه عشرة من ولده، وإذا بأمرد نبت العذار في خديه قد أقبل من بعض المقاصير، وبين يديه مائة خادم متمنطقون، في وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال، مع كل خادم مجمرة من ذهب، في كل مجمرة قطعة من عود كهينة الفهر، وقد قرن به مثله من العنبر السلطاني فوضعه بين يدي الغلام، وجلس إلى جنب يحيى، ثم قال للقاضي: تكلم وزوج ابنتي عائشة من ابن أخي هذا. فخطب القاضي خطبة النكاح وزوجه وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالنثار ببنادق المسك والعنبر، فالتقطت، والله يا أمير المؤمنين ملء كمي ونظرت، وإذا نحن في المكان ما بين يحيى والمشايخ وولده والغلام مائة واثنى عشر، وإذا بمائة واثنى عشر خادماً قد أقبلوا ومع كل خادم صينية من فضة، على كل صينية ألف دينار، فوضعوا بين يدي كل رجل منا صينية، فرأيت القاضي والمشايخ يضعون الدنانير في أكمامهم ويجعلون الصواني تحت أباطهم، ويقوم الأول فالأول حتى بقيت وحدي لا أجسر على أخذ الصينية، فغمزني الخادم فجسرت وأخذتها وجعلت الذهب في كمي والصينية في يدي وقمت وجعلت أتلفت إلى ورائي مخافة أن أمنع من الذهاب، فبينما أنا كذلك إلى أن وصلت إلى صحن الدار، ويحيى يلاحظني، فقال للخادم: انتني بهذا الرجل، فأتيته، فقال: مالي أراك تلتفت يميناً وشمالاً؟ فقصصت عليه قصتي فقال للخادم: انتني بولدي موسى، فأتاه به. فقال له: يا بني! هذا رجل غريب، فخذ إليك واحفظه بنفسك وبنعمتك.

فقبض موسى ولده على يدي وأدخلني إلى دار من دوره فأكرمني غاية الإكرام، وأقمت عنده يومي وليلتي في ألد عيش وأتم سرور، فلما أصبح دعا

بأخيه العباس، وقال له: الوزير أمرني بالعطف على هذا الفتى، وقد علمت اشتغالي في بيت أمير المؤمنين، فاقبضه إليك، وأكرمه. ففعل ذلك وأكرمني غاية الإكرام ثم لما كان من الغد تسلمني أخوه أحمد، ثم لم أزل في أيدي القوم يتداولوني مدة عشرة أيام لا أعرف خبر عيالي وصبياني أفي الأموات هم أم في الأحياء، فلما كان اليوم الحادي عشر جاءني خادم ومعه جماعة من الخدم فقالوا: قم فاخرج إلى عيالك بسلام. فقلت: وا ويلاه، أسلب الدنانير والصينية، وأخرج على هذه الحالة؟ إنا لله وإنا إليه راجعون.

فرفع الستر الأول ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع، فلما رفع الخادم الستر الأخير قال لي: مهما كان لك من الحوائج فارفعها إلي فإني مأمور بقضاء جميع ما تأمرني به.

فلما رفع الستر الأخير رأيت حجرة كالشمس حسناً ونوراً واستقبلني منها رائحة الند والعود ونفحات المسك، وإذا بصبياني وعيالي يتقلبون في الحرير والديباج، وحمل إلي مائة ألف درهم، وعشرة آلاف دينار، ومنشور بضيعتين، وتلك الصينية التي كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق، وأقمت يا أمير المؤمنين، مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب، فلما جاءتهم البلية ونزل بهم يا أمير المؤمنين، من الرشيد ما نزل أجحف بي عمرو بن مسعدة وألزمني في هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفي دخلهما به، فلما تحامل علي الدهر كنت في آخر الليل أقصد خرائب دورهم، فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إلي وأبكي على إحسانهم.

فقال المأمون: علي بعمرو بن مسعدة. فلما أتى به قال له: تعرف هذا الرجل؟ قال: يا أمير المؤمنين، هو بعض صنائع البرامكة. قال: كم ألزمته في ضيعتيه؟ قال: كذا وكذا. فقال له: رد إليه كل ما أخذته منه في مدته، وأفرغهما له ليكونا له ولعقبه من بعده.

قال: فعلا نحيب الرجل، فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال له: يا هذا! قد أحسنا إليك، فما يبكيك؟ قال: يا أمير المؤمنين، وهذا أيضاً من صنيع البرامكة، لو لم آت خرائبهم فأبكيهم وأنذبهم حتى اتصل خبري إلى أمير المؤمنين، ففعل بي ما فعل من أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين؟ قال إبراهيم

بن ميمون: فرأيت المأمون، وقد دمعت عيناه وظهر عليه حزنه وقال: لعمرى هذا من صنائع البرامكة، فعليهم فابك، وإياهم فاشكر، ولهم فأوف وإحسانهم فاذكر، انتهى.

المأمون والورد

وقال إسحاق: دخلت يوماً على المأمون في زمن الورد، فقال لي: يا إسحاق! هل قلت شيئاً في الورد؟ قلت: أقول بسعادة أمير المؤمنين. وفكرت ساعة فلم تسمح قريحتي في ذلك الوقت بشيء، فخرجت من عنده وبقيت ليلتي ساهراً متفكراً، فلم يفتح عليّ بشيء، فلما أصبحت غدوت إلى دار الخلافة، وإذا غلام الفضل بن مروان على باب المأمون، ومعه سبع وردات على صينية فضة، ينتظر الإذن في الدخول بها عليه، فسألته المهلة بها قليلاً، فامتنع، سألته ثانياً، وقلت: أمهل قليلاً، ولك بكل وردة دينار. فأجابني إلى ذلك فدفعت له سبعة دنانير، وأحببت أن لا يصل إليه الورد قبل وصول الشعر، وخرجت أقصد الأزقة لعلّي أسمع شيئاً من أحد أو ينبعث خاطري ولو ببيت واحد، فبينما أنا كذلك وإذا أنا برجل يغربل التراب وهو ينشد ويقول:

اشرب على ورد الخدود فإنه ... أزهى وأبهى، فالصبوح يطيب
ما الورد أحسن من تورّد وجنة ... جمراء جاد بها عليك حبيب
صبغ المدام بياضها فكأنه ... ذهبٌ بقالب فضة مضروب

فلما سمعته نزلت عن دابتي، ودخلت مسجداً بالقرب منه وطلبتّه، فلما أقبل سألتّه أن يملئها عليّ فاعتل، وقال: إن أردت فاعطني بكل بيت عشرة دنانير، فدفعتها له واستمليتها منه ثم عدت أنا وغلام الفضل بن مروان، وإذا بالمأمون يشرب من وراء الستارة، فلما جسييت العود قال لجواريه: اسكتن، فقد جاء إسحاق، فقدمت ذلك الورد بين يديه وأنشدت الأبيات فسمعت الشهيق والزفير من وراء الستارة ثم أخرج إليّ بكرة فيها عشرة آلاف درهم، فأعدت الأبيات، فأخرج إليّ بكرة أخرى، فأعدت الثالثة فأخرج إليّ بكرة ثالثة، فأخذت في غير الشعر، فخرج إليّ خادم وقال: يقول لك أمير المؤمنين لو دمت على إنشادك لدمنّا على البكرة ولو إلى الليل، انتهى من حلية الكميت (89).

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

ويحكى عن العباس صاحب شرطة المأمون، قال: دخلت إلى مجلس أمير المؤمنين ببغداد يوماً، وبين يديه رجل مكبل بالحديد، فقال لي: يا عباس؟ قلت: لبيك يا أمير المؤمنين.

قال: خذ هذا إليك فاستوثق به واحتفظ عليه وبكر به إلي في غد واحترز عليه كل الاحتراز.

قال العباس: فدعوت جماعة حملوه ولم يقدر أن يتحرك فقلت في نفسي: مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معي في بيتي، فلما تركوه في داري أخذت أسأله عن قضيته وحاله ومن هو؟ فقال: أنا من دمشق.

فقلت: جزى الله دمشق خيراً، فمن أنت من أهلها؟

قال: وعمن تسأل؟ قلت: أوتعرف فلاناً؟ قال: ومن أين تعرف ذلك الرجل؟ فقلت: وقعت لي معه قضية.

فقال: ما كنت بالذي أعرفك خبره حتى تعرفني قضيتك معه؟ فقلت: ويحك! كنت مع بعض الولاة بدمشق فسمعت أهلها، وقد خرجوا علينا حتى أن الوالي خرج في زنبيل من قصر الحجاج، وهرب هو وأصحابه، وهربت في جملة القوم، فبينما أنا هارب في بعض الدور، وإذا بجماعة يعدون، فما زلت أعدو أمامهم حتى تجاوزتهم، ومررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك، وهو جالس على باب داره، فقلت: يا هذا أغثني أغاثك الله؟ قال: لا بأس عليك ادخل الدار. فدخلت، فقالت لي زوجته: ادخل تلك المقصورة.

فدخلتها ووقف الرجل على باب الدار، فما شعرت إلا وقد دخل، والرجال معه يقولون هو والله عندك.

فقال: دونكم الدار فتشوها.

ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامراته فيها، فقالوا: ها هو هنا. فصاحت بهم المرأة ونهرتهم، فانصرفوا، وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة، وأنا قائم أرجف ما تحملني رجلاي من شدة الخوف، فقالت المرأة: اجلس لا بأس عليك.

فجلست، فلم ألبث حتى دخل الرجل، فقال: لا تخف فقد صرف الله عنك شرهم وصرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله.

فقلت: جزاك الله خيراً.

فما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها وأفرد لي مكاناً من داره ولم يحوجني إلى شيء ولم يفتر عن تفقد أحوالي، فأقمت عنده أربعة أشهر في

أتم عيش وأرغده إلى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها، فقلت له: أتأذن لي في الخروج حتى أتفقد حال غلماني، فلعلي أقف منهم على خبر. فأخذ علي الموائيق بالرجوع إليه، فخرجت وطلبت غلماني فلم أر لهم أثراً فرجعت إليه وأعلمته بالخبر، وهو مع هذا كله لا يعرفني بنفسه ولا يعرف من أنا، فقال لي: علام تعزم؟ فقلت: عزمت على التوجه إلى بغداد. قال: إن القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج.

فقلت له: إنك قد تفضلت علي هذه المدة، لك علي عهد الله إنني لا أنسى لك هذا الفضل ولأوفينك مهما استطعت.

قال: فدعا بغلام أسود وقال له: أنعل الفرس الفلاني، ثم جهز آلة السفر فقلت في نفسي: ما أشك أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة له أو ناحية من النواحي. فأقاموا يومهم ذلك في كد وتعب، فلما كان يوم خروج القافلة جاء في السحر، فقال: يا فلان! قم، فإن القافلة تخرج الساعة، وأكره أن تنفرد عنها.

فقلت في نفسي: كيف اصنع وليس معي ما أتزود به ولا ما أكتري به مركباً، ثم قمت، فإذا هو وامراته يحملان بقجة من أفر اللباس وخفين جديدين وآلة السفر، ثم جاءني بسيف ومنطقة فشدهما في وسطي، ثم قدم لي غلاماً وعلى كتفه صرتان وفوقهما مرتبة السفر وسجادة من أفر ما يكون، وأعلمني بما في الصرتين أنه خمسة آلاف درهم، وشد لي الفرس الذي أنعله بسرجه ولجامه، وقال لي: اركب، وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك، وأقبل هو وامراته يعتذران إلي من التقصير في أمري وركب معي من يشيعني، وانصرفت إلى بغداد، وأنا أتوقع خبره لأفي بعهدي له في مجازاته ومكافاته، واشتغلت مع أمير المؤمنين فلم أقدر أن أتفرغ إلى أن أرسل إليه من يكشف خبره، فلهذا أسأل عنه.

فلما سمع الرجل الحديث قال: قد أمكنك الله من الوفاء له ومكافاته على فعله ومجازاته على صنعه بلا كلفة عليك ولا مونة تلزمك.

فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أنا ذلك الرجل، وإنما الضر الذي أنا فيه قد غير عليك حالي وما كنت تعرفه مني، ثم لم يزل يذكر لي تفاصيل الأسباب حتى أثبت معرفته، فما تماكنت أن قمت وقبلت رأسه، ثم قلت له: فما الذي صيرك إلى ما أرى؟ قال: هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التي كانت في أيامك فنسبت إلي، وبعث أمير المؤمنين بجيوش فضبطوا البلد فأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت، وقيدت وبعث بي إلى أمير المؤمنين وأمرني عنده عظيم، وهو قاتلي لا محالة، وقد أخرجت من عند أهلي بلا وصية، وقد تبغني من

ينصرف إليهم بخبري، وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لي أن ترسل من يحضره لي حتى أوصيه بما أريد، فإن أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأة وقمت بوفاء عهذك.

قال العباس: فقلت يصنع الله خيراً.

ثم أحضر حداداً في الليل وفك قيوده، وزال ما كان عليه من الإنكال، وأدخله حمام داره، وألبسه من الثياب ما احتاج إليه، ثم سير من أحضر إليه غلامه، فلما رآه جعل يبكي ويوصيه، فاستدعى العباس نائبه وقال: علي بفرسي الفلاني والبغل الفلاني والبغلة الفلانية حتى عد عشرة، ثم عشرة من الصناديق، ومن الكسوة كذا وكذا.

قال ذلك الرجل: وأحضر لي بدرة فيها عشرة آلاف درهم وكيساً فيه خمسة آلاف دينار، وقال لعامله في الشرطة: خذ هذا الرجل وشيعة إلى حد الأنبار. فقال له: إن ذنبي عظيم عند أمير المؤمنين وخطبي جسيم، وإن أنت احتجيت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كل من على بابه فأرادوا قتلي. فقال: انج بنفسك ودعني أدبر أمري.

فقال: والله لا أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجت إلى حضوري حضرت.

فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمر على ما يكون، فليكن في موضع كذا وكذا، فإن أنا سلمت في غداة غد أعلمته، وإن أنا قتلت وقيته بنفسي كما وقاني بنفسه، وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم، وتجتهد في إخراجه من بغداد.

قال الرجل: فأخذني صاحب الشرطة وصيرني في مكان يثق به، وتفرغ العباس لنفسه وتحنط وجهه له كفناً.

قال العباس: فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا وأرسل المأمون في طلبي يقولون: يقول لك أمير المؤمنين: هات الرجل معك وقم.

قال: فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين وإذا هو جالس وعليه كآبة، فقال: أين الرجل؟ فسكت، فقال: ويحك أين الرجل؟ فسكت، فقال ويحك أين الرجل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين اسمع مني ما أقول.

فقال: لله علي عهد، لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقه.

فقلت لا والله، يا أمير المؤمنين إنه ما هرب، ولكن اسمع حديثي معه كيت وكيت، وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته أنني أريد أن أفي له وأكافئه على ما فعله معي، وقلت: أنا وسيدي ومولاي أمير المؤمنين بين أمرين: إما

أن يصفح عني، وقد وفيت وكافأت، وإما أن يقتلني فأقيه بنفسي وقد تحنطت، وها كفني يا أمير المؤمنين.

فلما سمع المأمون الحديث قال: ويحك، لا جزاك الله خيراً عن نفسك، إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة، وتكافئه بعد المعرفة والعهد بهذا لا غير؟ هلا عرفتني خبره، فكنت أكافئه عنك ولا أقصر بوفائي له؟ فقلت: يا أمير المؤمنين إنه ههنا، وقد حلف أنه لا يبرح حتى يعرف سلامتي، فإن احتجت إلى حضوره حضر.

فقال المأمون: وهذه منة أعظم من الأولى، اذهب الآن فطيب نفسه وسكن روعه وائتني به حتى أتولى مكافأته عنك.

قال: فأتيت إليه وقلت: ليزل عنك حزنك، إن أمير المؤمنين قال كيت وكيت. فقال: الحمد لله الذي لا يحمد على السراء والضراء أحد سواه. ثم قام فصلى ركعتين، ثم أتيت به إلى أمير المؤمنين، فلما مثل بين يديه أقبل عليه وأدنى مجلسه وحدثه حتى حضر الغداء وأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفى عنها، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها، وعشرة بغال بالآتها، وعشر بدر، وعشرة آلاف دينار، وعشرة ممالك بدوابهم، وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به، وأطلق خراجها، وأمر بمكاتبته بأحوال دمشق، فصارت كتبه تصل إلى المأمون وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لي: يا عباس هذا كتاب صديقك، والله أعلم⁽⁹⁰⁾.

المأمون وزنبيل بوران

ويحكى عن إسحاق الموصلي أنه قال: خرجت ليلة من عند المأمون متوجهاً إلى بيتي، فأحسست بالبول، فعمدت لزقاق، وقمت لأتمسح بالحيطان، وإذا بزنبيل كبير بأربعة آذان ملبس ديباجاً، فقلت: إن لهذا سبباً وبقيت متحيراً في أمره، فحملني السكر وقال لي: اجلس فيه، فجلست، فلما أحس بي الذين كانوا يرقبونه جذبوه إلى رأس الحائط، فإذا أنا بأربع جوار يقتلن لي: انزل بالرحب والسعة ومشيت بين يدي جارية بشمعة حتى نزلت إلى دار ومجالس مفروشة لم أر مثلها إلا في دار الخلافة فجلست، فما شعرت بعد ساعة إلا بستور قد رفعت في ناحية من الجدران، وإذا بوصائف يتمشين وفي أيديهن الشمع وبعض مجامر يحرق فيهن العود وبينهن جارية كأنها البدر الطالع، فنهضت وقالت: مرحباً بك من زائر وجلست، ثم سألتني عن خبري فقلت:

انصرفت من عند بعض إخواني وغرني الوقت وحرقتني البول، فعمدت إلى هذا الزقاق، فوجدت زنبيلاً معلقاً، فحملني السكر على أن جلست فيه، فإن كان خطأ فالنبيذ أكسبنيه.

قالت: لا ضير، وأرجو أن تحمد عاقبة أمرك، ثم قالت: فما صناعتك؟ قال: بزاراً ببغداد.

فقالت: هل رويت من الأشعار شيئاً؟ قلت: شيئاً ضعيفاً. قالت: فذاكرنا شيئاً.

قلت: إن للداخل حشمة، ولكن تبدئين أنت.

قالت: صدقت، فأنشدتني شعراً لجماعة من القدماء والمحدثين من أجود أقاويلهم، وأنا مستمع لا أدري مم أعجب من حسن روايتها؟ ثم قالت: أذهب ما كان فيك من الحصر؟ قلت: إي والله.

قالت: فإن رأيت أن تنشدنا.

فأنشدتها شيئاً لجماعة من القدماء ما فيه مقنع، فاستحسننت ذلك، ثم قالت: والله ما ظننت أنه يوجد في أبناء السوق هذا، ثم أمرت بالطعام فأحضر، فجعلت تقطع وتضع قدامي، وفي المجلس من صنوف الرياحين وغريب الفواكه ما لا يكون إلا عند السلطان، ودعت بالشراب، فشربت قدحاً، ثم ناولتني قدحاً، ثم قالت هذا أوان المذاكرة والأخبار، فاندفعت أذاكرها وقلت: بلغني أن كذا وكذا، وكان رجل يقال له كذا، حتى أتيت على عدة أخبار حسان، فسرت بذلك وقالت: كثر تعجبي أن يكون أحد من التجار يحفظ مثل هذا، وإنما هذه أحاديث ملوك.

فقلت: كان لي جار يحادث الملوك وينادهم، وإذا تعطلت حضرت معه فربما حدثت بما سمعت.

فقالت: لعمرى، لقد أحسنت الحفظ وما هذه إلا قريحة جيدة.

وأخذنا في المذاكرة، إذا سكت ابتدأت هي، وإذا سكتت ابتدأت أنا حتى قطعنا أكثر الليل وبخور العود يعبق، وأنا في حالة لو توهمها المأمون لطار شوقاً إليها، فقالت: إنك من أرف الرجال، وضيء الوجه بارع في الأدب وما بقي إلا شيء واحد؟ قلت: وما هو؟ قالت: لو كنت تترنم ببعض الأشعار؟ قلت: والله لقديماً كنت ألفته ولم أرزقه وأعرضت عنه، وفي قلبي من حرارة، ولو كنت أحب في مثل هذا المجلس شيئاً منه لتكمل ليلتي.

قالت: كأنك عرضت.

فقلت: والله ما هو تعريض قد بدأت بالفضل، وأنت جديرة بذلك.

فأمرت بعود فحضر، وغنت بصوت ما سمعت بحسنه مع حسن أدبها وجودة الضرب بالكمال الراجح، ثم قالت: هل تعرف هذا الصوت ومن غنى به؟ قلت: لا.

قالت: الشعر لفلان والغناء لإسحاق.

قلت: وإسحاق هذا جعلت فداك بهذه الصفة؟ قالت: بخ بخ! إسحاق بارع في هذا الشأن.

فقلت: سبحان الله أعطي هذا الرجل ما لم يعطه أحد؟ قالت: فكيف لو سمعت هذا الصوت منه.

ثم لم تزل على ذلك حتى إذا كان الفجر أقبلت عجوزٌ كأنها داية لها، وقالت: إن الوقت قد حضر، فنهضت عند قولها، فقالت: لتستر ما كنا فيه فإن المجالس بالأمانات.

قلت: جعلت فداك لم أكن أحتاج إلى وصية في ذلك.

فودعتها، وجارية بني يدي إلى باب الدار ففتح لي فخرجت ورحت إلى داري، فصليت الصبح ونمت، فانتهى رسول المأمون غلي فسرت إليه وأقمت عنده نهاري، فلما كان العشاء تفكرت في ما كنت فهي البارحة، وهذا شيء لا يصبر عليه إلا جاهل، فخرجت وجئت إلى الزنبيل، فوجدته على عادته، فجلست فيه ورفعت إلى موضع البارحة، وإذا هي قد طلعت، فقالت: لقد عاودت.

فقل: ولا أظن إلا أنني قد ثقلت.

وأخذنا في المحادثة مثل تلك الليلة السالفة في المذاكرة والمناشدة وغريب الغناء منها إلى الفجر. فانصرفت إلى منزلي، فصليت الصبح، ونمت. فانتهى رسول أمير المؤمنين غلي فمضيت إليه وأقمت نهاري عنده، فلما كانت العشية توجه إلي مخاطباً، وقال: أقسمت عليك لتجلسن حتى أجيء وأحضر، فما كان حتى أن غاب وجالت وساوسي، فلما تذكرت ما كنت فيه هان علي ما يخصني من أمير المؤمنين، فوثبت مبادراً وخرجت جارياً حتى أتيت الزنبيل، فجلست فهي فرفعت إلى مجلسي، فقالت: صديقنا.

قلت: إي والله.

قالت: أ جعلتها دار إقامة؟ قلت: جعلت فداك حق الضيافة ثلاثة أيام، فإن

رجعت بعد ذلك، فأنتم في حل من دمي.

ثم جلسنا على ذلك الحال فلما قرب الوقت علمت بأن المأمون لا بد أن يسألني، فلا يقطع إلا بشرح القصة فقلت: أنا أراك ممن يعجب بالغناء ولي ابن

عم أحسن مني وجهاً، وأظرف قدأ وأكثر أدباً وأطيب أرجأ، وهو أعرف خلق الله بغناء إسحاق.

فقالت: طفيلي وتقترح.

قلت: لها: أنت المحكمة.

قم قالت: إن كان ابن عمك على ما تصف فما نكره معرفته.

ثم جاء الوقت فنهضت وقمت وذهبت، فلم أصل إلى داري إلا ورسل أمير المأمون قد هجموا علي وحملوني حملاً عنيفاً فوجدته قاعداً على كرسي وهو مغتاظ فقال: يا إسحاق، أخرجاً عن الطاعة؟ قلت: لا والله.

قال: فما قصتك أصدقني؟ قلت: نعم في خلوة.

فأوماً إلى من بين يديه فتنحوا، فحدثته الحديث وقلت له: وعدتها بك.

قال: أحسنت فأخذنا في لذتنا ذلك اليوم، والمأمون معلق القلب بها، فما صدقنا أن جاء الوقت وسرنا، وأنا أوصيه وأقول له: تجنب واحذر أن تنادينني باسمي بحضرتها، وغن وأنا لك تبع وهو يقول: نعم، ثم سرنا إلى الزنبيل فوجدناهما اثنتين، فقعدنا فيهما ورفعنا إلى الموضع المعهود، فحضرت وأقبلت وسلمت، فلما رآها المأمون بهت في حسننها وجمالها وأخذت تذاكره وتناشده الأشعار، ثم أحضرت النبيذ فشربنا، وهي مقبلة عليه مسرورة به، وهو أكثر، فأخذت العود وغنت صوتاً، ثم قالت: وابن عمك هذا من التجار، وأشارت إلي.

قلت: نعم.

قال: والله إنكما لقريبان.

فلما شرب المأمون ثلاثة أرطال داخله الفرح والطرب، فصاح وقال: يا

إسحاق! قلت: لبيك يا أمير المؤمنين.

قال: عن هذا الصوت؟ فلما علمت أنه الخليفة نهضت إلى مكان فدخلته، فلما فرغت من الصوت قال: انظر من رب هذه الدار؟ فبادرت العجوز وقالت:

للحسن بن سهل.

فقال: علي به.

فغابت العجوز ساعة، وإذا الحسن قد حضر.

فقال له المأمون: ألك ابنة؟ قال: نعم.

قال: ما اسمها؟ قال: بوران.

قال: أمتزوجة؟ قال: لا والله.

قال: فإني أخطبها منك.

قال: هي جاريتك وأمرها إليك.
قال: قد تزوجتها على نقد ثلاثين ألفاً، تحمل إليك صبيحة يومنا هذا، فإذا قبضت المال فاحملها إلينا من ليلتنا.
قال: نعم. ثم خرجنا فقال: يا إسحاق لا توفق على هذا الحديث أحداً.
فسترته إلى أن مات المأمون فما اجتمع لأحد مثل ما اجتمع لي في تلك الأربعة أيام مجالسة المأمون بالنهار وبوران بالليل، ووالله ما رأيت أحداً من الرجال مثل المأمون ولا شاهدت امرأة تقارب بوران فهماً وعقلاً والله تعالى أعلم، انتهى من حلية الكميته. (91)

المأمون والفتاة العربية

عن أبي عبد الله النميري أنه قال: كنت يوماً مع المأمون، وكان بالكوفة، فركبت للصيد ومعه سرية من العسكر، فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة فأطلق عنان فرسه وكان على سابق من الخيل، فأشرف على نهر من ماء بحر الفرات، فإذا هو بجارية عربية خماسية القد، قائمة النهد، كأنها القمر ليلة تمامه، ويدها قريبة قد ملأتها من النهر، ورفعتها على كتفها، وصعدت من حافة النهر، فاتحل وكأوها، فصاحت برفيع صوتها: يا أبت! أدرك فاهها، قد غلبني فوها، لا طاقة لي فيها.
قال: فعجب المأمون من فصاحتها ورمت القرية من يدها، فقال لها المأمون: يا جارية من أي العرب أنت؟ فقالت: أنا من بني كلاب.
قال: وما حملك أن تكوني من الكلاب؟ قالت: والله لست من الكلاب وإنما أنا من قوم كرام غير لئام، يقرون الضيف، ويضربون بالسيف، ثم قالت: يا فتى من أي الناس أنت؟ قال: أوعندك علم بالأنساب؟ قالت: نعم.
قال: أنا من مضر الحمراء.
قالت: من أي مضر؟ قال: من أكرمها نسباً وأعظمها حسباً وخيرها أمأ وأباً، مما تهابه مضر وتخشاه.
قالت: أظنك من كنانة؟ قال: أنا من كنانة.
قالت: من أي كنانة؟ قال: من أكرمها مولداً وأشرفها محتداً وأطولها في المكرمات يداً، ممن تهابه كنانة وتخشاه.
قالت: والله أنت من بني هاشم؟ قال: أنا من بني هاشم.
قالت: من أي هاشم؟ قال: من أعلاها منزلة وأشرفها قبيلةً ممن تهابه هاشم وتخشاه.

قال: فعند ذلك قبلت الأرض وقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين.

قال: فتعجب المأمون منها وطرب طرباً شديداً، ثم قال: لأتزوجن بها لأنها من أكبر الغنائم، ووقف حتى التحق به العسكر، فنزل وأرسل خلف أبيها وخطبها منه، فزوجه بها، وهي والددة العباس، والله أعلم⁽⁹²⁾.

أخلاق المأمون

من محاسن الأخلاق، ما حكي عن القاضي يحيى بن أكثم قال: كنت نائماً ذات ليلة عند المأمون، فعطش، فامتنع أن يصيح لغلام يسقيه، وأنا نائم فينقص علي نومي، فرأيته وقد قام يتمشى على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء، وكان بينه وبين الماء نحو ثلاثمائة خطوة، ثم رجع يتمشى على أطراف أصابعه حتى وصل إلى الفراش الذي أنا عليه، وخطا خطوات لطيفة لئلا ينبهني حتى وصل إلى فراشه، ثم رأيته آخر الليل، وقد قام يبول، فقعد طويلاً يحاول أن أتحرك فيصيح للغلام، فلما تحركت وثب قائماً وصاح بالغلام وتأهب للصلاة ثم جاءني وقال: كيف أصبحت يا أبا محمد، وكيف مبيتك؟ قلت: بخير مبيت جعلني الله فداك.

قال: لقد استيقظت للصلاة، فكرهت أن أصيح للغلام فأزعجك. فقلت: يا أمير المؤمنين، لقد خصك الله بأخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ووهب لك سيرتهم، فهناك الله بهذه النعمة، وأتمها عليك. فأمر لي بألف دينار وانصرفت.

حلم المأمون

وحدث سليمان الوراق قال: ما رأيت أعظم حُلماً من المأمون، دخلت عليه يوماً وفي يده فص مستطيل من ياقوت أحمر له شعاع قد أضاء له المجلس، وهو يقلبه بيده ويستحسنه، ثم دعا برجل صائغ وقال له: اصنع بهذا الفص كذا وكذا ونزل فيه كذا وكذا، وعرفه كيف يعمل به، فأخذ الصائغ وانصرف ثم عدت إلى المأمون بعد ثلاث فتذكره فاستدعى الصائغ، فأتي به، وهو يرعد وقد امتقع لونه. فقال المأمون: ما فعلت بالفص؟ فتلجلج الرجل ولم ينطق بكلام، ففهم المأمون بالفراسة أنه حصل فيه خلل، فولى وجهه عنه، حتى سكن جأشه، ثم التفت إليه وأعاد القول. فقال: الأمان يا أمير المؤمنين. قال: لك الأمان.

فأخرج الفص أربع قطع وقال: يا أمير المؤمنين، سقط من يدي على السندال فصار كما ترى.

فقال المأمون: لا بأس عليك، صنع به أربع خواتم، والطف له في الكلام حتى ظننت أنه كان يشتهي الفص على أربع قطع. فلما خرج الرجل من عنده، قال: أتدرون كم قيمة هذا الفص؟ قلنا: لا، قل: اشتراه الرشيد بمائة ألف وعشرين ألفاً، انتهى⁽⁹³⁾.

ومن حلمه أيضاً. قال يحيى: كنت أنا والمأمون يوماً في بستان ندور فيه فمشينا في البستان من أوله إلى آخره، وكنت مما يلي الشمس والمأمون مما يلي الظل، فكان يجذبني أن أكون في الظل وهو في الشمس، فأمتنع من ذلك، فإذا رجعنا قال لي: والله يا يحيى لتكونن في مكاني ولأكونن في مكانك، حتى أخذ نصيبي من الشمس كما أخذت نصيبك منها.

فقلت: والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك من هول المطلاع لفعلت. ولم يزل بي حتى تحولت إلى الظل وتحول هو إلى الشمس، ووضع يده على عاتقي وقال: بحياتي عليك إلا ما وضعت يدك على عاتقي مثل ما فعلت، فإنه لا خير في صحبة من لا ينصف. ومن حلمه أيضاً، أنه كان له خادم يسرق طاساته التي يتوضأ فيها فقال له المأمون: إذا سرقت شيئاً فانتني بما تسرقه، فأشترته منك.

فقال له الخادم: اشتر مني هذه، وأشار إلى التي بين يديه. فقال: بكم.

قال: بدينارين.

قال: على شرط أنك لا تسرقها.

قال: نعم.

فأعطاه دينارين، فلم يعد الخادم يسرق بعدها شيئاً لما رأى من حلمه، والله أعلم.

الطفلي الأديب والمأمون

وروى بعض أهل الأدب أن فتى من أهل الكوفة قد فاق أهل زمانه في الأدب والبيان والفصاحة باللسان ناقداً في صناعته، حافظاً للأقدار، راوياً للأشعار، خبيراً بسير الملوك في الأيام السالفة، بصيراً بالبحث عن أمورهم في الأيام الآنفة، حاذقاً في التصنيف، فائقاً في التأليف، صبيح الوجه، مقبول المشاهد، حلو الشمائل، وكان مع ذلك لا يتوجه له وجه من العمل إلا عارضه فيه

عائق، وحال دونه حائل وقدر سابق، فبقي حيناً من الدهر، وقد برز في القدر والمال والجاه من كان عنده في الصناعة متأخراً، فضاق صدره وعيل صبره وضلت ومقاليد، فخرج إلى بغداد واكترى في بعض خاناتها منزلاً وأجمع رأيته على أن يحمل نفسه على خطب هائل ليكون فيه هلكه أو ملكه، وتربص لذلك أن يرى وجهاً إلى أن عزم أمير المؤمنين أن يشرب يوماً هو وصنوه المعتصم، فأمر المأمون بالاستعداد ليوم سماه ليخلو فيه مع الجواري، منفردين عن سائر الندماء، فظهر خبرهما بذلك. وعرف الناس ذلك اليوم الذي عزم عليه، فعزم هذا الأديب المذكور على أن يتطفل في ذلك على المأمون وأخيه المعتصم، فمضى إلى إخوانه وأصدقائه فاستعار من هذا قباء وجبة وردية، ومن آخر منطقة وخفاً وسيفاً، ومن آخر برذوناً، ومن آخر ما يحتاج إليه من الطيب واستعد لذلك اليوم، ودخل الحمام سحراً، وتطيب، ولبس وركب عند طلوع الشمس إلى دار المعتصم وقال للحاجب: عرف الأمير أنني رسول أمير المؤمنين واستأذن لي عليه. فسعى الحاجب عدواً حتى أخبر المعتصم، فأذن له. فلما دخل عليه، وتمثل بين يديه، قال له: سيدي إن أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول لك: أنسيت الوعد، ألم يقدم إليك بالركوب لنخلو ونستريح يوماً هذا؟ قال المعتصم: لا والله ما نسيت ذلك، ولكن تربصت ساعة. ونمت نوماً لا تقوى بذلك على انتصاب سائر النهار.

فقال الفتى: فعجل الآن أيها الأمير، فإنه أمرني أن لا أفارقك حتى آتية بك. فأمر المعتصم بإسراج مركوبه وأسرع في التأهب، ولبس ثيابه وتطيب وركب الفتى معه، والمعتصم لا ينكر شيئاً من كلام الفتى ويتأمل لطافته وهيئته، ولم يتوهم إلا أنه من بعض خواص المأمون، وأخذ الفتى يحدث المعتصم وأقبل عليه بكليته، ولم يتمكن من سؤاله شهوة لاستماع حديثه، حتى بلغ باب الخليفة فألقى الفتى نفسه عن دابته، وأخذ يمشي بين يديه، والحجاب لا ينكرون منه شيئاً ويظنون أنه من خدم المعتصم، حتى نزل المعتصم، وأخذ الفتى بركابه، ودخل المجلس، فلما استقر المعتصم في مجلسه جلس الفتى بين يديه، وهو منهمك في نوادره وأخباره والمعتصم مصغٍ إليه تعجباً مما يسمع من حسن كلامه، وأخبر المأمون أن المعتصم قد وصل ومعه رقيق لا يعرف من هو.

فقال المأمون: أخي قد عرف أن هذا المجلس اتفقنا عليه لا ينبغي أن يحضره أحد من الناس إلا من هو عدل النفس. وقد أحسن أخي إذ جعل لنا ثالثاً، فإن

المجلس إذا لم يحضره أكثر من اثنين تعطل لقيام أحدهما إلى الصلاة وإلى ما لا بد منه، ثم خرج من ساعته فرحاً وليس له همة إلا تصفح وجه الغلام واستنطاقه واعتبار قده وعقله، فلما استقر على سرير ملكه والفتى عالم بما وقع في نفس المأمون نهض قائماً فقبل يد المأمون، وعاد إلى مجلسه وأخذ في نوادره وحديثه ومضحكاته وحسن أخباره وغرائب أشعاره كأنه يغرف من بحر، وهو مع ذلك يوهم المأمون أنه من خواص المعتصم. فساعة يكنيه وساعة يسميه حتى غلب على قلب المأمون، وأظهر الحسد لأخيه في صحبة مثل هذا الغلام وكلامه، وأمر المأمون بإحضار المائدة، فنصبت بأنواع الطعام، فأكلوا وغسلوا أيديهم، ولمجلس الشراب انتقلوا، وأمر المأمون بإحضار الجواري من غير ستارة، فحضرن وأخذن في الغناء، فما من صوت يمر إلا والفتى عارف به، وبالغناء، ومتى قيل وفيمن قيل، فعز في عين المأمون حتى ملأ عينه، وتزايد حسده لأخيه في صحبة مثله فمس الفتى بولاً، ولم يجد للمدافعة سبيلاً، فقام وهو متيقن أنهما سيذكرانه، ويتواصفان أمره وحاله، إذا خلا المجلس، فما هو إلا أن غاب من بين أيديهما حتى قال المأمون لأخيه المعتصم يا أبا إسحاق من صاحبك هذا؟ فوالله ما رأيت رجلاً قط أكثر منه أدباً ولا أنظف هيئة ولا أشرف من شمائله. فقال المعتصم: والله ما أعلم من هو، وإنما جاءني مبكراً برسالة أمير المؤمنين.

فقال المأمون: سألتك بالله يا أخي أهو كذلك؟ فقال: إي والله الذي لا إله إلا هو.

فقال المأمون: طفيلي، ورب الكعبة، وغضب وأمر الجواري بالنهوض، فنهض وأقبل الفتى راجعاً فلما نظر إلى خلو المجلس من الجواري وإلى تغير وجه المأمون، وقف على رأس المجلس وأقبل بوجهه على المعتصم وقال: يا أبا إسحاق! كأي بك قد أخذت في نوع الزور والبهتان، وهذا المجلس من المجالس التي لا تحمل المزاح، وما هكذا وعدتني. ثم قل: والله يا أمير المؤمنين، ما بليت من أحد من الناس مثل ما بليت من هذا لأنه دائماً أبداً يعرضني لمثل هذا وأشباهه، ويغري بي ويوقعني في كل ورطة. ثم أقبل على المعتصم وقال: يا أبا إسحاق، سألتك بالله وبحق أمير المؤمنين إلا ما أعفيتني من ملاعبتك التي لا تحتمل وتؤدي إلى مؤاخضة أمير المؤمنين. ولم يزل يأتي بهذا وأمثاله حتى شك المأمون في أمره والتفت إلى أخيه المعتصم وقال: سألتك بالله يا أخي، بحياتي عليك إلا ما علمتني بحقيقة أمره؟

فقال المعتصم: يا أمير المؤمنين برئت من ذمة الله ورسوله ومن حياتك وولايتك إن كنت عرفه أو رأيته قط إلا في يومي هذا.
فقال الفتى: كذب والله يا أمير المؤمنين لقد كنت معه دهري الطويل وفي موضع كذا وكذا، وإن هذا فعله معي أبداً.
فضحك المأمون تعجباً، وقال: ادخل فدخل، وأمره بالجلوس فجلس، ثم قال لك الأمان إن صدقتني.

فصدقه الحديث على وجهه فأعجب من حسن منطقه ولطف مدخله ودقيق تصرفه وأمر بإعادة الجوارى إلى مجلسهن، فطربوا سائر يومهم. فقال له المأمون: أخبرني بأعجب ما لحقك في قدومك من الكوفة إلى بغداد واجعله نظماً ولا تكتم عني شيئاً.
فقال: نعم، ثم أنشأ يقول:

بينما أنا راقد في البيت مكتئب ... مفكر في حصول الكد والقوت
وليس في البيت لي شيء ألم به ... وبني من الجوع ما يدني إلى الموت
إذا بصوت بباب الدار أسمعه ... والأذن مصغية مني إلى الصوت
ناديت من ذا الذي أرجوه لي فرجاً؟ ... نادى: أنا فرج زن لي كرا البيت
فضحك المأمون حتى استلقى على فراشه، ثم ضرب برجله الأرض من شدة إعجابه وقال: ثم ماذا؟ قال: يا أمير المؤمنين فخرجت فإذا هو صاحب الخان يطالبني بالكراء، فوعده بأن يرجع إلي مرة أخرى، فمضى ومضيت على وجهي لا أعلم أين أتوجه، فسألت كل من لقيته من صديق لي كنت أستأنس به فخطر على بالي بيتان من الشعر في ذلك وهما.

غريب الدار ليس له صديق ... جميع سؤاله: أين الطريق؟
تعلق بالسؤال لكل شخص ... كما يتعلق الرجل الغريق
فأشرفت يا أمير المؤمنين علي جارية كأنها البدر ليلة كماله، وهي تقول:
ترفق يا غريب فكل حر ... يمر بحاله سعة وضيق
وكل ملمة إن أنت فيها ... صبرت لها أتيح لها طريق
ثم قالت: خذ هذه فادفع بها فافتك، فوالله ما هي إلا مؤاساة من قوت، ورمت إلى صدري بقرطاس، وإذا فيه عشرة دراهم، فرجعت من فوري، فوجدت صاحب الكراء قائماً على الباب، فدفعت إليه خمسة دراهم، واستعنت بالباقي إلى أن وقعت هذه القصة، وهذا الأمر الذي كلفني وحملني على ما فعلت وأنشأ يقول:

لم آتِ فعلاً غير مستحسن ... جهلاً بفعل الأحسن الأملح

لكنني في حالة أوجبت ... ضرورة إتيان مستقبح
فأعجب المأمون أمره واستحسنه وأمر له بمائة ألف درهم يصلح بها شأنه
وألحقه بمراتب الخاصة، ورفعت منزلته، وصار أقرب الناس إليه، وآخر
خارج من عنده وأول داخل إليه، وسمي طفيلي المعتصم، وأنشد للمأمون
يوماً يقول:

كانت لقلبي أهواء مفرقة ... فاستجمعت مذ رأتك العين أهوالي
تركت للناس دنياهم ودينهم ... شغلاً بذكرك عن ديني ودنيائي
وصار يحسدني من كنت أحسده ... وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي
فاستحسن المأمون الأبيات، وأمر بكتبتها على الستارة، وصار الفتى إذا حضر
يوم سرور المأمون لم يكن للمأمون هم إلا اقتراح هذه الأبيات إلى أن ينقضي
المجلس، ثم إن الفتى بعد أن حسنت حالته، أرسل إلى الدار التي أشرفت عليه
منها الجارية، فإذا هي لرجل من أهل بغداد من مباشريها، وقد مات ولم
يخلف ولداً سوى تلك الجارية، وما مات حتى تضعض حاله، فأعلم المأمون
بذلك، فمر بخطبتها للفتى ودفع المهر من عنده وصار الفتى والجارية في
نعمة عظيمة بقية عمرهما والله أعلم⁽⁹⁴⁾.

رقة قلب المأمون

وسرق شاب سرقة، فتي به إلى المأمون فأمر بقطع يده فتقدم لتقطع يديه
فأنشد الشاب يقول:

يدي، يا أمير المؤمنين، أعيذا ... بعفوك أن تلقى نكالا يشينها
فلا خير في الدنيا ولا راحة بها ... إذا ما شمالاً فارقتها يمينها
وكانت أم الشاب واقفة على رأسه، فبكت وقالت: يا أمير المؤمنين إنه ولدي
وواحد، ناشدتك الله إلا رحمتني وهدأت لوعتي وجدت بالعفو عمن استحق
العقوبة.

فقال المأمون: هذا حد من حدود الله تعالى.
فقالت: يا أمير المؤمنين! اجعل عفوك عن هذا الحد ذنباً من الذنوب التي
تستغفر منها.
فرق لها المأمون وعفا عنه.

المأمون ونذير الشؤم

قال: رأيت في بعض المجاميع بخط بعض العلماء الأكابر أن المأمون أشرف يوماً من قصره فرأى رجلاً قائماً وبيده فحمة، وهو يكتب بها على حائط قصره، فقال المأمون لبعض خدمه: اذهب إلى ذلك الرجل، فانظر ما كتب وائتني به.

فبادر الخادم إلى الرجل مسرعاً وقبض عليه، وقال: ما كتبت؟ فإذا هو قد كتب هذين البيتين:

يا قصر جمع فيك الشوم واللوم ... متى يعيش في أركانك اليوم
يوم يعيش فيك اليوم من فرحي ... أكون أول من ينعاك مرغوم
ثم إن الخادم قال له: أجب أمير المؤمنين.
فقال الرجل: سألتك بالله لا تذهب بي إليه.
فقال الخادم: لا بد من ذلك.

ثم ذهب به فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين وأعلم بما كتب قال له المأمون: ويلك، ما حملك على هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين! إنه لا يخفى عليك ما حواه قصرك هذا من خزائن الأموال والحلي والحلل والطعام والشراب والفرش والأواني والأمتعة والجواري والخدم وغير ذلك مما يقصر عنه وصفي ويعجز عنه فهمي. وإني يا أمير المؤمنين قد مررت عليه الآن، وأنا في غاية من الجوع والفاقة، فوقفت مفكراً في أمري وقلت في نفسي: هذا القصر عامر عال، وأنا جائع ولا فائدة لنا فيه، فلو كان خراباً ومررت به لم أعدم رخامة أو خشبة أو مسماراً أبيعه وأتقوت بثمنه أو ما علم أمير المؤمنين رعاه الله قول الشاعر:

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ ... نصيب ولا حظ تمنى زوالها
وما ذاك من بغض له، غير أنه ... يزجي سواها، فهو يهوى انتقالها
فقال المأمون: يا غلام، أعطه ألف درهم، ثم قال: هي لك في كل سنة ما دام قصرنا عامراً بأهله مسروراً في دولته.
وأنشدوا في معنى ذلك:

إذا كنت في أمر، فكن فيه محسناً ... فعما قليل أنت ماض وتاركه
فكم دحت الأيام أرباب دولة ... وقد ملكوا أضعاف ما أنت مالكه

المأمون ومدعي النبوة

ويحكى أنه تنبأ رجل في أيام المأمون، فقل ليحيى بن أكتم القاضي: يا يحيى امض بنا مستترين حتى ننظر إلى هذا المتنبي وإلى دعواه. فركبا في الليل مستترين ومعهما خادم حتى صارا إلى بابه وكان مستتراً بثوبه، فاستأذنا عليه فخرج إليهما، فقال: من أنتما؟ فقالا: رجلان يريدان أن يسلما على يدك.

قال: ادخلا. فدخلوا وجلس المأمون عن يمينه، يحيى عن يساره، فقال المأمون: إلى من بعثت؟ قال: إلى الناس كافة. قال: أفيوحي إليك، أم ترى في المنام، أم ينفث في قلبك؟ قال: بل أناجي وأكلم قال: ومن يأتيك؟ قال: جبريل. قال: فمتى كان عندك؟ قال: الساعة قبل أن تأتياني بساعة. قال: فما أوحى إليك؟ قال: أوحى إلي أنه سيدخل عليك رجلان فيجلس أحدهما عن يمينك، والآخر عن يسارك، والذي يجلس عن يسارك ألوط خلق الله تعالى.

فقال له المأمون: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، وكان يحيى يعزى إلى ما قاله عنه المتنبي.

أبو نواس والغلام الجميل والقاضي

دخل أبو نواس على القاضي يحيى بن أكتم ودخل معه غلام جميل الوجه. فقال الغلام: هذا مر علي وقبلني كرهاً. ففتن به القاضي، فأنشد يقول:

إذا كنت للتخميش والبوس كارهاً ... فلا تدخل الأسواق إلا منقبا
ولا تظهر الأصداغ منم تحت طرة ... وتشهر منها فوق خديك عقربا
فلما سمع الغلام، أنشأ يقول:

لقد كنت أرجو أن أرى العدل بيننا ... فأعقبني بعد الرجاء قنوط
متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها ... إذا كان قاضي المسلمين يلوط
المأمون ويحيى بن أكتم

يحكى أنه كان عند المأمون يوماً، فقال له المأمون وهو يعرض له باللواط: يا يحيى! من ذا الذي يقول:

قاضي يرى الحد في الزناء ولا يرى ... على من يلوط من بأس
فقال له: الذي يقول:

ما أرى الجور ينقضي، وعلى الأم؟ ... ة وال منكم بني العباس

سليب العقل لا الدين سكرة القاضي ابن أكتم

ويقال: إن المأمون شرب يوماً ومعه القاضي يحيى بن أكتم، فمال لساقى على القاضي حتى وقع سكران، فأمر المأمون أن يلقي عليه الورد والرياحين حتى يدفن فيها كأنه ميت، وصنع بيتين شعراً، وقال لمغنيته: خذي العود وغني على رأسه فغنت وقالت:

وناديته وهو حي لا حراك به ... مزمل في ثياب من رياحين
فقلت: قم! قال: رجلي لا تطاوعني ... فقلت: خذ! قال: كفي لا يوافيني
فاستيقظ يحيى لرنة العود والجارية تغني البيتين فقام، وقال:
يا سيدي وأمير الناس كلهم ... قد جار في حكمه من كان يسقيني
سقاني الراح لم يمزج سلافتها ... حتى بقيت سليب العقل لا الدين

إبراهيم بن المهدي والمأمون

قال الواقدي: كان إبراهيم بن المهدي ادعى لنفسه الخلافة بالري وأقام مالكةا سنة وأحد عشر شهراً واثنى عشر يوماً وله أخبار كثيرة.
فما حكاه قال: لما دخل المأمون الري في طلبني أثقل علي الطلب وجعل لمن دل علي وأتاه بي مائة ألف درهم، فخفت على نفسي، وتحيرت في أمري، فخرجت من داري وقت الظهر، وكان يوماً صائفاً، وما أدري أين أتوجه، فمررت بزقاق لا ينفذ، فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون، وخفت إن رجعت على أثري يعلموا بين فرأيت في صدر الزقاق عبداً أسود قائماً على باب داره، فتقدمت إليه، وقلت له: عندك موضع أقيم فيه ساعة من النهار؟ قال: نعم، وفتح الباب، فدخلت إلى بيت نظيف فيه حصر نظيفة وبسط ومخدات جلد، ثم إنه أغلق الباب علي ومضى، فخفت أن يكون سمع الجعالة في حقي، وأنه عرفني ومضى ليدلهم علي، فبقيت مثل الحبة في المقلاة قلقاً ميتاً من الخوف، فبينما أنا كذلك، إذ أقبل ومعه حمال حامل كل ما أحتاج إليه من لحم وخبز وقدر جديدة وجرة وكيزان جدد، ثم التفت إلي وقال: جعلني الله فداك! أنا رجل حجام، وأنا أعرف أنك تنفر مني لما أتولاه من معيشتي، فشأنك بما لم تقع عليه يدي.
وكان لي حاجة إلى الطعام فقمت وطبخت قدراً ما ظننت أني أكلت مثلها قدراً، فلما قضيت أربي، قال لي: هل لك أن تشرب شيئاً فإنه يسلي الهم ويزيل الغم، ويمهد للنفس الفرح؟ قلت: ما أكره ذلك، رغبة في مؤنسته.

فاتى بقطرميز جديد وأحضر لي نقلاً وفاكهة في أوان جدد من فخار، ثم قل بعد ذلك: إن أدنت لي، جعلت فداك أن أقعد بناحية منك وآتي بشراب فأشرب مسروراً بك.
فقلت: افعل.

ففعل وشرب ثلاثاً، ثم خل إلى خزانة له: فأخرج عوداً مصلحاً، ثم قال: يا سيدي ليس من قدرى أن أسألك أن تغني، ولكن قد وجب على مروءتك حرمتي، فإن رأيت أن تشرف عبدك بأن تغني لنفسك والعبد يسمع فافعل.
فقلت له: ومن أين لك أني أحسن الغناء؟ فقال متعجباً: سبحان الله! أنت أشهر من ذلك، أنت إبراهيم بن المهدي خليفتنا بالأمس الذي جعل المأمون لمن يدل عليك مائة ألف درهم.

فلما قال ذلك عظمت مروءته عندي، وعلمت أن نخوته أجل مما بذل، فتناولت العود فأصلحته، وقد مر بخاطري ذكر أهلي وولدي، فقلت: وعسى الذي أهدى ليوسف أهله ... وأعزه في السجن وهو غريب أن يستجيب لنا فيجمع شملنا ... فالله رب العالمين قريب فقال: يا سيدي اجعل ما تغنيه مما أقتضيك به.
قلت: نعم. فقال: غن لي:

إن الذي عقد الذي انعقدت به ... عقد المكاره، فهو يملك حلها فاصبر، فإن الله يعقب راحة ... فلعلها أن تتجلي، فلعلها فحسن عندي اقتراحه وشربتي، ثم قال لي: غن لي:
وراء مضيق الخوف متسع الأمن ... وأول مفروح به آخر الحزن فلا تيأسن فالله ملك يوسف ... خزائنه بعد الخلاص من السجن ففرح وشرب وشربت، وقال: غن لي:

إذا الحادثات بلغت النهى ... وكادت لهن تذوب المهج وحل البلاء وقل العزاء ... فعند التناهي يكون الفرج وغنيته وحسن في نفسي اقتضاؤه، وأنست به، واستظرفته، ثم قال: إن رأيت يا سيدي أن تأذن لي أن أغني ما خطر ببالي، وإن كنت من غير أهل الصناعة؟ فقلت: يكون ذلك زيادةً في أدبك ومروءتك.

فأخذ العود، ثم قال: دستور، ثم ضرب عليه، وغنى يقول:
شكونا إلى أحببنا طول ليلنا ... فقالوا لنا: ما أقصر الليل عندنا وذاك لأن النوم يغشى عيونهم ... سريعاً ولا يغشى لنا النوم أعينا إذا ما دنا الليل المضرب بذى الهوى ... جزعنا، وهم يستبشرون إذا دنا

فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما ... نلاقى لكانوا في المضاجع مثلنا
فقلت: والله ذهب عني كل ما كان عندي من الفرع وسألته أن يغني، فغنى
يقول:

تغيرنا أنا قليلٌ عديدنا ... فقلت لها: إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا ... عزيز، وجار الأكثرين ذليل
وإنا لقوم لا نرى الموت سبةً ... إذا ما رأته عامرٌ وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول
فوالله لقد أجاد وذهب عني كل ما كان من الفرع والجزع، واستأنست به
وأخذني من الطرب ما لا مزيد عليه، وعالجني النوم قبل أوانه فنمت، ولم
أستيقظ إلا بعد المغرب، وجال فكري في هذا الحجام وأدبه وظرفه، وكيف
غناؤه وأدبه وإرادته أن يسليني عما أنا فيه إشارة إلى تخصيصه بالوفاء
لضيفه ونصره لجاره، فقعدت وغسلت وجهي وبقظته، وأخذت خريطة كانت
صحبتني فيها دنانير ومصاغ لها قيمة فدفعتها إليه، وقلت له: أنت في وداعة
الله وحفظه فإني ماض عنك، وأسألك أن تصرف ما في هذه الخريطة في
بعض مهماتك، ولك عندي، إذا أمنت، المزيد، فأعادها علي مبادراً وقال: يا
سيدي! الصعلوك لا قيمة له عند أهل الرياسات، ويظنون فيه الظنون الرديئة،
أفأخذ على ما وهبني الله من قربك وحلولك في منزلي ثمناً؟ لا والله، فألححت
عليه، فأخذ موسى بيده وقال: والله إن راجعتني لأنحرن نفسي، فخشيت عليه
وأخذت الخريطة وأثقلني حملها، فلما انتهيت إلى باب الدار، قال: يا سيدي إن
هذا الموضع أخفى لك من غيره، وليس عندي في مؤنتك ثقلة، فأقم عندي
إلى أن يفرج الله عنك. فرجعت وسألته أن يكون منفقاً من تلك الخريطة فلم
يفعل، وكان كل يوم يفعل بي مثل ما فعل في اليوم الأول.
قال: فأقمت أياماً في أطيب عيش وأهنأه، ثم سئمت من الإقامة عنده وخشيت
الثقل عليه، فتركني ومضى يجدد لنا حالنا، فلبست ثيابي وتزينت بزي النساء
بالخف والنقاب، وخرجت. فلما صرت في الطريق داخلني من الخوف والفرع
أمر شديد ومشيت لأعبر الجسر، وإذا هو قد رش، ورجل قائم فأبصرني
بعض من كان في خدمتي من الجند فتعلق بين وقال: طلبة أمير المؤمنين،
فدفعته في صدره فوقع في الزلق وصار عبرة وتبادر الناس إليه فاجتهدت في
المشي حتى قطعت الجسر، ودخلت زقاقاً فوجدت باباً وامرأة واقفة فيه،
فقلت: يا سيدة النساء، احقتي دمي فإني رجل خائف.

فقلت: ادخل، فدخلت فأطلعتني إلى غرفة وفرشت لي وقدمت لي طعاماً.
وقالت: ليهذا روعك فإنه لا يعلم بك مخلوق، ولو أقمت سنة ما عليك بأس،
وإذا بالبواب يدق، فخرجت وفتحت الباب، فإذا هو صاحبي الذي دفعته على
الجسر، وهو مشدوخ الرأس ودمه يسيل على ثيابه، فقلت له ما دهاك؟ قال:
إن حديثي عجيب وأمرني غريب ظفرت بالفتى وانفلت من يدي.
قالت: وكيف؟ قال: إبراهيم بن المهدي لقيته فتعلقت به فدفعني فأصابني ما
ترين من حالي ولو حملته إلى أمير المؤمنين لأخذت منه مائة ألف درهم.
قال: فأخرجت له حرقاً وذروراً، وفرشت له بعد كبس جرحه فنام قليلاً
وطلعت وقالت لي: أظنك صاحب القصة؟ قلت: نعم.
فقلت لي: إني خائفة عليك، ثم جدت لي الكرامة وأقمت عندها ثلاثة أيام، ثم
قالت لي: إني خائفة عليك من هذا الرجل لئلا يطلع على أمرك فينم عليك فانج
بنفسك.

فسألتها إمهالي إلى الليل. فلما دخل لبست زي النساء وخرجت من عندها
وأيتت إلى بيت مولاة لنا، فلما رأني بكت وتوجعت وحمدت الله تعالى على
سلامتي وخرجت كأنه تريد كرامتي، فتوجهت للسوق مظهرة الاهتمام
للضيافة فظننت خيراً، فلم أشعر إلا بإبراهيم الموصلي بخيله ورجاله،
والمولاة معه حتى سلمتني إليه، فرأيت الموت عياناً، وحملت مثل ما أنا إلى
أمير المؤمنين، فجلس مجلساً عاماً، وأمر بإدخالي عليه، فلما مثلت بين يديه
سلمت عليه سلام الخلافة، فقال: لا سلمك الله، ولا حفظك ولا رعاك.
فقلت: يا أمير المؤمنين، إن ولي الثأر محكم في القصاص والعفو أقرب
للتقوى، ومن تناولته يد الأقدار ربما مد له من أسباب الرجاء ما يأمن معه
عادية الدهر، وقد جعلك الله فوق خلقه، وأصبح عفوك فوق كل ذي عفو، فإن
تأخذ فبحقك، وإن تعف فبفضل، وأنشدت أقول:
ذنبى إليك عظيموأنت أعظم منهفخذ بحقك أولاً
واصفح بحلمك عنهاإن لم أكن في فعاليمن الكرام فكنه

قال: فرفع رأسه إلي، فقلت مبتدراً:
أتيت ذنباً عظيماً ... وأنت للعفو أهل
فإن عفوت فمن ... وإن جزيت فعدل
قال: فرق المأمون واسترجع فرأيت روائح الرحمة في شمائله، ثم أقبل على
أخيه أبي إسحاق محمد المعتصم وابنه العباس وجميع من حضر من خصته،
وقال: ما ترون في أمره؟ فأشار الكل بقتلي، إلا أنهم اختلفوا في القتل، فقال

المأمون لأحمد بن أبي خالد: ما تقول يا أحمد؟ فقال: يا أمير المؤمنين! إن قتلته فقد وجدنا مثلك قتل مثله، وإن عفوت لم نجد مثلك في العفو. فنكس المأمون رأسه إلى الأرض وجعل يخط في الأرض بإصبعه، ثم رفع رأسه وقال:

قومي هموا قتلوا أميم أخي ... فإذا رميت يصيبني سهمي
ثم قال المأمون: لا بأس عليك يا عم.
فقلت: ذنبي يا أمير المؤمنين أعظم من أن أفوه معه بعذر، وعفوك أعظم من أن أنطق معه بشكر، ولكن أقول:

إن الذي خلق المكارم حازها ... في صلب آدم للإمام السابع
ملئت قلوب الناس منك مهابة ... وتظل تكلوهم بقلب خاشع
ما إن عصيتك والغواة تمدني ... أسبابها إلا بنية طائع
وعفوت عمن لم يكن عن مثله ... عفو، ولم يشفع إليك بشافع
ورحمت أشباحاً كأفراخ القطا ... وحنين والدّة بقلب جازع
فقال المأمون: لا تثريب اليوم عليك، قد عفوت عنك، ورددت عليك مالك وضياحك، فأنشدت أقول:

رددت مالي ولم تبخل علي به ... وقبل ردك مالي قد حقنت دمي
أمنت منك وقد خولتني نعماً ... نعم الحياتان من موت ومن عدم
فلو بذلت دمي أبغي رضاك به ... والمال حتى أسل النعل من قدمي
وإن جحدتك ما وليت من نعم ... إني إلى اللؤم أول منك بالكرم
فقال المأمون: إن من الكلام كلاماً كالدر، وهذا منه، وأمر لي بمالي وخلع علي، وقال: يا عم إن أبا إسحاق والعباس أشار بقتلك.
فقلت: إنهما نصحاك يا أمير المؤمنين، ولكن فعلت ما أنت أهله، ودفعت ما خفت أنا بما رجوت.

فقال المأمون: لقد مات حقدي بحياة عذرك، وقد عفوت عنك.
ثم سجد المأمون طويلاً، ثم رفع رأسه، ثم قال: يا عم أتدري لم سجدت؟ قلت له: شكراً لله تعالى على ما أوقعك علي وملكك إياي في ديك تفعل بي ما تشاء.
فقال: أخطأت! ولكن أشكر الله تعالى على ما ألهمني من العفو عنك من قبل نفسي، ثم قال: وأعظم من عفوي عنك أنني لم أجرك مرارة امتنان الشافعين، فحدثني بما كان من أمرك.

فشرحت له ما جرى لي مع الحجام والجندي وزوجته والمولاة التي أسلمتني، فأمر المأمون بإحضارها، وهي في دارها تنتظر الجائزة، فلما حضرت قال لها

المأمون: ما حملك على ما فعلت تسليمك إبراهيم مع إنعامه عليك؟ قالت: رغبة في المال.

قال هل لك من ولد أو زوج؟ قالت: لا، فأمر بضربها مائة سوط وأمر بتخليدها في السجن، ثم أحضر الجندي وامراته والحجام، فسأل الجندي عن السبب الذي حمله على ما فعل؟ قال: رغبة في المال. فقال: إنك أولى في أن تكون حجاماً من أن تكون خداماً، ووكل من يلزمه الجلوس في مكان الحجام، ليتعلم الحجامة، وأحسن إلى امرأته وجعلها قهرمانة قصره وقال: هذه امرأة أديبة تصلح للمهمات، وسلم للحجام دار الجندي وما فيها، وخلع عليه وأثبتته برزقه في الديوان، وزيادة ألف دينار في كل سنة، ولم يزل كذلك إلى أن مات، والله أعلم⁽⁹⁵⁾.

صيد الجواري

وعن محمد بن عبد الله التميمي، قال: حدثنا أحمد بن محمد الحريري قال: كان لحمنة بنت عبد الرحمن الهاشمي من الأموال ما لا يسعه الديوان، ولا تأكله النيران لكثرتة، وكانت أدب نساء بني هاشم وأفصحهن لساناً وأقولهن شعراً، فدخلت على المأمون يوماً، وكانت تحبه غاية الحب سرّاً، وكن المأمون جالساً في إيوان قد ابتدعه لنفسه لم يبتدعه أحد من الخلفاء قبله، وكان قد تأنق في بنائه، وكان فيه من كل صورة في البر والبحر ممثلة من الذهب والفضة، وقد فرش به بساط من الديباج الأصفر، وأسبل عليه ستوراً من الحرير الصيني، وقد أقام فيه أربعمائة وصيفة بقراطق الحرير، وقد لبسن الوشي بطرر وشعور وأصداغ، وهن بقدر واحد، لا تزيد الواحدة منهن على الأخرى، أقام مائتين عن يمينه ومائتين عن يساره، فقال: يا حمنة! هل كان لأبيك أو لبعلك أو لأحد من الخلفاء مثل هذا الإيوان مع فرشته، ومثل هؤلاء الجواري مع زينتهن؟ فقالت: يا أمير المؤمنين! متعك الله به وعمره بك، فلقد أوتيت ملكاً عظيماً تستأهله لترفحك وشرفك، فإن أحببت خادمك حمنة أجلسك في مجلس لم تجلس في مثله قط وأصادتك صيداً لم تصد مثله قط، وأسقتك شرباً لم تشرب مثله قط. وكان عنده يحيى بن أكثم، فقال لها: يا حمنة، قد أجبتك إلى ما سألتني، ولكن لا ينفعني ولا يهناك ذلك إلا بمشهد من يحيى بن أكثم، فإنه لا يطيب لي مجلس إلا به.

فقالت: نعم يا أمير المؤمنين، ثم ضربت يدها في جيبها، فأخرجت منه مخزنة من ذهب أحمر محشوة مسكاً أذفر، فدفعتها إلى يحيى، وقالت: يا يحيى، إن الأجير لا يعمل حتى يستوفي أجرته، وهذه أجرتك مني فكن مستحسناً لي أمير المؤمنين غداً عند الزوال، في المسير إلى منزل خادمته؟ فقال: حباً وكرامة. ثم خرجت من عنده فهيأت ما تحتاج إليه للمأمون وغيره، فلما كان من الغد جلس المأمون في مجلس السلام، فلما زالت الشمس وصارت في كبد السماء قال يحيى: يا أمير المؤمنين الحاجة التي عرضت عليك بالأمس. ففطن المأمون لذلك، وقام من مجلسه ولبس ثياب التجار، ولبس يحيى مثل ذلك، ودعا بحمارين مصريين بغاشيتين، وركباهما حتى أتيا دار حمنة، فدقا الباب دقاً خفيفاً، فسمعتة فأقبلت بنفسها، حتى فتحت الباب وأقبلت يمشيان جميعاً حتى انتهيا إلى بيت في بستان قد حمل على أربعة أعمدة من الرخام الأحمر المنقوش، وإذا في صدر البيت أربعة أسطر منقوشة بالدر وصنوف الجواهر وهي:

ما سرني أن فؤادي، ولا ... أن لساني بالمدام حلا

؟وأن لي ملك بني هاشمٍ يجبى إلى أولاً أولاً

إن لم أشاهدك أيا مالكي ... تأتي إلى بيتي كذا مقبلا

يا سائلي روعي بلا علة ... أنت المعافى، وأنا المبتلي

فقال المأمون: يا يحيى، ما ملك أحد من الخلفاء مثل هذا البيت.

وإذا فرشاه أرمني محفور منقوش باللآلي وإذا فوق الأرمني مطارح من الديباج الأخضر حشوها حواصل الريش، وفي البيت المسك والعنبر والكافور والصندل والزعفران والند والعود مصفوف في أواني الذهب والفضة، وهي تفوح منه روائح لا يدرى ما هي من طيبها، ثم أخرجتهما إلى أربعة ميادين فيها أنواع الرياحين حول البيت، فقالا: إن هذا إلا سحر يؤثر.

ثم دعت لهما بمائدة من الجزع اليماني قوائمها من قطعة واحدة، فوضت وقدمت عليها الألوان الغريبة، فقال المأمون: ما طعمت مثل هذا الطعام قط. ثم دعت بالطشت والإبريق فغسلا أيديهما، ثم أمرت بشراب فقدمت إليهما قناني الزجاج الشامية المرتفعة الصافية، والبلور، فيها شراب قد أتت عليه الأيام والأعوام، فهي تحكي الهواء لرقتها والياقوت لحرمتها والزنجبيل لحدثها، ووضعت بين أيديهما مع أقذاح وأنطال تشاكل ذلك، فقال المأمون: والله! ما رأيت مثل هذا قط.

ثم أخرجت جاريتين عليهما جباب الوشي الكوفي المنسوج بالذهب، وعلى رأسيهما مقانع رشيدية وتيجان من الذهب مكللة بالجواهر، فجلستا وفي حجرهما العيدان المبسوطة الموزونة، فحركتا الأوتار وغنتا بصوت شجي مليح، من أنواع الأغاني وغرائب الأصوات، فقال المأمون: هذه الجنة مما نرى فيها من غرائب الطيب والجوهر.

فقال يحيى: وقد بقي لنا يا أمير المؤمنين، شرط آخر.

فقال: وما هو يا يحيى؟ قال: الصيد، يا أمير المؤمنين.

قال: صدقت يا يحيى، ثم قال: يا حمنة، ما فعل الصيد؟ فقالت: قوما إليه.

فقام المأمون ويحيى حتى دخلا بستاناً لم ير مثله، وقد كانت زينت البستان بأحسن ما تقدر عليه، واتخذت فيه ألوان الطيور من الفاخت والقمرى والهزار والطواويس، فكانت الأطيوار تغني من رؤوس الأشجار، وتغرد بالسر والإجهار، وقد كانت زينت مائة جارية نواهد أبكار بطرر وشعور وخدود ومباسم ساطعات الأنوار، ترى كل واحدة منهن أبهى من صاحبته وأحسن، وعليهن من ألوان الثياب ما يعجز عنه الوصف، وفي وسطهن مناطق الذهب الأحمر، وتقدمت إليهن وقالت لهن: إذا رأيتن المأمون ويحيى، تعادين ما بين الأشجار. فلما دخل المأمون ويحيى لابستان، فعلمن ما كانت أمرتهن، فتضاعف السرور على المأمون، وأعجب بذلك عجباً شديداً، ثم قال ليحيى: هذا الصيد.

فقال: يا أمير المؤمنين! رأيك؟ فقال المأمون: لو كان لنا كلب لا صطدنا هؤلاء.

فقال يحيى: أنا كلبك، يا أمير المؤمنين.

فعد المأمون ويحيى فاصطادا منهن صبية، فقالت حمنة: سألتك بحق أجدادك إلا ما خلّيت عن الجوّاري لا لبخل أبخل بهن عليك، وقد فهمت المعنى فيه. وقد كانت حمنة تغار على المأمون فخلّى عن الجوّاري، وقال ليحيى: دونك والصيد إذن أنت محل.

فقال يحيى: لو كان لي كلب لاصطدت من هؤلاء.

فقال المأمون: أنا كلبك.

فضحك يحيى وضرب بقلنسوته الأرض، وعد خلفهن، فأخذ منهن خمسة فقالت حمنة: يا يحيى لك الخمسة ولا غيره لي عليك، وإنما أغار على المأمون لحاجتي إليه.

فقال يحيى: والله يا أمير المؤمنين، لقد رأيت الهوى الغالب في حماليق عينيها، ولا تتم لنا النعمة إلا بتزويجك إياها إن رأيت ذلك.
فقال المأمون: أنا بريء من رسول الله ﷺ ومنتف من جدي العباس إن ذهبت من البستان ولم أتزوجها، ثم قال: يا يحيى اخطب خطبة النكاح.
فخطب يحيى وأمهرها المأمون ألف ألف دينار، وأقطعها مائة من منتخبات الضياع، فحمدت حمدة الله سروراً بما ظفرت من تزويج المأمون إياها، وأمرت ليحيى عشرة آلاف دينار، ورجع المأمون إلى منزله وزفت إليه في تلك الليلة، فواقعها فحملت بالعباس ابنه، انتهى⁽⁹⁶⁾..

حيل الجواري

حكى أن المأمون كان مشغولاً بحب جارية يقال لها نسيم، وكانت ذات عقل وأدب وفضل وكمال، وكان لا يفارقها في الحضر ولا في السفر، ثم بعد ذلك مال إلى جارية أخرى أحسن منها، وأعرض عنها، فاغتمت ولم تجد حيلة في استعطافه، وكانت لها جارية رومية أحسن منها في العقل والأدب، وكتمت أمرها عن المأمون، فاتفق أن المأمون حصل له بعض ضعف، ففصد، فحصل له الشفاء، فجعل الناس يدخلون إليه بأصناف التحف والهدايا، فأهدت إليه نسيم الجارية المذكورة، ومعها جام بلور، وغطته بمنديل ديبقي مكتوب عليه بالذهب هذه الأبيات:

فصدت عرقاً تبتغي صحة ... ألبسك الله به العافية
فاشرب بهذا الجام يا سيدي ... مستمتعاً بهذه الجارية
واجعل لمن أهداكها زورة ... تحظى بها في الليلة الثانية
فأعجب المأمون ما رأى من الجام والجارية، ثم بعث لها يقول: نعم، وفي هذه الليلة، ثم رضي على نسيم وواصلها بعد ذلك⁽⁹⁷⁾.

المأمون وزبيدة أم الأمين

حكى أن المأمون مر يوماً على زبيدة أم الأمين، فرآها تحرك شفتيها بشيء لا يفهمه، فقال لها: يا أماء، أتعين علي لكوني قتلت ابنك وسلبته ملكه؟ قالت: لا والله يا أمير المؤمنين.

قال: فما الذي قتلته؟ قالت: يعفيني أمير المؤمنين.
فألح عليها وقال: لا بد أن تقوليه؟ قالت له: قلت، قبح الله اللجاجة.

⁹⁶ (إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 102-103)

⁹⁷ (إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 102-103)

قال: وكيف ذلك؟ قالت: لأنني لعبت يوماً مع أمير المؤمنين الرشيد بالشطرنج على الحكم والرضا، فغلبني، فأمرني أن أتجرد من أثوابي وأطوف القصر عريانة، فاستعفيت، وبذلت له أموالاً لا تحصى، فلم يعف عني. فتجردت من أثوابي وطففت القصر عريانة، وأنا حاقدة عليه، ثم عاودنا اللعب فغلبته فأمرته أن يذهب إلى المطبخ، فيطأ أقبح جارية وأشوهها خلقة فاستعفاني عن ذلك فلم أعفه، فنزل لي عن خراج مصر والعراق، أبيت وقلت: والله لتطأنها، فألححت عليه وأخذت بيده وجئت به إلى المطبخ، فلم أر جارية أقبح ولا أقدر ولا أشوه خلقة من أمك مراجل، فأمرته أن يطأها فوطئها فعلمت منه بك، فكنيت سبباً لقتل ولدي وسلبه ملكه.

فولى المأمون وهو يقول: قاتل الله اللجاجة، أي التي لج بها عليها حتى أخبرته بهذا الخبر، انتهى⁽⁹⁸⁾..

المأمون والشاعر

وأتى شاعر المأمون فقال: لقد قلت فيك شعراً، فقال: أنشدني. فقال: حياك رب الناس حياكا ... إذ بجمال الوجه رقاكا بغداد من نورك قد أشرقت ... وورق العود بجذواكا قال: فأطرق المأمون ساعة، وقال: يا أعرابي، وأنا قد قلت فيك شعراً، وأنشد يقول:

حياك ربُّ الناس حياكا ... إن الذي أملت أخطاكا
أتيت شخصاً قد خلا كيسه ... ولو حوى شيئاً لأعطاكا
فقال: يا أمير المؤمنين، الشعر بالشعر حرام، فاجعل بينهما شيئاً يستطاب. فضحك المأمون وأمر له بمال، انتهى.

إبراهيم بن المهدي وصاحبة المعصم

وروى ابن عامر الفهري عن أشياخه قال: أمر المأمون أن يحمل إليه من أهل البصرة عشرة رجال كانوا قد رموا عنده بالندقة، فحملوا إليه، فمر بهم طفيلي، فرآهم مجتمعين، فظن خيراً ومضى معهم إلى الساحل وقال: ما اجتمع هؤلاء إلا لوليمة، فأنسل ودخل الزورق وقال: لا شك إنها نزهة، فلم يكن إلا يسير، وقد قيد القوم، وقيد معهم. فعلم أنه وقع فيما لا طاقة له به، ورام الخلاص، فلم يقدر، وساروا إلى أن وصلوا بغداد وأدخلوا على المأمون، فاستدعى بهم بأسمائهم واحداً بعد واحد، وجعل يذكره بفعله وبقوله ويضرب عنقه، حتى لم يبق إلا الطفيلي، وفرغت العشرة فقال المأمون

للموكل: من هذا؟ فقال: لا أعلم يا أمير المؤمنين، غير أننا رأيناه معهم، فجئنا به.

فقال: يا أمير المؤمنين. امرأته طالقة إن كان يعرف من أحوالهم شيئاً، ولا يعرف غير لا غله إلا الله ومحمد رسول الله، وإنما رأيتهم مجتمعين، فظننت أنها وليمة يدعون إليها، فلحقت بهم.

فضحك المأمون وقال: أوقد بلغ من شؤم التطفل أن يحل بصاحبه هذا المحل؟ لقد سلم هذا الجاهل من القتل، ولكن يؤدب، حتى لا يعود إلى مثلها.

وكان إبراهيم بن المهدي حاضراً، فقال: يا أمير المؤمنين، هبه لي، وأنا أحدثك عن نفسي، فيما وقع لي في التطفل من العجب. فقال: وهبته لك، هات حديثك.

فقال: يا أمير المؤمنين خرجت متكرراً يوماً أنظر إلى سكك بغداد، فاستهوى بي الطرب والتفرج فانتهى بي المسير إلى موضع شملت فيه رائحة طعام وأبازير قد فاحت، وهفت نفسي إليها ووقفت، يا أمير المؤمنين، لا أقدر على المشي، فرفعت بصري، وإذا بشباك خلفه كف بمعصم ما رأيت أحسن منه، فبقيت حائراً، ونسيت رائحة الطعام، بذاك الكف، فأخذت في عمل الحيلة إلى الوصول إليها، فإذا بجانب المكان خياط، فسلمت عليه فرد علي السلام، فقلت: يا سيدي! لمن هذه الدار؟ فقال: لرجل من البزازين.

فقلت: ما اسمه؟ فقال: فلان.

قلت: هو ممن يشرب الخمر؟ قال: نعم، وأظن أن عنده اليوم أصحابه، تجار مثله.

فبينما نحن في الكلام إذ أقبل رجلان فقال لي: هذان ندماؤه.

فقلت له: ما اسمهما وما كنيتهما؟ فقال لي: فلان الفلاني وفلان الفلاني.

فحركت وراءهما رجلي، فلحقتهما فقلت: جعلت فداءكما، استبطأكما فلان

أعزه الله، ولم أزل معهما، حتى أتيت البيت، فدخلت ودخلا، فلما رأني صاحب البيت بينهما لم يشك في أنني معهما فرحب بي وأجلسني في أفضل الأماكن ثم جيء بالمائدة ونقلت إليها الألوان، فقلت في نفسي: هذه ألوان قد من الله

علي ببلوغ الغرض منها، بقي الكف والمعصم، ثم جيء بالماء فغسلنا أيدينا

ثم نقلنا إلى مجلس المنادمة، فإذا شكل مليح ما رأيت أحسن منه ولا أظرف،

ورأيت صاحب المكان يتلطف بي ويقبل علي لظنه أنني ضيف لأضيافه، وهم

على الحالة هذه إلى أن شربنا فخرجت علينا جارية كأنها غصن بان في غاية

الظرف وحسن الهيئة، فسلمت من غير خجل ولا احتشام، وجلست وأتي بعود
فجسته أحسن جس، وإذا هي حاذقة في الصناعة وغنت تقول:
توهمها فكري، فأصبح خدها ... وفيه مكان الوهم من نظري أثر
وصافحها كفي، فألم كفها ... فمن ضم كفي في أناملها عقر
فهيجت يا أمير المؤمنين بلبالي، فطربت لحسن شعرها وحذقها ثم غنت
تقول:

أشرت إليها: هل عرفت مودتي ... فردت بطرف العين أني على العهد
فجادت عن الإظهار عمداً بسرّها ... وحادت عن الإظهار أيضاً على عمد
فحسدتها يا أمير المؤمنين على حذاقتها وإصابتها معنى الشعر، فضحكت لما
أصابني من الطرب الذي لم أملك نفسي معه ثم غنت تقول:
أليس عجيباً أن بيتاً يضمننا ... وإياك لا نلهو ولا نتكلم
سوى أعين تبدي سرائر أنفس ... وتقطع أنفاس على النار تضرم
إشارة أفواه وغمز حواجب ... وتكسير أجفان وكف تسلم
فزاد حسدي لها يا أمير المؤمنين على حذاقتها وإصابتها معنى الشعر لأنها لم
تخرج عن المعنى وقلت: بقي عليك يا جارية شيء، فرمت العود من يدها،
وقالت: متى كنتم تحضرون الغناء مثل هذا؟ فندمت على ما كان مني ورأيت
القوم كأنهم قد أنكروا علي، فقلت في نفسي: فاتني جميع ما أملت،، وأحببت
أن أتلافى قضيتي فقلت: أثم عودٌ غير هذا؟ قالوا: نعم فأحضروا عوداً،
فأصلحت ما أردت إصلاحه ثم قلت:

ما للمنازل لا تجيب حزينا ... أصممن أم قد بالبلاء بلينا
فما أتممت شعري حتى وثبت الجارية إلي، وانكبت على يدي تقبلها وتقول:
المعذرة إليك يا سيدي، والله ما علمت مكانك، ولا سمعت بهذه الصناعة من
أحد، ثم زادوا إكرامي وطربوا غاية الطرب، فشربت عدة أقداح، ثم غنيتهم
أبياتاً فرأيت من طربهم شيئاً عظيماً حتى قلت إن أرواحهم، فارقت أبدانهم
فسكت عنهم ساعة، حتى تراجعوا إلى عقولهم فعنيتهم وقلت:

هذا محبك مطوياً على كمدّه ... وجداء، وأدمعه تجري على جسده
له يد تسأل الرحمن راحته ... مما به واليد الأخرى على كبده
يا من رأى كلفاً في حبه دنفاً ... كانت منيته في عينه ويده
قال: فجعلت الجارية تصيح وتقول: هذا والله الغناء والذي كنا فيه ليس
بشيء، وشرب القوم فلما جاءهم البسط، وأخذ المجلس منتهاه أمر صاحب
البيت عبيدٍ له أن يحفظا النديمين إلى منزلهما، وخلوت معه. فقال: والله يا

سيدي ذهب ما مضى من عمري باطلاً حيث لم أعرفك قبل يومي هذا فبالله يا مولاي من أنت؟

فجعلت أرد عليه، وهو يقول ويقسم علي حتى أعلمته من أنا على الحقيقة، فلما سمع ذلك قام تعالى قدميه وقال: ما عجبت أن تكون هذه المكارم إلا لمثلك، وقد أصابني من الدهر نعم لا أقوم بشكرها، ثم قال: أترى هذا يقظة أم مناماً، أقسمت أني لا أزال هذه الليلة قائماً إلى أن تأذن لي، فإني أحقر من أن أجالس الملوك.

فأقسمت عليه بأن يجلس ثم أخذ في الكلام وجعل يعرض علي السبب الذي أوجب حضوري عنده بالطف تعريض فأخبرته بأمرى على الحقيقة ولم أخف شيئاً، ثم قلت له: الطعام قد نلت منه بغيتي، وبقي الأمر الآخر، فوثب إلى باب القاعة، وقال: كل منكن تلبس أفخر ثيابها وتخرج علينا من المخدع، ثم استدعى بهن وجعل يقول: يا فلانة، وهن يخرجن واحدة بعد واحدة، وأنا لا أرى صاحبة الكف والمعصم إلى أن أتت أربعون امرأة. فقال: والله ما بقي إلا أختي، وها أنا مخرجها إليك. فقلت: افعل.

فقال: حباً وكرامة، ثم استدعاها فنزلت فرأيت يدها ومعصمها، فإذا هي التي رايتها، قلت: هذه الحاجة، فأمر غلمانها لوقته أن يأتوا بعشرة شهود، ثم قام وأخرج عشرين ألف درهم وألفاً أخرى، فلما حضروا قال لهم: هذا سيدي إبراهيم بن المهدي يخطب أختي فلانة، وأشهدكم أني قد زوجها له وأمهرتها عنه عشرين ألف درهم. فقلت: قبلت الزواج.

ثم دفع الألف التي كان خرجها لهم، فشكروا له ودعوا وانصرفوا. ثم قال: يا سيدي أمهد لك بعض البيوت، تنام مع أهلك.

فأعجبني ما كان من كرمه واستحييت أن أدخل بها في داره. فقلت له: بل اجعلها في عمارية واحملها إلى منزلي، فوحقك يا أمير المؤمنين لقد حمل معها من الفرش والأثاث ما ضاقت به بيوتنا، فأولدتها هذا الغلام القائم بين يديك، يا أمير المؤمنين.

فتعجب المأمون من كرم الرجل وقال: لله دره ما أكرمه، والله ما سمعت بمثله قط، ثم أطلق الطفيلي وأمر بإحضار الرجل واستنطقه، فأعجبه حسن منطقه وعقله وأدبه فصيره من جملة خواصه ومنادميه، والله أعلم⁽⁹⁹⁾.

الذكاء والفهم

ومما جاء في الذكاء والفهم ما حكي عن المأمون أنه غضب على عبد الله بن طاهر، وشاور أصحابه في الإيقاع به، وكان قد حضر في ذلك المجلس صديق له فكتب إليه كتاباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، يا موسى. فلما فضه ووجد ذلك تعجب وجعل يطيل النظر إليه ولا يفهم معناه، وكانت له جارية واقفة على رأسه فقالت له: يا سيدي، إني أفهم معنى هذا. فقال: وما هو؟ قالت: إنه أراد قوله تعالى: " يا موسى إن الملأ يأترون بك ليقتلوك " . وكان قد عزم على الحضور إلى المأمون، فثنى العزم عن ذلك واعتذر للمأمون في عدم الحضور فكان سبب سلامته.

وأحسن من ذلك ما ذكره ابن خلكان قال: إن بعض الملوك غضب على بعض عماله فأمر وزيره أن يكتب له كتاباً يشخصه به، وكان للوزير بالعامل عناية، فكتب إليه كتاباً وكتب في آخره، إن شاء الله تعالى. وجعل في صدر النون شدة. فعجب العامل كيف وقعت هذه الحركة من الوزير إذ من عادة الكتاب أن لا يشكلوا كتبهم، ففكر في ذلك فظهر له أنه أراد: إن الملأ يأترون بك ليقتلوك. فكشط الشدة وجعل مكانها ألفاً وختم الكتاب وأعادته. فلما وقف عليه الوزير سر بذلك وفهم أنه أراد: إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيه⁽¹⁰⁰⁾.

مجادلة المأمون للخراساني المرتد

ولما دخل عليه المرتد الخراساني وقد كان حمله من خراسان حتى وافى به العراق قال له المأمون

لأن أستحييك بحق احب الي من ان اقتلك بحق ولان اقبلك بالبراءة احب الي من ان أدفعك بالتهمة قد كنت مسلماً بعد ان كنت نصرانيا وكنت فيها أتيح وأيامك اطول فاستوحشت مما كنت به آنسا ثم لم تلبث ان رجعت عنا نافرا فخبرنا عن الشيء الذي اوحشك من الشيء الذي صار آنس لك من الفك القديم وأنسك الاول فان وجدت عندنا دواء دائك تعالجت به والمريض من الاطباء يحتاج الى المشاورة وان اخطأك الشفاء ونبا عن دائك الدواء كنت قد أعذرت ولم ترجع على نفسك بلائمة فان قتلناك بحكم الشريعة او ترجع انت في نفسك الى الاستبصار والثقة وتعلم انك لم تقصر في اجتهاد ولم تفرط في الدخول في باب الحزم قال المرتد اوحشني كثرة ما رأيت من الاختلاف فيكم قال المأمون لنا أختلافان أحدهما كالاختلاف في الأذان وتكبير الجنائز والاختلاف في التشهد وصلاة الاعياد وتكبير التشريق ووجوه القراءات

واختلاف وجوه الفتيا وما أشبه ذلك وليس هذا باختلاف إنما هو تخيير
وتوسعة وتخفيف من المحنة فمن أذن مثني وأقام مثني لم يؤثم ومن أذن
مثني وأقام فرادي لم يحوب لا يتعايرون ولا يتعايبون أنت ترى ذلك عيانا
وتشهد عليه تبياناً و الاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا
وتأويل الحديث عن نبينا مع إجماعنا على اصل التزيل واتفاقنا على عين
الخبر فان كان الذي أوحشك هذا حتى انكرت من اجله هذا الكتاب فقد ينبغي
ان يكون اللفظ بجميع التوراة والانجيل متفقا على تأويله كما يكون متفقا على
تنزيله ولا يكون بين جميع النصارى واليهود اختلاف في شيء من التأويلات
وينبغي لك ان لا ترجع الا الى لغة لا إختلاف في تأويل الفاظها ولو شاء الله
ان ينزل كتبه ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا يحتاج الى تفسير لفعل ولكنا
لم نر شيئا من الدين والدنيا دفع الينا على الكفاية ولو كان الامر كذلك
لسقطت البلوى والمحنة وذهبت المسابقة والمنافسة ولم يكن تفاضل وليس
على هذا بنى الله الدنيا

قال المرتد أشهد ان الله واحد لا ند له ولا ولد وان المسيح عبده وان محمدا
صادق وانك امير المؤمنين حقا

فأقبل المأمون على اصحابه فقال فروا عليه عرضه ولا تبزوه في يومه
ريثما يعتق إسلامه كيلا يقول عدوه انه أسلم رغبة ولا تنسوا بعد نصيبكم من
بره وتأنيسه ونصرته والعائدة عليه . . (101)

دفاع المأمون عن إيقاع الملوك بخاصتهم

قال احمد بن ابي داود قال لي المأمون لا يستطيع الناس ان ينصفوا الملوك
من وزرائهم ولا يستطيعون ان ينظروا بالعدل بين الملوك وحماتهم وكفاتهم
وبين صنائعهم وبطانتهم وذلك أنهم يرون ظاهر حرمة وخدمة واجتهاد
ونصيحة ويرون إيقاع الملوك بهم ظاهرا حتى لا يزال الرجل يقول ما أوقع
به الا رغبة في ماله او رغبة في بعض ما لا تجود النفوس به ولعل الحسد
والملاذ وشهوة الاستبدال اشتركت في ذلك وهناك خيانات في صلب الملك او
في بعض الحرم فلا يستطيع الملك ان يكشف للعامة موضع العورة في الملك
ولا ان يحتج لتلك العقوبة بما يستحق ذلك الذنب ولا يستطيع الملك ترك
عقابه لما في ذلك من الفساد على علمه بأن عذره غير مبسوط للعامة ولا
معروف عند أكثر الخاصة (102)

(101) ابن الجوزي ، البيان والتبيين ، ص 558

(102) ابن الجوزي ، البيان والتبيين ، ص 559

عند تشابه الأسماء

ومن حق الملك، إذا دخل عليه رجل، وكان اسم ذلك الرجل الداخل أحد صفات الملك، فسأله الملك عن اسمه، أن يكني عنه، ويجيب باسم أبيه؛ كما فعل سعيد بن مرة الكندي، حين أتى معاوية، فقال له: أنت سعيد؟ فقال: أمير المؤمنين السعيد، وأنا ابن مرة! وكما قال السيد بن أنس الأزدي، وقد سأله المأمون عن اسمه، فقال: أنت السيد؟ قال: أمير المؤمنين السيد، وأنا ابن أنس! (103).

فأجد الغنى

حدث عمرو بن سعيد بن سلم الباهلي، قال: كنت في حرس المأمون بخلوان حين قفل من خراسان أو حين قفل من العراق، - أبو علي يشك - قال القاضي: والصواب قفل من خراسان أو قفل إلى العراق، والقفل الرجوع لا ابتداء السفر، والمأمون رجع من خراسان إلى العراق، بعد قتل الأمين واستتباب الخلافة له، قال: فخرج لينظر إلى العسكر في بعض الليل، فعرفته ولم يعرفني فأغفلته، فجاء من ورائي حتى وضع يده على كتفي، فقال لي: من أنت: قال: عمرو عمرك الله، ابن سعيد أسعدك الله، ابن سلم سلمك الله، فقال: أنت الذي كنت تكلوننا في هذه الليلة؟ فقلت: الله يكلوك يا أمير المؤمنين، فأنشأ المأمون يقول:

إن أخاك الحق من يسعى معك
ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب زمان صدك
فرّق من جميعه ليجمعك

ثم قال: يا غلام! أعطه لكل بيت ألف دينار، فوددت أن تكون الأبيات طالت علي فأجد الغنى، فقلت: يا أمير المؤمنين وأزيدك بيتاً من عندي، فقال: هات، فقلت:

وإن غدوت ظالماً غدا معك
فقال: أعطه لهذا ألف دينار، فما برحت من موقفي حتى أخذت خمسة آلاف دينار. (104)

شعر يعزل قاضياً عن القضاء

حدثنا محمد بن الحسن بن زياد المقرئ، قال: أخبرنا مسبح بن حاتم، قال: أخبرني يعقوب بن إسرائيل، قال: أخبرني محمد بن علي بن أمية، قال: كنا بحضرة المأمون بدمشق فغنى علويه:

برئت من الإسلام إن كان ذا الذي ... أتاك به الواشون حقاً كما قالوا
ولكنهم لما رأوك سريعة ... إلي تواسوا بالنميمة واحتالوا

فقد صرت أدناً للوشاة سميعة ... ينالون من عرضي ولو شئت ما نالوا
فقال المأمون لعلويه: لمن هذا الشعر؟ قال: للقاضي، قال: أي قاض؟ قال: قاضي دمشق، فأقبل على أخيه المعتصم، فقال له: يا أبا إسحاق اعزله، قال: قد عزلته، قال: فليحضر الساعة، فأحضر شيخ خضيب ربعة من الرجال، فقال له المأمون من تكون؟ فنسب نفسه، فقال: تقول الشعر؟ قال: قد كنت أقوله، قال: يا علويه أنشده الشعر فأنشده، فقال: هذا شعرك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، ونساؤه طوالق وعبيده أحرار وماله في سبيل الله إن كان قال شعراً غلاماً منذ ثلاثين سنة وإلا في زهد أو معاتبة صديق، قال: يا أبا إسحاق اعزله، فما كنت لأولي الحكم بين المسلمين من يبدأ في هزله وجده بالبراءة من الإسلام، ثم قال: اسقوه، فأتي بقدر فيه شراب فأخذه بيده وهي ترعد، ثم قال: يا أمير المؤمنين! الله الله ما ذقته قط، قال: أفحرام هو؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، فقال المأمون: أولى لك بها، أي نجوت. ثم قال لعلويه: لا تقل برئت من الإسلام، ولكن قل:

حرمت منائي منك إن كان ذا الذي أتاك به الواشون حقاً كما قالوا
قال محمد بن الحسن المقرئ: هذا القاضي هو عمر بن أبي بكر الموصلي، روى عنه الزبير بن بكار وإبراهيم بن المنذر (105).

المأمون يترك جاريته الحبيبة إلى بلاد الروم

لما وصفت للمأمون جارية بكل ما توصف به امرأة من الكمال والجمال، فبعث في شرائها فأتى بها وقت خروجه إلى بلاد الروم، فلما هم بلبس درعه خطرت بباله فأمر فأخرجت إليه، فلما نظر إليها أعجب بها وأعجبت به، فقالت: ما هذا: قال: أريد الخروج إلى بلاد الروم. قالت: قتلتنني والله يا سيدي، وجرت دموعها على خدها كنظم اللؤلؤ، وأنشأت تقول:
سأدعو دعوة المضطر ربا ... يثيب على الدعاء ويستجيب
لعل الله أن يكفيك حرباً ... ويجمعنا كما تهوى القلوب

فضم المأمون إلى صدره وأنشأ متمثلاً يقول:
فيا حسنها يغسل الدمع كحلها ... وإذ هي تذري الدمع منها الأنامل
صبيحة قالت في العتاب قتلتني ... وقتلي بما قالت هناك تحاول
ثم قال لخادمه: يا مسرور احتفظ بها وأكرم محلها وأصلح لها كل ما تحتاج
إليه من المقاصير والخدم والجواري إلى وقت رجوعي، فلولاً ما قال الأخطل
حين يقول:

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم ... دون النساء ولو باتت بأطهار
ثم خرج فلم يزل يتعهدا ويصلح ما أمر به، فاعتلت الجارية علة شديدة
أشفق عليها منها وورد نعي المأمون، فلما بلغها ذلك تنفست الصعداء
وتوفيت، وكان مما قالت وهي تجود بنفسها:

إن الزمان سقانا من مرارته ... بعد الحلاوة أنفاساً فأروانا
أبدى لنا تارة فأضحكنا ... ثم انتثى تارة أخرى فأبكنا
إنا إلى الله فيما لا يزال لنا ... من القضاء ومن تلوين دنيانا
دنيا نراها ترينا من تصرفها ... ما لا يدوم مصافاةً وأحزاناً
ونحن فيها كأننا لا نزايلها ... للعيش أحيائنا يكون موتانا (106).

اعتذار بليغ لدى المأمون

حدثنا الحسين بن القاسم بن جعفر الكوكبي، قال: حدثنا أبو الفضل العباس بن
الفضل الربيعي، قال: حدثنا أبي وإبراهيم بن عيسى، قالوا: دخل محمد بن عبد
الملك بن صالح على المأمون - وقد كانت ضياعه حيزت وقبضت - فقال:
السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، محمد بن عبد الملك بين
يديك، سليل نعمتك، وابن دولتك، وغصن من أغصان دوحتك، أتأذن لي في
الكلام؟ قال: نعم.

فتكلم فقال: الحمد لله رب العالمين، ولا إله إلا الله رب العرش العظيم، وصلى
الله على ملائكته المقربين، وعلى محمد خاتم النبيين، ونستمح الله لحياطة ديننا
ودنيانا، ورعاية أقصانا وأدنانا ببقائك يا أمير المؤمنين، ونسأل الله أن يمد
في عمرك وفي أثرك من أعمارنا وآثارنا، وأن يقيك الأذى بأسماعنا
وأبصارنا، فإن الحق لا تغفو دياره، ولا يتهدم مساره، ولا ينبت حبله، ولا
يزول ظله، ما دمت ظل الله في رعيته، والأمين على عباده وبلاده.

يا أمير المؤمنين! هذا مقام العائد بظلك، الهارب إلى كنفك وفضلك، الفقير إلى رحمتك وعدلك، من تعاور الغوائب، وسهام المصائب، وكلب الدهر، وذهاب الوفر، وفي نظر أمير المؤمنين ما فرج كربة المكروب، وبرد غليل الملهوف. ثم إنه تقدم من رأى أمير المؤمنين في الضياع التي أفادناها نعم آبائه الطاهرين، ونوافل أسلافه الراشدين، ما الله ولي الخيرة فيه لأمر المؤمنين، وإن عبد الملك بن صالح قدم الجزيرة حين قدمها والحرب لاقح، والسيف مشهور، والشام قد نفل أديمه، وتحطمت قرونه، والسفياقي قد استعرت ناره، وكثرت أنصاره، ولبس للحرب لباسها، وأعد لها أحلاسها، وكلنا يومئذ في ثوب القلة والصغار، بين حرب دائرة رحاها، وفتنة تصرف بانيابها، فكأننا نهزة دواعيها، وغرض راميها، إذا ثارت عجاجة من عجاجها لم تنجل إلا عن شلو مأكول، أو دم مطلول، أو منزل مهدوم، أو مال مكلوم، أو قلب يجف، أو عين تذرف، أو حرمة حرى، أو طريدة ولهى، قد أتعس الله جدها، تهتف بسيدها أمير المؤمنين من تحت رجا الدهر، وكلكل الفقر، وتدعو الله بالباس الصبر، وإعداد النصر، فالحمد لله المتطول على أوليائك يا أمير المؤمنين، إعزاز نصرك، المبلغهم اليوم الذي كانوا يأملون، والأمد الأقصى الذي كانوا ينتظرون.

ثم إنني قمت هذا المقام متوسلاً إليك بآبائك الطاهرين، بالرشيد خير الهداة الراشدين، والمهدي ربيع السنين، والمنصور نكال الظالمين، ومحمد خير محمدين بعد خاتم النبيين والمرسلين، وبعلي زين العابدين، وبعبد الله ترجمان القرآن ولسان الدين، وبالعباس وارث سيد المرسلين، مزداناً إليك بالطاعة التي أفرغ الله عليها غصني، واحتكت بها سني، وسيط بها لحمي ودمي، متعوذاً من شماتة الأعداء، وحلول البلاء، ومقارنة الشدة بعد الرخاء. يا أمير المؤمنين! قد مضى جدك المنصور وعمك صالح بن علي وبينهما من الرضاع والنسب ما قد علم أمير المؤمنين، فكان ذلك له خصوصاً ولبني أبيه عموماً، فسبق به بني أبيه، وفات به أقربيه، وهو صاحب الجعدي الناجم في مصر، حين اجتث الله أصله، وأيبس فرعته، وصرعه مصرعه، وهو صاحب عبد الله بن علي حين دعا الشيطان أوليائه فأجابوه، ورفع لهم لواء الضلالة فاتبعوه. وهو صاحب عيسى بن موسى حين رمى الخلافة ببصره، وسما إليها بنظره، ومشى إليها البختري، ولبس لباس ولاية العهود، حتى أثبت الله الحق في نصابه، وأقره في قرابه.

يا أمير المؤمنين! الدهر ذو اغتيال، وقد تقلب بنا حالاً بعد حال، فليرحم أمير المؤمنين الصبية الصغار، والعجائز المحجوبات الكبار، واللاتي سقاهن الدهر كدرًا بعد صفو، ومرًا بعد حلو، وهنيئاً نعم آبائك اللاتي غدتنا صغاراً وكباراً، وشباباً وأمشاجاً في الأصلاب، ونطفاً في الأرحام، وقربنا بحيث قربنا الله منك في القرابة والرحم، فإن رقابنا قد ذلت لسخطك، وإن وجوهنا قد عنت لموجدتك، فأقلنا عثرة عاثرنا، وعلى الله الملي الجزاء، وإن الحق في يدك، فهب لنا ما قصرنا فيه من ترك الرمم البالية، للأمم الخالية، منا في طاعة آبائك، فقد مضوا متمسكين بأقوى وسائلها، معتصمين بأقوى حبالها، يوالون فيها البعيد الجنيب، وينادون فيها القريب الحبيب، على ذلك مضوا وبقينا حتى يرثنا الله عز وجل، وهو خير الوارثين.

يا أمير المؤمنين! إن الله عز وجل سهل بك الوعور، وجلى بك أن تجور، وملاً من خوفك القلوب والصدور، وجعل اسمك حبلاً كثيفاً، وجبلاً منيفاً، يردع بك الفاسق، ويقمع بك المنافق، فارتبط نعم الله عز وجل عنك بالعفو والإحسان، فإن كل إمام مسؤل عن رعيته، وإن النعم لا تنقطع بالمزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها.

يا أمير المؤمنين! إنه لا عفو أفضل من عفو إمامٍ قادرٍ على مذهبٍ عاثر، وقد قال الله عز وجل: " وليعفو وليصفحوا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم " .

حاط الله أمير المؤمنين بستره الضافي، وصنعه الكافي، ثم قال:

أمير المؤمنين أتاك ركبٌ ... لهم قربي وليس لهم بلاد
هم الصدر المقدم من قریش ... وأنت الرأس يتبعك العباد
فقد طابت لك الدنيا ولذت ... وأرجو أن يطيب لك المعاد
فقال المأمون: يفعل ذلك بمشيئة الله، وأسأله التوفيق في الرضا عنك، والإجابة إلى ما سألت، وأن يعقب ذلك محبوباً بمنه، وجميل عادته في مثله. وأمر برد ضياعه، وأحسن جائزته، وقضى حاجاته (107)..

معنى إذا سرقت فاسرق درة

قال أبو نصر محمد بن يحيى بن طاهر الخزاعي المروزي: سمعت عبد الله بن منصور بن طلحة، يقول: سمعت عمي عبد الله بن طاهر، يقول: سألتني المأمون أمير المؤمنين، فقال: يا أبا العباس! ما معنى إذا سرقت فاسرق درة، وإذا زנית فازن بحرة، فقلت: أويخبرني أمير المؤمنين، قال: ليس هذا حثاً

على الزنا، ولا على السرقة، ولكن إذا رمت الزنا من الحرة تعذر عليك، وإذا رمت السرقة للدرة تعذر عليك لأنها مصونة فلا تقدر عليها(108).

رجل يعاب من لا يصطنعه

قال أبو سهل الرازي: لما دخل المأمون بغداد تلقاه أهلها، فقال له رجل من الموالي: يا أمير المؤمنين! بارك الله لك في مقدمك، وزاد في نعمك، وشكرك عن رعيتك، فقد فقت من قبلك، وأتعبت من بعدك، وأياست أن يعتاض منك، لأنه لم يكن مثلك، ولا علم شبهك، أما فيمن مضى فلا يعرفونه، وأما فيمن بقي فلا يرتجونه، فهم بين دعاء لك، وثناء عليك، وتمسك بك، أخصب جانبك، واحلولى لهم ثوابك، وكرمت مقدرتك، وحسنت مبرتك، ولانت نظرتك، فجبرت الفقير، وفككت الأسير، وأنت كما قال الشاعر:
ما زلت للبذل للنوال وإط... لاق لعان بجرمه غلق
حتى تمنى البزاة أنهم... عندك أمسوا في القد والحلق
فقال المأمون: مثلك يعاب من لا يصطنعه، ويعر من يجهل قدره، فاعذرنى في سالفك، فإنك ستجدنا في مستأنفنا.

بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول

دخل المأمون ديوان الخراج فمر بغلام جميل على أذنه قلم فأعجبه ما رأى من حسنه، فقال: من أنت يا غلام؟ قال: الناشيء في دولتك وخريج أدبك يا أمير المؤمنين المتقلب في نعمتك، والمؤمل لخدمتك الحسن بن رجاء، فقال له المأمون: يا غلام بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول، ثم أمر أن يرفع عن مرتبته في الديوان، وأمر له بمائة ألف درهم(109).

خبر زيد بن موسى المعروف بالنار

قال زيد بن موسى بن جعفر: لما أدخلت على المأمون وبخني، ثم قال: اذهبوا به إلى أخيه أبي الحسن، فجيء بي إلى الرضا فتركت بين يديه ساعة واقفاً ثم رفع رأسه إلي، فقال: يا زيد سوءة لك، ما أنت قائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سفكت الدماء وأخفت السبيل، وأخذت المال من غير حله؟ لعلك غرك حديث حمقى أهل الكوفة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن فاطمة أحصنت فرجها فحرم الله زريتها على النار، ويلك! إنما هذا لمن خرج من بطنها الحسن والحسين فقط لا لي ولك، والله ما نالوا ذلك إلا بطاعة الله فإن

108 (المعافى بن زكريا ، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 179/1

109 (المعافى بن زكريا ، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 187/1

أردت أن تنال بمعصية الله تعالى ما نالوه بطاعة الله عز وجل إنك إذا لأكرم على الله عز وجل منهم(110)..

المأمون وكلب الجنة

حدث محمد بن عبد الرحمن، قال: حدثني بعض الهاشميين، قال: خرج المأمون يوماً من الرصافة يريد الشماسية فدونا من ركابه فسلمنا عليه وقبلنا يده، قال: وكان أمامي رجلٌ من الطالبين يلقب بكلب الجنة، وكان طيباً ظريفاً، فلما دنا من المأمون قبل يده، فقال له المأمون كالمسر إليه: كيف أنت يا كلب الجنة؟ قال: أما الدنانير والدراهم والزينة فلعمرو بن مسعدة وأبي عباد، وأما الطنز والتجمهر فلبنني هاشم، فرد المأمون كفه على فيه، وقال: ويلك كف لا تفضحني، قال: لا والله أوتضمن لي شيئاً تعجله لي، قال: العشية يأتيك رسولي، فأتاه عمرو بن مسعدة بثلاثين ألف درهم.

ويخرج بأسلحته لنصرة المأمون

وحدث عبد الباقي بن قانع، قال: ركب المأمون يوماً إلى المطبق وبلغ القواد ركوبه فتبعوه، قال: فكان كلب الجنة ممن ركب تلك العشية، قال: فبصر به المأمون وفي يده خشبةٌ من حطب الوقود، وفي اليد الأخرى لحافه، فقال: يا كلب الجنة؟ قال: نعم كلب الجنة بلغه ركوبك فجاء لنصرتك، والله ما وجدت سلاحاً إلا هذه المشقة من حطب البقال، ولا ترساً إلا لحافي هذا، وعياش بن القاسم في بيته ألف ترس وألف درع وألف سيف قائم غير مكترث فوصله بثلاثين ألفاً وجاء عياش يركض، فشتمه المأمون وناله بمكروه(111).

مكافأة قيمة على تصحيح كلمة من حديث شريف

حدث النضر بن شميل، قال: دخلت على أمير المؤمنين المأمون بمرور، وعلي أظمارٌ مترعبة، فقال: لي: يا نضر أَدْخُلْ على أمير المؤمنين في مثل هذه الثياب؟ فقلت: يا أمير المؤمنين إن حر مرو لا يدفع إلا بمثل هذه الأخلاق، قال: لا، ولكنك تتكشف، قال: فتجاذبنا الحديث، فقال المأمون: حدثني هشيم بن بشير، عن مجالد، عن الشعبي، عن ابن عباس، قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداً من عوز ". قلت: صدق قول أمير المؤمنين عن هشيم، حدثني عوف الأعرابي، عن الحسن، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداً من عوز " فكان المأمون متكاً

110 (المعافى بن زكريا ، الجليس الصالح والأنيس الناصح ، 188/1

111 (المعافى بن زكريا ، الجليس الصالح والأنيس الناصح ، 243/1

فاستوى جالساً، وقال: السداد لحنٌ يا نضر؟ قلت: نعم هاهنا، وإنما لحن هشيم وكان لحناً، فقال: مالفرق بينهما، قلت: السداد: القصد في السبيل، والسداد: البلغة وكل ما سددت به شيئاً فهو سداد، قال: أفترى العرب ذلك، قلت: نعم، هذا العرجي من ولد عثمان بن عفان يقول: أضاعوني وأي فتى أضاعوا ... ليوم كريهةٍ وسداد ثغر فاطرق المأمون ملياً ثم، قال: قبح الله من لا أدب له، ثم قال: أنشدني يا نضر أخلب بيت للعرب، قلت: قول ابن بيضٍ في الحكم بن مروان: تقول لي والعيون هاجعةٌ ... أقم علينا يوماً فلم أقم أي الوجوه انتجعت قلت لها: ... لأي وجه إلا إلى الحكم متى يقل حاجبا سرادقه ... هذا ابن بيضٍ بالباب، يبتسم قد كنت أسلمت قبل مقتبلاً ... هيهات أدخل أعطني سلمي قال القاضي: قوله: أسلمت مقتبلاً، معناه أسلفت وأخذت قبل قبيلاً يعني كفيلاً، ومن السلف من كره الرهن والقبيل في السلم، ومنهم من أجازره، وقال: استوثق من حقه، فقال المأمون: لله درك! فكأنما شق لك عن قلبي، أنشدني أنصف بيت قالتها العرب، قلت: قول ابن أبي عروبة المديني يا أمير المؤمنين:

إني وإن كان ابن عمي عاتباً ... لمزاحم من خلفه وورائه ومفيده نصري وإن كان امراً ... مترجراً في أرضه وسمائه وأكون والي سره وأصونه ... حتى يحيز إلى وقت أدائه وإذا الحوادث أجحفت بسوامه ... قرنت صحيحنا إلى جربائه وإذا أتى من وجهه بطريفةٍ ... لم أطلع فيما وراء خبائه وإذا ارتدى ثوباً جميلاً لم أقل ... ياليت أن علي حسن روائه فقال: أحسنت يا نضر، أنشدني الآن أفتع بيتاً للعرب، فأنشدته قول ابن عبدل:

إني امرؤٌ لم أزل وذاك من الله أديباً أعلم الأدبا أقيم بالدار ما اطمأنت بي الد ... ار وإن كنت نازحاً طرباً لا أجتوي خلة الصديق ولا ... أتبع نفسي شيئاً إذا ذهباً أطلب ما يطلب الكريم من الر ... زق بنفسي وأجمل الطلاب وأحلب الثرة الصفي ولا ... أجهد أخلاف غريب حلباً (112)

الرواية الأخرى

قال النضر بن شميل: دخلت على المأمون، وعلي أطمار أخلاق غسيل، فقال لي: يا نضر! تدخل علي في مثل هذه الأخلاق؟ ثم قال: نحمل منك هذا على التقشف، ثم تجاذبنا الحديث، فقال: المأمون: حدثنا هشيم بن بشير، عن مجالد، عن الشعبي، عن ابن عباس، قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها وكمالها كان فيه سداد من عوز " ، قال: فقلت: يا أمير المؤمنين: أخبرني عوف الأعرابي، عن الحسن، عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها وكمالها كان فيه سداد من عوز " وكان متكئاً، فجلس واستوى، وقال: يا نضر! السداد في هذا الموضع لحن؟ قلت: نعم، يا أمير المؤمنين، وإنما لحن هشيم، فقال لي: ما الفرق بين السداد والسداد، قلت: السداد: القصد في الدين والسبيل، والسداد: البلغة في الشيء أسد به الشيء، فقال: هل تعرف ذلك العرب؟ قلت: نعم، هذا العرجي من ولد عثمان بن عفان، يقول:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر
كأنني لم اكن فيهم وسيطاً ... ولم تك نسبتي في آل عمرو
فأطرق طويلاً ثم رفع رأسه، وقال: قبح الله من لا أدب له، ثم تجاذبا الحديث ثم قال: قبح الله اللحن، قلت: ما لحن أمير المؤمنين، وإنما لحن هشيم، وكان هشيم لحانة، فتبع أمير المؤمنين ألفاظه، قال: وكيف روايتك الشعر، قلت: قد رويت الكثير منه، قال: فأنشدني في أحسن ما قالت العرب في الحكم، فأنشدته:

إذا كان دوني من بليت بجهله ... أبيت لنفسي أن أقابل بالجهل
وإن كان مثلي في محلي من العلا ... هويت إذا حلماً وصفحاً عن المثل
وإن كنت أدنى منه في الفضل والحجا ... فإن له حق التقدم والفضل
قال: ما أحسن ما قال! فأنشدني أحسن ما قالت العرب في الحزم، فأنشدته:
على كل حال فاجعل الحزم عدة ... لما أنت باغيه وعونا على الدهر
فإن نلت أمراً نلت عن عزيمة ... وإن قصرت عنه الحقوق ففي عذر
فقال: ما أحسن ما قال! فأنشدني ما قالت العرب في إصلاح العدو، حتى يكون صديقاً فأنشدته:

وذي غيلة سالمته فقهرته ... فأوقرته مني بعبء التجمل
ومن لا يدافع سيئات عدوه ... بإحسانه لم يأخذ الطول من عل

ولم أر في الأشياء أسرع مهلكاً ... لضغنٍ قديمٍ من وادٍ معجل
قال: ما أحسن ما قال! فأنشدني أحسن ما قالت العرب في السكوت، فأنشدته:
إني ليهجرني الصديق تجنباً ... فأريه أن لهجره أسبابا
وأراه إن عاقبته أغريته ... فيكون تركي للعتاب عتابا
وإذا بليت بجاهلٍ متحكم ... يجد المحال من الأمور صوابا
أوليته منى السكوت وربما ... كان السكوت عن الجواب جوابا
ثم قال: ما مالك؟ قلت: أريضةٌ بمرور الرود أتمزرها، قال: أفلا نفيدك مالا؟
قلت: إن رأى أمير المؤمنين ذلك، فدعا بدواةٍ وقرطاسٍ وكتب، ولا أدري ما
كتب، ثم قال: إذا أردت أن تترب الكتاب كيف تأمر، قلت: يا غلام أترب
الكتاب، قال: فهو ماذا؟ قلت: متربٌ، قال: فمن السحاة، قلت: يا غلام أسح
الكتاب، قال: فهو ماذا؟ قلت: كتاب مسحى، قال: الطين، قلت: يا غلام طن
الكتاب، وأطن الكتاب، قال: فهو ماذا؟ قلت: مطينٌ ومطان، قال: يا غلام اترب
واسح وطن الكتاب، ثم قال امض إلى الفضل بن سهل بهذا الكتاب، فمضيت
فأوصلته، فقال: بم استأهلت أن يأمر لك بخمسين ألف درهم؟ فحدثته الحديث
على جهته، فقال: لحت أمير المؤمنين؟ قلت: ما لحن، وإنما لحن هشيم،
فتبع أمير المؤمنين ألفاظه، فأمر لي بأربعين ألفٍ أخرى من عنده، وانصرفت
بكلمة أفادوها بتسعين ألف درهم.

ثمامة وهو سكران ومحاورته للمأمون

قال الوليد بن عياش بن زفر، خرج ثمامة من منزل محمد بن نوح العمكري مع
المغرب وهو سكران، وإذا هو بالمأمون قد ركب في نفر، فلما رآه ثمامة عدل
عن طريقه، وبصر به المأمون فضرب كفل دابته وحاذاه، فوقف ثمامة فقال
له المأمون: ثمامة؟ قال: إي والله، قال: سكران؟ قال: لا والله، قال: أفتعرفني؟
قال: أي والله، قال: من أنا؟ قال: لا أدري والله، فضحك المأمون حتى تنثى
عليه عن دابته، ثم قال: عليك لعائن الله، قال: تنثرى يا أمير المؤمنين، قال:
فعاد في الضحك، وأمر له بخمسين ألف درهم. (113)

ابن أبي دواد يخرج عينا على المعتصم

حدث أبو العباس ابن الفرات قال: لما وجه المأمون بأبي إسحاق المعتصم إلى
مصر وعقد له من باب الأنبار إلى أقصى المغرب قال ليحيى بن أكتم: ينبغي
أن ترتاد لي رجلاً حصيلاً لبيباً له علم وأمانة وثقة أنفذه مع أبي إسحاق،
وأوليه المظالم في أعماله، وأتقدم إليه سراً بمكاتبتني سراً بأخباره وما تجري

عليه أموره، وبما يظهر ويبطن، وما يرى من أمر قواده وخاصته، وكيف تدبيره في الأموال وغيرها، فإني لست أثق بأحدٍ ممن يتولى البريد، وما أحب أن أجشمه بتقليد صاحب البريد عليه فيكون معتمدي عليه وتكون كتبه سرية إليك لتقرني إياها إذا وردت، فقال: يا أمير المؤمنين عندي رجل من أصحابي أثق بعقله ودينه ورأيه وأمانته وصدقه ونزاهته. فقال: جنني به في يوم كذا وكذا، فصار يحيى بن أكثم بأحمد بن أبي دوادٍ إلى المأمون في اليوم الذي حده له.

فكلمه المأمون فوجده فهماً راحجاً، فقال له: إني أريد إنفاذك مع أخي أبي إسحاق، وأريد أن تكتب بأخباره سراً، وتتفقد أحواله ومجاري أموره وتدبيراته وخبر خاصته وخلواته، وتنفذ كتبك بذلك إلى يحيى بن أكثم مع ثقاتك ومن تأمنه على دمك، فإني أشهر أمرك بتقليد المظالم في عسكره، وأتقدم إليه بمشورتك والأنس بك. فقال له أحمد: أبلغ لك يا أمير المؤمنين في ذلك فوق ما قدرته عندي وبني، وأنتهي إلى ما يرضي أمير المؤمنين ويزلف عنده. فجمع المأمون بين أحمد بن أبي دوادٍ وبين المعتصم وقال له: إنك تشخص في هذا العسكر وفيه أوباش الناس وجند وعجم وأخلاط من الرعية، ولا بد لعسكرك من صاحب مظالم يكون فيه لينظر في أمور الناس، وقد اخترت لك هذا الرجل فضمه إليك وأحسن صحبته وعشرته؛ فأخذه المعتصم معه، فلما بلغوا الأنبار وافت كتب أصحاب البريد بموافاة المعتصم الأنبار، فقال المأمون ليحيى: ترى ما كان من بغداد إلى الأنبار خبر يكتب به صاحبك إليك؟ قال فقال يحيى: لعله يا أمير المؤمنين لم يحدث خبر تحسن المكاتبه به؛ وكتب يحيى إلى أحمد يعنفه ويستبطنه ويخبره أن أمير المؤمنين قد أنكر تأخر كتابه. فلما ورد الكتاب على أحمد ووقف على ما فيه احتفظ به ولم يجب عنه؛ وشخص المعتصم حتى وافى الرحبة ولم يكتب أحمد بحرف واحدٍ من أخبار المعتصم التي تقدم إليه فيها. وكتب أصحاب البريد بموافاة المعتصم الرحبة وأخبار عسكره، فدعا المأمون يحيى بن أكثم فقال: يا أسخن الله عينك، عجبت أن تختار إلا من هذه سبيله، تختار لي ويحك رجلاً تصفه بكل الصفات فأتقدم إليه بما كنت حاضره، فلا يكتب من بغداد إلى أن يوافي الرحبة إليك كتاباً في معنى ما اعتمد عليه فيه؟! قال: فكتب يحيى إلى أحمد كتاباً أغلظ له المخاطبة وأسمعه فيه المكروه ويقول له: إنما أشخصناك لما تقدمنا به إليك، وإنا إنما أظهرنا تقليدك المظالم ليتيسر ما أمرت به، فما هذه الغفلة وما هذا الجهل بما يراد منك؟ فورد الكتاب على أحمد فقرأه واحتفظ به، وسار

المعتصم من الرحبة حتى وافى الرقة، فدعا المأمون بيحيى فقال له: يا سخين العين، هذا مقدار رأيك وعقلك؟ اللهم إلا أن تكون غررتني معتمداً، وأوطأتني العشوة قصداً أولاً فتجيبني برجل تعلم موقعه عندك وتطلعي على الوقوف عليه فتصفه وتقرظه حتى أودعته سراً من أسراري وأمراً أقدمه على كل أموري، فمضى من مدينة السلام إلى ديار مصر فلم يكتب يحرف مما أمر بالكتاب به؟! فقال: يا أمير المؤمنين من يعمل بغير ما يؤدي إلى محبتك ويقود إلى إرادتك فأذاقه الله بأسك، وألبسه نكالك، وصب عليه عذابك. وكتب إلى أحمد كتاباً يشتمل على كل إبعاد وإرهاب وتخويف وتحذير، وخاطبه بأوحش مخاطبة وأنكلها، فورد الكتاب على أحمد فقرأه واحتفظ به. وأمر المأمون عمرو بن مسعدة أن يكتب إلى أبي إسحاق المعتصم كتاباً يأمره فيه بالبعثة بأحمد بن أبي دواد مشدودة يده إلى عنقه، مثقلاً بالحديد، محمولاً على غير وطاء. فورد الكتاب على المعتصم، ودخل أحمد بن أبي دواد إليه وهو بالرقة ما جاوزها، فرأى المعتصم كئيباً مغموماً، فقال: أيها الأمير أراك متغيراً وأرى لونك حائلاً، فقال: نعم لكتاب ورد علي من أجلك، ونبذ إليه بالكتاب فقرأه أحمد، فقال له المعتصم: تعرف لك ذنباً يوجب ما كتب به أمير المؤمنين؟ قال: ما اجترمت ذنباً، إلا أن أمير المؤمنين لا يستحل هذا مني إلا بحجة، فما الذي عند الأمير فيما كتب به إليه؟ فقال: أمر أمير المؤمنين لا يخالف لكني أعفيك من الغل والحديد، أحملك إليه على حال لا توهنك ولا تؤلمك وأوجه بك مع غلام من غلماني أتقدم إليه في ترفيهك وأن لا يعسفك، فقال: جزاك الله أيها الأمير أفضل ما جازى منعماً، فإن رأى الأمير أن يأذن لي في المصير إلى منزلي ومعني من يراعيني إلى أن يردني إلى مجلس الأمير فيأمر بأمره فعل، فقال له: امض؛ ووجه معه خادماً من خدمه، فصار أحمد إلى منزله واستخرج الكتب الثلاثة التي كاتبه بها يحيى بن أكثم وهم بالأنبار، والكتاب الذي ورد وهم بالرحبة، والكتاب الذي ورد وهم بالرقة، ورجع إلى المعتصم فأقرأه الكتاب الأول ثم الثاني ثم الثالث وقال له: إنما بعثت لأكتب بأخبارك وأتفقد أحوالك وأكتب يحيى بذلك ليقرأه على أمير المؤمنين فخالفت ذلك لما رجوته من الحظوة عندك ولما أملت في غدك. فاستشاط المعتصم غضباً وكاد يخرج من ثيابه غيظاً وتكلم في يحيى بكل مكروه وتوعده بكل بلاء وقال: ويلي على البقار البليد السراويل، وقال لأحمد: يا هذا لقد رعيت لنا رعاية لم يتقدمها إحساننا إليك وحفظت علينا ما نرجو أن نتسع، لمكافأتك عليه ومعاذ الله أن أسلمك أو أفرج عنك أو تنالك يد

ولي قدرة على منعها منك ، أو أوتر خاصة وحميماً عليك ما امتد بي عمر أو تراخي بي أجل، فكن معي فأمرك نافذ في كل ما ينفذ فيه أمري؛ ولم يجب المأمون على كتابه، فلم يزل معه إلى أن ولي الخلافة وإلى أن ولي الواثق وإلى أيام المتوكل، فأوقع به. (114)

رؤيا المأمون وما قال أرسطاطاليس

حدث عبد الله بن طاهر قال: عجبني أمير المؤمنين من رؤيا رآها، فسألته عنها فذكر أنه رأى في منامه كأن رجلاً جلس مجلس الحكماء فقلت له: من أنت؟ قال: أنا أرسطاطاليس الحكيم، فقلت له: أيها الحليم ما أحسن الكلام؟ قال: ما يستقيم في الرأي قلت: ثم ماذا؟ قال: ما يستحسنه سامعه، قلت: ثم ماذا؟ قال: ما لا تخشى عاقبته، قلت: ثم ماذا؟ قال لا ثم. قال المأمون: لو كان حياً ما كان يتكلم بأكثر مما تكلم به (115).

المأمون والرجل المتحنط المتكفن

قال الحسن بن عبد الجبار المعروف بالعرق: بينما المأمون في بعض مغازيه يسير مفرداً عن أصحابه ومعه عجيف بن عنبسة إذ طلع رجلٌ متحنطٌ متكفنٌ، فلما عاينه المأمون وقف، ثم التفت إلى عجيف فقال: ويحك أما ترى صاحب الكفن مقبلاً يريدني، فقال له عجيف، أعيذك بالله يا أمير المؤمنين، قال: فما كذب الرجل أن وقف على المأمون، فقال له المأمون: من أردت يا صاحب الكفن وإلى من قصدت؟ قال: إياك أردت، قال: أو عرفتني؟ قال: لو لم أعرفك ما قصدتك، قال: أفلا سلّمت عليّ؟ قال: لا أرى السلام عليك، قال: ولم؟ قال: لإفسادك علينا الغزاة، قال عجيف: وأنا ألين مسّ سيفي لئلا يبطئ ضرب عنقه، إذ التفت المأمون فقال: يا عجيف إني جائعٌ ولا رأي لجائع، فخذهِ إليك حتّى أتغدى وأدعو به، قال: فتناوله عجيف فوضعه بين يديه، فلما صار المأمون إلى رحله دعا بالطعام، فلما وضع بين يديه أمر برفعه وقال: والله ما أسيغه حتّى أناظر خصمي، يا عجيف عليّ بصاحب الكفن، قال: فلما جلس بين يديه قال: هيه يا صاحب الكفن ماذا قلت؟ قال: قلت: لا أرى السلام عليك لإفسادك الغزاة علينا قال: بماذا أفسدتها؟ قال: باطلاقك الخمر تباع في عسكرك وقد حرّمها الله عزّ وجل في كتابه، فأبدأ بعسكرك فنظّفه، ثم اقصد الغزو، لماذا استحللت أن تبيح شيئاً قد حرّمه الله كهية ما أحلّ الله عزّ وجلّ؟ قال: أو عرفت الخمر أنها تباع ظاهراً أو رأيتها؟ قال: لو لم أرها وتصحّ

114 (المعافى بن زكريا ، الجليس الصالح والأنيس الناصح ، 282/1

115 (المعافى بن زكريا ، الجليس الصالح والأنيس الناصح ، 306/1

عندي ما وقفت هذا الموقف، قال: فشيء سوى الخمر أنكرته؟ قال: نعم،
إظهارك الجواري في العماريات، وكشفهن الشعور منهن بين أيدينا كأنهن
فلق الأقمار، خرج الرجل منا يريد أن يهراق دمه في سبيل الله ويعقر جواده
قاصداً نحو العدو، فإذا نظر إليهن أفسدن قلبه وركن إلى الدنيا وانصاع إليها،
فلم استحللت ذلك؟ قال: ما استحللت ذاك، وسأخبرك بالعذر فيه فإن كان
صواباً وإلا رجعت. نعم قال: شيء غير هذا أنكرته؟ قال: نعم شيء أمرت
به: تنهانا عن الأمر بالمعروف، قال: أما الذي يأمر بالمنكر فأني أنهاه وأما
الذي يأمر بالمعروف فأني أحثه على ذلك وأحدوه عليه. ثم قال: أفشيء سوى
ذلك؟ قال: لا، قال: يا صاحب الكفن أما الخمر فلعمري لقد حرّمها الله تعالى،
ولكن الخمر لا تعرف إلا بثلاث جوارح: النظر والشمّ والذوق، أفتشربها أنت؟
قال: معاذ الله أن أنكر ما أشرب، قال: أفيمكن في وقتك هذا أن تقفنا على
بيعها حتى نوجه معك من يشتري منها؟ قال: فمن يظهرها لي أو يبيعنيها
وعليّ هذا الكفن؟ قال: صدقت. قال: فكأنك إنما عرفتها بهاتين الجارحتين، يا
عجيف عليّ بقوارير فيها شراب. فانطلق عجيف فأتاه بعشرين قارورة
فوضعها بين يديه في أيدي عشرين وصيفاً، ثم قال: يا صاحب الكفن، نفيت
من آبائي الراشدين المهديين إن لم تكن الخمر فيها، فإنك تعلم أن الخمر من
ستر الله على عباده، وإنه لا يجوز لك أن تشهد على قوم مستورين إلا
بمعينة بيّنة وعلم، ولا يجوز لي أن آخذ إلا بمعينة بيّنة وشاهدي عدل.
قال: فنظر صاحب الكفن إلى القوارير، فقال له عجيف: أيها الرجل لو كنت
خماراً ما عرفت موضع الخمر بعينها من هذه القوارير، قال فقال له: هذه
الخمر بعينها من هذه القوارير، فأخذ المأمون قارورة فذاقها ثم قطّب ثم قال:
يا صاحب الكفن انظر هذه الخمر، فتناول الرجل القارورة فذاقها فإذا خلّ
ذابح، فقال: قد خرجت هذه عن حدّ الخمر، فقال المأمون: صدقت إن الخلّ
مصنوع من الخمر لا يكون خلاً حتى يكون خمرأ، ولا والله ما كانت هذه خمرأ
قطّ، وما هو إلا رمان حامض يعصر لي أصطبغ به من ساعته؛ قد سقطت
الجارحتان وبقي الشمّ، يا عجيف صيرها في رصاصيات وأت بها، قال: ففعل،
فعرضت على صاحب الكفن فشمّها فوقه فوق مشمه منها على قارورة فيها
لبىخبج فقال: هذه فأخذها المأمون فصبها بين يديه وقال: انظر إليها كأنها
طلا قد عقدتها النار، بل تقطع بالسكين، قد سقطت إحدى الثلاث التي أنكرت
يا صاحب الكفن، ثم رفع المأمون رأسه إلى السماء فقال: اللهم إني أتقرب
إليك بنهي هذا ونظرائه عن الأمر بالمعروف. يا صاحب الكفن أدخلك الأمر

بالمعروف في أعظم المنكر، شَنَعْتَ على قومٍ باعوا من هذا الخَلِّ ومن هذا النبيختج الذي شممت فلم تسلم. استغفر الله من ذنبك هذا العظيم وتب إليه. ما الثاني؟ قال: الجواري قال: صدقت، أخرجتهن أبقي عليك وعلى المسلمين، كرهت أن تراهنَّ عيون العدو والجواسيس في المعاريات والقباب، والسجوف عليهنَّ، فيتوهَّمون أنَّهنَّ بنات وأخوات فيجدون في قتالنا ويحرصون على الغلبة على ما في أيدينا حتَّى يجتذبوا خطام واحدٍ من هذه الإبل يستقيدونكم بكل طريق إلى أن يتبين لهم أنَّهنَّ إماء، فأمرت برفع الظلال عنهنَّ وكشف شعورهنَّ فعلم العدو أنَّهنَّ إماء نقي بهنَّ حوافر دوابنا لا قدر لهنَّ عندنا؛ هذا تدبير دبَّرت للمسلمين، ويعزُّ عليَّ أن ترى لي حرمة، فدع هذا فليس هو من شأنك فقد صحَّ عندك أنَّي في هذا مصيب وأنت أنكرت باطلاً. أي شيء الثالثة؟ قال: الأمر بالمعروف، قال: نعم رأيتك لو أنك أصبت فتاةً مع فتى قد اجتمعا في هذا الفجَّ على حديث ما كنت صانعاً بهما؟ قال: كنت أسألها ما أنتما، قال: كنت تسأل الرجل فيقول: امرأتي، وتسال المرأة فتقول: زوجي، ما كنت صانعاً بهما؟ قال: كنت أحول بينهما فأحبسهما، قال: حتَّى يكون ماذا؟ قال: حتَّى أسأل عنهما، قال: ومن تسأل عنهما؟ قال: كنت أسألها من أين أنتما، قال: سألت الرجل من أين أنت فقال لك: أنا من أسبيجاب، وسألت المرأة: من أين أنت؟ فقالت: من أسبيجاب، ابن عمِّي، تزوجنا وجئنا. كنت حابساً الرجل والمرأة بسؤالك وتوهمك الكاذب إلى أن يرجع الرسول من أسبيجاب فمات الرسول أو ماتا إلى أن يعود رسولك، قال: كنت أسأل في عسكري هاهنا، قال: فلعلَّك لا تصادف في عسكري هذا من أهل أسبيجاب إلَّا رجلاً أو رجلين فيقولان لك: لا نعرفهما على هذا النسب. يا صاحب الكفن ما أحسبك إلَّا أحد ثلاثة رجال إمَّا رجل مديون، وإمَّا مظلوم، وإمَّا رجل تأولت في حديث أبي سعيد الخدري في خطبة النبيِّ صلى الله عليه وعلى آله قال: وروي الحديث عن هشيم وغيره، ونحن نسمع الخطبة إلى مغربان الشمس إلى أن بلغ إلى قوله: " إن أفضل الجهاد كلمة حقٍّ عند سلطان جائر " فجعلتني جائراً، وأنت الجائر، وجعلت نفسك تقوم مقام الأمر بالمعروف، وقد ركبت من المنكر ما هو أعظم عليك، لا والله لا ضربتك سوطاً ولا زدت على تخرق كفئك، ونفيت من آبائي الراشدين المهديين لئن قام أحد مقامك هذا لا يقوم بالحجة فيه إن نقصته من ألف سوطٍ ولأمرنَّ بصلبه في الموضع الذي

يقوم فيه، قال: فنظرت إلى عجيف وهو يخرق كفن الرجل ويلقي عليه ثياب بياض. (116)

أبو الينبغي والمأمون

كان أبو الينبغي يحمق، وكان أحد الدواهي والمجان، وكان يتكسب بالحمق، فلما قتل محمد بن زبيدة وصار الأمر إلى المأمون ذكر له أبو الينبغي فأمر بإحضاره، فلما دخل عليه وسلم أمره بالجلوس فجلس، فقال له بعض الجلساء: قم فأنشد أمير المؤمنين، فاقبل: يا رقيع، أمير المؤمنين يقول لي: اجلس وأنت تقول لي قم. فقال المأمون: بل اجلس وأنشد، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، وأنشأ يقول:

كنتم أنتم ثلاثة ... كلكم نسل الملوك

ذهب الموت بواحد ... ما أرى ذاك يسوك

فقال المأمون: اغرب قبحك الله، وأمر به فأخرج، ثم قال: لا والله ما ينبغي أن نخيبه فقد قال على جنونه شبيهاً بالحق، ولا والله أعطوه عشرة آلاف فقبضها وانصرف. وهو يقول: شبيه بالحق، لا والله إلا الحق كله (117).

لا رأي لنا في الشرقة!

ولما ظفر المأمون بعمه إبراهيم بن المهدي قال لأحمد بن أبي خالد الكاتب: يا أحمد! ما تقول في هذا الرجل؟ فقال: يا أمير المؤمنين! إن تقتله فقد وجدت مثلك قتل مثله! وإن تعف عنه لم تجد مثلك عفا عن مثله! فقال المأمون: لا رأي لنا في الشرقة! وأمر بإطلاقه؛ وعفا عنه (118)

أحب إلي من جائزته

كتب محمد بن عمر الواقدي إلى المأمون رحمه الله يشكو غلبة الذين وضيق اليد فوق على كتابه: فيك خلتان الحياء والسخاء؛ فأما الحياء فهو الذي منعك أن ترفع إلينا خبرك؛ وأما السخاء فهو الذي أنفذ ما بيدك؛ وأنت كنت حدثتني وأنت على قضاء الرشيد رحمه الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للزبير: " يا زبير! إن باب الرزق بإزاء العرش ينزل الله على عباده على قدر نفقاتهم فمن كبر كبر له، ومن قلل قلل عليه " ، وقد أمرنا لك بمائة ألف

116 (المعافى بن زكريا ، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 1 / 411

117 (المعافى بن زكريا ، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 1 / 464

118 (ابن الحداد ، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس ، 1 / 24

درهم فأتسع في ذات يدك! فقال الواقدي: والله لمذاكرته إياي الحديث - وقد أنسيته أحب إلي من جائزته (119).

رد المظالم

عن قحطبة بن حميد قال: إني لواقف على رأس المأمون يوماً وقد جلس للمظالم، فكان آخر من تقدم إليه - وقد هم بالقيام - امرأة عليها هيئة السفر، وعليها ثياب رثة، فوقفت بين يديه فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فنظر المأمون إلى يحيى بن أكنم. فقال لها يحيى: وعليك السلام يا أمة الله، تكلمي بحاجتك. فقالت:

يا خير منتصف يهدي له الرشد ... ويا إماماً به قد أشرق البلد
تشكو إليك عميد القوم أرملة عدى عليها فلم يترك لها سبد
وابتز مني ضياعي بعد منعتها ... ظلما وفرق مني الأهل والولد
فأطرق المأمون حيناً، ثم رفع رأسه إليها وهو يقول:

في دون ما قلت زال الصبر والجلد ... عني وأقرح مني القلب والكبد
هذا أذان صلاة العصر فانصرفي ... وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد
فالمجلس السبت إن يقض الجلوس لناتنصفك منه وإلا المجلس الأحد
قال: فلما كان يوم الأحد جلس، فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة، فقالت:
السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال: وعليك السلام ثم
قال: أين الخصم؟ فقالت: الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين - وأومات إلى
العباس ابنه - فقال: يا أحمد بن أبي خالد، خذ بيده فأجلسه معها مجلس
الخصوم. فجعل كلامها يعلو كلام العباس. فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمة
الله، إنك بين يدي أمير المؤمنين، وإنك تكلمين الأمير، فاخفضي من صوتك.
فقال المأمون: دعها يا أحمد، فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه. ثم قضى لها
برد ضيعتها إليها، وظلم العباس بظلمه لها، وأمر بالكتاب لها إلى العامل الذي
ببلدها أن يوغر لها ضيعتها ويحسن معاونتها، وأمر لها بنفقة (120).

ودخل الحارث بن مسكين على المأمون فسأله عن مسألة، فقال: أقول فيها
كما قال مالك بن أنس لأبيك هارون الرشيد؟ - وذكر قوله فلم يعجب المأمون
- فقال: لقد تيست فيها وتيس مالك. قال الحارث بن مسكين: فالسامع يا أمير
المؤمنين، من التيسين أتيس. فتغير وجه المأمون. وقام الحارث بن مسكين
فخرج، وتندم على ما كان من قوله. فلم يستقر منزله حتى أتاه رسول

119 (ابن الحداد ، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس ، 31/1

120 (ابن الحداد ، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس ، 4/1

المأمون؛ فأيقن بالشر، ولبس ثياب أكفانه، ثم أقبل حتى دخل عليه فقربه المأمون من نفسه، ثم أقبل عليه بوجهه فقال له: يا هذا، إن الله تبارك وتعالى قد أمر من هو خير منك بالإنابة القول لمن هو شر مني، فقال لنبيه موسى صلى الله عليه وسلم إذ أرسله إلى فرعون: " فقولاً له قولاً لنا لعلنا نذكر أو يخشى " . فقال: يا أمير المؤمنين، أبوء بالذنب وأستغفر الرب. قال: عفا الله عنك، انصرف إذا شئت (121).

واستأذن رجل المأمون في تقبيل يده، فقال له: إن قبلة اليد من المسلم ذلة، ومن الذمي خديعة، ولا حاجة بك أن تذل، ولا بنا أن نخدع (122).

فعلهم فابك وإياهم فاشكر

قال برون الكبير: وجّه إليّ المأمون وقد مضى من الليل الثلث فقال لي: يا برون قد أكثر علينا أصحاب الأخبار في أن شيخاً يرد خرابات البرامكة فيبكيهم ويندبهم وينشد أبياتاً من الشعر فاركب أنت وعليّ بن محمد ودينار بن عبد الله حتى تردوا هذه الخرابات فتصيروا من وراء جدرانها فإذا رأيتم الشيخ قد ورد وبكى وأنشد فأتوني به. قال برون: فركبت مع القوم حتى وردنا الخرابات، وإذا الخادم قد أتى ومعه زليّة رومية وكرسيّ جديد، وإذا شيخ وسيم جميل له صلعة وهامة فجلس يبكي ويقول:

ولما رأيت السيف قد قدّ جعفرًا ... ونادى منادٍ للخليفة في يحيى
بكيت على الدنيا وأيقنت أنه ... قصارى الفتى يوماً مفارقة الدنيا
أجعفر إن تهلك فربّ عظيمة ... كشفت ونعمى قد وصلت بها نعمى
فقل للذي أبدى ليحيى وجعفر ... شماتته أبشر لتأتيهم العقبي
لئن زال غصن الملك عن آل برمك ... فما زال حتى أثمر الغصن واستعلى
وما الدهر إلا دولة بعد دولة ... تبدل ذا ملكٍ وتعقب ذا بلوى
على أنها ليست تدوم لأهلها ... ولو أنها دامت لكنتم بها أولى
بني برمك كنتم نجومًا مضيئة ... بها يهتدي في ظلمة الليل من أسرى
لأيكم أبكي ألفتل ذي الندى ... أم الشيخ يحيى أم لمحبوسه موسى
أم الملك المصلوب من بعد عزة ... أم ابكي بكاء المعولات أم الثكلى
لكلكم أبكي بعين غزيرة ... وقلب قريح لا يموت ولا يحيا
قال: فترأينا له ثم قبضنا عليه، فجزع وفزع وقال: من القوم؟ فقال برون:
أنا حاجب أمير المؤمنين وهذا فلان وفلان. قال: وما الذي تريدون؟ قال

121 (ابن الحداد ، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس ، 17/1

122 (ابن الحداد ، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس ، 132/1

برون: فأعلمته ما أمر به أمير المؤمنين من أخذه إلى مجلسه. قال: ذرني أوص فإني لا آمنه، ثم تقدم إلى بعض العلافين في فرضة الفيل فأخذ بياضاً وأوصى فيه وصية خفيفة ودفعها إلى الغلام وسرنا به، فلما مثل بين يدي المأمون زبره وقال: من أنت وبماذا استوجب البرامكة ما تفعله في دورهم؟ قال: يا أمير المؤمنين للبرامكة عندي أياد خضرة أفتأذن لي أن أحدثك؟ فقال: سديداً. قال: أنا يا أمير المؤمنين المنذر بن المغيرة من أهل دمشق كنت بها من أولاد الملوك فزالت عني نعمتي كما تزول عن الرجال، فلما ركبتني الديون واحتجت إلى بيع مسقط رأسي ورؤوس آبائي أشاروا علي بالخروج إلى البرامكة، فخرجت من دمشق ومعني نيف وثلاثون امرأة وصبياً وصبية وليس معنا ما يباع ولا ما يرهن حتى دخلت بغداد ونزلنا بباب الشام في بعض المساجد ودعوت بثوبيبات لي قد كنت أعدتها لأستريح بها الناس وتركتهم جياً وأركبت شوارع بغداد فإذا أنا بمسجد مزخرف وفيه مائة شيخ قد طبّقوا طيالستهم بأحسن زي وزينة وبزة، وإذا خادمان على باب المسجد، فطمعت في القوم وولجت المسجد وجلست بين أيديهم وأنا أقدم وأوخر والعرق يسيل مني لأنها لم تكن صناعتني، فأنا كذلك إذا أنا بخادم قد أقبل وقال للخادمين: ازعجا القوم، فازعج القوم وأنا معهم فأدخلونا دار يحيى بن خالد ودخلت معهم، فإذا بيحيى جالساً على دكة له وسط بستان، فسلمنا وهو يعدنا مائة رجل وواحداً، وبين يدي يحيى عشرة من ولده، وإذا غلام أمرد حين عذر خداه قد أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم متنطقون في وسط كل خادم منطقة من ألف مثقال مع كل خادم مجمرة من ذهب ورجل من ذهب في كل مجمرة قطعة من العود كهياة الفهر قد ضم إليه مثله من العنبر السلطاني فوضعه بين يدي الغلام وجلس الغلام إلى جنب يحيى ثم قال يحيى للزبرقي القاضي: تكلم فقد زوجت ابنتي عائشة من ابن عمي هذا من بيت نار النوبهار.

فخطب القاضي وشهد القاضي والنفر وأقبلوا علينا بالنتار ببنادق المسك والعنبر، فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمي ونظرت وإذا يحيى في الدكة ما بين المشايخ ويحيى وولده والغلام ونحن مائة رجل واثنان عشر رجلاً، فخرج إلينا مائة خادم واثنان عشر خادماً مع كل خادم صينية فضة عليها ألف دينار شامية، فوضع بين يدي كل رجل منا صينية، فرأيت القاضي والمشايخ يصبّون الدنانير في أكمامهم ويجعلون الصواني تحت آباطهم ويقوم الأول فالأول حتى بقيت وحدي بين يدي يحيى لا أجسر على الصينية،

فغمز لي الخادم، فجسرت عليها وجعلتها في كمّي وأخذت الصينية وقمت وأنا أمر طول الصحن والتفت ورأي هل يتبعني أحد، فإني لكذلك أطول الالتفات ويحيى يلحظني فقال للخادم: انتني بالرجل، فرُددت إليه، فأمر، فسُلبت الدنانير والصينية، ثم أمرني بالجلوس فجلست، فقال: ممن الرجل؟ فقصصت عليه قصتي. فقال: علي بموسى، فأُتي به، فقال: يا بني هذا رجل غريب فخذ إليك اخلطه بنفسك ونعمتك. فقبض عليّ موسى وأخذني إلى بعض دوره فقصف عليّ يومي وليلتي، فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال له: إن الوزير أمرني بالقصف على هذا الفتى وقد علمت تشاغلي في دار أمير المؤمنين فاقبض عليه وقاصفه، فلما كان من غد تسلمني أحمد، ثم لم أزل وأيدي القوم تتداولني عشرة أيام لا أعرف خبر عيالي وصبياني في الأموات هم أم في الأحياء، فلما كان في اليوم العاشر دُفعت في يدي الفضل فقصف عليّ، فلما كان في الحادي عشر جاءني خادم مع عشرة من الخدم فقالوا: قم عافاك الله فاخرج إلى عيالك بسلام. فقلت: وا ويلاه سلبت الدنانير والصينية وقد تمزقت ثيابي واتسخت وأخرج على هذه الحالة! إنا لله وإنا إليه راجعون! فرفع لي الستر الأول والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس، فقبل أن رُفع السابع قال لي الخادم: تمنّ ما شئت، ورفع لي ستر عن حجرة كالشمس استقبلني منها رائحة العود والندّ ونفحات المسك، وإذا أنا بصبياني يتقبلون في الحرير والديباج وأنا قد حمل إليّ ألف ألف درهم مبدّرة وعشرة آلاف دينار وقبالتين بضيعتين وتلك الصينية مع الدنانير والبنادق، فبقيت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم من بيت نار النوبهار أو رجل غريب اصطنعوني، فلما جاء القوم البلية ونزلت بهم من الرشيد النازلة قصدني عمرو بن مسعدة وألزماني من الخراج في هاتين الضيعتين ما لا يفي دخلهما به، فلما تحامل عليّ الدهر كنت أنظر إلى خرابات القوم فأندبهم. فقال المأمون: علي بعمرو بن مسعدة، فلما أُتي به قال له: يا عمرو أتعرف الرجل؟ قال: نعم هو من بعض صنائع البرامكة. قال: كم ألزمته في ضيعته؟ قال: كذا وكذا. قال: ردّ عليه كل ما استأديته إياه في سنيه وأوغر ضيعتيه تكونان له ولعقبه من بعده، فعلا نحيب الرجل بالبكاء يرثي البرامكة، فلما طال بكاؤه قال له المأمون: فمّم بكاؤك وقد أحسنا إليك؟ قال: يا أمير المؤمنين هذا أيضاً من صنائع البرامكة، رأيته يا أمير المؤمنين لو لم آت خرابات القوم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبري بأمير المؤمنين ففعل بي ما فعل من أين كنت أصل إلى ما وصلت إليه؟ قال

إبراهيم بن ميمون: فلقد رأيت المأمون وقد دمعت عينه واشتد حزنه على القوم وقال: صدقت لعمرى هذه أيضاً من صنائعهم، فعليهم فابك وإياهم فاشكر! (123)

قبول السعاية شراً

قيل: وكتب صاحب بريد همذان إلى المأمون بخراسان يعلمه أن كاتب البريد المعزول أخبره أن صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطأ على إخراج مائتي ألف درهم من بيت المال واقتسماها بينهما، فوقع المأمون: إنا نرى قبول السعاية شراً كمن قبله وأجازه، فأنف الساعي عنك فلو كان في سعائته صادقاً لقد كان في صدقه لئيماً إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر على أخيه.

قال: وقال المأمون لولده: يا بني نزهوا أقداركم وطهروا أحسابكم عن دنس الوشاة وتمويه سعائتهم فكل جان يده في فيه وليس يشي إليكم إلا أحد الرجلين ثقة وظنين، أما الثقة فقد قيل إنه لا يبلغ ولا يشين بالوشاية قدره، وأما الظنين فأهل أن يتهم صدقه ويكذب ظنه ويرد باطله، وما سعى رجل برجل إلى قط إلا انحط من قدره عندي ما لا يتلافاه أبداً، فلا تعطوا الوشاة أمانيتهم فيمن يشون بهم، فقد قال بعض الملوك لرجل سعى بآخر: لو كنت أنت أنا ما كنت صانعاً به؟ قال: كنت أقتله. فقال: أما إذ لم تكن أنت أنا فإني غير قاتله ومع ذلك فلا تدعوا الفحص عما يلقي إليكم مما تحذرون رجوع ضرره عليكم. (124)

ما رأيت شيخاً قط أجهل منك ولا أحمق!

قال ثمامة صاحب الكلام: كان المأمون قد همّ بلعن معاوية وأن يكتب بذلك كتاباً في الطعن عليه، قال: ففتأه عن ذلك يحيى بن أكثم وقال: يا أمير المؤمنين العامة لا تحتل هذا ولا سيما أهل خراسان ولا تأمن أن يكون لهم نفرة ونبوة لا تستقال ولا يُدرى ما تكون عاقبتها، والرأي أن تدع الناس على ما هم عليه ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق فإن ذلك أصلح في السياسة وأمن في العاقبة وأجرى في التدبير، فركن إلى قوله، فلما دخلت عليه قال: يا ثمامة قد علمت ما كنا دبّرناه في أمر معاوية وقد عارضنا رأيي هو أصلح في تدبير المملكة وأبقى ذكراً في العامة، ثم أخبرني أن يحيى بن أكثم حذره وأخبره بنفور العامة عن مثل هذا الرأي، فقلت: يا أمير المؤمنين والعامة عندك في هذا الموضع الذي وضعها فيه يحيى، والله لو بعثت إليها

123 (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، 54/1-55

124 (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، 56/1

إنساناً على عاتقه سوادٌ ومعه عصاً لساق إليك منها عشرة آلاف! والله يا أمير المؤمنين ما رضي الله جل وعز أن سواها بالأنعام حتى جعلها أضل سبيلاً، فقال تبارك وتعالى: " أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً " ، والله لقد مررت يا أمير المؤمنين منذ أيام في شارع الخلد وأنا أريد الدار فإذا إنسان قد بسط كساءه وألقى عليه أدوية وهو قائم ينادي: هذا الدواء للبياض في العين والغشاوة والظلمة وضعف البصر، وإن إحدى عينيه لمطموسة والأخرى مؤلمة، وقد تألبوا عليه واحتفلوا إليه، فنزلت عن دابتي ودخلت بين تلك الجماعة فقلت: يا هذا أرى عينيك أحوج الأعين إلى العلاج وأنت تصف هذا الدواء وتخبر أنه شفاء! فما بالك يا هذا لا تستعمله؟ قال: أنا في هذا الموضع منذ عشرين سنة ما رأيت شيخاً قط أجهل منك ولا أحق! قلت: وكيف ذاك؟ قال: يا جاهل أتدري أين اشتكت عيني؟ قلت: لا، قال: بمصر، فأقبل عليّ الجماعة فقالت: صدق والله أنت جاهل، وهموا بي، فقلت: والله ما علمت أن عينه اشتكت بمصر! فتخلصت منهم بهذه الحجة. قال: فضحك المأمون وقال: ما لقيت من الله جل ذكره من سوء الثناء وقبح الذكر أكثر، قلت: أجل (125).

لا بدّ من أن آخذ منها كما أخذت منك

وحدث رجل عن جعفر العطار قال: بينما يحيى بن أكثم يمشي المأمون في بستان موسى والشمس عن يمينه والمأمون في الظل وقد وضع يده على عاتق يحيى وهما يتحدثان إذ رأى المأمون أن يرجع في الطريق الذي جاء منه، فلما انتهى إلى الموضع الذي قصده قال يحيى: إنك جئت وعن يسارك الشمس وقد أخذت منك فكن أنت الآن في منصرفك حيث كنت وأكون أنا حيث كنت أنت، فقال يحيى: والله يا أمير المؤمنين لو أمكنني أن أقيك بنفسي من هول المطلع لفعلت فكيف لا أصبر على أذى الشمس ساعة؟ فقال: والله لا بدّ من أن آخذ منها كما أخذت منك وتأخذ من الظل كما أخذت منه! فصار المأمون في موضعه وصار يحيى في موضع المأمون وتماشيا وأخذ بيده فوضعها على عاتقه حتى صار إلى المجلس (126).

125 (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، 68/1)

126 (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، 88/1)

محاسن الرؤيا

حدثنا أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد قال: كان المأمون يبطل الرؤيا ويقول: ليست بشيء ولو كانت على الحقيقة كنا نراها ولا يسقط منها شيء، فلما رأينا إنما يصح منها الحرف والحرفان من الكثير علمنا أنها باطل وأن أكثرها لا يصح، وكان بعث بابنه العباس إلى بلاد الروم فأبطأ عليه خبره فصلّى ذات يوم الصبح وخفق وانتبه ودعا بدابته وركب وقال: أحدثكم بأعجوبة، رأيت الساعة كأن شيخاً أبيض الرأس واللحية عليه فروة وكساؤه في عنقه ومعه عصاً وفي يده كتاب فدنا مني وقد ركبت فقلت: من أنت؟ فقال: رسول العباس بالسلامة، وناولني كتابه. فقال المعتصم: أرجو أن يخفق الله رؤيا أمير المؤمنين ويسره بسلامته. قال: ثم نهض فوالله ما هو إلا أن خرج فصار قليلاً إلا وبصر بشيخ قد أقبل نحوه في تلك الحال، فقال المأمون: هذا والله الذي رأيته في منامي وهذه صفته. قال: فدنا منه الرجل فنحاه خدمه وصاحوا به. فقال: دعوه. فجاء الشيخ، فقال له: من أنت؟ قال: رسول العباس وهذا كتابه. قال: فبهتتا وطال منه تعجبنا. فقلت: يا أمير المؤمنين أتبطل الرؤيا بعد هذه؟ قال: لا (127).

فما نطق بحرف

قيل: ودخل أبو العتاهية على المأمون حين قدم العراق فأنشده شعراً يمدحه به، فأمر له بمال جزيل وأقبل عليه يحدثه إذ ذكر أبو العتاهية القدرية، فقال: يا أمير المؤمنين ما في الأرض فئة أجهل ولا أضعف حجة من هذه العصابة. فقال المأمون: أنت رجل شاعر وأنت بصناعتك أعلم فلا تتخطها إلى غيرها فلست تعرف الكلام. فقال: إن جمع أمير المؤمنين بيني وبين رجل منهم وقف على ما عندي من الكلام. قال ثمامة: فوجّه إليّ رسولاً، فلما دخلت قال: يا ثمامة زعم هذا أنه لا حجة لك ولا لأصحابك! قلت: فليسل عما بدا له. فقال المأمون: سلّه يا إسماعيل. قال: أقطعه يا أمير المؤمنين بحرف واحد. قال: شأنك. فأخرج أبو العتاهية يده من كمه وحركها وقال: يا ثمامة من حرك يدي هذه؟ قلت: حركها من أمه زانية. قال: فضحك المأمون حتى فحس برجله وتمرّغ على فراشه وقال: زعمت أنك تقطعه بكلمة واحدة! فقال أبو العتاهية: شتمني يا أمير المؤمنين. قلت: ناقضت يا عاضّ بظر أمه! قال: فعاد المأمون في الضحك حتى خفت عليه من ضحكه وشدة ما ذهب له، ثم قلت: يا جاهل تحرك يدك وتقول من حركها! فإن كنت أنت المحرك لها فهو

قولي وإن تكن الأخرى فما شتمتك! فقال المأمون: يا إسماعيل عندك زيادة في الكلام؟ فإن الجواب قد مضى فيما سألت. فما نطق بحرف حتى انصرف (128).

الحق أنطقها والباطل أخرسه

عن قحطبة بن حميد بن قحطبة قال: قعد المأمون للمظالم ذات يوم فلم يزل قاعداً إلى أن قلنا قد فاتته الصلاة، فكان آخر من دعي امرأة فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم فقال: و عليك السلام، تكلمي يا أمة الله. فقالت:

يا خير منتصف يهدي به الرشد ... ويا إماماً به قد أشرق البلد
أشكو إليك عقيد الملك أرملة ... عدا عليها فلا تقوى به الأسد
فابتز مني ضياعي واستبد بها ... ففارق العيش مني الأهل والولد
فقال المأمون:

في دون ما قلت عيل الصبر والجلد ... وقد تقطع مني القلب والكبد
هذا أو أن صلاة الظهر فأنصرفي ... وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد
والمجلس السبت إن يقض الجلوس لنا ... ننصفك فيه وإلا المجلس الأحد
قال: فأنصرفت فلما كان يوم الأحد جلس فكان أول من دعا به المرأة، فسلمت
فرد المأمون عليها السلام وقال: أين الخصم، رحمك الله؟ قالت: هو واقف
على رأسك وقد حيل بيني وبينه. وأومأت إلى العباس ابنه. فقال: يا أحمد بن
أبي خالد خذ بيده فأقعه معها. قال: ففعل ذلك. فجعلت تعلو على العباس
بصوتها وتقول: ظلمتني واعتديت عليّ وأخذت ضيعتي. فقال لها أحمد: ما
هذا الصياح؟ إنك بين يدي أمير المؤمنين تناظرين الأمير! فقال المأمون:
دعها يا أحمد فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه. فلم يزالا يتناظران حتى حكم
المأمون لها برد ضيعتها ثم قال: يا أحمد اردد عليها ما جباه العباس من
ضيعتها وادفع إليها عشرة آلاف درهم ترم بها ما أراه من سوء حالها واكتب
إلى والينا وقاضينا بإرفاقها والنظر في أمرها وأوغر لها خراج ضيعتها
بالشيء الطفيف وليكن ذلك في يومنا هذا. فما برحت حتى قضيت حوائجها
وخرجت (129).

128 (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، 199/1

129 (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، 212/1

أفأخاطب بالخلافة سواك؟

وعن الحسن بن سهل قال: جلس المأمون ذات يوم للمظالم وإذا هو برجل قد مثل بين يديه وفي يده رقعة فيها سطران: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مظلمة من أمير المؤمنين أطل الله بقاءه. فقال: أمظلمة مني! قال: أفأخاطب بالخلافة سواك؟ قال له: وما ظلامتك هذه؟ قال: ثلاثون ألف دينار. قال: وما وجهها؟ قال: إن سعيداً وكيلك اشترى مني جوهرًا بثلاثين ألف دينار وحمله إلى منزلك ولم يوفر عليّ المال. قال: فإذا اشترى سعيد منك الجوهر تشكو الظلمة مني! قال: نعم إذا كانت الوكالة قد صحت له منك. قال: إن كلامك هذا يحتمل ثلاث جهات: أما أول ذلك فعل سعيداً قد اشترى هذا الجوهر منك كما زعمت وحمله إلينا وأخذ المال من بيت المال ولم يوفره عليك، أو لعله قد وفره وادعيت باطلاً، أو اشتراه لنفسه. أما في العاجل فلا يلزمني لك حق ولا أعرف لك ظلمة.

فقال الرجلك إن الله جل وعز قد أهلك لموضع رفيع واختصك بنسب جعلك أولى الخلق معه بالانصاف فإنك مناسب لرسول الله، ﷺ، واسترعاك على خلقه فهلا تحملني على كتاب الله جل وعز وسنة ابن عمك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وسنة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في رسالته إلى أبي موسى الأشعري وهي التي اتخذتموها صدور أحكامكم ووصية لقضاتكم إذ يقول: البينة على من ادعى واليمين على من أنكر. قال المأمون: فإنك والله قد عدمت البينة فما يجب لك إلا حلفَةٌ ولئن حلفتها لأنا صادق إذ كنت لا أعرف لك حقاً يلزمني.

قال: فإذا أدعوك إلى الحاكم الذي نصبته لرعيتك. قال: نعم، يا غلام عليّ يحيى بن أكتم. فإذا هو قد مثل بين يديه. فقال: يا يحيى! قال: لبيك يا أمير المؤمنين! قال: اقض بيننا. قال: في حكم وقضية! قال: نعم. قال: لا أفعل. قال: ولم؟ قال: لأن أمير المؤمنين لم يجعل داره مجلس قضائي. قال: قد فعلت. قال: فإني أبدأ بالعامّة أولاً ليصبح المجلس للقضاء. قال: افعل. ففتح الباب وقعد في ناحية من الدار وأذن للعامّة ونادى المنادي وأخذ الرقاع ودعا بالناس ثم دعا الرجل المتظلم فقال له يحيى: ما تقول؟ قال: أقول أن تدعو بخصمي أمير المؤمنين المأمون. فنادى المنادي فإذا المأمون قد خرج في رداء وقميص وسراويل قد أرسلها على عقبها في نعل رقيق ومعه غلام يحمل مصلى حتى وقف على يحيى وهو جالس. فقال له: اجلس. فطرح المصلى ليقعد عليه. فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين لا تأخذ على خصمك

شرف المجلس. فطرح له مصلى آخر فجلس عليه. وقال له يحيى: ما تقول؟ فقال: لي على هذا ثلاثون ألف دينار. قال: ومن هذا؟ قال: أمير المؤمنين المأمون بالله. قال له يحيى: يا أمير المؤمنين قد سمعت ما يقول؟ قال: سله ما وجهها. فأعاد خبر الوكيل. فقال المأمون: ما أعرف له حقاً. فأقبل على الرجل فقال: قد سمعت، ألك بينة؟ قال: لا. قال: فما تريد؟ قال: ما يوجب الحكم لمن عدم البينة. قال المأمون: ويحك قد لججت في اليمين! قال: يا أمير المؤمنين أتحلف؟ قال: إي والله ولا أوطيء نفسي العشوة في إعطاء رجل ما لا يجب له ظلاً. فقال: قل والله. فاستحلفه غموساً.

ثم وثب يحيى عند فراغ المأمون من يمينه فقام على رجليه. فقال له المأمون: ما أقامك؟ فقال: إني كنت في حق الله جل وعز حتى أخذته منك وليس الآن من حَقك أن أتصدر عليك. وقبض على الرجل لئلا يخرج. فقال المأمون: ارفقوا به. ثم قال: يا غلام أحضرني ما ادعى من المال. فلما أحضر قال: خذه إليك والله ما كنت أحلف على فجرة ثم اسمح لك فأفسد ديني ودنياي، والله يعلم ما دفعتُ إليك هذا المال إلا خوفاً من هذه الرعية لعلها ترى أن تناولتك من وجه القدرة وأني منعتك واجبك بالاستطالة عليك وإنها لتعلم الآن ما كنت أسمح لك باليمين. فقال: يا أمير المؤمنين أفأحاط في المال حتى أصل إلى حيث آمن عليه؟ قال: إي والله ولو بالتغرز وأسبيجاب. فأخرج الرجل مع المال وبذرق به إلى أن بلغ مأمنه (130)

أما تسمعون أمير المؤمنين يدعوكم؟

وحكى جعفر ابن أخت أبي العباس قال: دخلت على المأمون ويده معلقتان من شيء رطب أكله قد مسته النار وهو يصيح: يا غلام. وكلهم يسمع صوته فما منهم أحد يجيبه. فخرجت إليهم وأنا أفور غضباً فإذا بعضهم يلعب بالشطرنج وبعضهم بالكعب وبعضهم يهارش الديوك. فقلت: يا بني الفواعل أما تسمعون أمير المؤمنين يدعوكم؟ فقال واحد: حتى أقيس هذا الكعب. وقال الآخر: قد بقيت على ضربه. وقال آخر: امض فإني أتبعك. فما علمت ما أخاطبهم به من الحنق عليهم، فإذا المأمون قد صوّت بي وأنا أقذف أمهاتهم. فأتيته وهو يضحك. فقال: ارفق بهم فإنهم بشر مثلك. فقلت: تقول هذا وأنت معلق اليد؟ فقال: وهذا معاشرتك خدمك؟ فقلت: والله لو فعل بي هذا ولدي من

دون خدمي لقتلته! قال: هذه أخلاق السوق وأخلاقنا أخلاق الملوك. فقلت: لا والله ما هذه أخلاق الملوك ولا أخلاق الأنبياء عليهم السلام (131).

إني لأعلم ما في كتابك!

وقال ثمامة بن أشرس: والله إني لفي مجلس المأمون وعنده عمرو بن مسعدة وأبو عباد والعباسي ومحمد بن أبي محمد اليزيدي إذ دخل عليّ بن صالح فقال: محمد بن الفضل بن سليمان الطوسي بالباب. قال: يدخل. فدخل وسلم وفي يده كتاب فأشار به إلى المأمون. فقال المأمون: اذكر ما فيه. فقال: يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك سر من أسرار الخليفة لا يحتمل إذاعته! قال: وإن كان ذلك فاذكره. قال: يا أمير المؤمنين لست فاعلاً! قال: يا هذا ما بحضرتنا من نكتمه أسرارنا فأبد ما عندك. فأعاد محمد بن الفضل مثل قوله الأول والثاني. فقال المأمون إني لأعلم ما في كتابك! قال: هذه كهانة! قال: فنزل المأمون عن فرشه ورفع ستراً كان في ظهر مجلسه ودخل وأشار إلينا وقال: لا تبرحوا. فجاء علي بن صالح فأخذ بيد الطوسي وقال: قم فأنت أشأم من البسوس. فأقعدته خلف حائط بقرب المجلس لكي إن خرج لا يراه وإن دعاه أحضره. قال: فجعل كل واحد منا يرجف بجنس من المكروه وكلنا خائفون عليه، فواحد يقول: يأخذ الساعة أمواله وينفيه. وآخر يقول: يضرب عنقه. قال: فأبطأ علينا المأمون ثم خرج ووجهه مسفر ضاحكة سنّه، فقال: سمعتم ما كلمني به هذا الخائن، إنه والله لما بلغ مني كلامه لم أجد بداً ولا دواء إلا ملاعبة الجواري والنساء ليزول عني ما قد تداخمني، وقد أسمعني ما أكره بضع عشرة مرة واحتملته (132).

أو اذبحني فلا أبتلّ بفراقك

قيل: وكان المأمون وجد علي قائد من قواده فاستصفى ضياعه وداره وأنهب دوابه وماله، وكان شيخاً فانياً ولم يكن له من الولد إلا بنية صغيرة، فأجمع أن يضرب في الأرض ويطلب من فضل الله جل وعز ويخلف بنيته. فبكت الابنة وقبضت على أبيها وقالت: اقنع بما آتاك الله واصبر على محن الزمان ونوائب الدهر والزم الوطن وارحم وحدتي وضعفي وقلة حيلتي أو اذبحني فلا أبتلّ بفراقك. فبكى الشيخ وقال:

تقول ابنتي لما أردت وداعها ... وقد حضرني نية ورحيل:
لعل المنايا في رحالك تنبري ... لنفسك ختلاً أو تغولك غول

131 (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، 213/1

132 (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، 222/1

فتتركني أدعى اليتيمة بعدما ... تبين وعزّي بعد ذاك ذليل
أفي طلب الدنيا وربك بالذي ... تسير له راع عليك كفيل
أليس ضعيف القوم يأتيه رزقه ... يساق إليه والبلاد محول
ويحرم جمع المال من قد يرومه ... يكّد عليه رحله وحلول
فلو كنت في طودٍ على رأس هضبة ... لها نجفٌ فيه الوعول ثقيل
مضعدة لا يستطيع ارتقاؤها ... ولا لنزولٍ يستطيع سبيل
إذاً لأتاك الرزق يحدوه سائقٌ ... حثيثٌ ويهديه إليك دليل
قال: فسمى الخبر إلى المأمون، فدعا بالشيخ فاستنشد شعره فأنشده، فرقّ له
وأمر بردّ جميع ما أخذ منه وأعادته إلى مرتبته وزاده من عنايته (133).

من تلامذة كسرى في الحمق

وحكي عن أبي عباد الكاتب أنه قال: كنت يوماً عند المأمون فدعا بالغداء
وكان يستنزل من قام من مجلسه عند ذكر الطعام ويقول: هذا من أخلاق
اللئام، فقدموا إليه بطيخاً على أطباق جدد فجعل يقوّر بيده ويذوق البطيخة
فاذا حمد حلاوتها قال: ادفع هذه بسكينتها إلى فلان. فقال لي وقد دفع إلي
بطيخة كانت أحلى من الشهد المذاب: يا أبا عباد بم تستدل على حمق الرجل؟
قلت: يا أمير المؤمنين أما عند الله فعلامات كثيرة وأما عندي فإذا رأيت
الرجل يحب الشاهلوج ويبغض البطيخ علمت أنه أحمق. قال: وهل تعرف
صاحب هذه الصفة؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين الرستمي أحد من هذه صفته.
قال: فدخل الرستمي على أمير المؤمنين، فقال له المأمون: ما تقول في
البطيخ الرمشي؟ قال: يا أمير المؤمنين يفسد المعدة ويلطخها ويرقها، يرخي
العصب ويرفع البخار إلى الرأس. قال: لم أسألك عن فعله إنما سألتك أشهي
هو؟ قال: لا. قال: فما تقول في الشاهلوج؟ قال: سماه كسرى سيد أجناسه.
قال: فالتفت المأمون إليّ وقال: الرجل الذي كنا في حديثه أمس من تلامذة
كسرى في الحمق.

عزله عنهم

وحكي أن المأمون ولي عاملاً على بلاد وكان يعرف منه الجور في حكمه
فأرسل إليه رجلاً من أرباب دولته ليمتحنه فلما قدم عليه أظهر له أنه قدم في
تجارة لنفسه ولم يعلمه أن أمير المؤمنين عنده علم منه فأكرم نزله وأحسن
إليه وسأله أن يكتب كتاباً إلى أمير المؤمنين المأمون

يشكر سيرته عنده ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة فكتب كتابا فيه بعد الثناء على أمير المؤمنين أما بعد فقد قدمنا على فلان فوجدناه آخذا بالعزم عاملا بالحزم قد عدل بين رعيته وساوى في أقضيته أغنى القاصد وأرضى الوارد وأنزلهم منه منازل الأولاد وأذهب ما بينهم من الضغائن والأحقاد وعمر منهم المساجد الدائرة وأفرغهم من عمل الدنيا وشغلهم بعمل الآخرة وهم مع ذلك داعون لأمر المؤمنين يريدون النظر إلى وجهه والسلام فكان معنى قوله آخذا بالعزم أي إذا عزم على ظلم أو جور فعله في الحال وقوله قد عدل بين رعيته وساوى في أقضيته أي أخذ كل ما معهم حتى ساوى بين الغني والفقير وقوله عمر منهم المساجد الدائرة وأفرغهم من عمل الدنيا وشغلهم بعمل الآخرة يعني أن الكل صاروا فقراء لا يملكون شيئا من الدنيا ومعنى قوله يريدون النظر إلى وجه أمير المؤمنين أي ليشكوا حالهم وما نزل بهم فلما جاء الكتاب إلى المأمون عزله عنهم لوقته وولى عليهم غيره . (134)

صداق ابنتي مائة ضيعة خربة

وروى أن المأمون أرق ذات ليلة فاستدعى سميرا يحدثه فقال يا أمير المؤمنين كان بالموصل بومة وبالبصرة بومة فخطبت بومة الموصل بنت بومة البصرة لابنها فقالت بومة البصرة لا أجيب خطبة ابنك حتى تجعل في صداق ابنتي مائة ضيعة خربة فقالت بومة الموصل لا أقدر عليها لكن إن دام وإلينا سلمة الله علينا سنة واحدة فعلت ذلك قال فاستيقظ لها المأمون وجلس للمظالم وأنصف الناس بعضهم من بعض وتفقد أمور الولاية والعمال الرعية (135).

ما ينبغي للغلام أن يأكل ولا يشرب

وقال عبد الله بن طاهر كنا عند المأمون يوما فنادي بالخادم يا غلام فلم يجبه أحد ثم نادي ثانيا وصاح يا غلام فدخل غلام تركي وهو يقول ما ينبغي للغلام أن يأكل ولا يشرب كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام إلى كم يا غلام فنكس المأمون رأسه طويلا فما شككت أنه يأمرني بضرب عنقه ثم نظر إلى فقال يا عبد الله إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خدمه وإذا ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خدمه وإنا لا نستطيع إن نسيء أخلاقنا لنحسن أخلاق خدمنا (136).

134 (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، 251/1)

135 (المستطرف ، 243-242/1)

136 (المستطرف ، 260/1)

إِنَّ الَّذِي شَرِّفَتْ مِنْ أَجْلِهِ ... يَزْعَمُ هَذَا أَنَّهُ كَاذِبٌ

استأذن على المأمون بعض شيوخ الفقهاء، فأذن له، فلما دخل عليه رأى بين يديه رجلاً يهودياً كاتباً، كانت له منزلة وقربه لقيامه بما يصرفه فيه ويتولاه من خدمته، فلما رآه الفقيه قال - وقد كان المأمون أوماً إليه بالجلوس - :
أتأذن لي يا أمير المؤمنين في إنشاد بيت حضر قبل أن أجلس قال: نعم،
فأنشده:

إِنَّ الَّذِي شَرِّفَتْ مِنْ أَجْلِهِ ... يَزْعَمُ هَذَا أَنَّهُ كَاذِبٌ

وأشار إلى اليهودي، فخل المأمون ووجم، ثم أمر حاجبه بإخراج اليهودي مسحوباً على وجهه، وأنفذ عهداً باطراحه وإبعاده، وألاً يستعان بأحد من أهل الذمة في شيء من أعماله (137).

هدبة بن خالد على مائدة المأمون

عن هدبة بن خالد رحمه الله تعالى قال حضرت مائدة المأمون فلما رفعت المائدة جعلت ألتقط ما في الأرض فنظر إلي المأمون فقال أما شبعث يا شيخ قلت بلى يا أمير المؤمنين ولكن حدثني حماد بن سلمة عن ثابت بن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول من التقط ما تحت مائدته أمن من الفقر فنظر المأمون إلى خادم واقف بين يديه فأشار إليه فما شعرت أن جاءني ومعه منديل فيه ألف دينار فناولني إياه فقلت يا أمير المؤمنين وهذا من ذاك (138).

المأمون يشدد في الغناء

وكان المأمون قد حرم الغناء وشدد فيه فلقي علي بن هشام إسحاق بن إبراهيم الموصلي على الجسر، فقال إسحاق لعلي بكلام يخفيه: قد زارتني اليوم فلانة، وهي أطيب الناس غناءً، فبحياتي إلا كنت اليوم عندي. فوعده بالحضور وتفرقا، وإذا بطفيلي يسمع كلامهما فمضى من وقته، فلبس ثياباً حسنة؛ واستعار من بعض إخوانه بغلة فارهة بسرجهما ولجامها، فركبها وأتى باب علي بن هشام بعد أن نزل من الركوب بساعة، فقال للحاجب: عرف الأمير أن رسول صاحبه إسحاق بن إبراهيم بالباب؛ فدخل الحاجب وخرج مسرعاً وقال: ادخل جعلت فداك، فدخل على علي فرحب به، فقال له: يا سيدي يقول لك أخوك: تعلم ما اتفقتا عليه فلم تأخرت عني؟ فقال له: الساعة وحياتك نزلت من الركوب، والساعة أغير ثيابي وأوافيه، فاستوى على دابته

137 (ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس ، 78/1

138 (طيب المذاق من ثمرات الأوراق ، ص 14

ووافى منزل إسحاق؛ فقال للحاجب: عرف الأمير أني رسول علي بن هشام؛ فدخل الحاجب وخرج فقال: ادخل ! جعلني الله فداك؛ فدخل فسلم وقال: أخوك يقرئك السلام ويقول لك: الساعة نزلت من الركوب، وقد غيرت ثيابي وتأهبت للمسير فما ترى ؟ فقال: قل له يا سيدي قتلتنا جوعاً، فبحياتي إلا ما حضرت. فرجع إلى باب علي وقال للحاجب: تعرفه أن الأمير أمرني ألا أبرح أو يجيء معي.

فغير علي بن هشام ثيابه، وركب دابته، وتبعه الطفيلي حتى نزل بباب إسحاق بن إبراهيم، ونزل الطفيلي معه، ودخلا جميعاً فسلما وجلسا، وجيء بالطعام فأكلوا، وإسحاق لا يشك أنه أخص الناس بعلي، وعلي لا يشك أنه أخص الناس بإسحاق، ثم غسلوا أيديهم وقدموا الشراب، وخرجت جارية من أحسن الناس وجهاً وزياً، فجلست وأتيت بعود، فغنت أحسن غناء، ودارت الأقداح فلم يزالوا على ذلك إلى بعد العصر، وأخذ الطفيلي البول حتى كاد يأتي على ثيابه فصبر جهده؛ فلما عيل صبره قام فدخل الخلاء، فقال علي لإسحاق: يا سيدي، ما أخف روح هذا الفتى وأحل نوادره ! فمن أي وقع لك ؟ قال أوليس هو صاحبك ؟! قال: لا وحياتك ولا رأيته قبل يومي هذا، قال: فإنه جاءني برسالتك وقص قصته؛ وقص إسحاق مثلها، وداخله من الغيظ ما لم يملك معه نفسه؛ وقال: طفيلي يستجرى علي وعلى النظر إلى حرمي والدخول إلى داري ! يا غلمان: السياط والعقابين، المقارع والجلادين. فقامت في الدار جلبة، وأحضروا جميع ذلك، والطفيلي يسمع وهو في الخلاء، ثم إنه خرج رافعاً ثيابه غير مكترث بما فعلوه، وهو مقبل على تكة لباسه يشدها، ويتمشى في صحن الدار وهو يقول: جعلت فداك ! إيش بي من جهدك ! فهل عرفتني مع هذا كله ؟ فقال إسحاق: ومن أنت ؟ فقال: أنا صاحب خبر أمير المؤمنين، وعينه على سره، والله لولا تحرمي بطعامك وممالحتي لتركتهما في عمى من أمري، حتى كنت تعرف عاقبة حالك وإقدامك على ما فيه هلاكك وفساد أمرك ! فقام إليه إسحاق وعلي يسكتانه وقالاه: يا هذا، إننا لم نعرفك ولم نعلم حالك، ولك الفضل علينا، وأنت المحسن المجمل إلينا؛ ولكن تمم إحسانك بسترنا ما نحن عليه.

ثم قال إسحاق: يا غلام، الخلع ! فأتي بثياب فاخرة فصبت عليه، وتقدم بإسراج دابة هملاج بسرج مخفف ولجام حسن؛ ولم يزالا به حتى طابت نفسه، ووعدهما كتمان أمرهما، وحضر وقت الانصراف فودعهما وانصرف،

فأتبعه إسحاق بخادمه معه صرة فيها ثلاثمائة دينار، فأخذها وركب الدابة ومضى.

فلما كان من الغد دخل علي بن هشام على المأمون. فقال: يا علي؛ كيف كان خبرك أمس؟ علي حسب ما يجري السؤال عنه فتغير لونه، ولم يشك في أن الحديث رفع إليه؛ فأكب على البساط يقبله وقال: يا أمير المؤمنين، العفو، يا أمير المؤمنين، الأمان. قال: لك الأمان. فأخبره بالقصة من أولها إلى آخرها. فضحك المأمون حتى كاد يغشى عليه، وقال: ما في الدنيا أملح من هذا. ووجه خلف إسحاق، فلما حضر قال: هيه يا إسحاق؟ كيف كان خبرك أمس؟ فأخبره كخبر علي بن هشام والمأمون يضحك. ثم قال: يا إسحاق؛ بحياتي أطلب الرجل وجئني به، فلم يزل يطلبه حتى وجده، فكان أحد ندماء المأمون (139).

العلوي الصوفي يحتال للخلاص من سجن المعتصم

حدثنا أبو محمد عبد الرحمن الوراق المعروف بالصيرفي، ابن أبي العباس محمد بن أحمد الأثرم، المقرئ البغدادي، بالبصرة، في المحرم سنة خمس وأربعين وثلاثمائة، بكتاب المبيضة، لأبي العباس أحمد بن عبد الله بن عمار، في خبر العلوي الصوفي، الخارج بالجوزجان، على المعتصم، وهو محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، وكان عبد الله بن طاهر حاربه، وأسرته، وبعث به إلى المعتصم، وهو ببغداد، قال: حدثت أن المعتصم أمر أن يبنى حبس في بستان موسى، كان القيم به مسرور مولى الرشيد.

قال: وكنت أرى أعلى هذا البناء من دجلة إذا ركبتها، إذ كان كالبنر العظيمة، قد حفرت إلى الماء، أو قريب منه، ثم بني فيها بناء على هيئة المنارة، مجوف من باطنه، وهو من داخله مدرج، قد حفر فيه، في مواضع من التدرج، مستراحات، وبني في كل مستراح شبيهاً بالبيت، يجلس فيه رجل واحد، كأنه على مقداره، يكون مكبواً على وجهه، لا يمكنه أن يجلس فيه، ولا يمد رجله، فلما قدم محمد، حبس في بيت في أسفل ذلك الحبس، فلما استقر فيه أصابه من الجهد لضيقه، وظلمته، ومن البرد أمر عظيم، لنداوة، الموضع ورطوبته، فكاد أن يتلف من ساعته.

فتكلم بكلام دقيق سمعه من كان في أعالي البئر ممن وكل بالموضع، فقال: إن كان أمير المؤمنين يريد قتلي، فالساعة أموت، وإن لم يكن يريد قتلي فقد أشفيت عليه.

فأخبر المعتصم بذلك، فقال: ما أريد قتله، وأمر بإخراجه. فأخرج وقد زال عقله، وأغمي عليه، فطرح في الشمس، وطرحت عليه اللحف، وأمر بحبسه في بيت كان قد بني في البستان، فوَقَّه غرفة، وكان في البيت خلاء إلى الغرفة التي فوقه، وفي الغرفة أيضاً خلاء آخر إلى سطحها، فلم يزل محبوساً فيه حتى تهيأ له الخروج في ليلة الفطر سنة تسع عشرة ومائتين.

قال: فحدثني علي بن الحسين بن عمر بن علي بن الحسين، وهو ابن عم أبيه، قال: أصبحت يوم الفطر، وأنا أتهيأ للركوب إلى المصلى، فأنا أشد منطقتي في وسطي، وقد لبست ثيابي أبادر الركوب إلى المصلى. فما راعني إلا محمد بن القاسم، قد دخل إلى منزلي، فملأني رعباً وذعراً. وقلت له: كيف تخلصت؟

فقال: أنا أدبر أمري في التخلص منذ حبست، ووصف لي الخلاء الذي كان في البيت الذي حبس فيه إلى الغرفة التي فوقه، والخلاء الذي كان في الغرفة إلى سطحها.

قال: وأدخل معي يوم حبست، لبد، فكان وطائي وفراشي. قال: وكنت أرى بغرش، وهي قرية من قرى خراسان، حبلاً تعمل من لبود، وتضفر كما يفعل بالسيور، فتجيء أحكم شيء، فسولت لي نفسي أن أعمل من اللبد الذي تحتي حبلاً وكان على باب البيت، قوم موكلون بي يحفظونني لا يدخل علي أحد منهم، إنما يكلموني من خلف الباب ويناولوني من تحته ما أتقوت به.

فقلت لهم: إن أظفاري قد طالت جداً، وقد احتجت إلى مقراض، فجاءني رجل يميل إلى مذهب الزيدية، بمقراض أحد جانيبه منقوش كأنه مبرد. وقلت لهم: إن في هذا البيت فاراً قد آذوني، ويقذرونني إذا قربوا مني، فاقطعوا لي جريدة من النخل أطردهم بها.

فقطعوا لي من بعض نخل البستان، جريدة، فرموا بها إليّ، وكنت لا أزال أضرب بها في البيت، أريهم أنني أطردهم الفار، وأسمعهم صوتها أياماً، ثم قشرت الخوص عنها، وقطعتها على مقدار ما ظننت أنه يعترض في ذلك الخلاء إذا رميت بها، فضمت ما قطعه منها بعضه إلى بعض، وقصصت

اللبد، وفتلت منه حبلاً، على ما كنت يعمل بغرش، ثم شددت ما قطعتة من الجريدة في رأس الحبل، ثم رميت به في الكوة، وعالجته مراراً حتى اعترض فيها، ثم اعتمدت عليها وصعدت إلى الغرفة، ومن الغرفة إلى السطح، ففعلت ذلك مراراً، في أيام كثيرة، وتمكنت من الحركة لأنني بردت بجانب المقرض إحدى حلقتي القيد، ولم يمكنني أن أبرد الأخرى، فكنت إذا أردت الحركة، شددت القيد مع ساقي، وأتحرك، وقد صرت مطلقاً.

فلما كان في هذه الليلة وقد شغل الناس بالعيد وانصرف من كان على الباب من الموكلين، فلم أحس منهم أحداً إلا شيخاً واحداً كنت أسمع كلامه وحركته، وأطلع فأراه.

فصعدت بين العشائين إلى الغرفة، ومن الغرفة إلى السطح، فأشرفت، فإذا المعتصم يفطر والناس بين يديه، والشموع تزهو، فرجعت.

فلما كان في جوف الليل صعدت والناس نيام، ونزلت إلى البستان، فإذا فيه قائد ومعه جماعة، فصاح بي بعضهم: من أنت؟ قلت: مديني من أصحاب الحمام، وكان في البستان منهم جماعة يشرفون على أمر الحمام.

فقال لي: إلى أين تخرج الساعة، إطرح نفسك حتى تصبح، وتفتح الأبواب، فطرحت نفسي بينهم، حتى فتح باب البستان في الغلس، وقد تحرك الناس. فصرت إلى دجلة لأعبر، فوجدت الشيخ الذي كان بقي من الموكلين بي يريد العبور، فنزلت لأعبر، فطلب مني الملاح قطعة، فقلت له: ما معي شيء، أنا رجل غريب ضعيف الحال.

فقال لي الشيخ: اعبر، فأنا أعطيه عنك، وأعطاه الشيخ عني قطعة، وعبرت حتى جئتكم.

قال علي بن الحسين: فقلت له: والله، ما منزلي لك بموضع، فاخرج عني من ساعتك، ولا تقم فيه لحظة، وركبت إلى المصلى. فصار إلى منزل رجل من الشيعة، فأخفاه⁽¹⁴⁰⁾.

المعتصم وتميم بن جميل

من لطائف الحكايات ما روي عن أحمد بن أبي دؤاد القاضي إنه قال: جيء بتميم بن جميل إلى المعتصم أسيراً، وكان قد خرج عليه فما رأيت رجلاً عرض عليه الموت فلم يكثرث به سواه، ثم دعا بالسيف والنطع، فلما مثل بين يديه نظر إليه، فأعجبه حسنه وقده ومشيه إلى الموت غير مكترث،

فأطال الفكر فيه ثم كلمه لينظر أين عقله ولسانه من جماله، فقال: يا تميم! إن كان لك عذر فانت به.

فقال: أما إذ أذن أمير المؤمنين في الكلام فإني أقول: الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه. وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. يا أمير المؤمنين! جبر الله بك صدع الدين ولم بك شعث المسلمين، وأخمد بك نار الباطل وأنار بك سبل الحق، إن الذنوب تخرس الألسنة وتصدع القلوب، وآيم الله لقد عظمت الجريمة، وانقطعت الحجة وساء الظن إلا فيك، وهو أشبه بك وأليق ثم أنشد يقول:

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً ... يلاحظني من حيث ما أتلقت
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي ... وأي امرئ مما قضى الله يفلت
ومن ذا الذي يدلي بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مصلت
يعز على الأوس بن تغلب موقف ... يسيل عليه السيف فيه ويسكت
وما جزعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أن الموت شيء مؤقت
ولكن خلفي صبية قد تركتها ... وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأنني أراهم حين أنعى إليهم ... وقد لطموا حمر الوجوه وصوتوا
فإن عشت عاشوا في سرور ونعمة ... أذود الردى عنهم، وإن مت موتوا
قال: فبكى المعتصم ثم قال: إن من البيان لسحراً، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: يا تميم، كاد والله أن يسبق السيف العذل. قد غفرت لك الهفوة ووهبتك للصبية.

ثم عقد له ولاية على عمله، وأعطاه خمسين ألف دينار، انتهى. من زهر الكمام في قصة يوسف عليه السلام. (141)

الطفيلي الأديب والمأمون

وروى بعض أهل الأدب أن فتى من أهل الكوفة قد فاق أهل زمانه في الأدب والبيان والفصاحة باللسان ناقداً في صناعته، حافظاً للأقدار، راوياً للأشعار، خبيراً بسير الملوك في الأيام السالفة، بصيراً بالبحث عن أمورهم في الأيام الآتية، حاذقاً في التصنيف، فائقاً في التأليف، صبيح الوجه، مقبول المشاهد، حلو الشمائل، وكان مع ذلك لا يتوجه له وجه من العمل إلا عارضه فيه عائق، وحال دونه حائل وقدر سابق، فبقي حيناً من الدهر، وقد برز في القدر والمال والجاه من كان عنده في الصناعة متأخراً، فضاق صدره وعيل صبره وضلت ومقاليد، فخرج إلى بغداد واكترى في بعض خاناتها منزلاً وأجمع

رأيه على أن يحمل نفسه على خطب هائل ليكون فيه هلكه أو ملكه، وتربص لذلك أن يرى وجهاً إلى أن عزم أمير المؤمنين أن يشرب يوماً هو وصنوه المعتصم، فأمر المأمون بالاستعداد ليوم سماه ليخلو فيه مع الجواري، منفردين عن سائر الندماء، فظهر خبرهما بذلك. وعرف الناس ذلك اليوم الذي عزم عليه، فعزم هذا الأديب المذكور على أن يتطفل في ذلك على المأمون وأخيه المعتصم، فمضى إلى إخوانه وأصدقائه فاستعار من هذا قباء وجبة وردية، ومن آخر منطقة وخفاً وسيفاً، ومن آخر برذوناً، ومن آخر ما يحتاج إليه من الطيب واستعد لذلك اليوم، ودخل الحمام سحراً، وتطيب، ولبس وركب عند طلوع الشمس إلى دار المعتصم وقال للحاجب: عرف الأمير أنني رسول أمير المؤمنين واستأذن لي عليه. فسعى الحاجب عدواً حتى أخبر المعتصم، فأذن له. فلما دخل عليه، وتمثل بين يديه، قال له: سيدي إن أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول لك: أنسيت الوعد، ألم يقدم إليك بالركوب لنخلو ونستريح يوماً هذا؟ قال المعتصم: لا والله ما نسيت ذلك، ولكن تربصت ساعة. ونمت نوماً لاتقوى بذلك على انتصاب سائر النهار.

فقال الفتى: فعجل الآن أيها الأمير، فإنه أمرني أن لا أفارقك حتى آتية بك. فأمر المعتصم بإسراج مركوبه وأسرع في التأهب، ولبس ثيابه وتطيب وركب الفتى معه، والمعتصم لا ينكر شيئاً من كلام الفتى ويتأمل لطافته وهيئته، ولم يتوهم إلا أنه من بعض خواص المأمون، وأخذ الفتى يحدث المعتصم وأقبل عليه بكليته، ولم يتمكن من سؤاله شهوة لاستماع حديثه، حتى بلغ باب الخليفة فألقى الفتى نفسه عن دابته، وأخذ يمشي بين يديه، والحجاب لا ينكرون منه شيئاً ويظنون أنه من خدم المعتصم، حتى نزل المعتصم، وأخذ الفتى بركابه، ودخل المجلس، فلما استقر المعتصم في مجلسه جلس الفتى بين يديه، وهو منهمك في نوادره وأخباره والمعتصم مصغٍ إليه تعجباً مما يسمع من حسن كلامه، وأخبر المأمون أن المعتصم قد وصل ومعه رقيق لا يعرف من هو (142).

فقال المأمون: أخي قد عرف أن هذا المجلس اتفقنا عليه لا ينبغي أن يحضره أحد من الناس إلا من هو عدل النفس. وقد أحسن أخي إذ جعل لنا ثالثاً، فإن المجلس إذا لم يحضره أكثر من اثنين تعطل لقيام أحدهما إلى الصلاة وإلى ما لا بد منه، ثم خرج من ساعته فرحاً وليس له همة إلا تصفح وجه الغلام

واستنطاقه واعتبار قده وعقله، فلما استقر على سرير ملكه والفتى عالم بما وقع في نفس المأمون نهض قائماً فقبل يد المأمون، وعاد إلى مجلسه وأخذ في نوادره وحديثه ومضحكاته وحسن أخباره وغرائب أشعاره كأنه يغرف من بحر، وهو مع ذلك يوهم المأمون أنه من خواص المعتصم. فساعة يكنيه وساعة يسميه حتى غلب على قلب المأمون، وأظهر الحسد لأخيه في صحبة مثل هذا الغلام وكلامه، وأمر المأمون بإحضار المائدة، فنصبت بأنواع الطعام، فأكلوا وغسلوا أيديهم، ولمجلس الشراب انتقلوا، وأمر المأمون بإحضار الجواري من غير ستارة، فحضرن وأخذن في الغناء، فما من صوت يمر إلا والفتى عارف به، وبالغناء، ومتى قيل وفيمن قيل، فعز في عين المأمون حتى ملأ عينه، وتزايد حسده لأخيه في صحبة مثله فمس الفتى بولاً، ولم يجد للمدافعة سبيلاً، فقام وهو متيقن أنهما سيذكرانه، ويتواصفان أمره وحاله، إذا خلا المجلس، فما هو إلا أن غاب من بين أيديهما حتى قال المأمون لأخيه المعتصم يا أبا إسحاق من صاحبك هذا؟ فوالله ما رأيت رجلاً قط أكثر منه أدباً ولا أنظف هيئة ولا أشرف من شمائله. فقال المعتصم: والله ما أعلم من هو، وإنما جاءني مبكراً برسالة أمير المؤمنين.

فقال المأمون: سألتك بالله يا أخي أهو كذلك؟ فقال: إي والله الذي لا إله إلا هو.

فقال المأمون: طفيلي، ورب الكعبة، وغضب وأمر الجواري بالنهوض، فنهض وأقبل الفتى راجعاً فلما نظر إلى خلو المجلس من الجواري وإلى تغير وجه المأمون، وقف على رأس المجلس وأقبل بوجهه على المعتصم وقال: يا أبا إسحاق! كائي بك قد أخذت في نوع الزور والبهتان، وهذا المجلس من المجالس التي لا تحمل المزاح، وما هكذا وعدتني. ثم قل: والله يا أمير المؤمنين، ما بليت من أحد من الناس مثل ما بليت من هذا لأنه دائماً أبداً يعرضني لمثل هذا وأشباهه، ويغري بي ويوقعني في كل ورطة. ثم أقبل على المعتصم وقال: يا أبا إسحاق، سألتك بالله وبحق أمير المؤمنين إلا ما أعفيتني من ملاعبتك التي لا تحتمل وتؤدي إلى مؤاخضة أمير المؤمنين. ولم يزل يأتي بهذا وأمثاله حتى شك المأمون في أمره والتفت إلى أخيه المعتصم وقال: سألتك بالله يا أخي، بحياتي عليك إلا ما علمتني بحقيقة أمره؟ فقال المعتصم: يا أمير المؤمنين برئت من ذمة الله ورسوله ومن حياتك وولايته إن كنت عرفه أو رأيته قط إلا في يومي هذا.

فقال الفتى: كذب والله يا أمير المؤمنين لقد كنت معه دهري الطويل وفي موضع كذا وكذا، وإن هذا فعله معي أبداً.
فضحك المأمون تعجباً، وقال: ادخل فدخل، وأمره بالجلوس فجلس، ثم قال لك الأمان إن صدقتني.

فصدقه الحديث على وجهه فأعجب من حسن منطقه ولطف مدخله ودقيق تصرفه وأمر بإعادة الجواري إلى مجلسهن، فطربوا سائر يومهم. فقال له المأمون: أخبرني بأعجب ما لحقك في قدومك من الكوفة إلى بغداد واجعله نظماً ولا تكتم عني شيئاً.
فقال: نعم، ثم أنشأ يقول:

بينما أنا راقد في البيت مكتئب ... مفكر في حصول الكد والقوت
وليس في البيت لي شيء ألم به ... وبني من الجوع ما يدني إلى الموت
إذا بصوت بباب الدار أسمع ... والأذن مصغية مني إلى الصوت
ناديت من ذا الذي أرجوه لي فرجاً؟ ... نادى: أنا فرجُ زن لي كرا البيت
فضحك المأمون حتى استلقى على فراشه، ثم ضرب برجله الأرض من شدة إعجابه وقال: ثم ماذا؟ قال: يا أمير المؤمنين فخرجت فإذا هو صاحب الخان يطالبني بالكراء، فوعده بأن يرجع إلي مرة أخرى، فمضى ومضيت على وجهي لا أعلم أين أتوجه، فسألت كل من لقيته من صديق لي كنت أستأنس به فخطر على بالي بيتان من الشعر في ذلك وهما.

غريب الدار ليس له صديق ... جميع سؤاله: أين الطريق؟
تعلق بالسؤال لكل شخص ... كما يتعلق الرجل الغريق
فأشرفت يا أمير المؤمنين علي جارية كأنها البدر ليلة كماله، وهي تقول:
ترفق يا غريب فكل حر ... يمر بحاله سعة وضيق
وكل ملمة إن أنت فيها ... صبرت لها أتيح لها طريق
ثم قالت: خذ هذه فادفع بها فافتك، فوالله ما هي إلا مؤساة من قوت، ورمت إلى صدري بقرطاس، وإذا فيه عشرة دراهم، فرجعت من فوري، فوجدت صاحب الكراء قائماً على الباب، فدفعت إليه خمسة دراهم، واستعنت بالباقي إلى أن وقعت هذه القصة، وهذا الأمر الذي كلفني وحملني على ما فعلت وأنشأ يقول:

لم آتِ فعلاً غير مستحسن ... جهلاً بفعل الأحسن الأملح
لكنني في حالة أوجبت ... ضرورة إتيان مستقبح

فأعجب المأمون أمره واستحسنه وأمر له بمائة ألف درهم يصلح بها شأنه وألحقه بمراتب الخاصة، ورفعت منزلته، وصار أقرب الناس إليه، وآخر خارج من عنده وأول داخل إليه، وسمي طفيلي المعتصم، وأنشد للمأمون يوماً يقول:

كانت لقلبي أهواء مفرقة ... فاستجمعت مذ رأتك العين أهوالي
تركت للناس دنياهم ودينهم ... شغلاً بذكرك عن ديني ودنيائي
وصار يحسدني من كنت أحسده ... وصرت مولى الوري مذ صرت مولائي
فاستحسن المأمون الأبيات، وأمر بكتبتها على الستارة، وصار الفتى إذا حضر يوم سرور المأمون لم يكن للمأمون هم إلا اقتراح هذه الأبيات إلى أن ينقضي المجلس، ثم إن الفتى بعد أن حسنت حالته، أرسل إلى الدار التي أشرفت عليه منها الجارية، فإذا هي لرجل من أهل بغداد من مباشريها، وقد مات ولم يخلف ولداً سوى تلك الجارية، وما مات حتى تضعع حاله، فأعلم المأمون بذلك، فمر بخطبتها للفتى ودفع المهر من عنده وصار الفتى والجارية في نعمة عظيمة بقية عمرهما والله أعلم⁽¹⁴³⁾.

مخارق المغني والجارية الحسناء

وذكر صاحب تاريخ بغداد عن مخارق المغني قال: تطلت طفيلة قامت على أمير المؤمنين المعتصم بتسعين ألف درهم.
قيل له: كيف ذلك؟ قال: شربت معه ليلة إلى الصبح، فلما أصبحنا قلت له: يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن أخرج إلى الرصافة، فأتسم إلى وقت انتباه أمير المؤمنين.

قال: نعم، فأمر البوابين أن يتركوني، فخرجت أتمشى في الرصافة، وإذا بجارية كأن الشمس تشرق من جبينها، فتبعتها ورأيت معها زنبيلاً فوقفت على فاكهاني، واشترت سفرجلة بدرهم، وانصرفت فتبعتها، فالتفت فرأيتني فقال: يا ابن الفاعلة إلى أين؟ قلت: خلفك يا سيدتي؟ فقالت: ارجع يا ابن الزانية لنلا يراك أحد فيقتلك؟ فتأخرت ومشيت وتمشت أمامي ثم التفت فرأيتني، فشتمتني شتماً قبيحاً ثم جاءت إلى دار كبيرة، فدخلت فيها، وجلست أنا عند الباب، وقد ذهب عقلي ونزلت علي الشمس، وكان يوماً حاراً، فلم ألبث أن جاء فتیان كأنهما بدران على حمارين، فلما وصلا إلى الباب أذن لهما، فدخلا ودخلت معهما، فظنا أن صاحب المنزل قد دعاني، وحيء

بالطعام، فأكلنا وغسلنا أيدينا، فقال لنا صاحب المنزل: هل لكم في فلانة؟ فقالوا: إن تفضلت.

قال: فاستدعي بتلك الجارية، فخرجت فإذا هي صاحبتني ووراءها وصيفة تحمل عودها، فوضعت في حجرها فغنت وشربوا وطربوا، وهي تلحظني وتشك في، فقالوا: لمن هذا الصوت؟ فقالت: لسيدي مخارق. فلم ألبث أن قلت: يا جارية شدي يدك، فشدت أوتارها وخرجت عن إيقاعها الذي تقول عليه. قال: فاستدعيت بمدورة وقضيب وغنيت الصوت الذي قالته الجارية، فقاموا إلي وقبلوا رأسي.

قال: وكان مخارق من أحسن الناس صوتاً وكان يوقع بالقضيب توقيعاً عجيباً.

قال: ثم غنيت الصوت الثاني والثالث، فكادت عقولهم تطير فقالوا: بالله من أنت يا سيدي؟ فقلت: مخارق.

فقالوا: وما سبب مجيئك؟ قلت: طفيلي أصلح الله شأنكم. وأخبرتهم بخبري. فقال صاحب البيت لصديقيه: أما تعلمان ني أعطيت في هذه الجارية ثلاثين ألف درهم فامتنعت عن بيعها؟ قالوا: نعم.

قال: هي له.

فقال صديقه: علينا عشرون ألف درهم وعليك عشرة آلاف درهم.

قال مخارق: فملكوني الجارية، وجلست عندهم إلى العصر وانصرفت بها وكلما مررت بالمواضع التي شتمتني فيها أقول: يا مولاتي، أعيدي كلامك فتستحي مني، فأحلف عليها لتعيدنه، فتعيده حتى وصلت إلى أمير المؤمنين فقبل لي أنه انتبه فطلبك في منازل أبناء القواد فلم يجدك، وتغيظ غيظاً شديداً، فدخلت عليه ويدي في يدها، فلما رآني سبني وشتمني، فقلت: يا أمير المؤمنين لا تعجل! وحدثته الحديث فضحك، وقال: ها نحن نكافئهم عنك، فأحضرهم وأمر لكل واحد منهم بثلاثين ألف درهم، والله أعلم، انتهى⁽¹⁴⁴⁾.

توبة المعتصم ورجوعه عن قتل تميم بن جميل

قال ووجدت في بعض الكتب قال أحمد بن أبي دواد ما رأيت رجلاً قط أشرف على الموت فما شغله ولا أذهله عما يريد حتى بلغه وخلصه الله عز وجل إلا تميم بن جميل فإني رأيته بين يدي المعتصم وقد بسط له النطع وانتضي له السيف وكان رجلاً جسيماً وسيماً فأحب المعتصم أن يستنطقه لينظر أين منظره من مخبره فقال له تكلم فقال أما إذ أذن أمير المؤمنين فالحمد لله الذي

أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين السجدة 7 8 يا أمير المؤمنين جبر الله بك صدع الدين ولم بك شعث المسلمين إن الذنوب تخرس الألسنة وتخلع الأفئدة وإيم الله لقد عظمت الجريمة وانقطعت الحجة وساء الظن ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك ثم أنشأ يقول

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا ... يلاحظني من حيث ما أتلفت
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي ... وأي امرئ مما قضى الله يقلت
وأي امرئ يدلي بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مصلت
وما جزعي من أن أموت فإنني ... لأعلم أن الموت شيء مؤقت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم ... وأكبادهم من حرها تتفتت
فإن عشت عاشوا سالمين بغبطة ... أدود العدى عنهم وإن مت موتوا
كأنني أراهم حين أنعى إليهم ... وقد لطموا تلك الخدود وصوتوا
قال : فاستعبر المعتصم ثم قال يا تميم قد عفوت عن الهفوة ووهبتك للصبية
ثم أمر به ففك خديده وخلع عليه وعقد له على سقي الفرات (145)
توبة لص من اللصوص عن التعرض للناس
أخبر أبو بكر الصولي، قال: حدثنا محمد بن القاسم بن خلاد، قال: رفع بعض
العمال إلى المعتصم، وكان يلي الخراج بموضع يلي فيه خالد بن يزيد الحرب،
أن خالد بن يزيد اقتطع الأموال واحتجج بعضها.
فغضب المعتصم، وحلف ليأخذ أموال خالد، ويعاقبه.
فلجأ خالد إلى أحمد بن أبي دؤاد القاضي، فاحتال حتى جمع بينه وبين
خصمه، فلم تقم على خالد حجة.
فعرف ابن أبي دؤاد المعتصم ذلك، وشفع إليه في خالد، فلم يشفعه.
وأحضر خالدًا، وأحضر آلات العقوبة، وقد كان قبل ذلك، قبض أمواله،
وضياعه، وصرفه عن العمل.
وحضر ابن أبي دؤاد المجلس، فجلس دون الناس.
فقال له المعتصم: ارتفع إلى مكانك.
فقال: يا أمير المؤمنين، ما أستحق إلا دون هذا المجلس.
قال: وكيف؟ قال: الناس يزعمون أن ليس محلي محل من شفع في رجل
قرف بما لم يصح عليه فلم يشفع.

145 (عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي أبو محمد، التوابين ، تحقيق : عبد القادر الأرناؤوط ، دار الكتب العلمية - بيروت ، 1403 - 1983 ، ص 280

قال: ارتفع إلى موضعك.
قال: مشفعاً أو غير مشفع ؟ قال: مشفعاً، قد وهبت لك خالداً، ورضيت عنه.
قال: الناس لا يعلمون بهذا.
قال: وقد رددت عليه العمالة، والضياع، والأموال التي له.
قال: ويشرفه أمير المؤمنين بخلع تظهر للعمامة.
فأمر أن تفك قيوده ويخلع عليه، ففعل به ذلك، ورد إلى حضرته.
فقال ابن أبي دؤاد: قد استحق هو وأصحابه رزق ستة أشهر، فإن رأى أمير المؤمنين، أن يجعلها صلة له.
قال: لتحمل معه.

فخرج خالد، والناس منتظرون الإيقاع به، فلما رأوه على تلك الحال، سروا، وصاح به رجل: الحمد لله على خلاصك يا سيد العرب.
فقال: مه، سيد العرب - والله - ابن أبي دؤاد، الذي طوقني هذه المكرمة التي لا تنفك من عنقي أبداً لا أنا.

وفي هذه القضية، يقول أبو تمام الطائي:
يا سائلي عن خالد وفعاله ... رد فاغترف علماً بغير رشاء
قد كان خطب عاثر فاقاله ... رأي الخليفة كوكب الخلفاء
فخرجت منه كالشهاب ولم تزل ... مذ كنت خراجاً من الغمء
ما سرّني بخروجه من حجة ... ما بين أندلس إلى صنعاء⁽¹⁴⁶⁾

انقاذ أبي دلف من موت محقق

كان ابتداء العداوة بين أبي عبد الله أحمد بن أبي دؤاد، وبين الإفشين، أن الإفشين كان أغرى المعتصم بأبي دلف القاسم بن عيسى العجلي، لعداوة كانت بينهما، فسلمه إليه المعتصم، فأجمع على قتله من يومه ذاك.
وبلغ الخبر أبا دلف، فارتحل إلى ابن أبي دؤاد، فاستجار به، وعرفه ما قد أشرف عليه.

فجاء ابن أبي دؤاد إلى المعتصم ليسأله عن أمره، فوجده نائماً، فكره أن يقيمه وينبهه، وخاف أن يشرع الإفشين في قتل أبي دلف، فجاء إلى الإفشين فقال له: يقول لك أمير المؤمنين، بلغني أنك تريد أن تحدث على القاسم بن عيسى حادثة، ووالله لئن فعلت لأقتلنك، ولم يكن المعتصم أرسله، ولا قال له شيئاً.
فرهب الإفشين أن يقتل أبا دلف.

وعاد ابن أبي دؤاد إلى المعتصم، فقال له: يا أمير المؤمنين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس الكذاب من أصلح بين الناس، فقال خيراً، ومنى خيراً، وقد أدبت عنك رسالة أحييت بها أهل بيت من المسلمين، وكففت بها أسياف خلق من العرب، بلغني أن الإفشين عزم على قتل القاسم بن عيسى العجلي، فأدبت إليه عنك رسالة هي كذا وكذا، فحققت دم الرجل، ونعشت عياله، وكففت عنك عصيان عجل ومن يتبعها ممن يتعصب له فيتفق عليك من ذلك ما تغتم به، والرجل في يده مشف على القتل. فقال له المعتصم: قد أحسنت.

ووجه الإفشين إلى ابن أبي دؤاد: لا تأتيني، ولا تقربني. فقال للرسول: أتؤدي عني كما أدبت إلي؟ قال: قل. قال: قل له: ما آتيك تعزراً من ذلة، ولا تكثراً من قلة، وإنما أنت رجل ساعدك زمان، ورفعك سلطان، فإن جئتك فله، وإن تأخرت عنك فلنفسك. أخبرني القاضي أبو طالب محمد بن إسحاق بن البهلول التنوخي، فيما أجاز لي روايته عنه، بعدما سمعته منه، قال: حدثنا محمد بن خلف، وكيع القاضي، قال: أخبرنا موسى بن جعفر، أخو لعس الكاتب، قال: كان أحمد بن أبي دؤاد حين ولي المعتصم الخلافة، عادى الإفشين وحرص عليه المعتصم، وذكر حديثاً طويلاً، ليس هذا موضعه.

ثم قال فيه: وكان سبب العداوة بين أحمد بن أبي دؤاد، وبين الإفشين، أن الإفشين أراد قتل أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي، فاستجار بابن أبي دؤاد، ثم ذكر نحوه مما ذكرته عن أبي رضي الله عنه، إلا أنه لم يقل في خبره أن ابن أبي دؤاد جاء إلى المعتصم فوجده نائماً، ثم عاد فوجده قد انتبه، وقال في آخر حديثه: وإنما أنت رجل رفعتك دولة، فإن جئت فلها، وإن قعدت فعنك. وأخبرني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني، قال: قال أحمد بن أبي طاهر: كان أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي، في جملة من كان مع الإفشين خيذر بن كاوس لما خرج لمحاربة بابك، ثم تنكر له، فوجه من جاءه به ليقتله. وبلغ المعتصم الخبر، فبعث إليه بأحمد بن أبي دؤاد، وقال له: أدركه، وما أراك تدركه، واحتل في خلاصه منه كيف شئت.

قال أحمد: فمضيت ركضاً، حتى وافيته، فإذا أبو دلف واقف بين يديه، وقد أخذ بيده غلامان له تركيان، فرميت بنفسي على البساط، وكنت إذا جئته دعا لي بمصلى.

فقال: سبحان الله، ما حملك على هذا ؟ قلت: أنت أجلسني هذا المجلس، ثم كلمته في القاسم بن عيسى، وسألته فيه، وخضعت له، فجعل لا يزداد إلا غلظة.

فلما رأيت ذلك منه، قلت، هذا عبد، وقد أغرقت في الرقة معه فلم تنفع، وليس إلا أخذه بالرهبة.

فقلت، وقلت: كم تراك قدرت في نفسك تقتل أولياء أمير المؤمنين واحداً بعد واحد، وتخالف أمره في قائد بعد قائد ؟ قد حملت إليك هذه الرسالة عن أمير المؤمنين، فما تقول ؟ فقل، وذل، حتى لصق بالأرض، وبان لي الاضطراب فيه.

فلما رأيت ذلك، نهضت إلى أبي دلف، فأخذت بيده، وقلت: قد أخذته بأمر أمير المؤمنين.

فقال: لا تفعل، يا أبا عبد الله.

فقلت: قد فعلت، وأخرجت القاسم، وحملته على دابة، ووافيت المعتصم. فلما بصر بي، قال: بك يا أبا عبد الله وريت زنادي، ثم سرد علي خبري مع الإفشين، حديثاً ما أخطأ فيه حرفاً.

ثم سألتني: هل هو كما قال ؟ فأخبرته أنه لم يخطيء حرفاً واحداً.

وأخبرني أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر، المعروف بالحاتمي، قال: حدثني أبي، قال: حدثني جدك المظفر بن الحسن، قال: حدثني أبو العباس ابن الفرات قال: حدثني أبو إسحاق إبراهيم بن ثوابة، قال: كان الإفشين نقم على أبي دلف العجلي، وهو مضموم إليه في حرب بابك، أشياء، فلما ظفر بابك، وقدم سر من رأى، شكاه إلى المعتصم، وسأله ليأمره به، ففعل، ثم سأله أن يطلق يده عليه، فلم يفعل، وكان أحمد بن أبي دؤاد متعصباً لأبي دلف، يقول للمعتصم: إن الإفشين ظالم له، وإنما نقم عليه نصيحته في محاربة بابك، وجده فيها، ودفعه ما كان الإفشين يذهب إليه من مطاولة الأيام، وإنفاق الأموال، وانبساط اليد في الأعمال، وتركه متابعتة على ذلك.

فألح الإفشين على المعتصم بالله في إطلاق يده عليه، وكان للإفشين قدر جليل عند المعتصم، يدخل عليه بغير إذن.

قال أبو إسحاق، وأنبأنا أبو عبد الله بن أبي دؤاد، قال: دخلت على المعتصم يوماً، فقال: يا أبا عبد الله، لم يدعني اليوم أبو الحسن الإفشين حتى أطلقت يده على القاسم بن عيسى.

فقلت من بين يديه، وما أبصر شيئاً خوفاً على أبي دلف، ودخلني أمر عظيم، وخرجت فركبت دابتي، وسرت أشيد سير من الجوسق إلى دار الإفشين بقرب المطيرة، أوئل أن أدرك أبا دلف قبل أن يحدث الإفشين عليه حادثة.

فلما وقفت ببابه، كرهت أن أستأذن فيعلم أنني قد حضرت بسبب أبي دلف، فيعجل عليه، فدخلت على دابتي إلى الموضع الذي كنت أنزل فيه، وأوهمت حاجبه أنني قد جئت برسالة المعتصم، ثم نزلت، فرفع الستر، فدخلت، فوجدت الإفشين في موضعه، وأبو دلف مقيد بالحديد بين يديه في نطع، وهو يقرعه، ويخاطبه بأشد غضب وأعظم مخاطبة.

فحين قربت منه أمسك، فسلمت، وأخذت مجلسي، ثم قلت للإفشين: قد عرفت حرمتي بأمر المؤمنين، وخدمتي إياه، وموضعي عنده، وموقعي من رأيه، وتفردته بالصنيعة عندي والإحسان، وعلمت مع ذلك ميلي إليك، ومحبتني لك، وقد رغبت إليك فيما يرغب فيه مثلي إلى مثلك، ممن رفع الله قدره، وأجل خطره، وأعلى همته.

فقال: كل ما قلت كما قلت، وكل ما أردت فهو مبذول لك، خلا هذا الجالس، فإني لا أشفعك فيه.

فقلت: ما جئتك إلا في أمره، ولا ألتمس منك غيره، ولولا شدة غضبك، وما تتوعده به من القتل، لكان في جميل عفوك ما يغني عن كلامك، ولكني لما عرفت غيظك، وما تنقمه عليه، احتجت - مع موقعه مني - إلى كلمة في أمره، واستيهاب عظيم جرمه، إذ كان مثلك في جلالتك إنما يسأل جلائل الأمور.

فقال: يا أبا عبد الله، هذا رجل طلب دمي، ولم تقتعه إزالة نعمتي، ولا سبيل إلى تشفيك فيه، ولكن هذا بيت مالي، وهذه ضياعي، وكل ما أملك بين يديك، فخذ من ذلك كله ما أردت.

فقلت: بارك الله لك في أموالك وثمرتك، لم آت في هذا، وإنما أتيتك في مكرمة يبقى لك فضلها، وحسن أحوثتها، وتعتقد بها منة في عنقي، ولا أزال مرتهاً في شكرها.

فقال: ما عندي في هذا شيء البتة.

فقلت له: القاسم بن عيسى فارس العرب وشريفها، فاستبقه، وأنعم عليه، فإن لم تره لهذا أهلاً، فهبه للعرب كلها، وأنت تعلم أن ملوك العجم لم تزل تفضل على ملوك العرب، ومن ذلك ما كان من كسرى إلى النعمان حتى ملكه،

وأنت الآن بقية العجم وشريفها، والقاسم شريف العرب، فكن اليوم شريفاً من العجم أنعم على شريف من العرب، وعفا عنه.

فقال: ما عندي في هذا جواب إلا ما سمعت، وتتكبر، وتبينت الشر في وجهه. فقلت في نفسي: أنصرف، وأدع هذا يقتل أبا دلف؟ لا والله، ولكن أمثل بين يديه قائماً، وأكلمه، فلعله أن يستحي، ففقت، وتوهمني أريد الانصراف، فتحفز لي.

فقلت: لست أريد الانصراف، وإنما مثلت بين يديك قائماً، صابراً، راغباً، ضارعاً، سائلاً، مستوهباً هذا الرجل منك.

فكان جوابه أغلظ.

فتحيرت، وقلت في نفسي: أنكب على رأسه، فأقبله. فدخلني من ذلك أنف شديد، وقلت في نفسي: أقبل راس هذا الأقف؟ لا يكون هذا أبداً. ثم راجعتني الشفقة على أبي دلف، فقبلت رأسه، وضرعت إليه، فلم يجبني، فأخذني ما قدم وما حدث.

فجلست، وقلت له: يا أبا الحسن، قد طلبت منك، وضرعت إليك، ووضعت خدي لك، ومثلت بين يديك، وقبلت رأسك، فشفعني، واصرفني شاكراً، فهو أجمل بك.

فقال: لا والله، ما عندي غير الذي قلته لك.

فقلت له: أنا رسول أمير المؤمنين إليك، وهو يقول لك: لا تحدث في القاسم بن عيسى حدثاً، فإنك إن قتلته قتلت به.

قال: أمير المؤمنين يقول هذا بعد أن أطلق يدي عليه؟ قلت: نعم، أنا رسوله إليك بما قلته لك، فإن كنت في الطاعة فاسمع وأطع، وإن كنت قد خلعت، فقل: لا طاعة، ونفصت في وجهه يدي، ونهضت.

فاضطرب حتى لم يقدر أن يدعو لي بدابتي.

وركبت، فأغذذت السير إلى المعتصم، لأخبره الخبر، وبما اضطرت إليه من تأدية رسالته، لأنني علمت أنه لم يقل لي ما قلته، إلا وهو يحب استبقاء أبي دلف.

فانتهيت إلى الجوسق في وقت حار، والحجاب جميعاً نيام، والدار خالية، فدخلت حتى انتهيت إلى ستر الدار التي فيها المعتصم، فجلست، وقلت: إن جاء الإفشين دخلت معه وتكلمت، وإن سأل الوصول، أخبرت أمير المؤمنين الخبر كله.

فبينما أنا كذلك، إذ خرج خادم من وراء الستر، فعرفته، ثم دخل وخرج فقال: ادخل.

فدخلت، وقلت: يا أمير المؤمنين، أما لي حرمة؟ أما لي ذمام؟ أما لي حق؟ أما في فضل أمير المؤمنين علي، ونعمته عيدي، ما تجب رعايته؟ فقال: ما لك يا أبا عبد الله؟ ما قصتك؟ اجلس، فجلست.

ثم قلت: يا أمير المؤمنين، قلت لي اليوم في القاسم بن عيسى قولاً علمت معه أنك أردت استبقاءه وحقن دمه، فمضيت من فوري إلى أبي الحسن الإفشين، ثم قصص عليه القصة إلى موضع الرسالة التي أدبتها عنه إليه، وهو في كل ذلك يتغيظ، ويقتل سباله، حتى إذا أردت أن أعرفه الرسالة التي أدبتها عنه، قطع، وقال: يمضي قاضي، وصنيعتي أحمد بن أبي دواد إلى خيذر، فيخضع له، ويقف بين يديه، ويقبل رأسه، فلا يشفعه؟ قتلني الله إن لم أقتله، يكررها.

فما استوفى كلامه، حتى رفع الستر ودخل الإفشين، فلقاه بأكبر البر والإكرام، وأجلسه بقربه، وقال: في هذا الوقت الحار يا أبا الحسن؟ فقال: يا أمير المؤمنين، رجل قد عرفت ما نالني منه، وأنه طلب دمي، وقد أطلقت يدي عليه، يجيئني هذا، ويقول لي إنك بعثت إلي تأمرني أن لا أحدث فيه حدثاً، وأنا إن قتله قتلت به؟ قال: فغضب، وقال: أنا أرسلته إليك، فلا تحدث على القاسم بن عيسى حدثاً.

فنهض الإفشين مغضباً يدمدم، واتبعته لأتلافاه، فصاح بي المعتصم: ارجع يا أبا عبد الله، فرجعت، وقلت: يا أمير المؤمنين، إنه كان بقي شيء ما جرى مني قطعني بكلامك عن ذكره لك.

قال: تعني الرسالة؟ قلت: نعم.

قال: قد فهمتها، والقاسم يوافيك العشية، فاحذر أن تفوه بشيء مما جرى. ومضى الإفشين، فأطلق القاسم، وخلع عليه، وحمله، فجاءني القاسم من العشية.

وما أخبرت بالحديث حتى قتل الإفشين ومات المعتصم⁽¹⁴⁷⁾.

وأنا طلقت بلا علة

عن إسحاق قال كنا عند المعتصم فعرضت عليه جارية فقال كيف ترونها فقال واحد من الحاضرين امرأتي طالق إن كان الله عز وجل خلق مثلها وقال الآخر امرأتي طالق إن كنت رأيت مثلها وقال الثالث امرأتي طالق وسكت فقال

المعتصم إن كان ماذا فقال إذا كان لا شيء فضحك المعتصم حتى استلقى وقال ويحك ما حملك على هذا قال يا سيدي هذان الاحمقان طلقا لعة وأنا طلقت بلا لعة⁽¹⁴⁸⁾ .

نديم ينتقم من صاحب بيت المال

كان على بيت مال المعتصم رجل من أهل خراسان يكنى أبا حاتم، فخرجت لي جائزة فمطنتي بها، وكان ابنه قد اشترى جارية مغنية تسمى قاسم بستين ألف درهم، قال: فعملت فيه شعراً وجلست ألاعب المعتصم بالشطرنج في يوم الخمار، وكان يشرب يوماً ويستريح يوماً فيلعب فيه ونلعب بين يديه، فجعلت أنشد:

لنتصفني يا أبا حاتم ... أو لتصيرن إلى حاكم
فتعطي الحق على ذلة ... بالرغم من أنفك ذا الراغم
يا سارقاً مال إمام الهدى ... سيظهر الظلم على الظالم
ستين ألفاً في شرا قاسم ... من عل هذا الملك الفئم
فقال له: ما هذا الشعر؟ فتفازعت كآتي أنشدته ساهياً ولجلجت، فقال: أعدته فقتل: إن رأى أمير المؤمنين أن يعفيني، وإنما أريد أن يحرص على أن يسمعه، فقال: أعدته ويلك، فأعده، فقال: ما هذا؟ فقتل: أظن صاحب بيت المال مطل بعض هؤلاء الشعراء بشيء له فعمل فيه هذا الشعر، قال: فما معنى قاسم؟ قلت: جارية اشتراها ابنه بستين ألف درهم، قال: وأراني أنا الملك النائم صدق والله قائل هذا الشعر، والله لو عرفته لوصلته لصدقته، رجل مملق وليته بيت المال ليعيش برزقه منذ سنتين، من أين لابنه هذا المال؟ ثم قال لإيتاخ: قيد صاحب بيت المال وابنه حتى تأخذ منهما مائتي ألف درهم وول بيت المال غيره⁽¹⁴⁹⁾.

مكافأة بغا على شجاعته

كان عبد الله بن طاهر قد أهدى للمعتصم شهرين ملمعين ذكر أن خراسان لم تخرج مثلهما، فسأله بغا أن يحمله على أحدهما فأبى وقال: تخير غيرهما ما شئت فخذ، قال: فخرجنا ولم يأخذ شيئاً فلما كنا بطبرستان عرض له قوم من أهلها، فقالوا: أعز الله الأمير! إن في بعض الغياض سبعا قد استكلب على الناس وأقناهم، فقال: إذا أردت الرحيل غداً فكونوا معي حتى تقفوني على

¹⁴⁸ (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ، أخبار الحمقى والمغفلين ، المكتب التجاري

– بيروت ، 193/1

¹⁴⁹ (المعافى بن زكريا، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 85/1

موضعه، قال: فلما رحلنا من غد حضر جماعة منهم فانفرد معهم في عشرين فارساً من غلمانه، ومعه قوسه ونشابتان في منطقته، قال: فصاروا به إلى الغيضة فثار السبع في وجهه من بينهم، قال: فحرك فرسه من بين يديه وأخذ نشابة من النشابتين فرماه في استه، فمر السهم فيها إلى الريش، وركب السبع رأسه، قال: وعاد بغا إليه فما اجتراً أحد على النزول إليه حتى نزل بغا فوجده ميتاً، قال: فشبرناه فكان من رأسه إلى رأس ذنبه ستة عشر شبراً، ووجدناه أحص الشعر إلا معرفته، قال: فكتبنا بخبره إلى المعتصم، فلحقنا جواب كتابنا بحلولان يذكر فيه أنه قد تفاعلت بقتل السبع، ورجا أن يكون من علامات الظفر ببابك، وأنه قد وجه إلى بغا بالشهربين اللذين كان طلب أحدهما فمنعه، وبسبع خلع من خاصة خلعه وثيابه، وخمس مائة ألف درهم صلة له وجزاء على قتله السبع، قال: وإنما أراد المعتصم بذلك إضراؤه على طاعته ومجاهدة عدوه⁽¹⁵⁰⁾.

كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العذل

قال أحمد بن أبي داود: ما رأينا رجلاً نزل به الموت فما شغله ذلك ولا أذهله عما كان يحب أن يفعله إلا تميم بن جميل، فإنه كان تغلب على شاطئ الفرات، وأوفى به الرسول باب أمير المؤمنين المعتصم في يوم الموكب حين يجلس للعامّة، ودخل عليه، فلما مثل بين يديه، دعا بالنطع والسيف، فأحضرا؛ بجعل تميم بن جميل ينظر إليهما ولا يقول شيئاً، وجعل المعتصم يصعد النظر فيه ويصوبه، وكان جسيماً وسيماً، ورأى أن يستنطقه لينظر أين جنانه ولسانه من منظره؛ فقال: يا تميم، إن كان لك عذر فأت به، أو حجة فأدل بها؛ فقال: أما إذ قد أذن لي أمير المؤمنين فإني أقول: الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين. يا أمير المؤمنين، إن الذنوب تخرس الألسنة، وتصدع الأفئدة، ولقد عظمت الجريمة، وكبر الذنب، وساء الظن، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك، وأرجو أن يكون أقربهما منك وأسرعهما إليك أولاها بإمامتك، وأشبهما بخلافتك، ثم أنشأ يقول:

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً ... يلاحظني من حيثما أتلفت
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي ... وأي امرئ مما قضى الله يقلت
ومن ذا الذي يدلى بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مصلت
يعز على الأوس بن تغلب موقف ... يسئل علي السيف فيه وأسكت

وما جزعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أن الموت شيء مؤقت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأنني أراهم حين أنعى إليهم ... وقد خمشوا تلك الوجوه وصوتوا
فإن عشت عاشوا خافضين بغبطة ... أذود الردى عنهم وإن مت موتوا
فكم من قائل: لا يبعد الله روحه ... وآخر جذلان يسر ويشمت
قال: فتبسم المعتصم، وقال: كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العذل، اذهب
فقد غفرت لك الصبوة، وتركتك للصبية⁽¹⁵¹⁾..

يَا دَارُ غَيْرِكَ الْبَلَى

وحكي أنه لما فرغ المعتصم من بناء قصره بالميدان جلس فيه وجمع أهله
وأصحابه وأمرهم أن يخرجوا في زينتهم فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم
فاستأذن إسحق بن إبراهيم الموصللي في الإنشاد فأذن له فأنشد شعرا حسنا
أجاد فيه إلا أنه استفتح بذكر الديار وعفائها فقال
(يَا دَارُ غَيْرِكَ الْبَلَى وَمَحَاكَ ... يَا لَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي أَبْلَاكَ)
فتطير المعتصم بذلك وتغامز الناس على إسحق بن إبراهيم كيف ذهب عليه
مثل ذلك مع معرفته وعمله وطول خدمته للملوك ثم أقاموا يومهم وانصرفوا
فما عاد منهم اثنان إلى ذلك المجلس وخرج المعتصم إلى سر من رأى وخرّب
القصر⁽¹⁵²⁾.

فكيف رأيت وجهه؟

قال حمدون بن إسماعيل النديم: حضر العيد فعبى المعتصم بالله خيله تعبئة لم
يسمع بمثلها ولم ير لأحد من ولد العباس شبيهة بها، وأمر بالطريق فمسح من
باب قصره إلى المصلى ثم قسم ذلك على القواد وأعطى كل واحد منهم
مصافه، فلما كان قبل الفطر بيوم حضر القواد وأصحابهم في أجمل زي
وأحسن هيئة فلزموا مصافهم منذ وقت الظهر إلى أن ركب المعتصم بالله إلى
المصلى، فكان الموضع الذي وقع لإبراهيم بن المهدي من بعد الحرس
بحذاء مسجد الخوارزمي وإبراهيم واقف وأصحابه في المصاف، فلما أصبح
المعتصم أمر القواد الذين لم يرتبوا في المصاف بالمصير إلى المصلى على
التعبية التي حدّها، ولبس ثيابه وجلس على كرسي ينتظر مضي القواد، فلما

¹⁵¹ (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 140/1

¹⁵² (أبي الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصللي، المثل السائر في
أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحמיד، المكتبة العصرية - بيروت ،

انقضى أمرهم تقدّم إلى الرّجالة في المسير بين يديه فتقدّم منهم سبعة آلاف
ناشب من الموالى كل ثلاثمائة منهم في زيّ مخالف لزيّ الباقيين وأربعة آلاف
من المغاربة وأمر الشيعة فكانوا وراءه بالأعمدة وعدّتهم أربعة آلاف،
وركبت لا أدري منزلتي أين هي ولا أعرف مرتبتي ولم أعلم أين أسير من
الموكب، فلما وضع رجله في الركاب واستوى على سرجه التفت إليّ وقال:
يا حمدون كن أنت خلفي، فلزمت مؤخّر دابته، فلما خرج من باب القصر تلقّاه
القواد وأصحاب المصافّ يخرج الرجل من مصافه فإذا قرب نزل وسلم عليه
بالخلافة فيأمره بالركوب ويمضي حتى وصل إلى إبراهيم بن المهدي فنزل
وسلم عليه بالخلافة فردّ عليه السلام فقال: كيف أنت يا إبراهيم وكيف حالك
وكيف كنت في أيامك؟ اركب، فركب، فلما جاوزه التفت إليّ فقال: يا حمدون!
قلت: لبيك يا أمير المؤمنين! قال: تذكر، قلت: أي والله يا سيدي، وأمسك،
فنظرت في ما قال فلم أجدني أذكر شيئاً في ذلك الموضع مما يشبه ما كنا فيه،
فغصص عليّ يومي وما رأيت من حسنه وسروري بالمرتبة التي أهلني بها،
وقلت: الخلفاء لا يعاملون بالكذب ولا يجوز أن يسألني عند انصرافي عن هذا
الأمر فلا يكون له عندي جواب ولا حقيقة، وتخوفت أن ينالني منه مكروه،
فلم أزل واجماً في طريقي إلى وقت انصرافه ثم أجمعت على مغالطته إن
أمكنني وأعمل الحيلة في التخلص إن يسألني، فلما استقر في مجلسه وبسط
السماط وجلس القواد على مراتبهم للطعام أقبلت أخدم وأختلف ليست لي همة
غير ما كان قاله لي لا أغفل عن ذلك حتى انقضى أمر السماط ورفع الستر
ونهض أمير المؤمنين ودخل الحجرة ومضى إلى المرقد، فلم ألبث أن جاء
الخادم وقال لي: أجب أمير المؤمنين، فمضيت فلما دخلت ضحك إليّ وقال: يا
حمدون رأيت؟ قلت: نعم يا سيدي قد رأيت، فالحمد لله الذي بلغ بي هذا اليوم
وأرانيه فما رأيت ولا سمعت لأحد من الخلفاء والملوك بأجلّ منه ولا أبهى ولا
أحسن، قال: ويحك رأيت إبراهيم بن المهدي؟ قلت: نعم يا سيدي، قال: رأيت
سلامه عليّ وردّي عليه ونزوله إليّ؟ قلت: نعم، فقال: إنه لما كان من أمره
ما كان، يعني الخلافة، قسم الطريق في يوم عيد من منزله إلى المصلّى
كقسمتي إياه في هذا اليوم بين قواده، فوقع موضعي منه الموضع الذي كان
به هذا اليوم، فلما حاذاني نزلت فسلمت عليه فردّ عليّ مثل ما رددته حرفاً
حرفاً على ما قال لي، قال: فدعوت له وانفرج عني ما كنت فيه وتخلّى عني
الغمّ والكرب، ثم قال: يا حمدون إنني لم أكل شيئاً وأنا أنتظر أن تأكل معي
فامض إلى حجرة الندماء فإنك تجد إبراهيم هنالك فاجلس إليه وعابثه

وضاحكه وأجر له هذا الحديث وقل له إنك رأيته في ذلك اليوم فعل بي فعلي به في هذا اليوم وانظر إلى وجهه وكلامه وما يكون منه فعرفني على حقيقته واصدقني عنه وعجل ولا تحتبس، قلت: نعم يا سيدي، فمضيت وقد دُفعتُ إلى أغلظ مما كنت فيه لعلمي بأن إبراهيم لو كان من حجرٍ لأثر فيه هذا القول وتغير وظهر منه ما يكره، وخفت أن يكون يأتي بما يسفك به دمه فمضيت حتى دخلت الحجرة فجلست إلى إبراهيم وفعلت ما أمرني به وأنا مبادر خوفاً من خادم يلحقني أو رسول فلا يمكنني معه تحسين الأمر وما يظهر لي منه، فقلت لإبراهيم: كيف رأيته يا سيدي هذا اليوم، أما أعجبك حسنه وما كان من تعبته أمير المؤمنين؟ قال: بلى والله إنه أعجبني فالحمد لله الذي بلغنيه وأرانيه، وأطنب في الدعاء للمعتصم، فلما أمسك قلت: يا سيدي أذكرك في أيامك وقد ركبت فعبّيت شبيهاً بهذه التعبية وقسمت الطريق مثل هذه القسمة فوقع لأمير المؤمنين الموضع الذي وقع لك واجتزت به فنزل إليك وسلّم فرددت عليه كرده عليك في هذا اليوم، قال: فوالله إن كان إلا أن قلت حتى اربدّ لونه وجفّ ريقه واعتقل لسانه وبقي لا يتكلم بحرف ملياً، ثم قال بلسان ثقيل: لكأني في ذلك الموضع في ذلك اليوم، فالحمد لله للذي رأيته لأمير المؤمنين، فعل الله به وفعل، قال: فتغنّمت ذلك وقمت وأنا ألتفت ونهضت حتى أتيت المعتصم، فقال لي: هيه يا حمدون! فقلت: يا أمير المؤمنين أتيت إبراهيم وقلت له ما أمرتني به فأظهر سروراً ودعاء وقال كيت وكيت، فقال: والله قال بحياتي؟ قلت: وحياتك يا أمير المؤمنين، قال: فكيف رأيته وجهه؟ فلم أدر ما أقول فقلت: يا أمير المؤمنين بالله لما تركتني من وجه عمك الذي لا يتبين فيه فرح ولا حزن، فاستضحك ثم أمسك وتخلّص إبراهيم، ودعا بالطعام فأكلنا ثم رقد، فلما انتبه وجلس دعا بإبراهيم وسائر الندماء فشرب وبرّ إبراهيم وأطفه. وقع لك واجتزت به فنزل إليك وسلّم فرددت عليه كرده عليك في هذا اليوم، قال: فوالله إن كان إلا أن قلت حتى اربدّ لونه وجفّ ريقه واعتقل لسانه وبقي لا يتكلم بحرف ملياً، ثم قال بلسان ثقيل: لكأني في ذلك الموضع في ذلك اليوم، فالحمد لله للذي رأيته لأمير المؤمنين، فعل الله به وفعل، قال: فتغنّمت ذلك وقمت وأنا ألتفت ونهضت حتى أتيت المعتصم، فقال لي: هيه يا حمدون! فقلت: يا أمير المؤمنين أتيت إبراهيم وقلت له ما أمرتني به فأظهر سروراً ودعاء وقال كيت وكيت، فقال: والله قال بحياتي؟ قلت: وحياتك يا أمير المؤمنين، قال: فكيف رأيته وجهه؟ فلم أدر ما أقول فقلت: يا أمير المؤمنين بالله لما تركتني من وجه عمك الذي لا يتبين فيه فرح ولا

حزن، فاستضحك ثم أمسك وتخلّص إبراهيم، ودعا بالطعام فأكلنا ثم رقد، فلما انتبه وجلس دعا بإبراهيم وسائر الندماء فشرب وبرّ إبراهيم والطفه⁽¹⁵³⁾.

ولا ترى للناس حسادا

ومن ذلك ما حكى أن رجلا من العرب دخل على المعتصم فقرّبه وأدناه وجعله نديمة وصار يدخل على حريمه من غير استئذان وكان له وزير حاسد فغار من البدوي وحسده وقال في نفسه إن لم أحتل على هذا البدوي في قتله أخذ بقلب أمير المؤمنين وأبعدني منه فصار يتلطف بالبدوي حتى أتى به إلى منزله فطبخ له طعاما وأكثر فيه من الثوم فلما أكل البدوي منه قال له احذر أن تقترب من أمير المؤمنين فيشم منك فيتأذى من ذلك فإنه يكره رائحته ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين فخلا به وقال يا أمير المؤمنين إن البدوي يقول عنك للناس إن أمير المؤمنين أبخر وهلكت من رائحة فمه فلما دخل البدوي على أمير المؤمنين جعل كمه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستتر فمه بكمه قال إن الذي قاله الوزير عن هذا البدوي صحيح فكتب أمير المؤمنين كتابا إلى بعض عماله يقول فيه إذا وصل إليك كتابي هذا فاضرب رقبة حامله ثم دعا البدوي ودفع إليه الكتاب وقال له امض به إلى فلان وائتني بالجواب فامتثل البدوي ما رسم به أمير المؤمنين وأخذ الكتاب وخرج به من عنده فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير فقال أين تريد قال اتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان فقال الوزير في نفسه إن هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال جزيل فقال له يا بدوي ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذي يلحقك في سفرك ويعطيك ألفي دينار فقال أنت الكبير وأنت الحاكم ومهما رأيته من الرأي أفعل قال أعطني الكتاب فدفعه إليه فأعطاه الوزير ألفي دينار وسار بالكتاب إلى المكان الذي هو قاصده فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير فبعد أيام تذكر الخليفة في أمر البدوي وسأل عن الوزير فأخبر بأن له أياما ما ظهر وأن البدوي بالمدينة مقيم فتعجب من ذلك وأمر بإحضار البدوي في فحضر فسأله عن حاله فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها فقال له أنت قلت عني للناس إنني أبخر فقال معاذ الله يا أمير المؤمنين أن اتحدث بما ليس لي به علم وإنما كان ذلك مكرًا منه وحسداً وأعلمه كيف دخل به إلى بيته وأطعمه الثوم وما جرى له معه فقال أمير المؤمنين قاتل الله الحسد ما

أعدله بدأ بصاحبه فقتله ثم خلع على البدوي واتخذهُ وزيراً وراح الوزير بحسده وقال المغيرة شاعر آل المهلب

(آل المهلب قوم إن مدحتهم ... كانوا الأكارم آباءً واجداداً)

(إن العرانيين تلقاها محسدة ... ولا ترى للناس حساداً)

وخرج المعتصم يوماً إلى بعض متصيداته فظهر له أسد فقال لرجل من أصحابه اعجبه قوامه وسلاحه وتماخض خلقه أفيك خيراً يا رجل قال لا فضحك المعتصم وقال قبح الله الجبان⁽¹⁵⁴⁾

إنما يبعث إلى كل قوم مثلهم

وتنبأ رجل في أيام المعتصم فلما حضر بين يديه قال أنت نبي قال نعم قال وإلى من بعثت قال إليك قال أشهد أنك لسفيه أحمق قال إنما يبعث إلى كل قوم مثلهم فضحك المعتصم وأمر له بشيء⁽¹⁵⁵⁾.

عقلك أوردك هذا المكان

دخل الرقاشي على المعتصم في يوم مطير ، فقرب مجلسه ورحب به . وقال له : أقم عندنا يومك نشرب ونطرب . فقال : يا أمير المؤمنين ، إني وجدت في الكتب السالفة : أن الله جل ذكره لما خلق العقل قال له : أقبل . فأقبل ، ثم قال له : أدبر . فأدبر ، ثم قال له : وعزتي ، ما خلقت خلقاً أكرم منك عليّ ، بك أعطي ، وبك أمتع ، وبك آخذ . فلو وجدت عقلاً يباع لاشتريته ، واضفته إلى عقلي . فكيف أشرب ما يزيل ما معي من العقل ؟ قال المعتصم : عقلك أوردك هذا المكان⁽¹⁵⁶⁾ .

الصلاة يرحمك الله

غضب المعتصم على مخارق ، فأمر أن يجعل في المؤذنين ، فأمهل حتى علم أن المعتصم يشرب وأذنت العصر ، فدخل إلى الستر حيث يقف المؤذن للسلام ، ثم رفع صوته وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، الصلاة يرحمك الله ، فبكى حتى جرت دموعه وبكى كل من حضر ، ثم قال : أدخلوه إلي ، وأقبل على الحاضرين وقال : سمعتم هكذا قط ؟ هذا الشيطان لا يترك أحداً يغضب عليه ! ورضي عنه وغناه ، وأعادته إلى مرتبته⁽¹⁵⁷⁾

¹⁵⁴ (الجاحظ ، المحاسن والأضداد ، ص 75-76)

¹⁵⁵ (الأبشيهي ، المستطرف في كل فن مستظرف ، 3/522)

¹⁵⁶ (أبو سعد منصور بن الحسين الآبي ، نثر الدر ، تحقيق خالد عبد الغني محفوظ ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1424 هـ - 2004 م ، 2/131)

¹⁵⁷ (ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية ، 3/66)

مر لحمار أبي الهذيل بعلف ولغلامه بطعام

حضر أبو الهذيل على مائدة المعتصم، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله لا يستحي من الحق؛ غلامي وحماري بالباب. فقال المعتصم لإيتاخ الحاجب: مر لحمار أبي الهذيل بعلف ولغلامه بطعام. فقال أحمد بن أبي دواد: ألا ترى يا أمير المؤمنين إلى متانة دين هذا الشيخ وتفقده لما يلزمه؟ لم يمنعه جلاله مجلسك عما يجب لله عليه في حماره وغلامه، فجعل أحمد ما قدره الناس محوجاً إلى الاعتذار منه شهادة له بالفضل⁽¹⁵⁸⁾.

والله لا يفلح أبداً على المزح

قال الصولي: كان المعتصم في فتنة الأمين يمضي إلى علي بن الجنيد الإسكافي فيقيم عنده، ولا يقصر علي في خدمته وإكرامه والنفقة عليه - وكان علي أكثر الناس مزاحاً وأحسنهم كلاماً - فأذاه المعتصم في شيء، فقال علي: والله لا يفلح أبداً على المزح، فحفظها المعتصم. فلما دخل بغداد خليفة أمر وصيفاً بإحضار علي فأحضره - وكان عدواً للفضل بن مروان - فضحك المعتصم، وكان يقول: ذلك اليوم اعتقدت أن أنكب الفضل؛ ثم قال: يا علي تذكر حيث وقفت لإبراهيم ابن المهدي بمربعة الحرسى فنزلت فقبلت يده ثم أدنيت ابني هارون فقبل يده وقلت: عبدك هارون ابني، فأمر له بعشرة آلاف درهم؟ قال علي: أذكر لك؛ قال: فإنه ترجل لي اليوم وقبل يدي في ذلك الموضع بعينه، ثم قال لي: عبدك هبة الله ابني، فأدناه فقبل يدي، فأمرت له بعشرة آلاف درهم، ولم تطب له نفسي بغيرها. فقال: بنس والله ما فعل أمير المؤمنين. قال: وكيف ويلك؟ قال: إبراهيم كان أمر لهارون بعشرة آلاف درهم وليست في يده إلا بغداد وحدها، وفي يد أمير المؤمنين من المشرق إلى المغرب. قال: صدقت، أعطوه عشرة آلاف دينار؛ وفرق المعتصم في أهله ثلاثين ألف ألف درهم⁽¹⁵⁹⁾.

و كيف ذاك؟

و من ملح أخبار القاضي أحمد بن أبي دواد، ما حكى: أن المعتصم كان بالجوسق، مع ندمائه، و قد عزم على الاصطباح، فأمر كلاً منهم أن يطبخ قدراً، و نظر سلامة، غلام أحمد بن أبي دواد، فقال: هذا غلام ابن أبي دواد، جاء ليعرف خبرنا، و الساعة يأتي، فيقول: فلان الهاشمي، و فلان القرشي،

¹⁵⁸ (ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية ، 93/3

¹⁵⁹ (ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية ، 142/3

و فلان الأنصاري، و فلان العربي، فيقطعنا بحوائجه عما كنا عزمنا عليه، و أنا أشهدكم أني لا أقضي له اليوم حاجة.

فلم يكن بأسرع من أن دخل إيتاخ ، يستأذن لأحمد بن أبي دؤاد. فقال لجلسائه: كيف ترون؟ قالوا: لا تأذن له يا أمير المؤمنين.

قال: سواة لهذا الرأي، و الله، لحمي سنة، أسهل عليّ من ذلك. فأذن له، فدخل، فما هو إلا أن سلم، و جلس، و تكلم، حتى أسفر وجه المعتصم، و ضحكت إليه جوارحه.

ثم قال: يا أبا عبد الله، قد طبخ كل واحد من هؤلاء قدراً، و قد جعلناك حكماً في أطيبها.

قال: فلتحضر لآكل، و أحكم بعلم.

فأمر المعتصم بإحضارها، فأحضرت القدور بين يديه، و تقدم القاضي أحمد بن أبي دؤاد، فجعل يأكل من أول قدر أكلاً تاماً.

فقال له المعتصم: هذا ظلم.

قال: و كيف ذاك؟ قال: أراك قد أمعنت في هذا اللون، و ستحكم لصاحبه.

قال: يا أمير المؤمنين، ليس بلقمة، و لا باثنتين، تدرك المعرفة بأخلاق الطعام، و عليّ أ، أوفي كلاً حقه من الذوق، ثم يقع الحكم بعد ذلك.

فتبسم المعتصم، و قال: شأنك إذاً.

فأكل من جميعها، كما ذكر، ثم قال: أما هذه فقد أجاد صاحبها، إذ كثر خلها و قلل فلفلها، ليشتهي حمضها، و أما هذه فقد أحكمها طبّاخها، بتقليل مائها، و كثرة ربها، و أقبل يصفها واحدة واحدة، حتى أتى على جميعها، بصفات سر بها أصحابها.

و أمر المعتصم بإحضار المائدة، فأكل مع القوم بأكملهم، أنظف أكل و أحسنه،

فمرة يحدثهم بأخبار الأكلة في صدر الإسلام، مثل معاوية بن أبي سفيان، و

سليمان بن عبد الملك، و عبيد الله بن زياد، و الحجاج، و مرة يحدثهم عن

أكلة دهره، مثل ميسرة الرواس، وحاتم الكيال، و إسحاق الحمامي، فلما

رفعت الموائد قال له المعتصم: ألك حاجة يا أبا عبد الله؟ قال: نعم يا أمير

المؤمنين.

قال: فاذكرها، فإن أصحابنا يريدون أن يتشاغلوا بقية يومهم.

فقال: رجل من أهلك يا أمير المؤمنين، قد وطئه الدهر، فغير من حاله، خشن

معيشته.

قال: و من هو؟ قال: سليمان بن عبد الملك النوفلي.

قال: قدر له ما يصحه.
قال: خمسين ألف درهم.
قال: قد أمرت له بها.
قال: و حاجة أخرى. قال: و ما هي؟ قال: ضياع هارون بن المعمر توغر بها له. قال: قد فعلت.
قال: فوالله ما برح حتى سأل في ثلاث عشرة حاجة، لا يرده المعتصم عن شيء منها.
ثم قام خطيباً، فقال: يا أمير المؤمنين، عمرك الله طويلاً، فبعمرك يخلص جناب رعيتك، و يلين عيشهم، و تنمو أموالهم، و لا زلت ممتعاً بالسلامة، منعماً بالكرامة، مدفوعاً عنك حوادث الأيام، و غيرها، ثم انصرف.
فقال المعتصم: هذا و الله الذي يتزين بمثله، و يبتهج بقربه، أما رأيتم كيف دخل؟ و كيف أكل، و كيف وصف القدور، و كيف انبسط في الحديث، و كيف طاب به أكلنا؟ و الله لا يرد هذا عن حاجة إلا لنيم الأصل، خبيث الفرع، و الله، لو سألني في مجلسي هذا ما قيمته عشرة آلاف ألف درهم، ما رددته عنها، فإني أعلم أنه يكسبني في الدنيا جمالاً و حمداً و في الآخرة ثواباً و أجراً (160).

أنت البحر وهم الأنهار

دخل شقيق البخلي على هارون الرشيد فقال عظمي فقال إن الله تعالى أقامك مقام الصديق فيريد منك الصدق و أقامك مقام الفاروق فيريد منك أن تفرق بين الحق والباطل و أقامك مقام عثمان فيريد منك الحياء و أقامك مقام علي فيريد منك العمل والعلم قال زدني قال إن لله تعالى دارا يقال لها جهنم وجعلك بوابا لها تدفع الناس عنها وأعانك بالمال والسوط والسيف وقال لك أيها العبد المأمور ادفع الخلق عن هذه الدار بهذه الثلاثة فمن جاءك فقيرا فأعطه من المال ومن لم يطع فأدبه بالسوط ومن قتل بغير حق فاقتص منه بالسيف قال زدني قال أنت البحر وهم الأنهار فإن صفوت صفوا وإن تكدرت تكدروا.

بلغني أنك تمشي على الماء

وعن ابن شيرويه: قلت لمعروف: بلغني أنك تمشي على الماء.
قال: ما وقع هذا، ولكن إذا هممت بالعبور، جمع لي طرفا النهر، فأتخطاه.

قصة معروف الكرخي مع مجوسي

روي عن سعد بن سعيد أنه قال كان في جوار معروف الكرخي رجل مجوسي من أبناء الأغنياء وجد الخليفة عليه فصادره وأخذ منه ألف ألف دينار فافتقر بعد الغنى وذل بعد العز وكان له أعداء وحساد فقالوا للخليفة أنه قد بقي له مال جسيم فلا تظن أنه عديم فأمر بمصادرتة ثانياً فلما علم المجوسي ذلك دخل بيت النار وقصد ما كان يعبد من دون الجبار وقال إن لم تخلصيني آمنت برب معروف فلم يجبه أحد ولم ينتفع بسجوده للنار ولا للنور فلما جن عليه الليل اغتسل وأتى مسجد معروف الكرخي فلم يجده في المسجد فرفع رأسه وقال يا إله إبراهيم عيسى ومحمد وإله معروف ويا من لا إله إلا هو تحققت أن ما عبدته من دونك باطل لا يضر ولا ينفع وإني جننتك تائباً مما فعلت متبرئاً مما عبدت منفصلاً عما اعتقدت موقناً بك شاهداً بأن لا إله إلا أنت إله الأولين والآخرين وأنت المعبود الحق تفعل ما تشاء ولا يكون إلا ما تريد إنك على كل شيء قدير فأغفر لي ما تقدم من ذنبي وجهلي وإسرافي ولا تنظر إلى سوء عملي ومعصيتي واصرف شر الخليفة وأعوانه عني فقد وجهت وجهي إليك ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ثم سجد وأطال سجوده وهو يناجي ربه ويبكي فأتى معروف المحراب فرآه كذلك فبقي متفكراً في أمره لا يتحقق من هو وإذا هو بغلام من خواص الخليفة قد دخل المسجد يسأل عن المجوسي بإسمه ونسبه فقال معروف بيته في موضع كذا وكذا فقال من هناك جئت وقيل لي إنه في مسجد معروف فوالله لا بأس عليه فإن الخليفة قد بعثني إليه برسالة لطيفة تسر قلبه وهو منتظره على أن يؤمنه ويرد عليه ما أخذه منه وكفى بالله شهيداً فقال معروف لست أرى في المسجد أحداً يشبه من تذكره إلا هذا الساجد لله المناجي لربع فاصبر له حتى يرفع رأسه فوقف صاحب الخليفة على رأسه ساعة ثم قال يا هذا ارفع رأسك ولا تبك أمير المؤمنين قد قضى حاجتك وبعثني برسالة لطيفة لتسير إليه حتى يرد عليك ما أخذه منك فرفع رأسه وإذا معروف واقف فقال يا معروف ما أكرم هذا الباب وما أحلم صاحبه وما أقربه إلى من دعاه ثم قال يا معروف أمدد يدك إني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وإني رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلي الله عليه وسلم نبياً ورسولاً وأن القرآن كلام الله جاء به محمد بن عبد الله وأنا مؤمن بذاك كله ثم تبع الرسول وذهب معروف الكرخي معه فلما وصلوا إلى دار الخليفة وإذا به واقف على الباب فاستقبلهما وسلم عليهما وصافح كلا منهما ومشى معهما

إلى مجلسه وأقدهما إلى جانبه وأقبل يعتذر إليهما مما وقع منه وأمر
بالأموال التي أخذت من المجوسي فأحضرت بين يديه عن آخرها ثم قال له
تأمل هذه الأموال أليست هي التي أخذت منك قال نعم قال فخذها بارك الله فيها
واجعلني في حل ما وقع مني واستغفر الله لي فقال يعفر الله لك ثم قال يا أمير
المؤمنين أما الأموال فهي لك حلال بعد أن هداني الله إلى دين الإسلام ولكن
أعلمني ما الذي دعاك إلى طلبتي في هذا الوقت قال نعم كنت نائماً وإذا أنا
برسول الله صلى الله عليه وسلم قد دخل عليّ ومعه صف من الملائكة وصف
من الصحابة فسلم علي وقال إن الله تبارك وتعالى يقرئك السلام ويقول لك
إن عبدنا فلاناً المجوسي كنا قد دعوناه في الذرا فأجابنا وكان في المجوسية
مستتراً ولنا معه عناية وقد جاء الآن إلي تائباً وهو في مسجد معروف
الكرخي مستجيراً بجانبنا منك فابعث في طلبه ورد عليه ما أخذ منه ولا تقطع
المعاملة بيننا فانتبهت مرعوباً فأرسلت في طلبك وها هو مالك قد رددناه
عليك ودفعناه إليك فخر الرجل ساجداً لله تعالى ثم رفع رأسه وبكى وقال
واندماه وأسفاه والهفاه كيف تركت عبادة الرحمن الرحيم واشتغلت بعبادة
النيران وضيعت العمر والزمان ثم قال يا أمير المؤمنين لا حاجة لي في هذا
المال خذه فهو حلال لك فقال أمير المؤمنين لا أرجع بشيء أمرني ربي
بإخراجه فقال يا أمير المؤمنين لا حاجة لي في المال أشهد أنني قد جعلته
صدقة في فقراء المسلمين لا حظ لي فيه ولا لأحد من أهلي فقال الخليفة
لمعروف بقي الأمر إليك فأحمل المال وتصدق به على الفقراء والمساكين
وأبناء السبيل والأيتام والأرامل فدعا له معروف وأخذ بيد الرجل وحمل المال
على البغال وصافحهما أمير المؤمنين وسأل الرجل أن يعفو عما وقع منه
ولازم الرجل معروفاً الكرخي إلى أن مات تغمدته الله برحمته. (161)

¹⁶¹ (تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله التقي الحموي المعروف بابن حجة، طيب المذاق
من ثمرات الأوراق ، تحقيق أبو عمار السخاوي ، دار النشر : دار الفتاح - الشارقة - 1997م ،

ما أعقله من رجل

حكى عنه أبو عبد الله الخواص، وكان من عليّة أصحابه، قال: لما دخل حاتم بغداد، اجتمع إليه أهلها، فقالوا له: يا أبا عبد الرحمن، أنت رجل عجمي، ليس يكلمك أحد إلا قطعتة، لأي معنى؟؟!! فقال حاتم: معي ثلاث خصال بها أظهر على خصمي. فقالوا: أي شيء هي؟ قال: أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن له إذا ما أخطأ، وأحفظ نفسي لا تتجاهل عليه. فبلغ ذلك أحمد بن حنبل، فقال: سبحان الله، ما أعقله من رجل.

وليتك تسلم

وحدث أبو جعفر الهروي، قال: كنت مع حاتم أراد الحج، فلما وصل إلى بغداد، قال لي: يا أبا جعفر، أحب أن ألقى أحمد ابن حنبل. فسألنا عن منزله، ومضينا إليه، فطرقت عليه الباب، فلما خرج قلت: يا أبا عبد الله، أخوك حاتم. قال: فسلم عليه، ورحب به، وقال بعد بشاشة به: أخبرني يا حاتم، فيم التخلص من الناس؟ قال: يا أحمد، في ثلاث خصال. قال: وما هي؟ قال: أن تعطيهما مالك ولا تأخذ من مالهم شيئاً، وتقضي حقوقهم ولا تستقضي أحداً منهم حقاً لك، وتحتمل مكروهم ولا تكره أحداً منهم على شيء. قال: فأطرق أحمد ينكت بأصبعه على الأرض، ثم رفع رأسه. وقال: يا حاتم: إنها لشديدة. فقال له حاتم: وليتك تسلم، وليتك تسلم، وليتك تسلم.

قلوبكم عند السيد

وذكر عن حاتم أنه قال: لقينا الترك مرة، وكان بيننا جولة، فرماني تركي بوهق فأقلبني عن فرسي، ونزل عن دابته، وقعد على صدري، وأخذ بلحيتي هذه الوافرة، وأخرج من خفه سكيناً ليذبحني بها، فوحق سيدي ما كان قلبي عنده ولا عند سكينه، إنما كان قلبي عند سيدي، أنظر ماذا ينزل به القضاء منه، فقلت: سيدي قضيت على أن يذبحني هذا فعلى الرأس والعين، إنما أنا لك وملكك، فبينما أنا أخاطب سيدي وهو قاعد على صدري، أخذ بلحيتي ليذبحني، إذ رماه بعض المسلمين بسهم فما أخطأ حلقه، فسقط عني، فقمت أنا إليه، فأخذت السكين من يده فذبحته، فما هو إلا أن تكون قلوبكم عند السيد حتى تروا من عجائب لطفه ما لا ترون من الآباء والأمهات.

فغلب عليه أسم الأصم

وكان أبو بكر الوراق، يقول: حاتم الأصم لقمان هذه الأمة. والسبب في تسميته بالأصم أن امرأة جاءت إليه تسأله عن مسألة، فاتفق أنه خرج منها في تلك الحالة صوت، فخجلت، فقال حاتم: ارفعي صوتك. وأراها من نفسه أنه أصم، فسرت المرأة بذلك، وقالت: إنه لم يسمع الصوت. فغلب عليه أسم الأصم.⁽¹⁶²⁾

فوثبت السمكة في الماء وذهبت

عن علي بن حرب، قال " خرجنا من " الموصل " في سفينة، نريد " سري من رأي " . فإذا بسمكة قد وثبت من الماء إلي السفينة، فقال أحداث كانوا معنا: اعدلوا بنا إلي الشط، نطلب حطباً نشويها فجئنا إلي خربة فدخلناها، فوجدنا رجلاً مذبوحاً، ورجلاً مكتوفاً قائماً. فسألنا الرجل عن القصة، فقال: هذا اللص عدا من القافلة في الليل، فشدني وثاقاً - كما ترون - وعزم علي قتلي، فناشدته الله، وقلت: يا هذا! خذ جميع ما معي، ولا تقتلني!. فأبي ألا قتلي، فأنترع سكيناً معه، فعسرت عليه، فأجذبها، فمرت علي أوداجه فذبحته. قال: فأطلقنا يديه، فوثبت السمكة في الماء وذهبت " .⁽¹⁶³⁾

أنا فلان الجنى

قال الجنيد بن محمد رأيت بعد أن أديت وردي ووضعت جنبي لأنام كأن هاتفا يهتف بي إن شخصاً ينتظرك في المسجد فخرجت فإذا شخص واقف في سواء المسجد فقال لي يا أبا القاسم متى تصير النفس داءها دواءها قلت إذا خالفت هواها صار داءها دواءها قال قلت هذا لنفسى فقالت لا أقبل منك حتى تسأل عنه الجنيد فقلت من أنت قال أنا فلان الجنى وقد جئت إليك من المغرب .⁽¹⁶⁴⁾

كلما قيل لك شيء تقبله!

وقال الجنيد: " رأيت إبليس في المنام كأنه عريان، فقلت له: " أما تستحي من الناس؟! " فقال: " يا لله! هؤلاء عندك من الناس؟! لو كانوا منهم ما تلاعبت بهم كما تتلاعب الصبيان بالكرة، ولكن الناس غير هؤلاء " . فقلت: " ومن هم؟ " قال: " قوم في مسجد الشونيزي، قد أضنوا قلبي، وأنحلوا

162 (التقي الغزي ، الطبقات السنية في تراجم الحنفية ، ص 211

163 (سير أعلام النبلاء ، 11 / 489.

164 (حلية الأولياء ، 10 / 274

جسمي؛ كلما هممت أشاروا بالله، فأكاد أحرق " . فانتبهت ولبست ثيابي، وأتيت مسجد الشونيزي وعلى ليل، فلما دخلت المسجد إذا أنا بثلاثة أنفس - قيل: هم أبو حمزة، وأبو الحسين النوري، وأبو بكر الزقاق - جلوس، ورءوسهم في مرقعاتهم؛ فلما أحسوا بي قد دخلت أخرج أحدهم رأسه وقال: " يا أبا القاسم! أنت كلما قيل لك شيء تقبله! " .

فعذري في الهوى أفلا تعود؟

وبات الجنيد ليلة العيد في الموضع الذي كان يعتاده في البرية، فإذا هو وقت السحر بشاب ملتف في عباءته يبكي ويقول:
بحرمة ربتي! كم ذا الصدود؟! ... الا تعطف علي؟! ألا تجود؟!
سرور العيد قد عم النواحي ... وحزني في ازدياد لا يبيد
فإن كنت أفترفت خلال سوء ... فعذري في الهوى أفلا تعود؟
انصرف أغناك الله.

وسمعه يقول: سمعت جعفر الخدي، يقول: وقف سائل على الجنيد، ونحن في حلقتة، فسأله.
فرد عليه، فقال: يا هذا، الصناعة واحدة، ولكننا أظرف، انصرف أغناك الله. فانصرف.

قولي لا اله إلا الله

قال الجنيد رحمه الله تعالى خرجت يوما إلى الحج فتحولت الناقة إلى طريق القسطنطينية مدينة الروم فرددتها نحو الكعبة فتحولت نحو المدينة أيضا فتركها فلما دخلت القسطنطينية رأيت أهلها في قيل وقال فسألت عن ذلك فقيل إن ابنة الملك أصابها جنون وهم يطلبون طبيبا فقلت أنا أداويها فأدخلوني عليها فنادت من داخل الباب يا جنيد لم تجذبك الناقة إلينا فتردها عنا فلما رأيتها فإذا هي من أحسن النساء والغل في عنقها ورجليها فقالت صف لي دواء فقلت لها قولي لا اله إلا الله فرفعت صوتها بذلك فسقط الغل من عنقها ورجليها فقال أبوها ما أحسنك من طبيب فداوني فقلت له قل كما قالت فأسلم وأسلم معه خلق كثير...

فاغفر له أنت

قال النسفي قال رجل من من أصحاب الجنيد له أني أصبت ذنبا فادع الله أن يغفره فسمع الجنيد هاتفا بقول لما كشف ستره لك فاغفر له أنت..

أخذ الذي له وترك الذي لنا

قيل للجنيد أن أبا الحسن الثوري يسأل الناس فوزن له مائة درهم وقبض قبضة بلا وزن قال لخادمه ادفع الجميع إليه فوزن الثوري مائة وقال ردها على الجنيد وأخذ الزائد ثم قال الثوري يريد الجنيد يأخذ الحبل بطرفيه وزن مائة لنفسه لأجل الثواب وقبض قبضة بلا وزن لله فأخذنا ما كان لله وتركنا ما جعله لنفسه فأخبرت الجنيد بذلك فقال أخذ الذي له وترك الذي لنا.

رحمني برحمتي للطائر

أهدي للجنيد رضي الله عنه طائر فقبله مرة ثم أرسله فقيل له في ذلك فقال أنه قال يا جنيد تتلذذ بمناجاة الأحباب وتسد في وجوههم الباب فلما أرسله قال إن الطيور ما دامت ذاكرة لا تقع في شدة فإذا أغفلت عن ذكر الله وقعت وأنا غفلت عن ذكر الله مرة فعذبني بالسجن فكيف بمن يغفل عن ذكر الله كثيراً يا جنيد خذ علي العهد أن لا أعود أبداً ثم صار يتردد إلى زيارة الجنيد ويأكل من المائدة معه فلما مات الجنيد رمى نفسه على الأرض فمات فدفنوه فرأى الجنيد بعض أصحابه في النوم فسأله عن حاله فقال رحمني برحمتي للطائر...

ارى أن قولك هذا ضيق صدر

قال الشبلي مرة - والجنيد حاضر لاحول ولا قوة الا بالله فقال الجنيد ارى أن قولك هذا ضيق صدر وضيق الصدر يجئ من ترك الرضا بالقضاء .

أشهدك أنها هبة مني لك

- قال الشيخ الجنيد: ما انتفعت بشيء انتفاعي بأبيات سمعتها، قيل له: وما هي قال: مررت بدرب القراطيس فسمعت جارية تغني من دار فأنصت لها فسمعتها تقول:

إذا قلت أهدى الهجر لي حل البلى .. تقولين لولا الهجر لم يطب الحب وإن قلت هذا القلب أحرقه الهوى... تقولني بنيران الهوى شرف القلب وإن قلت ما أذنبت قلت مجيبة ... حياتك ذنب لا يقاس به ذنب فصعقت وصحت، فبينما أنا كذلك إذا بصاحب الدار قد خرج فقال: ما هذا يا سيدي فقلت له: مما سمعت، فقال: أشهدك أنها هبة مني لك، فقلت: قد قبلتها وهي حرة لوجه الله تعالى، ثم زوجها لبعض أصحابنا بالرباط فولدت له ولداً نبيلاً، ونشأ أحسن نشوء، وحج على قدميه ثلاثين حجة على الوحدة.(165)

فقال يا قوم جرى القلم بما حكم

-وحتى أنه كان بمدينة بغداد رجل يعرف بأبي عبد الله الأندلسي وكان شيخا لكل من بالعراق وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله وكان يقرأ بجميع الروايات فخرج في بعض السنين إلى السياحة ومعه جماعة من أصحابه مثل الجنيد والشبلي وغيرهما من مشايخ العراق قال الشبلي فلم نزل في خدمته ونحن مكرمون بعناية الله تعالى إلى أن وصلنا إلى قرية من قرى الكفار فطلبنا ماء نتوضأ به فلم نجد فجعلنا ندور بتلك القرية وإذا نحن بكنائس وبها شمامسة وقساوسة ورهبان وهم يعبدون الأصنام والصلبان فتعجبنا منهم ومن قلة عقلهم ثم انصرفنا إلى بئر في آخر القرية وإذا نحن بجوار يستقي الماء على البئر وبينهن جارية حسنة الوجه ما فيهن أحسن ولا أجمل منها وفي عنقها قلاند الذهب فلما رآها الشيخ تغير وجهه وقال هذه ابنة من فقيل له هذه ابنة ملك هذه القرية فقال الشيخ فلم لا يدلها أبوها ويكرمها ولا يدعها تستقي الماء فقيل له أبوها يفعل ذلك بها حتى إذا تزوجها رجل أكرمه وخدمته ولا تعجبها نفسها فجلس الشيخ ونكس رأسه ثم أقام ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب ولا يكلم أحدا غير أنه يؤدي الفريضة والمشايخ واقفون بين يديه ولا يدرون ما يصنعون قال الشبلي فتقدمت إليه وقلت له يا سيدي إن أصحابك ومريدك يتعجبون من سكوتك ثلاثة أيام وأنت ساكت لم تكلم أحدا قال فأقبل علينا وقال يا قوم إعلموا أن الجارية التي رأيتموها بالأمس قد شغفت بها حبا وشتغل بها قلبي وما بقيت أقدر أفارق هذه الأرض قال الشبلي فقلت يا سيدي أنت شيخ أهل العراق ومعروف بالزهد في سائر الآفاق وعدد مريدك اثنا عشر ألفا فلا تفضحنا وإياهم بحرمة الكتاب العزيز فقال يا قوم جرى القلم بما حكم ووقعت في بحار العدم وقد انحلت عني عرى الولاية وطويت عني أعلام الهداية ثم أنه بكى بكاء شديدا وقال يا قوم انصرفوا فقد نفذ القضاء والقدر فتعجبنا من أمره وسألنا الله تعالى أن يجيرنا من مكره ثم بكينا وبكى حتى أروى التراب ثم أنصرفنا عنه راجعين إلى بغداد فخرج الناس إلى لقائه ومريدوه في جملة الناس فلم يروه فسألوا عنه فعرفناهم بما جرى فمات من مريديه جماعة كثيرة حزنا عليه وأسفا وجعل الناس يكون ويتضرعون إلى الله تعالى أن يرده عليهم وغلقت الرباطات والزوايا والخوانق ولحق الناس حزن عظيم فأقمنا سنة كاملة وخرجت مع بعض أصحابي نكشف خبره فأتينا القرية فسالنا عن الشيخ فقيل لنا أنه في البرية يرعى الخنازير قلنا وما السبب في ذلك قالوا إنه خطب الجارية من أبيها فأبى

أن يزوجها إلا ممن هو على دينها ويلبس العباءة ويشد الزنار ويخدم الكنائس ويرعى الخنازير ففعل ذلك كله وهو في البرية يرعى الخنازير . قال الشبلي فانصدعت قلوبنا وانهملت بالبكاء عيوننا وسرنا إليه وإذا به قائم قدام الخنازير فلما رآنا نكس رأسه وإذا عليه قلنسوة النصارى وفي وسطه زنار وهو متوكىء على العصا التي كان يتوكأ عليها إذا قام إلى المحراب فسلمنا عليه فرد علينا السلام فقلنا يا شيخ ما ذاك وماذا وما هذه الكروب والهموم بعد تلك الأحاديث والعلوم فقال يا إخواني وأحبابي ليس لي من الأمر شيء سيدي تصرف في كيف شاء وحيث أراد أبعدني عن بابه بعد إن كنت من جملة أحبائه فالحذر الحذر يا أهل وداده من صده وإبعاده والحذر الحذر يا أهل المودة والصفاء من القطيعة والجفاء ثم رفع طرفه إلى السماء وقال يا مولاي ما كان ظنى فيك هذا ثم جعل يستغيث ويبكي ونادى يا شبلي اتعظ بغيرك فنادى الشبلي بأعلى صوته بك المستعان وأنت المستغاث وعليك التكلان اكشف عنا هذه الغمة بحلمك فقد دهمنا أمر لا كاشف له غيرك قال فلما سمعت الخنازير بكاءهم وضجيجهم أقبلت إليهم وجعلت تمرغ وجوهاها بين أيديهم وزعقت زعقة واحدة دويت منها الجبال قال الشبلي فظننت أن القيامة قد قامت ثم إن الشيخ بكى بكاء شديدا قال الشبلي فقلنا له هل لك أن ترجع معنا إلى بغداد فقال كيف لي بذلك وقد استرعت الخنازير بعد أن كنت أرعى القلوب فقلت يا شيخ كنت تحفظ القرآن وتقرؤه بالسبع فهل بقيت تحفظ منه شيئا فقال نسيته كله إلا آيتين فقلت وما هما قال قوله تعالى (ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء) والثانية قوله تعالى (ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل) فقلت يا شيخ كنت تحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله فهل تحفظ منها شيئا قال حديثا واحدا وهو قوله من بدل دينه فاقتلوه قال الشبلي فتركناه وانصرفنا ونحن متعجبون من أمره فسرنا ثلاثة ايام وإذا نحن به أمامنا قد تطهر من نهر وطلع وهو يشهد شهادة الحق ويجدد إسلامه فلما رأيناه لم نملك أنفسنا من الفرح والسرور فنظر إلينا وقال يا قوم اعطوني ثوبا طاهرا فأعطيناه ثوبا فلبسه ثم صلى وجلس فقلنا له الحمد لله الذي ردك علينا وجمع شملنا بك فصف لنا ما جرى لك وكيف كان أمرك فقال يا قوم لما وليتم من عندي سألته بالوداد القديم وقلت له يا مولاي أنا المذنب الجاني فعفا عني بجوده وبستره غطاني فقلنا له بالله نسألك هل كان لمحنتك من سبب قال نعم لما وردنا القرية وجعلتم تدورون حول الكنائس قلت في نفسي ما قدر هؤلاء عندي وأنا مؤمن موحد فنوديت في سري ليس

هذا منك ولو شئت عرفناك ثم أحسست بطائر قد خرج من قلبي فكان ذلك الطائر هو الإيمان قال الشبلي ففرحنا به فرحا شديدا وكان يوم دخولنا يوما عظيما مشهودا وفتحت الزوايا والرباطات والخوانق ونزل الخليفة للقاء الشيخ وأرسل إليه الهدايا وصار يجتمع عنده لسماع علمه أربعون ألفا وأقام على ذلك زمانا طويلا ورد الله عليه ما كان نسيه من القرآن والحديث وزاده على ذلك فبينما نحن جلوس عنده في بعض الأيام بعد صلاة الصبح وإذا نحن بطارق بطرق باب الزاوية فنظرت من الباب فإذا شخص ملتف بكساء أسود فقلت له ما الذي تريد فقال قل لشيخكم إن الجارية الرومية التي تركتها بالقرية الفلانية قد جاءت لخدمتك قال فدخلت فعرفت الشيخ فاصفر لونه وارتعد ثم أمر بدخولها فلما دخلت عليه بكت بكاء شديدا فقال لها الشيخ كيف كان مجيئك ومن أوصلك إلى هنا قالت يا سيدي لما وليت من قرينتنا جاءني من أخبرني بك فبت ولم يأخذني قرار فرأيت في منامي شخصا وهو يقول إن أحببت أن تكوني من المؤمنات فاتركي ما أنت عليه من عبادة الأصنام واتبعي ذلك الشيخ وادخلي في دينه فقلت وما دينه قال دين الإسلام قلت وما هو قال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فقلت كيف لي بالوصول إليه قال اغمضي عينيك واعطيني يدك ففعلت فمشي قليلا ثم قال افتحي عينيك ففتحتهما فإذا أنا بشاطئ الدجلة فقال امضي إلى تلك الزاوية واقري مني الشيخ السلام وقولي له إن أخاك الخضر يسلم عليك قال فأدخلها الشيخ إلى جواره وقال تعبدى وهنا فكانت أعبد أهل زمانها تصوم النهار وتقوم الليل حتى نحل جسمها وتغير لونها فمرضت مرض الموت وأشرفت على الوفاة ومع ذلك لم يرها الشيخ فقالت قولوا للشيخ يدخل على قبل الموت فلما بلغ الشيخ ذلك دخل عليها فلما رآته بكت فقال لها لا تبكي فان اجتماعنا غدا في القيامة في دار الكرامة ثم انتقلت إلى رحمة الله تعالى فلم يلبث الشيخ بعدها إلا أياما قلائل حتى مات رحمة الله تعالى عليه .

قال الشبلي فرأيته في المنام وقد تزوج بسبعين حوراء وأول ما تزوج بالجارية وهما مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفي بالله عليما وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . (166)

فإني أكره أن تقتلن في داري

وقال أبو عبد الله الكواز : حدثتني حبيبة مولاة الأحنف أنها رأت الأحنف بن قيس رحمه الله ورآها تقتل قملة فقال لا تقتليها ، ثم دعا بكرسي فجلس عليه فحمد الله وأثنى عليه فقال إني أخرج عليكن إلا خرجتن من داري فإني أكره أن تقتلن في داري قال فخرجن فما رأي منهن بعد ذلك اليوم واحدة (167) .

يا أبا بحر أتقدر أن تمشي على شرف المسجد!

عن الأصمعي أن الأحنف بن قيس كان يجالسه رجلٌ يطيل الصمت حتى أعجب به الأحنف ثم إنه تكلم فقال يا أبا بحر أتقدر أن تمشي على شرف المسجد قال فتمثل الأحنف

وكأن ترى من صامت لك معجب

زيادته أو نقصه في التكلم (168)

لأمر ما قيل احذر الجواب

سمع الأحنف بن قيس رجلا ينازع رجلا في أمر فقال إني ما أظنك إلا ضعيفا فيما تحاول فقال الرجل ما على ظنك خرجت من عند أهلي فقال الأحنف لأمر ما قيل احذر الجواب (169).

وأخشى أن تكونوا غدا مطلوبين

عن هشام بن عتبة أخي ذي الرمة الشاعر قال شهدت الأحنف بن قيس وقد جاء إلى قوم في دم فتكلم فيه فقال احتكموا فقالوا نحكم ديتين فقال ذاك لكم فلما سكتوا قال أنا أعطيك ما سألتكم غير أني قائل لكم شيئا إن الله قضى بدية واحدة وإن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بدية واحدة وإن العرب تعاطى بينها دية واحدة وأنتم اليوم طالبون وأخشى أن تكونوا غدا مطلوبين فلا يرضى الناس منكم إلا بمثل ما سميتكم على أنفسكم قالوا فردها إلى دية واحدة فحمد الله وأثنى عليه وركب (170) .

تأبين الأحنف بن قيس

وقامت فرغانة بنت أوس بن حجر على قبر الأحنف بن قيس وهي على راحلة فقالت إنا لله وإنا إليه راجعون رحمك الله أبا بحر من مجن في جنن ومدرج في كفن فوالذي ابتلاني بفقدك وبلغنا يوم موتك لقد عشت حميدا ومت

167 (ابن مفلح ، الآداب الشرعية ، 33/4

168 (أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري القاضي المالكي ، المجالسة وجواهر العلم ، دار

ابن حزم - لبنان/ بيروت - 1423هـ - 2002م ، 114/1

169 (الدينوري ، المجالسة وجواهر العلم ، 456/1

170 (الدينوري ، المجالسة وجواهر العلم ، 552/1

فقيدا ولقد كنت عظيم الحلم فاضل السلم رفيع العماد واري الزناد منيع الحريم سليم الاديم وان كنت في المحافل لشريفا وعلى الارامل لعطوفا ومن الناس لقريبا وفيهم لغريبا وان كنت لمسودا والى الخلفاء لموفدا وان كانوا لقولك لمستمعين ولرايك لمتبعين ثم انصرفت (171).

لماذا سَوَدَ الأحنف

عن خالد بن صفوان انه كان بالرصافة عند هشام بن عبد الملك. فقدم العباس بن الوليد بن عبد الملك فغشيه الناس، فكان خالد في من آتاه، وكان العباس يصوم الاثنين والخميس؛ قال خالد: فدخلت عليه في يوم خميس فقال: يا ابن الأهثم، خبرني عن تسويدكم الأحنف وانقيادكم له، وكنتم حياً لم تملكوا في جاهلية قط. فقلت: إن شئت أخبرتك عنه بخصلة لها سَوَدَ، وإن شئت بثنتين، وإن شئت بثلاث، وإن شئت حدثتك بقية عشيتك حتى تنقضي ولم تشعر بصومك. قال: هات الأولى فإن اكتفينا وإلا سألناك. قال: فقلت: كان أعظم من رأينا وسمعنا - ثم أدركني ذهني فقلت: غير الخلفاء - سلطاناً على نفسه فيما أراد حملها عليه وكفها عنه. قال: لقد ذكرتها نجلاء كافية، فما الثانية؟ قلت: قد يكون الرجل عظيم السلطان على نفسه ولا يكون بصيراً بالمحاسن والمساوىء ولم يُرَ ولم يسمع بأحدٍ كان أبصر بالمحاسن والمساوىء منه، فلا يحمل السلطنة إلا على حسن، ولا يكفها إلا عن قبيح. قال: قد جئت بصلة للأولى لا تصلح إلا بها، فما الثالثة؟ قلت: قد يكون الرجل عظيم السلطان على نفسه بصيراً بالمحاسن والمساوىء ولا يكون حظيظاً، فلا يفشو ذلك له في الناس ولا يذكر به فيكون عند الناس مشهوراً. قال: وأبيك لقد جئت بصلة الأوليتين فما بقية ما يقطع عني العشي قلت: أيامه السالفة قال: وما أيامه السالفة؟ قلت: يوم فتح خراسان، اجتمعت له جموع الأعاجم بمرور الرود فجاءه ما لا قبل له به، وهو في منزل مضيعة، وقد بلغ الأمر به فصلّى عشاء الآخرة ودعا ربّه وتضرّع إليه أن يوفقه، ثم خرج يمشي في العسكر مشي المكروب يتسمّع ما يقول الناس، فمرّ بعبدٍ يعجن وهو يقول لصاحبه: العجب لأمرنا يقيم بالمسلمين في منزل مضيعة وقد جاءه العدو من وجوه، وقد أطافوا بالمسلمين من نواحيهم ثم اتّخذوهم أعراضاً وله متحوّل. فجعل الأحنف يقول: اللهم وفقّ، اللهم وفقّ، اللهم سدّد. فقال صاحب العبد للعبد: فما الحيلة؟ قال: أن ينادي الساعة بالرحيل، فإنما بينه وبين الغيضة فرسخ، فيجعلها خلف ظهره فيمنعه الله بها، فإذا امتنع ظهره بعث بمجنّبه اليمنى

واليسرى فيمنع الله بهما ناحيته ويلقى عدوّه من جانب واحد. فخرّ الأحنف ساجداً، ثم نادى بالرحيل مكانه، فارتحل المسلمون مكبّين على رايّتهم حتى الغيضة، فنزل في قبلها وأصبح فأتاه العدو، فلم يجدوا إليه سبيلاً إلا من وجه واحد، وضربوا بطبول أربعة، فركب الأحنف وأخذ الراية وحمل بنفسه على طبل ففتقه وقتل صاحبه وهو يقول:

إِنَّ عَلَى كُلِّ رَئِيسٍ حَقًّا ... أَنْ يَخْضِبَ الصَّعْدَةَ أَوْ تَنْدَقَّا

ففتق الطبول الأربعة وقتل حملتها. فلما فقد الأعاجم أصوات طبولهم انهزموا، فركب المسلمون أكتافهم فقتلوهم قتلاً لم يقتلوا مثله قط، وكان الفتح. واليوم الثاني أَنَّ عليّاً رضي الله عنه حين ظهر على أهل البصرة يوم الجمل أتاه الأشر وأهل الكوفة بعدما اطمأنّ به المنزل وأثخن في القتل، فقالوا: أعطنا، إن كنا قاتلنا أهل البصرة حين قاتلناهم وهم مؤمنون فقد ركبنا حوباً كبيراً، وإن كنا قاتلناهم كفاراً وظهرنا عليهم عنوة فقد حلّت لنا غنيمة أموالهم وسبي ذراريهم، وذلك حكم الله تعالى وحكم نبيّه صلى الله عليه وسلّم في الكفار إذا ظهر عليهم. فقال علي: إنّه لا حاجة بكم أن تهيجوا حرب إخوانكم، وسأرسل إلى رجل منهم فأستطلع رأيهم وحجّتهم فيما قُلتم. فأرسل إلى الأحنف بن قيس في رهط فأخبرهم بما قال أهل الكوفة، فلم ينطق أحد غير الأحنف فإنّه قال: يا أمير المؤمنين لماذا أرسلت إلينا؟ فوالله إنّ الجواب عنّا لعندك، ولا نتبع الحقّ إلاّ بك، ولا علمنا العلم إلاّ منك. قال: أحببت أن يكون الجواب عنكم منكم ليكون أثبت للحجّة وأقطع للتهمة، فقل. فقال: إنهم قد أخطأوا وخالفوا كتاب الله تعالى وسنة نبيّهم صلى الله عليه وسلّم، إنّما كان السبي والغنيمة على الكفار الذين دارهم دار كفر، والكفر لهم جامع وذراريهم، ولسنا كذلك، وإنّها دار إيمانٍ ينادي فيها بالتوحيد وشهادة الحق وإقام الصلاة، وإنّما بغت طائفة أسماؤهم معلومة، أسماء أهل البغي؛ والثاني: حجّتنا أنّا لم نستجمع على ذلك البغي، فإنّه قد كان من أنصارك، من أثبتهم بصيرة في حقّك وأعظمهم غناءً عنك، طائفة من أهل البصرة، فأبى أولئك يجهل حقّه وتنسى قرابته؟ إن هذا الذي أتاك به الأشر وأصحابه قول متعلّمة أهل الكوفة، وإيم والله لئن تعرضوا لها ليكرهنّ عاقبتها ولا تكون الآخرة كالأولى. فقال عليّ رضي الله عنه: ما قلت إلا ما نعرف، فهل من شيء تخصّصون به إخوانكم لما قاسوا من الحرب؟ قالوا: نعم، أعطياتنا ما في بيت المال ولم نكن لنصرفها في عدلك عنّا، فقد طبنا عنها نفساً في هذا العام فاقسمها فيهم. فدعاهم عليّ كرّم الله وجهه فأخبرهم بحجج القوم وبما قالوا

وبموافقتهم إياه، ثم قسم المال بينهم خمسمائة لكل رجل. فهذا اليوم الثاني. وأما اليوم الثالث فإن زياداً أرسل إليه بليل وهو جالس على كرسي في صحن داره، فقال: يا أبا بحر ما أرسلت إليك في أمر تنازعني فيه مخلوجة (172)، ولكني أرسلت إليك وأنا على صريمة (173)، وكرهت أن يروعك أمر يحدث لا تعلمه. قال: ما هو؟ قال: هذه الحمراء قد كثرت بين أظهر المسلمين وكثر عددهم وخفت عدوتهم، والمسلمون في ثغرهم وجهادهم عدوهم، وقد خلفوهم في نساءهم وحریمهم، فأردت أن أرسل إلى كل من كان في عرافة من المقاتلة فيأتوا بسلاحهم ويأتيني كل عريف بمن في عرافته من عبد أو مولى فأضرب رقابهم فتؤمن ناحيتهم. قال الأحنف: فقيم القول وأنت على صريمة؟ قال: لتقولن. قال: فإن ذلك ليس لك، يمنعك منه خصال ثلاث: أما الأولى فحكم الله في كتابه وحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله، وما قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس من قال: لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، بل حقن دمه، والثانية: أنهم غلة الناس لم يغز غاز فخلف لأهله ما يصلحهم إلا من غلاتهم، وليس لك أن تحرّمهم، وأما الثالثة: فهم يقيمون أسواق المسلمين، أفتجعل العرب يقيمون أسواقهم قصارين وقصابين وحجامين؟؟! قال: فوثب عن كرسيه ولم يعلمه أنه قبل منه، وانصرف الأحنف. قال: فما بت بليلة أطول منها أسمع الأصوات، قال: فلما نادى أول المؤذنين قال لمولى له: إيت المسجد فانظر هل حدث أمر، فرجع فقال: صلى الأمير ودخل وانصرف ولم يحدث إلا خير (174).

ولا يزيد متزید في خطوه إلا لنقص يجده من نفسه

وقف الأحنف بن قيس ومحمد بن الأشعث بباب معاوية، فأذن للأحنف ثم أذن لابن الأشعث، فأسرع في مشيته حتى تقدم الأحنف ودخل قبله. فلما رآه معاوية غمه ذلك وأحنقه، فالتفت إليه، فقال: والله إني ما أذنت له قبلك وأنا

(172) قول زياد للأحنف "تنازعني فيه مخلوجة" : أي تعترضني فيه عارضة متعرجة ليست على سمت ولا استقامة، فتقطعني عن الاستمرار فتجذبني إلى الانحراف عن المحجة إلى الشبهة المؤدية إلى الحيرة، وأصل الاختلاج الاقتطاع والاجتذاب، ومنه سمى الخليج خليجاً لأنه مخلوج من البحر ومعظم الماء، بمنزلة مجروح وجريح ومقتول وقتيل.

(173) وأنا على صريمة "أي على أمر أنا قاطع عليه وواثق به، من صرم الحبل إذا قطعه، فصريمة ذاك مقطوع عليها غير مرتاب بها.

(174) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص 36-35

أريد أن تدخل قبله. وأنا كما نلي أموركم كذلك نلي آدابكم، ولا يزيد متزيد في خطوه إلا لنقص يجده من نفسه⁽¹⁷⁵⁾.

بخلاف ما فيك

وقال رجل للأحنف بم سدت قومك وما أنت بأشرفهم بيتا ولا أصبحهم وجها ولا أحسنهم خلقا فقال بخلاف ما فيك قال وما ذاك قال تركي من أمرك مالا يعنيني كما عناك من أمري ما لا يعينيك⁽¹⁷⁶⁾.

ما الشيء الملفف في البجاد؟

دخل الأحنف بن قيس التميمي على معاوية بن أبي سفيان يوماً، فقال: يا أحنف ما الشيء الملفف في البجاد؟ يعرض له بقول الشاعر:
إذا ما مات ميتٌ من تميمٍ ... فسرك أن يعيش فجياً بزد
بخبزٍ أو بتمرٍ أو بسمنٍ ... أو الشيء الملفف في البجاد
تراه يطوف في الآفاق حرصاً ... ليأكل رأس لقمان بن عاد
والشيء الملفف في البجاد: وطب اللبن. فعلم الأحنف ما أراد معاوية بتعريضه، فقال: الشيء الملفف في البجاد هو السخينة يا أمير المؤمنين. وذلك أن قريشاً كانت تغير بأكل السخينة. وهي حساء من دقيق كانوا يصنعونها عند المسغبة وغلاء السعر⁽¹⁷⁷⁾.
- الأدب نور العقل، كما أن النار في الظلمة نور البصر⁽¹⁷⁸⁾.

أدخل والله قدميك في خف واحدة

ولما حكم أبو موسى الأشعري بين علي ومعاوية أتاه الأحنف بن قيس فقال له: يا أبا موسى إن هذا مسير له ما بعده من عز الدنيا أو ذلها آخر الدهر ادع القوم إلى طاعة علي فإن أبوا فادعهم أن يختار أهل الشام من قريش العراق من أحبوا ويختار أهل العراق من قريش الشام من أحبوا وإياك إذا لقيت ابن العاص أن تصافحه بنية وأن يقعدك على صدر المجلس فإنها خديعة وأن يضمك وإياه بيت فيكمن لك فيه الرجال ودعه فليتكلم لتكون عليه بالخيار فالبادئ مستغلق والمجيب ناطق.

فما عمل أبو موسى إلا بخلاف ما قال الأحنف وأشار به فكان من الأمر ما كان فلقية الأحنف بعد ذلك فقال له أدخل والله قدميك في خف واحدة⁽¹⁷⁹⁾.

¹⁷⁵ (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 20/1)

¹⁷⁶ (الأبشيهي ، المستطرف في كل فن مستظرف ، 297/1)

¹⁷⁷ (ابن عبد البر ، بهجة المجالس وأنس المجالس ، 18/1)

¹⁷⁸ (ابن عبد البر ، بهجة المجالس وأنس المجالس ، 19/1)

ذكرت من لا ينكر فضله

قال الأحنف : دخلت على معاوية ، فقدم لي من الحار والبارد ، والحلو والحامض ما كثر تعجبي منه ، ثم قدم لي لونا لم أدر ما هو ، فقلت : ما هذا ؟ قال : مصارين البط محشوة بالمشحون قد قلى بدهن الفستق وذر عليه الطبرزد . فبكيت . فقال : ما يبكيك ؟ قلت : ذكرت عليا رضي الله عنه . بينا أنا عنده وحضر وقت إفطاره فسألني المقام ، إذ دعا بجراب مختوم ، قلت : ما في الجراب ؟ قال : سويق شعير ، قلت : ختمت عليه أن يؤخذ أو بخلت به ؟ قال : لا ولا أحدهما ، ولكنني خفت أن يلته الحسن أو الحسين بسمن أو زيت . قلت : محرم هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا ولكن يجب على أئمة الحق أن يعتدوا أنفسهم من ضعفة الناس ؛ لنلا يطغي الفقير فقره ، فقال معاوية : ذكرت من لا ينكر فضله (180).

فاضطرب العسكر بمجيء زبراء مرتين

لما خرج الأحنف مع مصعب أرسل إليه بمائة ألف درهم ولم يرسل إلى زبراء جاريته بشيء ، فجاءت حتى قعدت بين يدي الأحنف ثم أرسلت عينيها . فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : مالي لا أبكي عليك ، إذ لم تبك على نفسك . أبعد نهاوند ومرو الروذ (181) صرت إلى أن تجمع بين غارين من المسلمين ؟ فقال : نصحتني والله في ديني ، إذ لم أنتبه لذلك . ثم أمر بفساطيطه فقوضت . قال : فبلغ ذلك مصعباً ، فقال : من دهاني في الأحنف ؟ فقيل : زبراء . فبعث إليها بثلاثين ألف درهم . فجاءت حتى أرخت عينيها بين يديه فقال : ما لك يا زبراء ؟ قالت : جئت بإخوانك من أهل البصرة تزفهم كما تزف العروس ، حتى إذا صيرتهم في نحور أعدائهم أردت أن تفت في أعضادهم . قال : صدقت والله . يا غلام ؛ دعها . قال : فاضطرب العسكر بمجيء زبراء مرتين فذهبت مثلاً (182).

179 (أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة ، المكتبة العلمية - بيروت ، 388/1

180 (أبو سعد منصور بن الحسين الآبي ، نشر الدر ، تحقيق خالد عبد الغني محفوظ ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1424 هـ - 2004 م ، 207/1

181 (من المعارك التي انتصر فيها المسلمون علي الفرس

182 (أبو سعد منصور بن الحسين الآبي ، نشر الدر ، 82/4

اسقِه ماءً

قالوا : مدّ الشعبي يده وهو على مائدة قتيبة بن مسلم يلتمس الشراب فلم يدر صاحب الشراب اللبن أم العسل أم بعض الأشرية فقال له : أي الأشرية أحب إليك قال : أعزها مفقوداً وأهونها موجوداً قال قتيبة : اسقِه ماءً⁽¹⁸³⁾ .

بادل! بهم من شئت وجنّبي باهلة

قال قتيبة بن مسلم لهبيرة بن مسروح: أي رجل أنت لو كانت أحوالك من غير قبيلة سلول! فبادل بهم، قال: أصلح الله الأمير، بادل! بهم من شئت وجنّبي باهلة. وكان قتيبة من باهلة⁽¹⁸⁴⁾.

ليلي الأخيلية ووفودها على الحجاج

عن أبي الحسن المدائني، عن حدثه، عن مولى لعنيسة ابن سعيد بن العاص، قال: كنت أدخل مع عنيسة إذا دخل على الحجاج، فدخل يوماً ودخلت إليهما وليس عند الحجاج أحد غير عنيسة، فقعدت فجاء الحجاج بطبق فيه رطب، فأخذ الخادم منه شيئاً فجاءني، ثم جاء بطبق آخر فأتاني الخادم منه بشيء، ثم جيء بطبق آخر حتى كثرت الأطباق، وجعل لا يؤتون بشيء إلا جاءني منه بشيء حتى ظننت أن ما بين يدي أكثر مما عندهم، ثم جاء الحاحب فقال: امرأة بالباب، فقال الحجاج: أدخلها. فدخلت، فلما رآها الحجاج طأطأ رأسه حتى ظننت أن ذقنه قد أصاب الأرض، فجاءت حتى قعدت بين يديه فنظرت إليها فإذا امرأة قد أسنت، حسنة الخلق، ومعها جاريتان لها، وإذا هي ليلي الأخيلية، فسألها الحجاج عن نسبها فانتسبت له، فقال لها: يا ليلي! ما أتاني بك؟ قالت: إخلاف النجوم وقلة الغيوم وكلب البرد وشدة الجهد، وكنت لنا بعد الله الرغد، فقال لها: صفي لنا الفجاج، فقالت: مغبرة والأرض مقشعرة، والمبرك معتل، وذو العيال مختل، والمال القلّ، والناس مُسنتون، رحمة الله يرجون، وأصابتنا سنون مجحفة مبلطة، لم تدع لنا هبعاً ولا ربعاً، ولا عافطة ولا نافطة، أذهبت الأموال ومزقت الرجال وأهلكت العيال، ثم قالت: قد قلت في الأمير قولاً، قال: هاتي، فأنشأت تقول:

أحجاج لا يقلل سلاحك إنما ال ... منايا بكف الله حيث يراها
أحجاج لا تعطي العداة مناهم ... ولا الله يعطي للعداة مناها
ذا هبط الحجاج أرضاً مريضة ... تتبع أقصى دائها فشفاها

¹⁸³ (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، الجيل ،

لبنان/ بيروت ، 1416 هـ - 1996م ، 137/5

¹⁸⁴ (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 483/1

شفاها من الداء العضال الذي بها ... غلام إذا هز القناة سقاها
سقاها فرواها بشرب سجاله ... دماء رجال حيث قال حشاها
إذا سمع الحجاج رز كتيبة ... أعد لها قبل النزول قراها
أعد لها مسمومة فارسية ... بأيدي رجال يحلبون صراها
فما ولد الأ Bakar والعون مثله ... ببحر ولا أرض يجف ثراها
قال: فلما قالت هذا البيت، قال الحجاج: قاتلها الله! ما أصاب صفتي شاعر منذ
دخلت العراق غيرها، ثم التفت إلى عنبسة بن سعيد، فقال: والله إنني لأعد
للأمر عسى ألا يكون أبداً، ثم التفت إليها، فقال: حسبك، فقالت: قد قلت أكثر
من هذا، قال: حسبك ويحك حسبك، ثم قال: يا غلام! اذهب بها إلى فلان فقل
له: اقطع لسانها، فقال له: يقول لك الأمير: اقطع لسانها، قال: فأمر بإحضار
الحجام، والتفتت إليه وقالت: ثكلتك أمك، أما سمعت ما قال، إنما أمرك أن
تقطع لساني بالبر والصلة فبعث إليه يستثبته، فاستشاط الحجاج غضباً وهم
بقطع لسانه، وقال: ارددها، فلما دخلت عليه، قالت: كاد - وأمانة الله - أيها
الأمير يقطع مقولي، ثم أنشأت تقول:

حجاج أنت الذي ما فوقه أحد ... إلا الخليفة والمستغفر الصمد
حجاج أنت شهاب الحرب إن لقحت ... وأنت للناس نور في الدجى يقد
ثم أقبل الحجاج على جلسائه، فقال: أتدرون من هذه؟ قالوا: لا والله أيها
الأمير، إلا أننا لم نر امرأة قط أفصح لساناً ولا أحسن محاضرة، ولا أصبح
وجهاً ولا أرصن شعراً منها، فقال: هذه ليلى الأخيلى التي مات توبة الخفاجي
من حبها، ثم التفت إليها، فقال: أنشدنا يا ليلى بعض ما قال فيك توبة،
فقالت: نعم أيها الأمير، هو الذي يقول:

وهل تبكين ليلى إذا مت قبلها ... وقامت على قبري النساء النوائح
كما لو أصاب الموت ليلى بكيته ... وجاد لها دمع من العين سافح
وأغبط من ليلى، بما لا أناله ... بلى كل ما قرت به العين صالح
ولو أن ليلى الأخيلى سلمت ... علي وفوقي تربة وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا ... إليها صدى من جانب القبر صائح
فقال لها: زيدنا يا ليلى من شعره، فقال: نعم، هو الذي يقول:
حمامة بطن الواديين ترنمي ... سقاك من الغر الغوادي مطيرها
أبيني لنا لا زال ريشك ناعماً ... ولا زلت في خضراء دان نضيرها
وأشرف بالقوز اليفاع لعني ... أرى نار ليلى أو يراني بصيرها
وكننت إذا ما جئت ليلى تبرقعت ... فقد رابني منها الغداة سفورها

يقول رجال لا يضيرك نأيها ... بلى كل ما شف النفوس يضيرها
بلى قد يضير العين أن تكثر البك ... ي يمنع منها نومها وسرورها
وقد زعمت ليلي بأنني فاجرٌ ... لنفسي تقاها أو عليها فجورها
فقال الحجاج: يا ليلي! ما الذي رابه من سفورك؟ قالت: أيها الأمير! كان يلم
بي كثيراً فأرسل إلي يوماً: أني آتيك، ففطن الحي فأرصدوا له، فلما أتاني
سفرت فعلم أن ذلك لشر، فلم يزد على التسليم والرجوع، فقال: لله درك! فهل
رأيت منه شيئاً تكرهينه؟ قال: لا، والله الذي أسأله أن يصلحك، غير أنه قال
لي مرة قولاً ظننت أنه قد خضع لبعض الأمر فأنشأت أقول:
وذي حاجة قلنا لا تبج بها ... فليس إليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا نبتغي أن نخونه ... وأنت لأخرى صاحب و خليل
فلا والله الذي أسأله أن يصلحك ما رأيت منه شيئاً قد فرق الموت بيني وبينه،
قال: ثم مه، قالت: ثم إنه لم يلبث أن خرج في غزاة له فأوصى ابن عمه: إذا
أتيت الحاضر من بني عبادة فناد بأعلى صوتك:
عفا الله عنها هل أبيتن ليلة ... من الدهر لا يسري إلي خيالها
فخرج وأنا أقول:

وعنه عفا ربي وأحسن حاله ... فغز علينا حاجة لا ينالها
قال: ثم مه، قالت: ثم لم يلبث أن مات فأتى نعيه، قال: فأنشدنا بعض مراثيك
فيه، فأنشدته:

كأن فتى الفتيان توبة لم ينخ ... قلانص يفحصن الحصى بالكرامر
ليبك العذارى من خفاجة نسوة ... بماء شئون العبرة المتحادر
فلما فرغت من القصيدة، قال محسن الفقعي، وكان من جلساء الحجاج: من
الذي يقول هذه هذا فيه، فوالله إني لأظنها كاذبة، فنظرت إليه ثم قالت: والله
أيها الأمير إن هذا القائل لي لو رأى توبة لسره ألا يكون في داره عذراء
وهي حامل منه، فقال له الحجاج: هذا وأبيك الجواب، وقد كنت عنه غنياً، ثم
قال لها: سلي يا ليلي تعطي، قالت: أعط فمثلك أعطى فأحسن، قال: لك
عشرون قالت زد فمثلك زاده فأجمل، قال: لك أربعون، قالت: زد فمثلك زاد
فأفضل، قال: لك ستون قالت: زد فمثلك زاد فأكمل، قال: لك ثمانون، قالت:
زد فمثلك زاد فتمم، قال: لك مائة، واعلمي يا ليلي أنها غنم، قالت: معاذ الله
أيها الأمير، أنت أجود جوداً وأمجد مجداً وأورى زنداً من أن تجعلها غنماً،
قال: فما هي ويحك يا ليلي؟ قالت: مائة ناقة برعاتها، فأمر لها بها، ثم قال:
لك حاجة بعدها، قالت: تدفع إلي النابغة الجعدي في قيد، قال: قد فعلت، وقد

كانت تهجوه ويهجوها، فبلغ النابغة ذلك فخرج هارباً عائداً بعبد الملك بن مروان فاتبعته فهرب إلى قتيبة بن مسلم بخراسان فاتبعته على البريد بكتاب الحجاج إلى قتيبة، فماتت بقومس ويقال بخلوان⁽¹⁸⁵⁾.

نتيجة الرفق ونتيجة التعذيب

عن أبي المضرحي، قال: أمر الحجاج محمد بن المنتشر بن أخي مسروق بن الأجدع أن يعذب أزداد مرز بن الهربز، فقال أزداد مرز: يا محمد! إن لك شرفاً قديماً، وإن مثلي لا يعطى على الذل شيئاً، فاستأد وارفق بي، فاستأدى في جمعة ثلاثمائة ألف، فغضب الحجاج وأمر معبداً صاحب العذاب أن يعذبه فذق يديه ورجليه فلم يعطهم شيئاً، قال: فإني لأسير بعد ثلاثة أيام إذ أنا بأزداد مرز معترضاً على بغل قد دقت يداه ورجلاه، فقال: يا محمد! فكرهت أن آتية فيبلغ الحجاج، وتذممت من تركه إذ دعاني، فدنوت منه فقتل: حاجتك؟ فقال: إنك قد وليت مني مثل هذا فأحسننت إلي، ولي عند فلانة مائة ألف درهم، فانطلق فخذها، فقلت: لا والله لا آخذ تدرهما وأنت على هذه الحال، قال: فإني أحدثك حديثاً سمعته من أهل دينك، يقولون: إذا أراد الله بالعباد خيراً أمطرهم في أوانه، واستعمل عليهم خيارهم، وجعل المال عند سمحائهم، وإذا أراد بهم شراً أمطروا في غير أوانه، واستعمل عليهم شرارهم، وجعل المال في أشحائهم. ومضى وأتيت منزلي فما وضعت ثيابي حتى جاءني رسول الحجاج، فأتيته وقد اخترط سيفه فهو في حجره، فقال: ادن، فدنوت قليلاً، ثم قال: ادن، فقلت: ليس بي دنو، وفي حجر الأمير ما أرى، فأضحكه الله تعالى لي وأغمد السيف فقال: ما قال لك الخبيث، فقلت: والله ما غششتك منذ استنصحتني، ولا كذبتك مذ صدقتني، ولا خنتك منذ ائتمنتني، وأخبرته بما قال: فلما أردت ذكر الرجل الذي عنده المال صرف وجهه، وقال لا تسمه، ثم قال: لقد سمع عدو الله الأحاديث⁽¹⁸⁶⁾.

علمته الحياة

عن الأصمعي، قال: مثل فتى بين يدي الحجاج، فقال: أصلح الله الأمير، مات أبي وأنا حمل، وماتت أمي وأنا رضيع، فكفلني الغرباء حتى ترعرعت، فوثب بعض أهلي على مالي فاجتاحه، وهو هاربٌ مني ومن عدل الأمير. فقال الحجاج: الله! مات أبوك وأنت حمل وماتت أمك وأنت رضيع وكفلك الغرباء،

¹⁸⁵ (الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص 47-49)

¹⁸⁶ (الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص 123)

فلم يمنعك ذلك من أن فصح لسانك، وأنبأت عن إرادتك! اطرّدوا المؤدبين عن أولادي⁽¹⁸⁷⁾.

ويحك أخبرته؟

أتى الحجاج برجلين من الخوارج، فقال لأحدهما: ما دينك؟ قال: دين إبراهيم حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، فقال: يا حרسي! اضرب عنقه، ثم قال للآخر: أنت ما دينك؟ قال: دين الشيخ يوسف بن الحكم - يعني أبا الحجاج - قال: ويحك أخبرته؟ لقد كان صواماً قواماً، يا حرسى! خل عنه، فقال: ويحك يا حجاج! أشقيت نفسك واثمت بربك، قتلت رجلاً على دين إبراهيم صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: " ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه " : فقال: أبيت، يا حرسى! اضرب عنقه، فانطلق به فأنشأ يقول:

سبحان رب قد يرى ويسمع ... وقد مضى في علمه ما تصنع
ولو يشا في ساعة بل أسرع ... فيرسلن عليك ناراً تسطع
فيترك السرير منك بلقع
فضربت عنقه⁽¹⁸⁸⁾.

قصة جدر اللص والحجاج والأسد

عن أبي عبد الله محمد بن زياد الأعرابي قال: بلغني أنه كان رجل من بني حنيفة يقال له جدر بن مالك فتاكاً شجاعاً قد أغار على أهل حجرٍ وناحياتها، فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف، فكتب إلى عامله باليمامة يوبخه بتلاعب جدر به، ويأمره بالاجداد في طلبه والتجرد في أمره؛ فلما وصل الكتاب إليه أرسل إلى فتية من بني يربوع من بني حنظلة فجعل لهم جعلاً عظيماً إن هم قتلوا جدرًا أو أتوا به أسيراً، فانطلق الفتية حتى إذا كانوا قريباً منه أرسلوا إليه أنهم يريدون الانقطاع إليه والتحرز به، فاطمأن إليهم ووثق بهم، فلما أصابوا منه غرةً شدوه كتافاً وقدموا به على العامل، فوجه به معهم إلى الحجاج وكتب يثني عليهم خيراً، فلما أدخل على الحجاج قال له: من أنت؟ قال: أنا جدر بن مالك، قال: ما حملك على ما كان منك؟ قال: جراءة الجنان، وجفاء السلطان، وكلب الزمان، فقال له الحجاج: وما الذي بلغ منك فيجترى جنانك ويجفوك سلطانك ويكلب زمانك؟ قال: لو بلاني الأمير أكرمه الله لوجدني من صالح الأعوان وبهم والفرسان، ولوجدني من أنصح رعيته، وذلك أني مالقيت فارساً قط إلا كنت عليه في نفسي مقتدراً، قال له الحجاج: إنا قاذفون بك في

¹⁸⁷ (الجليس الصالح والأنيس الناصح ، ص 207

¹⁸⁸ (الجليس الصالح والأنيس الناصح ، ص 221

حائر فيه أسد عاقر صار فإن هو قتلك كفانا مؤونتك، وإن أنت قتلتة خلينا
سبيلك؛ قال: أصلح الله الأمير، عظمت المنة، وأعطيت المنية، وقويت
المحنة، فقال الحجاج: فإنا لسنا بتاركيك لتقاتله إلا وأنت مكبل بالحديد، فأمر
به الحجاج فغلت يمينه إلى عنقه وأرسل به إلى السجن. فقال جحدر لبعض
من يخرج إلى اليمامة: تحمل عني شعراً، وأنشأ يقول:
ألا قد هاجني فازددت شوقاً ... بكاء حمامتين تجاوبان
تجاوبتا بلحن أعجمي ... على غصنين من غرب وبان
فقلت لصاحبي وكنت أحزو ... ببعض الطير ماذا تحزوان
فقالا الدار جامعة قريب ... فقلت بل انتما متمنيان
فكان البان أن بانث سليمى ... وفي الغرب اغتراب غير داني
أليس الليل يجمع أم عمرو ... وإيانا فذاك بنا تداني
بلى وترى الهلال كما نراه ... ويعلوها النهار إذا علاني
إذا جاوزتما نخلات حجر ... وأودية اليمامة فانعاني
وقولا جحدر أمسى رهيناً ... يحاذر وقع مصقول يمانى
قال: وكتب الحجاج إلى عامله بكسر أن يوجه إليه بأسد صار عاتٍ ويجر
على عجل؛ فلما ورد كتابه على العامل امتثل أمره، فلما ورد الأسد على
الحجاج أمر به فجعل في حائر وأجيع ثلاثة أيام، وأرسل إلى جحدر فأتى به
من السجن ويده اليمنى مغلوطة إلى عنقه، وأعطى سيفاً والحجاج وجلساؤه
في منظره لهم، فلما نظر جحدر إلى الأسد أنشأ يقول:
ليث وليث في محل ضنك ... كلاهما ذو أنفٍ ومحك
وشدة في نفسه وفتك ... إن يكشف الله قناع الشك
أو ظفر بحاجتي ودركي ... فهو أحق منزل بترك
فلما نظر إليه الأسد زار زارة شديدة وتمطى وأقبل نحوه، فلما صار منه على
قدر رمح وثب وثبة شديدة، فتلقاه جحدر بالسيف فضربه ضربة حتى خالط
ذباب السيف لهواته، فخر الأسد كأنه خيمة قد صرعتها الريح، وسقط جحدر
على ظهره من شدة وثبة الأسد وموضع الكبول، فكبر الحجاج والناس
جميعاً، وأنشأ جحدر يقول:
يا جمل إنك لو رأيت كريهتي ... في يوم هول مسدف (189) وعجاج
وتقدمي لليث أرسف (190) موثقاً ... كيما أثاوره على الإحراج

189 (مسدف: مظلّم من السدفة

190 (والرسف: مشي المقيد

شن برائته (191) كأن نيوبه ... زرق المعاول أو شبابة (192) زجاج
يسمو بناظرتين تحسب فيهما ... لما أحدهما شعاع سراج
وكأنما خيبت عليه عباءة ... برقاء (193) أو خرق من الديباج
لعلت أني ذو حفاظٍ ماجد ... من نسل أقوام ذوي أبراج
ثم التفت إلى الحجاج فقال:
ولئن قصدت بي المنية عامداً ... إني بخيرك بعد ذاك لراجي
ويروى: إني لخيرك يا ابن يوسف راج.
علم النساء بأنني لا أنتهي ... إذ لا يثقن بغيره الأزواج
وعلمت أني إن كرهت نزاله ... أني من الحجاج لست بناج
فقال له الحجاج: إن شئت أسنينا عطيتك، وإن شئت خلينا سبيلك، قال: لا، بل
اختار مجاورة الأمير، أكرمه الله. ففرض له ولأهل بيته وأحسن جائزته (194).

وفادة جرير على الحجاج

عن أبي الذيال السلولي قال حدثني جرير قال: وفدت على الحجاج بن يوسف
في سفرة تسمى سفرة الأربعين، فأعطاني أربعين راحلة ورعاءها وحشو
حقائبها القطائف والأكسية، كسوة لعيالي، وأوقرها حنطة ثم خرجت فلما
شددت على راحلتي كورها وأنا أريد المضي جائني خادم فقال: أجب الأمير،
فرجعت معه، فدخلت على الحجاج، فإذا هو قاعد على كرسي، وإذا جارية
قائمة تعمله بعمامة فقلت: السلام عليك أيها الأمير فقال: هات قل في هذه،
فقلت: بأبي وأمي تمنعني هيبة الأمير وإجلاله، وأفحمت فما أدري ما أقول،
فقال: بل هات قل فيها، فقلت: بأبي وأمي فما اسمها؟ قال: أمانة، فلما أمانة
فتح علي فقلت:

ودع أمانة حان منك رحيل ... إن الوداع لمن تحب قليل
تلك القلوب صوادياً تيمتها ... وأرى الشفاء وما إليه سبيل
فقال: بل إليه سبيل، خذ بيدها فحببته (195) فتعلقت بالعمامة وجذبته حتى
رأيت عنق الحجاج قد صغت ومالت مما جذبته، وتعلق بالعمامة، قال:
ويخطر ببالي بيت من شعر فقلت:
إن كان طبكم (196) الدلال فإنه ... حسن دلالك يا أميم جميل

191 (والبرائق: مخالف الأسد.

192 (والشبا والشبابة: حد الأسنة

193 (البرقاء التي فيها سواد وبياض

194 (المجلس الصالح والأنيس الناصح ، ص 295-296

195 (جذبته وأجذبها بمعنى جذبته وأجذبها، تقول جذبته أجذبته جبداً، وجذبته أجذبته جذباً.

فقال الحجاج: إنه والله ما بها دلال ولكن بها بغض وجهك وهو أهل ذلك، خذها بيدها جرّها، فلما سمعت ذلك منه خلت العمامة. وخرجت بها فكنيتها أم حكيم وجعلتها تقوم على ودي لي وعمالي وتعطيهم نفقاتهم بقرية يقال لها الغنية من قرى الوشم حتى نفذ الودي. قال طلحة: فأخبرني الزبير قال، قال محمد بن أيوب: وسمعت حجناء بن نوح يقول: كانت والله مباركة⁽¹⁹⁷⁾.

سمرة الخارجي والحجاج

قال الشرقي بن القطامي: كان سمرة بن الجعد من قعد الأزارقة، غير أنه لم يكن يعرف بذلك، وكان قد وقعت له من الحجاج منزلة حتى كان يدخله في سمره، فلما سار قطري بن الفجاءة إلى جيرفت كتب إلى سمرة بن الجعد يعيّرهم مقامه عنهم وركونه إلى الدنيا، وكان في كتابه إليه: لشتان ما بين ابن جعد وبيننا ... إذا نحن رحنا في الحديد المظاهر نجالد فرسان المهلب كلنا ... صبور على وقع السيوف البواتر وراح يجرّ الخزّ نحو أميره ... أمير بتقوى ربّه غير أمر أبا الجعد أين الحلم والعلم والتقى ... وميراث آباء كرام العناصر ألم تر أن الموت لا بدّ نازل ... ولا بدّ من بعث الألى في المقابر حفاة عراة والثواب لديهم ... فمن بين ذي ربح وآخر خاسر فسر نحونا إنّ الجهاد غنيمة ... تفدك ابتياعاً رابحاً غير بائر فلما قرأ كتابه لحق بهم وكتب إلى الحجاج: فمن مبلغ الحجاج أن سميرة ... قلّ دين غير دين الخوارج قال القاضي: يجوز " كلّ دين غير " خفضاً ونصباً، الخفض على الصفة لدين والنصب على الصفة لكل وعلى الاستثناء. رأى الناس إلا من رأى مثل رأيهم ... ملاعين تراكين قصد المخارج فإني امرؤ أي يا ابن يوسف ... ظفرت به لو نلت علم الولائج⁽¹⁹⁸⁾ إذا لرأيت الحقّ منه مخالفاً ... لرأيك إذ كنت امرءاً غير فالج⁽¹⁹⁹⁾ فأقبلت نحو الله بالله واثقاً ... وما كربتي غير الإله بفارج إلى قطري في الشراة معارجاً ... ولست إلى غير الشراة بعارج

¹⁹⁶ (يعني الخلق والطبع

¹⁹⁷ (الجليس الصالح والأنيس الناصح ، ص 347

¹⁹⁸ (" علم الولائج " أي الدخائل من ولج أي دخل، قال الله عز وجل: " ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة " " التوبة: 16 " أي دخلة يستبطنونها تخالف ما يظهرونه من إيمانهم.

¹⁹⁹ (غير فالج " أي غير مصيب ظافر فائز قد فلجت حجّته.

إلى عصابة أما النهار فانهم ... هم الأسد أسد البأس عند التهائج
وأما إذا ما الليل جنّ فانهم ... قيام كأنواح النساء النواشج
ينادون بالتحكيم لله إنهم ... رأوا حكم عمرو كالرياح الهوائج
وحكم ابن قيس قبل ذاك فأعصموا ... بحبل شديد الفتل ليس بناهج⁽²⁰⁰⁾ ⁽²⁰¹⁾

قوة منطق الحجاج

عن عوانة قال: خطب الحجاج الناس بالكوفة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا
أهل العراق، تزعمون أنا من بقية ثمود، وتزعمون أني ساحر، وتزعمون أن
الله عز وجل علّمني اسماً من أسمائه أقهركم به، وأنتم أولياؤه بزعمكم وأنا
عدوه، فبيّني وبينكم كتاب الله تعالى. قال " عز وجل: " فلما جاء أمرنا نجينا
صالحاً والذين آمنوا معه " هود " 66 " فنحن بقية الصالحين إن كنّا من
ثمود. وقال جلّ وعز: " إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى "
طه: 69 " والله أعدل في حكمه من أن يعلم عدواً من أعدائه اسماً من
أسمائه يهزم به أوليائه. ثم حمي من كثرة كلامه فتحامل على رمانة المنبر
فحطمها، فجعل الناس يتلاحظون بينهم وهو ينظر إليهم، فقال: يا أعداء الله
ما هذا الترامز؟ أنا حديثاً الطّبي السّاتح والغراب الأبقع والكوكب ذي الذّنب
(²⁰²)، ثم أمر بذلك العود فأصلح قبل أن ينزل من المنبر⁽²⁰³⁾.

مصيّبي في أمير المؤمنين أعظم حين وجه مثلك رسولاً

وأصيب الحجاج بن يوسف بمصيبة ، وعنده رسول لعبد الملك بن مروان ،
فقال : ليت إني وجدت إنساناً يخفف عني مصيّبي ، فقال له الرسول : أقول ،
قال : قل قال :

كل إنسان مفارق صاحبه بموت أو بصلب أو بنار تقع عليه من فوق البيت ،
أو يقع عليه البيت ، أو يسقط في بئر ، أو يغشى عليه أو يكون شئ لا يعرفه

²⁰⁰ (" ليس بناهج " أي ليس ببال مخلق، يقال: قد أنهج البرد وغيره من الثياب إذا صار
كذلك، كما قال سحيم عبد بني الحساس.

وما زال بردي طيباً من ثيابها ... إلى الحول حتى أنهج البرد باليا

²⁰¹ (المجلس الصالح والأنيس الناصح ، ص 420

²⁰² (قول الحجاج: " أنا حديثاً الطّبي السّاتح والغراب الأبقع والكوكب ذي الذّنب " فإنه أراد إنّنا
لثقتنا بالغلبة والاستعلاء، والإفحاطة والاستيلاء، نتحدّى ارتفاع الطّبي سائحاً، وهو أحمد ما
يكون في سرعته ومضائه، والغراب الأبقع في تحذره وذكائه، ومكره وخبثه ودهائه، وذا الذّنب
من الكواكب فيما ينذر به من عواقب مكروهه وبلائه، فقال الحجاج هذا مختالاً في غلوائه،
ومرهباً لمن بين ظهرائه من أعدائه، والله ذو البأس الشّدّيد بالمرصاد له ولحزبه وأوليائه.

²⁰³ (المجلس الصالح والأنيس الناصح ، ص 423-424

. فضحك الحجاج وقال : مصيبتني في أمير المؤمنين أعظم حين وجه مثلك رسولاً (204).

رسولي إليهم كل يوم الشمس

وكان الحجاج بن يوسف الثقفي من الفصحاء وكان على عتوه وإسرافه جوادا وكان إذا ضحك واستغرق في الضحك أتبع ذلك الاستغفار مرات وكان يطعم على ألف خوان وكان يطوف على الموائد ويقول يا أهل الشام مزقوا الخبز لئلا يعود إليكم ثانيا وكان يجلس على كل مائدة عشرة رجال وذلك في كل يوم وكان يقول أرى الناس يتخلفون عن طعامي فقيل له إنهم يكرهون الحضور قبل أن يدعوا فقال قد جعلت رسولي إليهم كل يوم الشمس إذا طلعت وعند المساء إذا غربت (205).

صاحب الشرطة

وقال الحجاج بن يوسف : دلوني على رجل للشرطة ، فقيل : أي رجل تريد ؟ فقال : أريد رجلاً دائماً العبوس ، طويل الجلوس ، سمين الأمانة ، أعجف الخيانة ، يهون عليه سبب الشریف في الشفاعة فقالوا : عليك بعبد الرحمن بن عبد الله التميمي ، فأرسل إليه يستعمله ، فقال : لست أعمل لك عملاً إلا أن تكفيني ولدك ، وأهل بيتك ، وعيالك وحاشيتك ، فقال : يا غلام ، ناد : مَنْ طلب إليه حاجة منهم فقد برئت منه الذمة (206) .

سيد الجن

قال الحجاج بن يوسف ليحيى بن سعيد بن العاص: بلغني أنك تشبه إبليس في قبح وجهك؛ قال: وما ينكر الأمير أن يكون سيد الإنس يشبه سيد الجن؟ (207).

أفسدت علي لعنك الله!

وروي أن الحجاج بن يوسف لما زوج محمد بن الحجاج قال: لأصنعن طعاماً لم يسبقني إليه الأولون ولا يلحقني به الآخرون. فقيل له: لو وجهت إلى المدائن فسألت كيف يصنع كسرى بالطعام فعملت على نحو ذلك. فأرسل إلى بعض من يعلم ذلك، فقال: حين تزوج كسرى هنداً بنت بهرام كتب إلى عماله في الآفاق: ليقدّم علي كل رجل منكم وخليفة شرطته، فوافى عنده اثنا عشر ألفاً،

204 (المحاسن والأضداد ، ص 113

205 (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، 8/1

206 (أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني ، زهر الأداب وثمر الألباب ، 381/2

207 (ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية ، 393/2

فأطعمهم في ثلاثة أيام، كل يوم أربعة آلاف خوان، يقعدون على بسط الديباج المنسوجة بالذهب ووسائد الديباج المنسوجة بالذهب؛ فلما أكلوا أتى كل واحد بمثقال من مسك فغسل به يده، فلما قاموا بعث بتلك الآنية والبسط فقسمت عليهم. فقال الحجاج: أفسدت علي لعنك الله! اذهبوا فاشتروا الجزر فانحروها في مربعات واسط⁽²⁰⁸⁾.

فغدا الناس عليه يعزونه عنها

لما أكره الحجاج بن يوسف عبد الله بن جعفر على أن يزوجه ابنته استأجله في نقلها سنة. ففكر عبد الله في الانفكاك منه، فألقى في روعه خالد بن يزيد بن معاوية فكتب إليه يعلمه ذلك، وكان الحجاج تزوجها بإذن عبد الملك. فورد على خالد كتابه ليلاً فاستأذن من ساعته على عبد الملك، فقيل له: أفي هذا الوقت؟ فقال: إنه أمر لا يؤخر، فأعلم عبد الملك بذلك فأذن له. فلما دخل عليه قال له عبد الملك: فيم السرى يا أبا هاشم؟ قال: أمر جليل لم آمن أن أخره فتحدث علي حادثة فلا أكون قضيت حق بيعتك. قال: وما هو؟ قال: أتعلم أنه كان بين حيين من العداوة ما كان بين آل الزبير وآل أبي سفيان؟ قال: لا، قال: فإن تزوجني إلى آل الزبير حل ما كان لهم في قلبي، فما أهل بيت أحب إلي اليوم منهم. قال: فإن ذلك ليكون. قال: فكيف أذنت للحجاج أن يتزوج من بني هاشم وأنت تعلم ما يقولون وما يقال فيهم، والحجاج من سلطائك بحيث علمت؟ فجزاه خيراً، وكتب إلى الحجاج بعزمه أن يطلقها، فطلقها. فغدا الناس عليه يعزونه عنها⁽²⁰⁹⁾.

ما هذه الصوارخ يا أمير المؤمنين؟

وقال القاسم بن الوليد: حدثني أبي، الوليد بن خلف، أن الحجاج بن يوسف أوفد مالك بن أسماء بن خارجة إلى عبد الملك بن مروان فدخل عليه فسمع صوارخ في داره، فقال: ما هذه الصوارخ يا أمير المؤمنين؟ فقال له عبد الملك: مات أبان بن عبد الملك في هذه الليلة، فقال له مالك: أجرك الله يا أمير المؤمنين، فوالله ما على ظهر الأرض أهل بيت أعظم مرزئة واحد على الناس ولا الله أكفى لهم بالواحد الباقي من أنفسهم منكم أهل البيت. فأعجب عبد الملك كلامه، فاستعاده، وفضله على أصحابه.

²⁰⁸ (ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية ، 460/2

²⁰⁹ (ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية ، 6/

هذا تأويل رؤيائي

قال أبو الحسن المدائني عن عامر بن الأسود وغيره أن الحجاج رأى في منامه كأن عينيه ذهبتا. فلما طلق هند ابنة أسماء، وهند ابنة المهلب ظن أنها تأويل رؤياه. فلما مات ابنه محمد وأتاه موت محمد أخيه قال هذا تأويل رؤيائي من قبل.

أتضحك وقد هلك المحمدان

عن أبي محمد بن عمرو الثقفي قال: لما مات محمد بن الحجاج جزع عليه فقال: إذا غسلتموه فأذنوني به. فأعلموه به فدخل البيت فنظر إليه فقال: الكامل الآن لما كنت أكمل من مشى ... وأفتّر نابتك عن شبابة القارح وتكاملت فيك المروعة كلها ... وأعنت ذلك بالفعال الصالح فقليل له: اتق الله واسترجع، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون وقرأ: الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون.

وأتاه موت محمد بن يوسف وكان بينهما جمعة، فقال: الطويل حسبي حياة الله من كل ميت ... وحسبي بقاء الله من كل هالك إذا ما لقيت الله ربّي مسلماً ... فإن نجاة النفس فيما هنالك وجلس الحجاج للمعزين ووضع بين يديه مرآة، وولى الناس ظهره وقعد في مجلسه، فكان ينظر إلى ما يصنعون، فدخل الفرزدق فلما نظر إلى فعل الحجاج تبسم، فلما رأى الحجاج ذلك منه قال: أتضحك وقد هلك المحمدان فأنشأ يقولك الطويل

لئن جزع الحجاج ما من مصيبة ... تكون لمحزون أجلّ وأوجعا
من المصطفى والمصطفى من خيارهم ... جناحيه لما فارقه فودّعا
أخ كان أغنى أيمن الأرض كلها ... وأغنى ابنه أمر العراقيين أجمعاً
جناحا عقاب فارقه كلاهما ... ولو قطعاً من غيره لتضعضعا
سمياً نبي الله سمّاهما به ... أب لم يكن عند التوائب أخضعا⁽²¹⁰⁾

هل أصابك مطر؟

عن عبد الملك بن عمير قال: كنت عند الحجاج بن يوسف فقال لرجل من الشام: هل أصابك مطر؟ فقال: نعم أصابنا مطر أسال الإكام، وأدحض التلاع، وخرق الرجع، فجئتكم في مثل مجر الضبع؛ ثم سأل رجلاً من أهل الحجاز: هل أصابك مطر؟ قال: نعم، سقتني الأسمية فغيبت الشفار، وأطفئت النار، وتشكت

النساء، وتظالمت المعزى، فاحتلبت الدرة بالجرة؛ ثم سأل رجلاً من أهل فارس فقال: نعم، ولا أحسن كما قال هؤلاء! إلا أني لم أزل في ماء وطن حتى وصلت إليك. (211)

وصية الحجاج بن يوسف

عن سيف عن شيخ ثقيف قال في وصية الحجاج: هذا ما أوصى به الحجاج بن يوسف: " أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأنه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، ولا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا، وإليك المصير، لا نفرق بين أحد من خلفاء الله، ولا ننتهم الله في قضائه فيهم، هم لي أولياء، وأنا لهم ولي في الدنيا والآخرة، من اتهم الله على قضائه فيهم أو نكث عهده أو عصاه، أو خلع عطاء الله الذي ولّاهم فأنا لذلك عدو في الدنيا والآخرة، على هذا أحياء، وعليه أموت، وعليه أبعث، وبه أخاصم، وإن صلاة الحجاج ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين " (212).

لا تعرف فضيلة الشعر

ولما قدم الحجاج بن يوسف العراق جفا الشعراء جفاء اتصل خبره بعبد الملك بن مروان فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عبد الملك الى الحجاج بن يوسف، أما بعد: فقد بلغني عنك أمر كذب فراستي فيك، وأخلف ظني عندك، وهو إعراضك عن الشعر والشعراء؛ فإنك لا تعرف فضيلة الشعر ولا تعلم مواضع كلام الشعراء ومواقع سهامهم، أو ما علمت يا أخا ثقيف أن بالشعر بقاء الذكر ونماء الفخر، وأن الشعراء طرز المملكة، وحلي الدولة، وعناوين النعمة، وتمايم المجد، ودلائل الكرم، وأنهم يحضون على الأفعال الجميلة، وينهون عن الخلائق الذميمة، وأنهم سنوا سبيل المكارم لطلابها ودلوا بغاة المحامد على أبوابها، وأن الإحسان إليهم كرم، والإعراض عنهم لؤم وندم، فاستدرك فارط تفريطك، وامح بصوابك وحي أغاليطك (213).

211 (ابن دريد ، المطر والسحاب ، ص9

212 (السجستاني ، المعمرين والوصايا ، 52/1

213 (المظفر بن الفضل ، نضرة الاغريض في نصرة القريض ، ص65

لقاء بين الجد الرومي النصراني والحفيد العربي المسلم

عن أبي معمر، عن رجل من أهل الكوفة، قال: كنا مع مسلمة بن عبد الملك، ببلاد الروم، فسبنا سبائا كثيرة، وأقام ببعض المنازل، فعرض السبي على السيف، فقتل خلقاً، حتى عرض عليه شيخ كبير ضعيف، فأمر بقتله. فقال له: ما حاجتك إلى قتل شيخ مثلي؟ إن تركتني حياً، جئتكم بأسيرين من المسلمين شابين.

قال له: ومن لي بذلك؟ قال: إني إذا وعدت وفيت. قال: لست أثق بك.

فقال له: دعني حتى أطوف في عسكري، لعلني أعرف من يتكفل بي إلى أن أمضي وأعود أجيء بالأسيرين.

فوكل به من يطوف به، وأمره بالاحتفاظ به، فما زال الشيخ يطوف، ويتصفح الوجوه، حتى مر بفتى من بني كلاب، قائماً يحس فرسه. فقال له: يا فتى، اضمني للأمير، وقص عليه قصته. فقال: أفعل، وجاء الفتى إلى مسلمة، فضمنه، فأطلقه مسلمة. فلما مضى، قال للفتى: أتعرفه؟ قال: لا، والله.

قال: فلم ضمنته؟ قال: رأيته يتصفح الوجوه، فاختراني من بينهم، فكرهت أن أخلف ظنه في.

فلما كان من الغد، عاد الشيخ، ومعه أسيران شaban من المسلمين، فسلمهما إلى مسلمة، وقال: إن رأى الأمير أن يأذن لهذا الفتى أن يصير معي إلى حصني لأكافئه على فعله.

فقال مسلمة للفتى الكلابي: إن شئت فامض معه.

فلما صار إلى حصنه، قال له: يا فتى، تعلم - والله - أنك ابني قال له: وكيف أكون ابنك، وأنا رجل من العرب مسلم، وأنت رجل من الروم نصراني. فقال له: أخبرني عن أمك، ما هي؟ قال: رومية. قال: فإني أصفها لك، فبالله إن صدقت، إلا صدقتني. قال: أفعل.

فأقبل الرومي، يصف أم الفتى، ما خرم من صفتها شيئاً.

فقال له الفتى: هي كذلك، فكيف عرفت أنني ابنها؟ قال: بالشبه، وتعارف الأرواح، وصدق الفراسة.

ثم أخرج إليه امرأة، فلما رآها الفتى لم يشك فيها أنها أمه، لتقارب الشبه، وخرجت معها عجوز كأنها هي، فأقبلتا تقبلان رأس الفتى، ويديه، وتترشفانه.

فقال له: هذه جدتك، وهذه خالتك.

ثم اطلع من حصنه، فدعا بشباب في الصحراء، فأقبلوا، بكلمهم بالرومية، فأقبلوا يقبلون رأس الفتى ويديه، فقال: هؤلاء أخوالك، وبنو خالاتك، وبنو عم والدتك.

ثم أخرج إليه حلياً كثيراً، وثياباً فاخرة، وقال: هذا لوالدتك منذ سبيت، فخذ معك، وادفعه إليها، فإنها ستعرفه، ثم أعطاه لنفسه مالا كثيراً، وثياباً، وحلياً، وحمله على عدة دواب، وألحقه بعسكر مسلمة، وانصرف.

وأقبل الفتى قافلاً حتى دخل إلى منزله فأقبل يخرج الشيء بعد الشيء مما عرفه الشيخ أنه لأمه، وتراه أمه، فتبكي، فيقول لها: قد وهبته لك.

فلما كثر عليها، قالت له: يا بني، أسألك بالله، من أي بلد صارت إليك هذه الثياب، وهل تصف لي أهل هذا الحصن الذي كان فيه هذا؟ فوصف لها الفتى صفة البلد والحصن، ووصف لها أمها وأختها، والرجال الذين رآهم، وهي تبكي وتقلق.

فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: الشيخ والله والدي، والعجوز أُمي، وتلك أختي. فقص عليها الخبر، وأخرج بقية ما كان أنفذه معه أبوها إليها، فدفعه إليها⁽²¹⁴⁾.

إن لم يقدر عليها ذكرها الرجال

دخل مسلمة بن عبد الملك على أخيه هشام ابن عبد الملك وعنده خادم جميل عليه عمامة سوداء وثياب وشي فقال مسلمة يا أمير المؤمنين أي فتياننا هذا قال هذا خادم لي فقال يا أمير المؤمنين يدخل على حرمك مثل هذا قال إنه محبوب لا يقدر على النساء قال إنه إن لم يقدر عليها ذكرها الرجال فأخرجه هشام⁽²¹⁵⁾

السحر الحلال

وسمع مسلمة بن عبد الملك رجلاً يتكلم فيحسن ويبين معانيه التي يقصد لها تبيننا شافياً فقال مسلمة هذا والله السحر الحلال⁽²¹⁶⁾

²¹⁴ (القاضي التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ص 76

²¹⁵ (أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن الجوزي ، ذم الهوى ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ،

ألا أخبرك عما دعاني إلى ترك الشعر؟

قال لي كثير عزة: ألا أخبرك عما دعاني إلى ترك الشعر؟ قلت: نعم؛ قال: شخصت أنا والأحوص ونصيب إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وكل واحد منا يدل عليه بسابقة وإخاء قديم، ونحن لا نشك أنه سيشر كنا في خلافته، فلما رفعت لنا أعلام خناصرة، لقينا مسلمة بن عبد الملك، وهو يومئذ فتى العرب؛ فسلمنا، فرد، ثم قال: أما بلغكم أن إمامكم لا يقبل الشعر؟ قلنا ما توضح إلينا خبر حتى انتهينا إليك، ووجمنا وجمة عرف ذلك فينا؛ فقال: إن يك ذو دين بنى مروان قد ولي وخشيتم حرمانه، فإن ذا دنياها قد بقي ولكم عندي ما تحبون، وما ألبث حتى أرجع إليكم وأمنحكم ما أنتم أهله. فلما قدم كانت رحالنا عنده بأكرم منزل وأكرم منزل عليه؛ فأقمنا عنده أربعة أشهر يطلب لنا الإذن هو وغيره فلا يؤذن لنا، إلى أن قلت في جمعة من تلك الجمع: لو أنني دنوت من عمر فسمعت كلامه فحفظته كان ذلك رأياً، ففعلت. فكان مما حفظت من كلامه: لكل سفر زاد لا محالة، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه أو عقابه، فترغبوا وترهبوا، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتتقادوا لعدوكم؛ في كلام كثير لا أحفظه. ثم قال: أعود بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي، وتظهر عيلتي، وتبدو مسكنتي، في يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق. ثم بكى حتى ظننت أنه قاض نحبه، وارتج المسجد وما حوله بالبكاء فانصرفت إلى صاحبي فقلت لهما: خذا في شرج من الشعر غير ما كنا نقول لعمر وآبائه، فإن الرجل آخري وليس بدنيوي. إلى أن استأذن لنا مسلمة في يوم جمعة ما أذن للعامة، فلما دخلت سلمت ثم قلت: يا أمير المؤمنين، طال الثواء وقلت الفائدة وتحدثت بجفائك إيانا وفود العرب؛ قال: يا كثير " إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل " أفي واحد من هؤلاء أنت؟ قلت: بلى، ابن سبيل منقطع به، وأنا ضاحك؛ قال: ألسنت ضيف أبي سعيد؟ قلت: بلى؛ قال: ما أرى ضيف أبي سعيد منقطعاً به؛ قلت: يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في الإنشاء؟ قال: نعم، ولا تقل إلا حقاً، فقلت: وليت فلم تشتم عليا ولم تخف ... برياً ولم تقبل إشارة مجرم

وصدقت بالفعل المقال مع الذي ... أتيت فأمسى راضياً كل مسلم
ألا إنما الفتى بعد زيجة ... من الأود البادي ثقاف المقوم
وقد لبست لبس الهلوك ثيابها ... تراءى لك الدنيا بكف ومعصم
وتومض أحياناً بعين مريضة ... وتبسم عن مثل الجمان المنظم
فأعرضت عنها مشمئزاً كأنما ... سقتك مدوفاً من سمam وعلقم
وقد كنت من أجبالتها في ممنع ... ومن بحرها في مزبد الموج مفعم
وما زلت تواقاً إلى كل غاية ... بلغت بها أعلى البناء المقوم
فلما أتاك الملك عفواً ولم يكن ... لطالب دنيا بعده من تكلم
تركت الذي يفنى وإن كان مونقا ... وآثرت ما يبقى برأي مصمم
وأضررت بالفاني وشممرت للذي ... أمامك في يوم من الهول مظلم
ومالك إذ كنت الخليفة مانع ... سوى الله من مال رغب ولا دم
سما لك هم في الفؤاد مؤرق ... بلغت به أعلى المعالي بسلم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها ... مناد ينادي من فصيح وأعجم
يقول: أمير المؤمنين ظلمتني ... بأخذ للدينار ولا أخذ درهم
ولا بسط كف لأمري غير مجرم ... ولا السفك منه ظالماً ملء محجم
ولو يستطيع المسلمون لقسموا ... لك الشطر من أعمارهم غير ندم
فأربح بها من صفقة لمبايع ... وأعظم بها أعظم بها ثم أعظم
قال: فأقبل علي وقال: إنك مسؤول عما قلت. ثم تقدم الأحوص فاستأذنه في
الإنشاد؛ فقال: قل ولا تقل إلا حقاً؛ فقال:

وما الشعر إلا حكمة من مؤلف ... بمنطق حق أو بمنطق باطل
فلا تقبلن إلا الذي وافق الرضا ... ولا ترجعنا كالنساء الأرامل⁽²¹⁷⁾

أنا بالله وأنت بالله

قال عبد الله بن سوار: قال لي ربيع الحاجب: أتحب أن تسمع حديث ابن
هبيرة مع مسلمة؟ قلت: نعم؛ قال: فأرسل لخصي كان لمسلمة يقوم على
وضوئه، فجاءه، فقال: حدثنا حديث ابن هبيرة مع مسلمة؛ قال: كان مسلمة
بن عبد الملك يقوم من الليل فيتوضأ ويتنفل حتى يصبح فيدخل على أمير
المؤمنين، فإني لأصب الماء على يديه من آخر الليل وهو يتوضأ إذ صاح
صائح من وراء الرواق: أنا بالله وبالأمر؛ فقال مسلمة: صوت ابن هبيرة،
أخرج إليه. فخرجت إليه ورجعت فأخبرته؛ فقال: أدخله، فدخل؛ فإذا رجل يمد
نعاساً، فقال: أنا بالله وبالأمر؛ قال: أنا بالله وأنت بالله؛ ثم قال: أنا بالله

وبالأمير؛ قال: أنا بالله وأنت بالله، حتى قالها ثلاثاً؛ ثم قال: أنا بالله، فسكت عنه، ثم قال لي: انطلق به فوضئه، ثم اعرض عليه أحب الطعام إليه فأتته به وافرش له في تلك الصفة - بصفة بين يدي بيوت النساء - ولا توقظه حتى يقوم متى قام. فانطلقت به فتوضأ وصلى وعرضت عليه الطعام، فقال: شربة سويق، فشرب، وفرشت له فنام؛ وجئت إلى مسلمة فأعلمته، فغدا إلى هشام، فجلس عنده حتى إذا حان قيامه، قال: يا أمير المؤمنين، لي حاجة؛ قال: قضيت إلا أن تكون في ابن هبيرة؛ قال: رضيت يا أمير المؤمنين، ثم قام منصرفاً، حتى إذا كان أن يخرج من الإيوان رجع، فقال: يا أمير المؤمنين، عودتني أن تستثني في حاجة من حوائجي، وإني أكره أن يتحدث الناس أنك أحدثت على الاستثناء؛ قال: لا أستثني عليك؛ قال: فهو ابن هبيرة. فعفا عنه⁽²¹⁸⁾.

لو رآك أبوك آدم لقرت عينه بك؟

مرّ مسلمة بن عبد الملك، وكان من أجمل الناس، بمؤسوس على مزبلة، فقال له المؤسوس: لو رآك أبوك آدم لقرت عينه بك؟ وقال له مسلمة: لو رآك أبوك آدم لأذهبت سخنة عينه بك قرّة عينه بي! وكان مسلمة من أحضر الناس جواباً⁽²¹⁹⁾.

مسلمة بن عبد الملك ونصيب

وقال مسلمة بن عبد الملك يوماً لنصيب: أمتدحت فلاناً! لرجل من أهله، فقال: قد فعلت، قال: أو حرمك؟ قال: قد فعل، قال: فهلا هجوته؟ قال: لم أفعل، قال: ولم؟ قال: لأنني كنت أحق بالهجاء منه! إذ رأيت موضعاً لمدحي! فأعجب به مسلمة، فقال: اسألني، فقال: لا افعل، قال: ولم؟ فقال: لأن كفاك بالعطية أجود من لساني بالمسألة، فوهب له ألف دينار⁽²²⁰⁾.

- أَذِلَّ الْحَيَاةَ وَكُزَّرَ الْمَمَاتِ ... وَكُلًّا أَرَاهُ طَعَامًا وَبَيْلًا
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَيْرُ إِحْدَاهُمَا ... فَسَيَرًا إِلَى الْمَوْتِ سَيْرًا جَمِيلًا⁽²²¹⁾

²¹⁸ (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 1 / 150)

²¹⁹ (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 1 / 479)

²²⁰ (الكامل في اللغة و الأدب ، 2 / 119)

²²¹ (أبي الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية - بيروت ،

ورده إلى عمله

وسخط مسلمة بن عبد الملك على العريان بن الهيثم ، فعزله عن شرطة الكوفة ، فشكا ذلك إلى عمر بن عبد العزيز ، فكتب إليه : إن من حفظ أنعم الله ، رعاية ذوي الإحسان ؛ ومن إظهار شكر الموهوب ، صفح القادر عن الذنب ، ومن تمام السؤدد حفظ الودائع ، واستتمام الصنائع . وقد كنت أودعت العريان نعمة من أنعمك ، فسلبتها عجلة سخطك ، وأنصفتة عصبته ، على أن وليته ثم عزلته وخليته ، وأنا شفيعه ؛ فأحب أن تجعل له من قلبك نصيبه ، ولا تخرجه من حسن رأيك ، فتضيع ما أودعته وتتوى ما أفسدته . فعفا عنه ، ورده إلى عمله⁽²²²⁾ .

صف لنا جريراً والفرزدق والأخطل

وقال مسلمة بن عبد الملك لخالد بن صفوان: صف لنا جريراً والفرزدق والأخطل. فقال: أصلح الله الأمير! أما أعظمهم فخراً وأبعدهم ذكراً وأحسنهم غزلاً وأحلاهم معاني وعللاً، الطامي إذا زخر والحامي إذا زار والسامي إذا نظر، الذي إن أهدر قال وإن خطر صال وإن طلب نال، الفصيح اللسان السباق في الرهان فالفرزدق. وأما أهلكهم سترأ وأغزهم بحراً وأرقهم شعراً، والأغر الأبلق الذي إن طلب لم يسبق وإن طلب لم يلحق، الواصف للفرسان الناعت للأطعان بحلاوة وبيان فجرير، وأما أحسنهم نعتاً وأقلهم فوتاً وأمدحهم بيتاً، الذي إن هجا وضع وإن مدح رفع وإن حاز أفضع، البعيد المتان الماضي الجنان الممداح للسلطان فالأخطل. وكلهم، أصلح الله الأمير، طويل النجاد رفيع العماد ذكي الفؤاد.

قال: فصف لنا الشعراء العشرة، فقال: قصتهم مفسرة، أما أحسنهم نسيباً وتشبيهاً وأشدّهم تأليفاً فامرؤ القيس. وأما أفحلهم مقالاً وأنبلهم رجالاً وأكرمهم فعلاً فزهير. وأما أرجحهم كلاماً وأنبلهم مقاماً وأشرفهم أياماً فأوس بن حجر. وأما أفصحهم لساناً وأثبتهم بنياناً وأشدّهم إذعائاً فالنابغة، وأما أطردهم للصيد وأجحشهم في الكيد وأدرجهم في القيد فعدي بن زيد. وأما أوصفهم للسلاح وأنعتهم للقдах والحرب ذات الكفاح فابن مقبل. وأما أوصفهم للسيئين وأكسبهم للمئين وأمدحهم أجمعين فالحطيئة. وأما أهجأهم للرجال وأبذهم في المقال وأضربهم للأمثال فطرفة. وأما أعفهم عن الكاس وأحضهم على لباس وأصدقهم عند الناس فسلامة بن جندل⁽²²³⁾.

²²² (الجاحظ ، المحاسن والأضداد، ص11

²²³ (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، 186/1

بضاعة مجفوء أهلها

أوصى مسلمة بن عبد الملك بكثير ماله لطلاب الأدب وقال: إنها بضاعة مجفوء أهلها.

عن أحمد بن عبيد قال: قال سالم مولى مسلمة بن عبد الملك: كان مسلمة إذا دخل غلة ضياعه جعلها أثلاثاً، فثلثاً لنفقتة، وثلثاً للنواب والحقوق، وثلثاً يصرفه إلى أهل الأدب.

قال: فقلت له يوماً: يا مولاي، إذا ورد مالك صرفته في ثلاث: فأما النفقة فلا بد منها، وأما النائب والحقوق فحزم وقوة، ولا أعرف الوجه فيما تصرفه إلى هؤلاء القوم. فقال: إنهم تركوا التعيش والطلب فاشتغلوا عن المكاسب بطلب العلم، فواجب على كل ذي مروءة أن يعينهم. فقلت: يا مولاي، جعلته أحب الأقسام الثلاثة إليّ (224).

ما كنيته؟

عن إبراهيم بن خالد بن مخرمة، قال: كنت يوماً عند مسلمة بن عبد الملك، وقد زاره عبدالله بن عمر بن عبد العزيز، وكان مصافياً له، فاستؤذن لرجل من أهل الحيرة على مسلمة، فقيل: بالباب شيخ فزع اليك في مظلمة، وهو جار ضيعة بكذا وكذا، فأذن له، فدخل، فإذا رجل طويل القامة، ضخمة اللحية، جهم الوجه، قد أخذ عارضاه بين منكبيه، وبلغ عثونه سترته، وعليه ممطر محشو، فيه حشو ثلاثة ماطر في يوم صائف. فوالله ما هو إلا أن طلع فمشى، وتفرج، وخطر بيديه، فرأيت مسلمة يلاحظه ويعاتب نفسه، فسلم وذكر حاجته بنهر وضجيج، ولغظ وتخليط. فقال له مسلمة: اجلس، فجلس، فقال له: ما كنيته؟ قال أبو العجيس، قال: ما اسمك؟ قال: صهاب بن حمال، وأبدي يسراه فإذا فص خاتمه مثل الابهام، وعليه اسطار. فلما رآه مسلمة لم يصبر، فقال: أرى فصك ضخماً، وأرى سطوراً فما فيه؟ فوالله ما حفظ اسمه حتى دفعه إلي، فإذا فيه صهاب أبو العجيس، يؤمن بالواحد الأحد الصمد، وبالنبي الأمي محمد، ويسأل الله حياة سعادة، وموت شهادة، على كل شيء قدير فما استتم القراءة حتى ضحك عبدالله، وضحكني ما رأيت، وتبسم مسلمة، ثم قال لحاجبه: اقض حاجته، واحسن ضيافته، فلما توارى قال مسلمة: ما بعد كنيته وعظم لحيته ... ونقش خاتمه شك لمعتبر (225)

224 (أبو أحمد العسكري ، المصون في الأدب، ص30

225 (ابن دريد ، تعليق من أمالي ابن دريد، ص23

والمغني يغني فترتاح له النساء؟

مر مسلمة بن عبد الملك يوماً بقصر أخيه سليمان فسمع صوت مغن فغدا إلى سليمان وقال: يا أمير المؤمنين مررت أمس بالقصر الذي فيه حرمك فسمعت فيه غناء، أما علمت أن الفرس يسهل فتشال الحجر، والحمار ينهق فتستودق له الأتان، والثور يخور فتستخرم له البقر، والتيس ينب فيثغو له المعز، والكلب يعوي فتصرف له الكلبة، والمغني يغني فترتاح له النساء؟ فقال سليمان: قد وعظت وأحسننت والله عليّ راع وكفيل، لا يدخل داري مغن ذكر ولا أنثى! (226)

الطاقية

دخل مسلمة بن عبد الملك بن مروان بلدة من بلاد الكفر فحصل له صداد فألْبسه أهل البلد طاقية فشفي في الحال فنظر إلى الطاقية فوجد فيها ورقة فيها بسم الله الرحمن الرحيم ذلك تخفيف من ربكم ورحمة بسم الله الرحمن الرحيم الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً بسم الله الرحمن الرحيم كهعيص بسم الله الرحمن الرحيم حمعسق بسم الله الرحمن الرحيم وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان بسم الله الرحمن الرحيم ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً بسم الله الرحمن الرحيم وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم قيل خص الساكن بالذكر لأنه أكثر من المتحرك وقيل ما سكن أي ما خلق فهو أعم واستحسنه القرطبي فقال المسلمون لأهل البلد من أين لكم هذه الآيات وإنما نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا وجدناها منقوشة على حجر كنيسة قبل أن يبعث نبيكم بسبعمئة عام (227)

شكّ لمعتبر

قال مسلمة بن عبد الملك لجلسائه: يعرف حمق الرجل في أربع، طول لحيته، وبشاعة كنيته، وإفراط شهوته، ونقش خاتمه، فدخل عليه رجلٌ طويل اللحية، فقال: أما هذا فقد أتاكم بواحدة، فانظروا أين هو من الثلاث؟ ف قيل له: ما كنيته؟ فقال: أبو الياقوت، ف قيل له: ما نقش خاتمك؟ فقال: "وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدد" قيل: فأبي الطعام أحب إليك؟ قال:

(226) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 325/1

(227) الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، 83/1

الجانبيين ، فقال مسلمة : فيه ما بعد كنيته ، مع طول لحيته ، مع نقش خاتمه ، شكٌ لمعتبر (228).

والله لا يطيعه أبداً

قال محمد بن سلام: بلغني أن مسلمة بن عبد الملك قال ليزيد ابن عبد الملك: يا أمير المؤمنين ببابك وفود العرب، ويقف ببابك أشراف الناس، أفلا تقعد لهم وأنت قريب العهد بعمر بن عبد العزيز، وقد اشتغلت بهؤلاء الإماء؟ فقال أرجو أن لا تعاتبني بعد هذا. فلما آوى إلى فراشه جاءتته جاريته حباة، فقال لها أعزبي عني. فقالت ما دهاك فأخبرها بما قال له مسلمة فقالت له: فأمتعني منك مجلساً واحداً؟ قال ذاك لك، فأحضرت معبداً فقالت له ما الحيلة فيه؟ قال: يقول الأحوص أبيان الله وألحنها أنا، وتغنيا إياه. فأرسلت إلى الأحوص وعرفته الخبر فقال الأحوص:

ألا لا تلمه اليوم أن يتبلدا ... فقد غلب المحزون أن يتجلدا
إذا كنت عزهات عن اللهو والصبا ... فكن حجراً من يابس الصخر جليداً
فما العيش إلا ما تلذ وتشتهي ... وإن لام فيه ذوي الشنان وفندا
فلحنها معبد وقال: اجتزت بدير نصاري يقرءون بلحنٍ شجٍ فحاكيته في هذا الصوت، فلما غنته حباة يزيد قال: قاتل الله مسلمة، وصدق قائل هذا الشعر، والله لا أطيعه أبداً. (229)

اأذنوا لأصحاب الحوائج

وكان مسلمة بن عبد الملك إذا كثر عليه أصحاب الحوائج وخشي الضجر أمر أن يحضر ندماءه من أهل الأدب، فتذاكروا مكارم الأخلاق في الناس وجميل طرائقهم ومروءاتهم، فيطرب ويهيج ثم يقول: اأذنوا لأصحاب الحوائج، فلا يدخل عليه أحد إلا قضى حاجته (230).

هل ترين أثر هذا الطعن؟

مسلمة بن عبد الملك بن مروان جلس يقضي بمصر بين الناس فكلمته امرأة فلم يقبل عليها فقالت. ما رأيت أقل حياء من هذا قط، فكشف عن ساقه فإذا فيها أثر تسع طعنات، فقال لها: هل ترين أثر هذا الطعن؟ والله لو أخرت

228 (النويري ،نهاية الأرب في فنون الأدب ، 328/3

229 (الزجاجة ، الأمالي ، 18/1

230 (ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية ، 190/1

رجلي قيد شبر ما أصابتني واحدة منهن، وما منعتني من تأخيرها إلا الحياء، وأنت تتحليني قتلته⁽²³¹⁾.

ألسـت القائل في مسلمة بن عبد الملك بالأمس

كان أبو نخيلة منقطعاً إلى مسلمة بن عبد الملك، فلما جاءت دولة بني هشام خافهم وبعد حتى علم أن السفاح قد عفا عمن هو أعظم جرماً منه وأكبر محلاً، فلما وقف بين يديه سلم عليه وجعا وأثنى، ثم استأذن في الإنشاد، فقال له: ومن أنت؟ قال: عبدك يا أمير المؤمنين أبو نخيلة الحماني، فقال له: لا حياك الله ولا قرب دارك يا نضو السوء، ألسـت القائل في مسلمة بن عبد الملك بالأمس: أمسلم إني يا ابن كل خليفة ... ويا جبل الدنيا ويا ملك الأرض أما والله لولا أنني قد أمنت نظراءك لما ارتد إليك طرفك حتى أخضبك بدمك. فقال: من الرجز

كنا أناساً نرهب الأملاك ... إذ ركبوا الأعناق والأوراكا
ثم ارتجينا زمناً أباك ... ثم ارتجينا بعده أخاك
ثم ارتجيناك لها إياكا ... وكان ما قلت لمن سواكا
زوراً فقد كفر هذا ذاك

فتبسم أبو العباس وقال له: أنت شاعر وطالب خير، وما زال الناس يمدحون الملوك في دولتهم، والتوبة تكفر الخطيئة، والظفر يزيل الحقد، وقد عفونا عنك، واستأنفنا الصنيعة لك. وأنت الآن شاعرنا فتسم بذلك لتزول عنك سمة بني مروان فقد كفر هذا ذلك، كما قلت⁽²³²⁾.

دعوه لو كان تاركاً للحن لتركه تحت السياط

كان مسلمة بن عبد الملك يعرض الجند فقال لرجل: ما اسمك؟ قال: عبد الله بالنصب قال: ابن من، قال: ابن عبد الرحمن بالجر فأمر بضربه، فقال: باسم الله بالرفع. فقال: دعوه لو كان تاركاً للحن لتركه تحت السياط⁽²³³⁾.

وإنما كان أبوه طبالا بالمدينة

قال أبو حازم لما أشخصني الرشيد ليقلدني القضاء بالشام وردت مدينة السلام فلقيت أبا يوسف وهو الذي سماني وأشار بي فقلت له من حقي عليك ولزومي لك وتصييري لك أستاذا وإماما أن تعفيني عن هذا الأمر فقال لي أنا راكب معك إلى يحيى بن خالد فأكلمه فركب معي إلى يحيى بن خالد فلما دخلنا

²³¹ (ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية، 281/1

²³² (ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية، 461/1

²³³ (ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية، 227/3

عليه زال له يحيى عن مصلاه فقعده معه عليه وقعدت بباب البيت فسمعتة يقول له هذا محمد بن الحسن ومن حاله كذا ومن حاله كيت وكيت يصفني وذكر امتناعي عليه فقال له يحيى ما تقول فيه قال أقول إنكم إن أعفيتموه لم تجدوا مثله فلما سمع يحيى كلامه لم يلتفت إلي ما أقول وأمضى أمري فلما ورد الرشيد الرقة أحضرت فدخلت إليه أنا والحسن بن زياد اللؤلؤي وأبو البختری وهب بن وهب فأخرج إلينا الأمان الذي كتب ليحيى ابن عبد الله بن الحسن فدفع إلي فقرأته وقد علمت الأمر الذي أحضرنا له فمثلت بين أن أظهر شيئاً إن كان يتعلق به فيه فأوجده السبيل إلى قتل الرجل أو أترك الطعن عليه مع ما أعلم أنه ينالني من مودة الرشيد فأثرت أمر الله والدار الآخرة فقلت هذا أمان مؤكد لا حيلة في نقضه فانتزع الصك من يدي ودفع إلي اللؤلؤي فقرأه وقال كلمة ضعيفة لا أدري سمعت أو لم تسمع هذا أمان فانتزع من يده ودفع إلي أبي البختری فقرأه ثم قال ما أرجيه ولا أرضاه هذا رجل سوء قد شق العصا وسفك دماء المسلمين وفعل وفعل فلا أمان له ثم ضرب بيده إلى خفه وأنا أراه واستخرج سكيناً فشق الكتاب بنصفين ثم دفعه إلى الخادم ثم التفت إلى الرشيد فقال اقتله ودمه في عنقي قال فقمننا من المجلس وأتاني رسول الرشيد أن لا أفتي أحداً ولا أحكم فلم أزل على ذلك إلى أن أرادت أم جعفر أن تقف وقفاً فوجهت إلي في ذلك فعرفت أنها قد نهيت عن الفتيا فكلمت الرشيد فأذن لي قال محمد بن الحسن فكنت وكل من في دار الرشيد يتعجب من أبي البختری وهو حاكم وفتياه بما أفتى به وتقلده دم رجل من المسلمين ثم من حمله في خفه سكيناً قال ولم يقتل الرشيد يحيى في ذلك الوقت وإنما مات في الحبس بعد مدة قال محمد بن سماعة في حديثه ثم قرب الرشيد محمد بن الحسن بعد ذلك وتقدم عنده وولاه قضاء القضاة وحمله معه إلى الري فتوفى هو والكسائي بها في يوم واحد فقال الرشيد دفنت الفقه والنحو بالري قال بكر العمى في حديثه إن محمد بن الحسن لما أفتى بصحة الأمان وأفتى أبو البختری بنقضه وأطلق له دمه قال له يحيى يا أمير المؤمنين يفتيك محمد بن الحسن وموضعه من الفقه موضعه بصحة أمانى ويفتيك هذا ينقضه وما لهذا والفتيا وإنما كان أبوه طبالاً بالمدينة .

وعن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال أنا حاضر هذا كله من هارون ومحمد بن الحسن وزاد فيه فلما خرج محمد جعل يبكي حتى كثر بكاءه فقلت له يا أبا عبد الله أتبكي هذا البكاء من أجل هذه الشجة وذلك أن الرشيد رماه بدواة فشجه وسالت الدماء على وجهه وثيابه وقال له

إنما يقوى عزم هذا وأمثاله في الخروج علينا أنت وأمثالك فقال لا والله ما من أجلها أبكي ولكني أبكي لتقصيري قلت له وأي تقصير كان منك وقد قمت مقاماً ليس لأحد على وجه الأرض أشرف منه فقال قد كان ينبغي لما قال أبو البختری ما قال أن أقول له من أين قلت ذلك حتى أقيم عليه الحجة بفساد ما قاله . (234)

بيني وبين النور ستر فارتفع عني

قال محمد بن سماعة كان عيسى بن أبان حسن الوجه وكان يصلي معنا وكنت أدعوه إلى أن يأتي محمد بن الحسن فيقول هؤلاء قوم يخالفون الحديث وكان عيسى حسن الحفظ للحديث فصلى معنا يوماً الصبح فكان يوم مجلس محمد فلم أفارقه حتى جلس في المجلس فلما فرغ محمد أدنيته إليه وقلت له هذا ابن أخيك أبان بن صدقة الكاتب ومعه ذكاء ومعرفة بالحديث وأنا أدعوه إليك فيأبى ويقول إنا نخالف الحديث فأقبل عليه وقال له يا بني ما الذي رأيتنا نخالفه من الحديث لا تشهد علينا حتى نسمع منا فسأله يومئذ عن خمسة وعشرين باباً من الحديث فجعل محمد بن الحسن يجيبه عنها ويخبره بما فيها من المنسوخ ويأتي بالشواهد والدلائل فالتفت إلي بعدما خرجنا فقال كان بيني وبين النور ستر فارتفع عني ما ظننت أن في ملك الله مثل هذا الرجل يظهره للناس ولزم محمد ابن الحسن لزوماً شديداً حتى تفقه .

قال ذاك في أعلى عليين

قال محمد بن أبي رجاء القاضي سمعت أبي قال رأيت محمد بن الحسن في المنام فقلت ما صنع بك ربك قال أدخلني الجنة وقال لي لم أصيرك وعاءاً للعمل وأنا أريد أن أعذبك قال قلت فأبو يوسف قال ذاك فوقى أو فوقنا بدرجة قال قلت فأبو حنيفة قال ذاك في أعلى عليين . (235)

طعام عبد الملك والأعرابي

وذكر عوانة بن الحكم: أن عبد الملك بن مروان صنع طعاماً، فأكثر، وأطاب ودعا الناس، فأكلوا، فقال بعضهم: ما أطيب هذا الطعام وما أكثره، وما أظن أحداً أكل أطيب منه. فقال أعرابي من ناحية القوم: أما أكثر، فلا! وأما أطيب فقد أكلت أطيب منه. فطفقوا يضحكون، فأشار إليه عبد الملك، فدنا منه، فقال: ما أنت لما تقول بحقيق. قال: بلى، يا أمير المؤمنين؛ بينا أنا بهجر في ترابٍ أحمر في أقصاها حجراً إذ توفي أبي وترك كلاً وعيالاً ونساءً ونخلًا،

234 (أخبار أبي حنيفة ، 1 / 128 .

235 (أخبار أبي حنيفة ، 1 / 125 .

وفي النخل نخلة لم ير الناظرون مثلها، كأخفاف الرباع ولم ير تمر قط أغلظ لحماً ولا أصغر نوى، ولا أحلى حلاوة منها. وكانت أتان وحشية قد ألقت تلك النخلة، فتثبت برجليها، وترفع يديها وتعطو بفيها، وكادت تنفذ ما فيها، فانطلقت بقوسي وكنانتي وأسهمي وزندي، وأنا أظني أرجع من ساعتني، فمكثت يوماً وليلة، حتى إذا كان السحر، أقبلت فرميتها فأصبتها، ثم عمدت إلى سرتها، فأبرزتها، ثم عمدت إلى حطب جزل فجمعت، وإلى رصف فوضعت، وإلى زندي فأوريتها، ثم ألقيت سرتها في ذلك الحطب ثم أدركني النوم فنمت، فلم يوقظني إلا حر الشمس، فانطلقت فكشفتها وألقيت عليها من رطب تلك النخلة من مجزعه ومنقطه فسمعت لها أطيماً كتداعي قطاً وغطيطاً، ثم أقبلت أتناول الشحمة واللحمة والتمر، فقال عبد الملك: لقد أكلت طيباً، فمن أنت؟ قال: أنا رجل جانبتي صأصة اليمن، وعننة تميم وأسد، وكشكشة ربيعة، وتأنيث كنانة (236).

قال عبد الملك: فمن أنت؟ قال: أنا رجل من أخوالك بني عذرة، قال عبد الملك: أولئك من أفصح العرب، فهل لك من معرفة بالشعر؟ قال: سل عما بدا لك يا أمير المؤمنين، قال: أي بيت قالت العرب أمدح؟ قال: قول الشاعر: أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا، ... وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بطون راح؟ قال: وكان جرير في القوم، فتحرك ورفع رأسه. قال عبد الملك: فأبي بيت قالت العرب أفخر؟ قال قوله:

إِذَا غَضِبْتُ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ ... وَجَدْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابًا
فتحرك جرير وتناول. ثم قال عبد الملك: فأبي بيت قالت العرب أهجى؟ قال قوله:

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ ... فَلَا كَعْبًا بَلَّغْتَ وَلَا كِلَابًا
فتحرك جرير. قال عبد الملك: فأبي بيت قالت العرب أحسن تشبيهاً؟ قال قوله: سَرَى لَهُمْ لَيْلٌ كَأَنَّ نَجُومَهُ ... قَنَادِيلُ فِيهِنَّ الذُّبَالُ الْمُفْتَلُّ
قال: فقال جرير: أصلح الله شأن أمير المؤمنين، جائزتي لأخي عذرة؛ قال عبد الملك: ومثلها معها. قال: وكانت جائزة جرير عند الخلفاء أربعة آلاف

236 (العننة: إبدال العين من الهمزة في مثل قول ذي الرمة: البسيط
أَعْنُ تَوَسَّمت من خرقاء منزلة، ... ماء الصبابة من عينيك مسجوم
والكشكشة: إبدال الشين المعجمة من الكاف نحو: عlish وبش في موضع عليك وبك.

وما يتبعها من كسوة. فخرج الأعرابي وفي يده اليمنى ثمانية آلاف وفي يده اليسرى رزمة ثياب (237).

ما أحسب شيطانهما إلا واحداً

ذكر أن الفرزدق لما ضرب بين يدي سليمان بن عبد الملك بن مروان الضربة في الأسير فرعشت يده وكان راوية جرير بالباب، فقال: أنت هو؟ فقال: نعم! وقد رأيتك إذ ضربت؛ قال: أتدري ما يقول صاحبك إذا بلغه ما كان؟ كأي به قد قال:

بسيف أبي رَغْوَانَ (238) سيفٍ مُجَاشِعٍ ... ضَرَبْتَ وَلَمْ تَضَرْبْ بِسَيْفِ ابْنِ ظَالِمٍ

ضَرَبْتَ بِهِ عِنْدَ الْإِمَامِ فَأَرْعَشْتَ ... يَدَاكَ وَقَالُوا مُحَدَّثٌ غَيْرُ صَارِمٍ
قال: فمضى راوية جرير إلى اليمامة فسألهم عن جرير، فأخبره خبر الفرزدق وأنشده البيتين. فقال له جرير: أفدري ما يجيبني به؟ قال: لا. قال: كأي به قد قال:

وَهَلْ ضَرْبَةُ الرَّومِيِّ جَاعِلَةٌ لَكُمْ ... أَبَا غَيْرِ كَلْبٍ أَوْ أَبَا مَثَلٍ دَارِمٍ
وَلَا نَقْتُلُ الْأَسْرَى وَلَكِنْ نَفَكُهُمْ ... إِذَا أَنْقَلَ الْأَعْنَاقَ حَمْلُ الْمَغَارِمِ
كَذَاكَ سِيُوفُ الْهِنْدِ تَتَّبِعُ ظُبَاتُهَا ... وَتَقَطُّعُ أَحْيَانًا مَنَاطُ التَّمَائِمِ
قال: فرد الفرزدق على جرير جوابه، كما قال أيضاً. قال: وبلغ ذلك سليمان بن عبد الملك فقال: ما أحسب شيطانهما إلا واحداً (239).

بلبيك اللهم لبيك

وقال أبو عبيدة التقي جرير والفرزدق بمنى وهما حاجان فقال الفرزدق لجرير:

فإنك لاقٍ بالمنازل من منى . . . فخاراً فأخبرني بما أنت فاخر
فقال له جرير بلبيك اللهم لبيك

قال أبو عبيدة أصحابنا يستحسنون هذا الجواب من جرير ويعجبون منه (240).

237 (شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبيشي ، المستطرف في كل فن مستظرف ،

290/1

238 (أبو رَغْوَانَ: جد الفرزدق، وهو مجاشع أيضاً. وابن ظالم: رجل من نزار كان شجاعاً.

239 (أبو زيد القرشي ، جمهرة أشعار العرب ، ص 27-28

240 (تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله التقي الحموي المعروف بابن حجة ، طيب المذاق من ثمرات الأوراق ، تحقيق أبو عمار السخاوي ، دار الفتح - الشارقة - 1997م ، 60/1

جرير والحجاج وأمامة

عن أبي الذيال السلولي، حدثني جرير قال: وفدت على الحجاج في سفرة تسمى سفرة الأربعين، فأعطاني أربعين راحلة ورعاءها، وحشو حقائبها القطائف والأكسية لعيالي، وأوقرها حنطة، ثم خرجت. فلما شددت على راحلتي كورها، وأنا أريد المضي، جاءني خادم فقال: أجب الأمير، فرجعت معه، فدخلت على الحجاج، فإذا هو قاعد على كرسي، وإذا جارية قائمة تعممه، فقلت: السلام عليك أيها الأمير. فقال: هات، قل في هذه! فقلت: بأبي وأمي تمنعني هيبة الأمير، وإجلاله، فأفحمت، فما أدري ما أقول، فقال: بل هات، قل فيها! فقلت: بأبي وأمي، فما اسمها؟ قال: أمامة، فلما قال أمامة فتح علي فقلت:

وَدَعْ أَمَامَةَ حَانَ مِنْكَ رَحِيلُ، ... إِنَّ الْوَدَاعَ لَمَنْ تُحِبَّ قَلِيلُ
تِلْكَ الْقُلُوبُ صَوَادِيًا تَيَّمَّتْهَا، ... وَأَرَى الشِّفَاءَ، وَمَا إِلَيْهِ سَبِيلُ
فقال: بل إليه سبيل. خذ بيدها! فأخذت بيدها، فحبذتها، فتعلقت بالعمامة، وحبذتها حتى رأيت عنق الحجاج قد صغت، ومالت مما حبذتها، وتعلق بالعمامة. قال: وخطر ببالي بيت من شعر، فقلت:
إِنْ كَانَ طِبَّكُمْ الدَّلَالُ، فَإِنَّهُ ... حَسَنٌ دَلَالُكَ، يَا أُمِيمَ، جَمِيلُ
فقال الحجاج: إنه، والله، ما بها ذاك، ولكن بها بغض وجهك، وهو أهل لذاك. خذها بيدها جرّها! فلما سمعت ذلك منه خلعت العمامة، وخرجت بها، فكنيتها أم حكيم، وجعلتها تقوم على عمالي وتعطيهم نفقاتهم بقرية يقال لها الفنة، من قرى الوشم (241).

بأي وجه أفاخر العرب بعدها؟ ردوني إلى السجن

استصحب هشام بن عبد الملك الفرزدق إلى مكة، فأعطاه أربع مائة درهم، فتسخطها وهجاه بقوله:

يردوني بين المدينة والتي ... إليها قلوب الناس يهوى منيبها
يقلب رأساً لم تكن رأس سيد ... وعيناً له حولاء باد عيوبها
فكتب إلى خالد القسري أن أوثقه بالحديد، ففعل، وبلغ ذلك جريراً فوفد على خالد، فقال له: ألا يسرك أن الله قد أخزى الفرزدق؟ فقال: أيها الأمير، ما أحب والله أن يخزيه الله إلا بشعري، وتشفع له، فقال خالد: اشفع إلي فيه على رؤوس الملائكون أذل له، فشفع له على رؤوس الأشهاد، فدعا خالد بالفرزدق وقال: إن جريراً قد شفع فيك وإني مطلقك بشفاعته، فقال الفرزدق:

أسير قسري، وطلق كلبى! بأي وجه أفاخر العرب بعدها؟ ردوني إلى السجن.
(242)

من أين تهب الريح؟:

وقال عبد الملك للشعبي يوماً: من أين تهب الريح. قال: لا علم لي يا أمير المؤمنين قال عبد الملك: أما مهبُّ الشمال فمن مطلع بنات نَعَشٍ إلى مطلع الشمس، وأما مهبُّ الصَّبَا فمن مطلع الشمس إلى مطلع سُهَيْل، وأما الجنوب فمن مطلع سُهَيْل إلى مغرب الشمس، وأما الذُّبُور فمن مغرب الشمس إلى مطلع بنات نَعَشٍ⁽²⁴³⁾.

أما إنه يحبه الرجال ويكرهه مؤنثوهم!:

قال الشعبي: ما أروي شيئاً أقلَّ من الشعر، ولو شئتُ أن أنشد شهراً ولا أعيد شيئاً لفعلت - وقال أبو بكر الهذلي للشعبي: أتحبُّ الشعر؟ قال: نعم! قال: أما إنه يحبه الرجال ويكرهه مؤنثوهم! (244)

أي الشراب أحب إليك؟

استسقى الشعبي على مائدة قتيبة بن مسلم، فقال: يا أبا عمرو أي الشراب أحب إليك؟ فقال: أعزه مفقوداً، وأهونه موجوداً. فقال قتيبة: اسقوه الماء⁽²⁴⁵⁾.

ما قعدت معكم

رأى أيوب السختياني صاحباً يبادر حاجة، فقال: قم فإني لو علمت أن أم نافع تحتاج إلى دستجة بقل ما قعدت معكم. أراد أن من حق حاضر مجلس العلم أن يكون فارغ البال قد قضى حوائجه⁽²⁴⁶⁾.

من الخير اتقاء الشر

أعطى الزهري شاعراً، ف قيل له في ذلك فقال: إن من الخير اتقاء الشر⁽²⁴⁷⁾.

قولوا للكوز يدعو لكم

مر تاجر بعشار (أرباب الضرائب) فحبسوا عليه سفينته فجاء إلى مالك بن دينار فذكر ذلك له قال فقام مالك فمشى إلى العشار فلما رأوه قالوا يا أبا يحيى ألا تبعث إلينا حاجتك قال حاجتى أن تخلوا سفينة هذا الرجل قالوا قد فعلنا قال

²⁴² (الزمخشري ، ربيع الأبرار ، 345/1

²⁴³ (المسعودي ، مروج الذهب ، 388/1

²⁴⁴ (المرزباني ، نور القبس ، 88/1

²⁴⁵ (أبو حيان التوحيدي ، البصائر والذخائر ، 168/1

²⁴⁶ (الزمخشري ، ربيع الأبرار ، 326 / 1

²⁴⁷ (الراغب الأصفهاني ، محاضرات الأدباء ، 31/1

وكان عندهم كوز يجعلون فيه مل يأخذون من الناس من الدراهم فقالوا ادع الله لنا يا أبا يحيى قال قولوا للكوز يدعو لكم كيف أدعو لكم وألف يدعون عليكم أترى يستجاب لواحد ولا يستجاب لألف .

- محمد بن عبد الله عن أبي قدامه الحارث بن عبيد قال سمعت مالكا يقول لو أن القوم كلّفوا الصحف لأقلّوا المنطق (248) .

إن لم تمطر حجارة فنحن بخير

قال وكانت الغيوم تجيء وتذهب ولا تمطر فيقول مالك أنتم تستبطنون المطر وإنما أستبطن الحجارة إن لم تمطر حجارة فنحن بخير (249) .

هذه جلسة رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال بقية: دعاني إبراهيم بن أدهم إلى طعام له وجلس، فوضع رجله اليسرى تحت إيلته، ونصب اليمنى، ووضع مرفقه عليها ثم قال: هذه جلسة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجلس جلسة العبيد. (250).

نعم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلحن

سئل الأوزاعي عن رجل يسمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه لحن أيقميه؟ قال: نعم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلحن.

من أنت ؟

قال معروف الكرخي رأيت رجلا في المنام قلت له من أنت قال موسى بن عمران قلت موسى عمران الذي كلم الله قال نعم ثم رأيت ثلاثة نزلوا من سقف البيت فقلت من هؤلاء قال عيسى ابن مريم ونبيكم محمد وأحمد بن حنبل وحملة العرش والملائكة يشهدون القرآن كلام الله غيري مخلوق .

وكان في السفرة دجاجتان

وحدث الآبري بإسناد إلى المزني عن الشافعي قال: كنا في سفر بأرض اليمن فوضعنا سفرتنا لنتعشى وحضرت صلاة المغرب فقلنا نصلي ثم نتعشى، فتركنا سفرتنا كما هي، وكان في السفرة دجاجتان فجاء ثعلب فأخذ إحدى الدجاجتين فلما قضينا صلاتنا أسفنا عليها وقلنا حرمنا طعامنا، فبينما نحن كذلك إذ جاء الثعلب وفي فيه شيء كأنه الدجاجة فوضعه فبادرنا إليه لنأخذ ونحن نحسبه الدجاجة قد ردها، فلما قمنا لخلاصها فإذا هو قد جاء إلى

²⁴⁸ (صفحة الصفوة ، 281/3

²⁴⁹ (صفحة الصفوة ، 284/3

250 (الذهبي ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، 47/10

الأخرى فأخذها من السفرة وأصبنا الذي قمنا إليه لنأخذه ليفة قد هياها مثل الدجاجة.

ليقم السّابقون الأولون

وقال مؤمّل بن إهاب: رأى رجل كأن القيامة قد قامت، ونودي: ليقم السّابقون الأولون، فقام سفيان الثّوريّ، ثمّ قام سليمان الخوّاص. ثم نودي: ليقم السّابقون، فقام إبراهيم بن أدهم.(251)

وأبيه لقد حدّثكم فأحسن

وقال عمرو بن هشام: تحدّثنا عند الأوزاعي ومعنا أعرابيّ من بني عليم لا يتكلّم فقلنا: بحقّ ما سمّيتم خرس العرب ألا تتحدّث مع القوم؟ فقال: إنّ الحظّ للمرء في إذنه، وإنّ الحظّ في لسانه لغير، وقد ذكرنا ذلك للأوزاعي فقال: وأبيه لقد حدّثكم فأحسن⁽²⁵²⁾.

²⁵¹ (الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، 10 / 253
²⁵² (أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، البصائر والذخائر، 8/12

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

الحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله ، غير مَكْفِيٍّ ولا مكفور ولا مودَّع ولا مستغني عنه ربُّنا، ونسأله أن يوزعنا شكر نعمته ، وأن يوفِّقنا لأداء حَقِّه، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يرزقنا الشهادة في سبيله ، وأن يجعل ما قصدنا له في هذا الكتاب وفي جميع أقوالنا وأفعالنا خالصاً لوجهه الكريم، ونصيحة لعباده . فيا أيها القاريءُ له ، لك غُنْمُه وعلى مؤلفه غُرْمُه ، لك ثمرته وعليه تبعته ، فما وجدت فيه من صوابٍ وحقٍ فاقبله ولا تلتفت إلى قائله، بل انظر إلى ما قال لا إلى من قال وقد ذمَّ الله تعالى من يردَّ الحقَّ إذا جاء به من يبغضه، ويقبله إذا قاله من يحبه فهذا خُلُقُ الأمة الغضبية أي: اليهود. فقد قال ابن القيم رحمه الله: " : اقبل الحق ممن قاله وإن كان بغيضاً ، وردَّ الباطل على من قاله وإن كان حبيباً .

وقرر أنه لا يردُّ كل قول من أخطأ جملة، بل لا بد من تمييز الحق من الباطل، فقال: "فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات".

وقال أيضاً: " .. فإن كل طائفة معها حق وباطل، فالواجب موافقتهم فيما قالوه من الحق، ورد ما قالوه من الباطل، ومن فتح الله له بهذه الطريق فقد فتح له من العلم والدين كل باب، ويسر عليه من الأسباب" (253).

فإذا مر بك -يا أخي- ما لا يعجبك فلا تصعِّر خدك، ولا تعرض بوجهك، ولا تسئل لسانك، ولا تجلب بخيلك ورَجْلَكَ، وخذ من الكتاب ما يعجبك واتهم الفهم.

فَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

ولا يصدنك عن الحكمة قائلها؛ فقد يقول الحكمة غير الحكيم، وتكون الرمية من غير الرامي، وربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه.

اعْمَلْ بِعِلْمِي وَغُضِّ الطَّرْفَ عَنْ زَلَّيْ يَنْفَعَكَ قَوْلِي وَلَا يَضُرُّكَ تَقْصِيرِي

وما وجد القارئ فيه من خطأ فإن قائله لم يأل جهد الإصابة ، ويأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال ، كما قيل :

والنَّقصُ في أصلِ الطبيعةِ كامنٌ ... فَبَنُوا الطبيعةِ نَقْصُهم لا يُجَحِّدُ

وكيف يُعَصِّمُ من الخطأ من خُلِقَ ظلوماً جهولاً ، ولكن من عُدَّتْ غلطاته أقربُ إلى الصوابِ ممن عُدَّتْ إصاباته ، وعلى المتكلم في هذا الباب وغيره أن يكون مصدر كلامه عن العلم بالحق ، وغايته النصيحة لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولإخوانه المسلمين ، وإن جعل الحقَّ تبعاً للهوى : فَسَدَ القلبُ والعملُ والحالُ والطريقُ ... والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين محمدٍ وعلى آله أجمعين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت